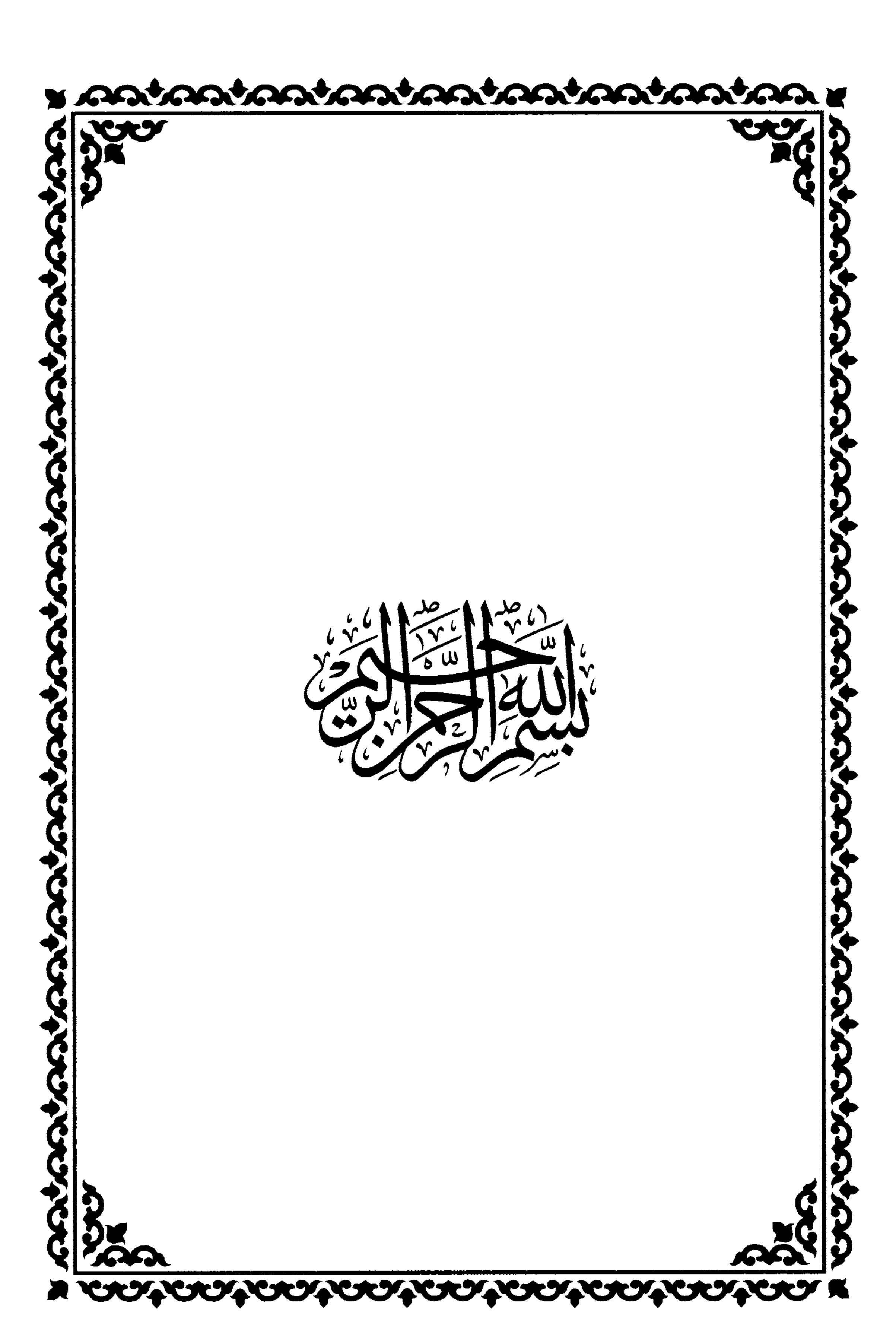
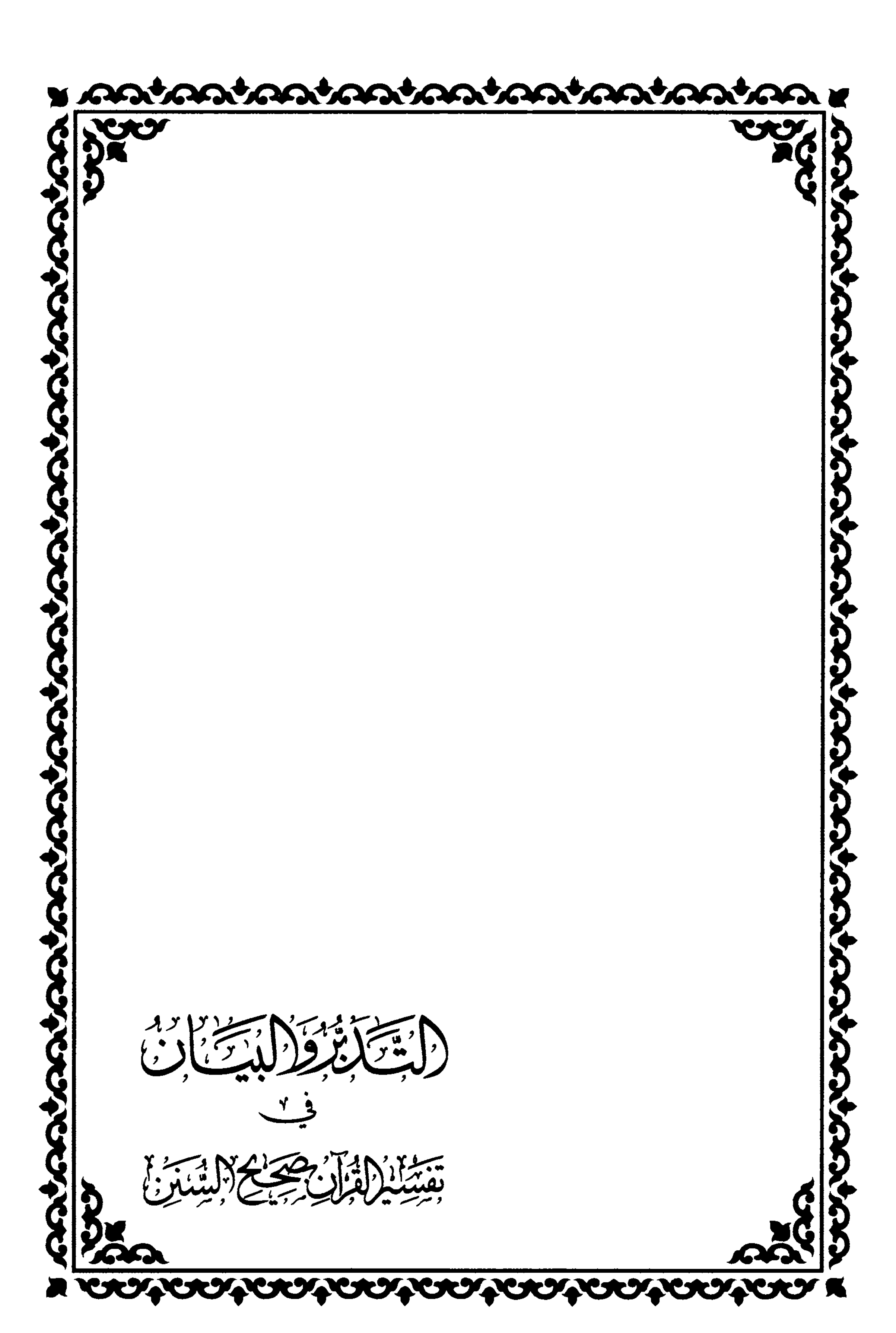


تأليف الأستاذ الدكتور
أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد السادس والثلاثون

الجن - عبس

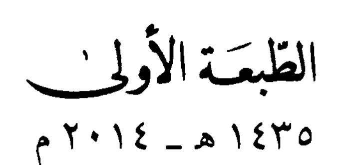

بسم الله الرحمن الرحيم



التدبر والبيان

في

تفسير القرآن بصحيح السنن



١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 عدد الصفحات (40 مجلداً)
Size 17x24 cm قياس الصفحات
Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة
Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنـــان
Edition : 1st الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٠٤٢٨ MO ٢٠١٤

ردمك : ٧ - ١٤٧ - ٣٣ - ٩٩٥٤ - ٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجن

قال البقاعي مبينًا مناسبة السورة لما قبلها : «قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما تقدم ذكر حال كفار قريش في تعاميهم عن النظر وجريهم في اللدد والعناد حسبما انطوت عليه سورة ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ﴾ ، ثم أتبعت بوعيدهم في الحاقة، ثم بتحقيقه وقرب وقوعه في المعارج، ثم بتسليته -عليه الصلاة والسلام- وتأنيسه بقصة نوح -عليه الصلاة والسلام- مع قومه، أعقب ذلك بما يتعظ به الموفق ويعلم أن القلوب بيد الله: فقد كانت استجابة معاندي قريش والعرب أقرب في ظاهر الأمر لنبي من جنسهم ومن أنفسهم، فقد تقدمت لهم معرفة صدقه وأمانته، ثم جاءهم بكتاب بلسانهم الذي به يتحاورون، ولغتهم التي بها يتكلمون، فقد بهرت العقول آياته، ووضحت لكل ذي قلب سليم براهينه ومعجزاته، وقد علموا أنهم لا يقدرون على معارضته إلى ما شاهدوه من عظيم البراهين، ومع ذلك عموا وصموا -غضب الله عليهم ولعنهم- وسبق إلى الإيمان من ليس من جنسهم ولا سبقت له مزية تكريمهم، وهم الجن ممن سبقت لهم من الله الحسنى فآمنوا وصدقوا، وأمر ﷺ بالإخبار بذلك، فأنزل الله تعالى عليه ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ الآيات إلى قوله إخبارًا عن تعريف الجن سائر إخوانهم بما شاهدوه من عناد كفار العرب: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾[1] ثم استمرت الآيات ملتحمة المعاني معتضدة المباني إلى آخر السورة انتهى»[2].

* * *

---

(١) الجن: الآية (١٩).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٦٤-٤٦٥).

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ۝٢﴾

★ **غريب الآية:**

الرشد: الحق والهدى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «قل ياأيها الرسول للناس: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ صرفهم اللَّه إلى رسوله لسماع آياته؛ لتقوم عليهم الحجة وتتم عليهم النعمة، ويكونوا نذرا لقومهم. وأمر اللَّه رسوله أن يقص نبأهم على الناس، وذلك أنهم لما حضروه، قالوا: أنصتوا، فلما أنصتوا فهموا معانيه، ووصلت حقائقه إلى قلوبهم، ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ أي: من العجائب الغالية، والمطالب العالية. ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾ والرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم، ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ فجمعوا بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع أعمال الخير، وبين التقوى المتضمنة لترك الشر، وجعلوا السبب الداعي لهم إلى الإيمان وتوابعه، ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد واجتناب المضار، فإن ذلك آية عظيمة، وحجة قاطعة، لمن استنار به، واهتدى بهديه، وهذا الإيمان النافع المثمر لكل خير، المبني على هداية القرآن، بخلاف إيمان العوائد، والمربى والإلف ونحو ذلك، فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة»[1].

قال الرازي: «اعلم أن قوله تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أمر منه تعالى لرسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحى اللَّه في واقعة الجن، وفيه فوائد: إحداها: أن يعرفوا بذلك أنه ﷺ كما بعث إلى الإنس، فقد بعث إلى الجن. وثانيها: أن يعلم قريش أن الجن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٨٨-٤٨٩).

مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه، فآمنوا بالرسول. وثالثها: أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس. ورابعها: أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا. وخامسها: أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان، وفي كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس»[١].

قال عطية محمد سالم: «فيه إثبات سماع الجن للقرآن، وإعجابهم به، وهدايتهم بهديه، وإيمانهم بالله وفيها بيان أنهم عالمون بكتاب موسى وهو التوراة، وقد شهدوا بأن القرآن مصدق لما بين يديه، وأنه يهدي إلى صراط مستقيم، كما جاء هنا قوله: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾»[٢].

وفيها بيان فضل شرف القرآن وعظم منزلته، وذلك لأنه -يقول البقاعي- خارج عن عادة أمثاله من جميع الكتب الإلهية فضلا عن كلام الناس في جلالة النظم، وإعجاز التركيب والوضع، مع الموافقة لها في الدعوة إلى الله تعالى، والبيان للمحاسن والمساوئ، والدعاء إلى كل فلاح حتى صار نفس العجب، والعجب ما خرج عن حد أشكاله ونظائره فخفي سببه، وهذا يدل على قوتهم العلمية في فصاحتهم وكمالهم في علم الرسوم، وصوغ الكلام على أبلغ جهات النظوم»[٣].

قال الشوكاني: «وفي هذا توبيخ للكفار من بني آدم حيث آمنت الجنّ بسماع القرآن مرّة واحدة، وانتفعوا بسماع آيات يسيرة منه، وأدركوا بعقولهم أنه كلام الله وآمنوا به، ولم ينتفع كفار الإنس لاسيما رؤساؤهم وعظماؤهم بسماعه مرّات متعدّدة، وتلاوته عليهم في أوقات مختلفة، مع كون الرسول منهم يتلوه عليهم بلسانهم، لا جرم صرعهم الله أذلّ مصرع، وقتلهم أقبح مقتل، ولعذاب الآخرة أشدّ لو كانوا يعلمون»[٤].

وفيها «إظهار الشرف لهذا النبي الكريم الفاتح الخاتم صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وذريته وأهل بيته حيث لين له قلوب الإنس والجن وغيرهما، فصار مالكا لقلوب المجانس وغيره، وذلك لعظمة هذا القرآن ولطف ما له من غريب الشأن، هذا والزمان في آخره وزمان لبثه في قومه دونه ربع العشر من زمن نوح ﷺ، أول

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ١٥٤).
(٢) تتمة الأضواء (٨/ ٥٤١).
(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤٦٤).
(٤) فتح القدير (٥/ ٤٣١).

نبي بعثه اللَّه تعالى إلى المخالفين، وما آمن معه من قومه إلا قليل، وعلى ذلك دلت تسميتها بالجن وبقل أوحي، وبتأمل الآية المشتملة على ذلك وما فيها من لطيف المسالك، أعاذنا اللَّه بمنه وكرمه من الوقوع في المهالك»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول السورة

* عن ابن عباس قال: انطلق رسول اللَّه ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث؟ فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء. قال: فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول اللَّه ﷺ بنخلة، وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تسمعوا له فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا! ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ وأنزل اللَّه ﷻ على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجن[٢].

⋆ فوائد الحديث:

أفاد الحديث أن سبب نزول الآية هو ما كان من تطلب الجن للسبب الذي من أجله حيل بينهم وبين السماء بعدما كانوا يتسمعون في مأمن فأخذوا -**يقول ابن كثير**[٣]- يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فوجدوا رسول اللَّه ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حفظت من أجله السماء، فآمن من آمن منهم، وتمرد في طغيانه من بقي».

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٦٠-٤٦١).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٥٢)، البخاري (٨/ ٨٦٥-٨٦٦/ ٤٩٢١)، مسلم (١/ ٣٣١-٣٣٢/ ٤٤٩)، الترمذي (٥/ ٣٩٧-٣٩٨/ ٣٣٢٣) وقال: «حسن صحيح»، النسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٩/ ١١٦٢٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٦٨).

قال المازري: «ظاهر الحديث أنهم آمنوا عند سماع القرآن»[١].

قال الحافظ: «وفي الحديث إثبات وجود الشياطين والجن، وأنهما لمسمى واحد، وإنما صارا صنفين باعتبار الكفر والإيمان، فلا يقال لمن آمن منهم إنه شيطان.. وأن الاعتبار بما قضى اللَّه للعبد من حسن الخاتمة لا بما يظهر منه من الشر ولو بلغ ما بلغ، لأن هؤلاء الذين بادروا إلى الإيمان بمجرد استماع القرآن لو لم يكونوا عند إبليس في أعلى مقامات الشر ما اختارهم للتوجه إلى الجهة التي ظهر له أن الحدث الحادث من جهتها. ومع ذلك فغلب عليهم ما قضى لهم من السعادة بحسن الخاتمة، ونحو ذلك قصة سحرة فرعون»[٢].

* * *

(١) المعلم (١/ ٢٦٨).
(٢) الفتح (٨/ ٨٧٢-٨٧٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾

★ **غريب الآية:**

جد: الجد: العظمة. يقال: جَدَّ فلان في عيني، أي: عَظُمَ وعلت منزلته. والجد أيضا: الحظ والنصيب.

شططًا: أي: قولا بعيدا عن الصواب. يقال: شَطَّتْ دارُنا: إذا بَعُدَتْ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: «أي: تعالى ملكه وعظمته، وصدق ربوبيته عن اتخاذ الصاحبة والولد»[1].

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في معنى ذلك فقال بعضهم: معناه: فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا، وآمنا بأنه تعالى أمر ربنا وسلطانه وقدرته.. وقال آخرون: عني بذلك جلال ربنا وذكره.. وقال آخرون: بل معنى ذلك تعالى غنى ربنا.. وقال آخرون: عني بذلك الجد الذي هو أبو الأب، قالوا ذلك كان من كلام جهلة الجن.. وقال آخرون: عني بذلك ذكره.. وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: عُنِي بذلك: تعالت عظمة ربنا وقُدرته وسلطانه. وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لأن للجدِّ في كلام العرب معنيين: أحدهما: الجدّ الذي هو أبو الأب، أو أبو الأم، وذلك غير جائز أن يوصف به هؤلاء النفر الذين وصفهم اللّه بهذه الصفة، وذلك أنهم قد قالوا: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ ومن وصف اللّه بأن له ولدًا أو جدًّا أو هو أبو أب أو أبو أمّ فلا شكّ أنه من المشركين.

والمعنى الآخر: الجَدّ الذي بمعنى الحظ؛ يقال: فلان ذو جدّ في هذا الأمر:

---

(١) محاسن التأويل (١٦/ ٢٠٥).

إذا كان له حظّ فيه، وهو الذي يُقال له بالفارسية: البَخْت، وهذا المعنى الذي قصده هؤلاء النفر من الجنّ بقيلهم: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ إن شاء اللّه.

وإنما عَنَوا أن حظوته من المُلك والسلطان والقدرة والعظمة عالية، فلا يكون له صاحبة ولا ولد؛ لأن الصاحبة إنما تكون للضعيف العاجز الذي تضطرّه الشهوة الباعثة إلى اتخاذها، وأن الولد إنما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوِقاع الذي يحدث منه الولد، فقال النفر من الجنّ: علا مُلك ربنا وسُلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفًا ضعف خلقه الذين تضطرّهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة، أو وِقاع شيء يكون منه ولد. وقد بين عن صحة ما قلنا في ذلك إخبار اللّه عنهم أنهم إنما نزهوا اللّه عن اتخاذ الصاحبة والولد بقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾»[1].

قال أبو السعود: «وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ أي: إبليسُ أو مردةُ الجنِّ ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ أي قولًا ذَا شططٍ أي: بعدٍ عن القصدِ ومجاوزةٍ للحدِّ، أوْ هُو شططٌ في نفسِه لفرطِ بعدِهِ عن الحقِّ وهُو نسبةُ الصاحبةِ والولدِ إليهِ تعالَى، وتعلقُ الإيمانِ والتصديقِ بهذَا القولِ ليسَ باعتبارِ نفسِه، فإنهم كانُوا عالمِين بقولِ سفهائِهم من قبلُ أيضًا؛ بل باعتبارِ كونه شططًا كأنَّه قيلَ: وصدقنَا أنَّ مَا كَان يقولُه سفيهُنَا في حقِّه تعالَى كانَ شططًا»[2].

قال الرازي: «واعلم أنه لما كان الشطط هو مجاوزة الحد، وليس في اللفظ ما يدل على أن المراد مجاوزة الحد في جانب النفي أو في جانب الإثبات، فحينئذ ظهر أن كلا الأمرين مذموم، فمجاوزة الحد في النفي تفضي إلى التعطيل، ومجاوزة الحد في الإثبات تفضي إلى التشبيه، وإثبات الشريك والصاحبة والولد، وكلا الأمرين شطط ومذموم»[3].

وقوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾ يقول ابن كثير: أي: ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالئون على الكذب على اللّه في نسبة الصاحبة والولد إليه، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على اللّه في ذلك»[4].

قال ابن جرير: «والظنّ هاهنا بمعنى الشك، وإنما أنكر هؤلاء النفر من الجنّ أن

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ١٠٣-١٠٥).
(٢) تفسير أبي السعود (٩/ ٤٣).
(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ١٥٦).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٦٦).

تكون علمت أن أحدًا يجترئ على الكذب على اللَّه لما سمعت القرآن؛ لأنهم قبل أن يسمعوه وقبل أن يعلموا تكذيب اللَّه الزاعمين أن لله صاحبة وولدًا، وغير ذلك من معاني الكفر كانوا يحسبون أن إبليس صادق فيما يدعو بني آدم إليه من صنوف الكفر؛ فلما سمعوا القرآن أيقنوا أنه كان كاذبا في كلّ ذلك، فلذلك قالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾ فسموه سفيهًا»[١].

وفي الحكمة من تقديم ذكر الإنس على الجن يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما قوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾ فهذا يعرف سره من السياق، فإن هذا حكاية كلام مؤمني الجن حين سماع القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾[٢] الآيات وكان القرآن أول ما خوطب به الإنس، ونزل على نبيهم، وهم أول من بدأ بالتصديق والتكذيب قبل الجن، فجاء قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾ بتقديم الإنس لتقدمهم في الخطاب بالقرآن، وتقديمهم في التصديق والتكذيب. وفائدة أخرى وهي أن هذا حكاية كلام مؤمني الجن لقومهم بعد أن رجعوا إليهم فأخبروهم بما سمعوا من القرآن وعظمته وهدايته إلى الرشد، ثم اعتذروا عما كانوا يعتقدونه أولا بخلاف ما سمعوه من الرشد بأنهم لم يكونوا يظنون أن الإنس والجن يقولون على اللَّه كذبا، فذكرهم الإنس هنا في التقديم أحسن في الدعوة وأبلغ في عدم التهمة، فإنهم خالفوا ما كانوا يسمعونه من الإنس والجن لما تبين لهم كذبهم، فبداءتهم بذكر الإنس أبلغ في نفي الغرض والتهمة، وأن لا يظن بهم قومهم أنهم ظاهروا الإنس عليهم، فإنهم أول ما أقروا بتقولهم الكذب على اللَّه تعالى، وهذا من ألطف المعاني وأدقها، ومن تأمل مواقعه في الخطاب عرف صحته»[٣].

قال **ابن عاشور**: «وفي هذه الآية إشارة إلى خطر التقليد في العقيدة، وأنها لا يجوز فيها الأخذ بحسن الظن بالمقلَّد بفتح اللام؛ بل يتعين النظر واتهام رأي المقلَّد حتى ينهض دليله»[٤].

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ١٠٧-١٠٨).
(٢) الجن: الآية (١).
(٣) بدائع الفوائد (١/ ٦٧).
(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾

★ **غريب الآية:**

رَهَقًا: إثمًا وطغيانًا. وأصل الرهق اللحوق. قال الأعشى:

لا شيء ينفعني من دون رؤيتها هل يشتفي وامق ما لم يصب رَهَقًا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: كنا نرى أن لنا فضلا على الإنس؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا، أي: إذا نزلوا واديا أو مكانا موحشا من البراري وغيرها كما كان عادة العرب في جاهليتها. يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان، أن يصيبهم بشيء يسوؤهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم، ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: خوفا وإرهابا وذعرا، حتى تبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذا بهم، كما قال قتادة: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: إثمًا، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة»[1].

وفي الآية قول آخر يقول **القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقيل: لا يطلق لفظ الرجال على الجن، فالمعنى: وأنه كان رجال من الإنس يعوذون من شر الجن برجال من الإنس، وكان الرجل من الإنس يقول مثلا: أعوذ بحذيفة بن بدر من جن هذا الوادي، قال القشيري: وفي هذا تحكم، إذ لا يبعد إطلاق لفظ الرجال على الجن»[2].

والحامل لهؤلاء على الاستعاذة بالجن -يقول البقاعي-: «أنه لا مانع لهم منهم من ذكر الله تعالى ولا دين صحيح، ولا كتاب من الله صريح، فحملهم ذلك على أن يستجيروا بعظمائهم، فكان الرجل يقول عند خوفه: إني أعوذ بعظيم هذا الوادي من

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٦٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٨-٩).

شر سفهاء قومه أو نحو هذا، فلا يرى إلا خيرًا، وربما هدوه إلى الطريق وردوا عليه ضالته، فكان ذلك فتنة للإنس باعتقادهم في الجن غير ما هم عليه، فتبعوهم في الضلال، وفتنة للجن بأن يغتروا بأنفسهم ويقولوا: سدنا الجن والإنس، فيضلوا ويضلوا»[١].

فصار حال هؤلاء مع الجن -يقول البقاعي أيضا- كما يتفق لمن يسلك من أهل التصوف على غير أصل، فيرى في أثناء السير أنوارًا وأشياء تعجبه شيطانية فيظنها رحمانية، فيقف عندها ويأنس بها لفساد في أصل جبلته نشأ عنه سوء مقصده، فربما كان ذلك سببًا لكفره، فيزداد هو وأمثاله من الإنس ضلالًا، ويزداد من أضله من الجن ضلالًا وإضلالًا وعتوًا، ويزداد الفريقان بعدًا عن اللجأ إلى اللَّه وحده، ولقد أغنانا اللَّه ﷻ بالقرآن والذكر المأخوذ عن خير خلقه بشرطه في أوقاته عن كل شيء»[٢].

قال في تيسير العزيز الحميد: «إن اللَّه حكى عن مؤمني الجن أنهم لما تبين لهم دين الرسول ﷺ وآمنوا به ذكروا أشياء من الشرك كانوا يعتقدونها في الجاهلية، من جملتها الاستعاذة بغير اللَّه. وقد أجمع العلماء على أنه لا تجوز الاستعاذة بغير اللَّه، ولهذا نهوا عن الرقى التي لا يعرف معناها خشية أن يكون فيها شيء من ذلك، قال ملا علي القاري الحنفي: ولا يجوز الاستعاذة بالجن، فقد ذم اللَّه الكافرين على ذلك فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝﴾ إلى أن قال: وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾[٣] الآية، فاستمتاع الإنسي بالجني في قضاء حوائجه، وامتثال أوامره، أو إخباره بشيء من المغيبات، واستمتاع الجني بالإنسي، تعظيمه إياه، واستعاذته به واستغاثته وخضوعه له، وفيه أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر وجلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك»[٤].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٧٢).
(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٧٣).
(٣) الأنعام: الآية (١٢٨).
(٤) تيسير العزيز الحميد (ص: ٢٠٩).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن من الشرك الاستعاذة بغير الله

* عن خولة بنت حكيم السلمية تقول: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «**من نزل منزلًا ثم قال: أعوذ بكلمات اللّه التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك**»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «قيل معناه: الكاملات اللاتي لا يلحقها نقص ولا عيب، كما يلحق كلام البشر. وقيل معناه: الشافية الكافية. وقيل: الكلمات هنا هي القرآن؛ فإن اللّه تعالى قد أخبر عنه بأنه هدى وشفاء، وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى، ولما كان ذلك استعاذة بصفات اللّه تعالى، والتجاء إليه، كان ذلك من باب المندوب إليه المرغب فيه. وعلى هذا فحق المتعوذ باللّه تعالى، وبأسمائه وصفاته أن يصدق اللّه في التجائه إليه، ويتوكل في ذلك عليه، ويحضر ذلك في قلبه، فمتى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه، ومغفرة ذنبه»[2].

قال في تيسير العزيز الحميد بعدما ساق كلام القرطبي المتقدم: «وقال غيره: وقد اتفق العلماء على أن الاستعاذة بالمخلوق لا تجوز، واستدلوا بحديث خولة، وقالوا: فيه دليل على أن كلمات اللّه غير مخلوقة، وردوا به على الجهمية والمعتزلة في قولهم بخلق القرآن، قالوا: فلو كانت كلمات اللّه مخلوقة لم يأمر النبي ﷺ بالاستعاذة بها، لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك»[3].

قال القاري: «وفيه رد على ما كان يفعله أهل الجاهلية من كونهم إذا نزلوا منزلا قالوا: نعوذ بسيد هذا الوادي يعنون به كبير الجن، ومنه قوله تعالى في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾. وفيه إيماء إلى حقيقة التفريد، وحقيقة التوحيد، فإن غيره تعالى لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا يملك موتا ولا حياة ولا نشورا»[4].

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٧٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٠-٢٠٨١/ ٢٧٠٨) والترمذي (٥/ ٤٦٢-٤٦٣/ ٣٤٣٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١١٤/ ١٠٣٩٤).

(٢) المفهم (٧/ ٣٦).

(٣) تيسير العزيز الحميد (ص: ٢١٠)، وانظر مجموع الفتاوى (١/ ٣٣٦).

(٤) المرقاة (٥/ ٢٧٦).

قال في تيسير العزيز الحميد[١] : «فتبين بهذا أن الاستعاذة باللّٰه عبادة لله، ولهذا أمر اللّٰه بالاستعاذة به في غير آية، وتواترت السنن عن النبي ﷺ بذلك. قال اللّٰه تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٦﴾[٢]، وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾[٣]، وقال: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[٤]، وقال: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾[٦]، فإذا كان تعالى هو ربنا وملكنا وإلهنا، فلا مفزع لنا في الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه، ولا معبود لنا غيره، فلا ينبغي أن يدعى ولا يخاف ولا يرجى ولا يحب غيره، ولا يذل ولا يخضع لغيره، ولا يتوكل إلا عليه؛ لأن من تخافه وترجوه وتدعوه وتتوكل عليه، إما أن يكون مربيك والقيم بأمورك، ومتولى شأنك، فهو ربك، ولا رب لك سواه، وتكون مملوكه وعبده الحق، فهو ملك الناس حقا، وكلهم عبيده ومماليكه، أو يكون معبودك وإلهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك، فهو الإله الحق إله الناس، فمن كان ربهم وملكهم وإلههم فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه، ولا يلجؤوا إلى غير حماه، فهو كافيهم وحسبهم وناصرهم ووليهم ومتولي أمورهم جميعا بربوبيته وملكه وإلهيته لهم، فكيف لا يلتجئ العبد عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربه وملكه وإلهه، وهذه طريقة القرآن يحتج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على توحيد الإلهية، هذا معنى كلام ابن القيم، فإذا تحقق العبد هذه الصفات: الرب والملك والإله، وامتثل أمر اللّٰه واستعاذ به، فلا ريب أن هذه عبادة من أجل العبادات، بل هو من حقائق توحيد الإلهية، فإن استعاذ بغيره فهو عابد لذلك الغير، كما أن من صلى لله وصلى لغيره يكون عابدا لغير اللّٰه كذلك في الاستعاذة، ولا فرق إلا أن المخلوق يطلب منه ما يقدر عليه ويستعاذ به فيه، بخلاف ما لا يقدر عليه إلا اللّٰه، فلا يستعاذ فيه إلا باللّٰه، كالدعاء، فإن الاستعاذة من أنواعه».

---

(١) (ص: ٢٠٧-٢٠٨).
(٢) فصلت: الآية (٣٦).
(٣) المؤمنون: الآيتان (٩٧-٩٨).
(٤) غافر: الآية (٥٦).
(٥) الفلق: الآية (١).
(٦) الناس: الآيتان (١-٢).

قال الشيخ العثيمين: «أما الاستعاذة بالمخلوق؛ ففيها تفصيل، فإن كان المخلوق لا يقدر عليه؛ فهي من الشرك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (لا يجوز الاستعاذة بالمخلوق عند أحد من الأئمة)، وهذا ليس على إطلاقه، بل مرادهم مما لا يقدر عليه إلا الله؛ لأنه لا يعصمك من الشر الذي لا يقدر عليه إلا الله؛ سوى اللَّه.

ومن ذلك أيضا الاستعاذة بأصحاب القبور؛ فإنهم لا ينفعون ولا يضرون، فالاستعاذة بهم شرك أكبر، سواء كان عند قبورهم أم بعيدا عنهم.

أما الاستعاذة بمخلوق فيما يقدر عليه؛ فهي جائزة.. وهو مقتضى الأحاديث الواردة في (صحيح مسلم) لما ذكر النبي ﷺ الفتن؛ قال: «**فمن وجد من ذلك ملجأ؛ فليعذ به**»[1].. وهذا هو مقتضى النظر، فإذا اعترضني قطاع طريق فعذت بإنسان يستطيع أن يخلصني منهم؛ فلا شيء فيه. فكل تعليق القلب بالمخلوق لا شك أنه من الشرك، فإذا علقت قلبك ورجاءك وخوفك وجميع أمورك بشخص معين، وجعلته ملجأ؛ فهذا شرك؛ لأن هذا لا يكون إلا لله.

وعلى هذا؛ فكلام الشيخ رحمه الله [يعني محمد بن عبد الوهاب] في قوله: (إن الأئمة لا يجوزون الاستعاذة بمخلوق) مقيد بما لا يقدر عليه إلا اللَّه، ولولا أن النصوص وردت بالتفصيل لأخذنا الكلام على إطلاقه، وقلنا: لا يجوز الاستعاذة بغير اللَّه مطلقا»[2].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٨٢). البخاري (٦/ ٧٥٩/ ٣٦٠١). مسلم (٤/ ٢٢١١-٢٢١٢/ ٢٨٨٦).
(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٩/ ٢٤٩-٢٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال صديق حسن خان: «أي: وإن الجن ظنوا كما ظننتم أيها الناس أنه لا بعث بعد الموت، فتكون هذه الآية وما قبلها من جملة الكلام الموحى به، وقيل المعنى: وأن الإنس ظنوا كما ظننتم أيها الجن على أنه كلام بعض الجن لبعض، والمعنى: أنهم لا يؤمنون بالبعث كما أنكم لا تؤمنون به، وهذان القولان من كلام اللّٰه تعالى معترضان في خلال كلام الجن المحكي عنهم عند بعض المفسرين، وعند بعضهم هما من جملة كلام الجن، وعليه فلا اعتراض في الكلام فتأمل»(١).

قال الرازي: «وعلى التقديرين فالآية دلت على أن الجن كما أنهم كان فيهم مشرك ويهودي ونصراني، ففيهم من ينكر البعث، ويحتمل أن يكون المراد أنه لا يبعث أحدًا للرسالة على ما هو مذهب البراهمة، واعلم أن حمله على كلام الجن أولى؛ لأن ما قبله وما بعده كلام الجن، فإلقاء كلام أجنبي عن كلام الجن في البين غير لائق»(٢).

قال ابن عاشور: «والإخبار عن هذا فيه تعريض بالمشركين بأن فساد اعتقادهم تجاوز عالم الإنس إلى عالم الجن»(٣).

* * *

---

(١) فتح البيان (١٤/ ٣٥٥).

(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ١٥٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾

★ غريب الآية:

حرسًا: جمع حارس، وهو الحافظ للشيء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن الجن حين بعث اللَّه رسوله محمدًا ﷺ وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له أن السماء مُلئَت حرسا شديدًا، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك؛ لئلا يسترقوا شيئا من القرآن. فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق. وهذا من لطف اللَّه بخلقه ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز، ولهذا قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ أي: من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهابا مرصدا له، لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يمحقه ويهلكه»[1].

والحامل لهم على هذا القول يقول ابن عاشور: «تحذير إخوانهم من التعرض للاستماع، لأن المستمع يتعرض لأذى الشهب. والجنُّ لا تنكف عن ذلك؛ لأنهم منساقون إليه بالطبع، مع ما ينالهم من أذى الرجم والاحتراق، شأنَ انسياق المخلوقات إلى ما خُلقت له مثل تهافت الفَراش على النار، لاحتمال ضعف القوة المفكرة في الجن بحيث يغلب عليها الشهوة، ونحن نرى البشر يقتحمون الأخطار والمهالك تبعًا للهوى مثل مغامرات الهُواة في البحار والجبال والثلوج»[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٦٧).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٢٩).

قال البقاعي: «فعلت هممهم حتى طلبوا المهمات الدنيوية والشهوات النفسانية من مسيرة خمسمائة سنة صعودًا، فأفّ لمن يكسل عن مهمات الدين المحققة من مسيرة ساعة أو دونها، وأن يقعد في مجلس العلم ساعة أو دونها»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الشهب وهل كان يرمى بها في الجاهلية أم لا

* عن ابن عباس ﷺ قال: كان الجن يصعدون في السماء يسمعون الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعا فأما الكلمة فتكون حقًّا، وأما ما زادوا فيكون باطلًا، فلما بعث رسول اللَّه ﷺ منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض، فبعث جنوده فوجدوا رسول اللَّه ﷺ قائما يصلي بين جبلين -أراه قال بمكة- فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث في الأرض[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «اختلف السلف هل كانت الشياطين تقذف قبل المبعث، أو كان ذلك أمرا حدث لمبعث النبي ﷺ؟ فقال الكلبي: وقال قوم: لم تكن تحرس السماء في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات اللَّه عليهما وسلامه: خمسمائة عام، وإنما كان من أجل بعثة النبي ﷺ، فلما بعث محمد ﷺ منعوا من السموات كلها، وحرست بالملائكة والشهب. قلت: ورواه عطية العوفي عن ابن عباس، ذكره البيهقي.

وقال عبد اللَّه بن عمر: لما كان اليوم الذي نبئ رسول اللَّه ﷺ منعت الشياطين، ورموا بالشهب.

وقال عبد الملك بن سابور: لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فلما بعث محمد ﷺ حرست السماء، ورميت الشياطين

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٧٦).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٢٣)، الترمذي (٥/ ٣٩٨/ ٣٣٢٤) وقال: «حديث حسن صحيح»، النسائي في الكبرى (٦/ ٥٠٠/ ١١٦٢٦).

بالشهب، ومنعت عن الدنو من السماء.

وقال نافع بن جبير: كانت الشياطين في الفترة تسمع فلا ترمى، فلما بعث رسول اللَّه ﷺ رميت بالشهب.

ونحوه عن أبي بن كعب قال: لم يرم بنجم منذ رفع عيسى حتى نبئ رسول اللَّه ﷺ فرمي بها.

وقيل: كان ذلك قبل المبعث، وإنما زادت بمبعث رسول اللَّه ﷺ إنذارا بحاله، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مُلِئَتۡ﴾ أي زيد في حرسها، وقال أوس بن حجر وهو جاهلي:

فانقض كالدري يتبعه نقع يثور تخاله طنبا

وهذا قول الأكثرين. وقد أنكر الجاحظ هذا البيت وقال: كل شعر روي فيه فهو مصنوع، وأن الرمي لم يكن قبل المبعث. والقول بالرمي أصح، لقوله تعالى: ﴿فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا﴾. وهذا إخبار عن الجن، أنه زيد في حرس السماء حتى امتلأت منها ومنهم، ولما روى عن ابن عباس قال: بينما النبي ﷺ جالس في نفر من أصحابه إذ رمي بنجم، فقال: «**ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية؟**» قالوا: كنا نقول: يموت عظيم أو يولد عظيم. فقال النبي ﷺ: «**إنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا ﷻ إذا قضى أمرا في السماء سبح حملة العرش ثم سبح أهل كل سماء، حتى ينتهي التسبيح إلى هذه السماء، ويستخبر أهل السماء حملة العرش ماذا قال ربكم، فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه، فتتخطف الجن فيرمون فما جاءوا به فهو حق ولكنهم يزيدون فيه**»[1].

وهذا يدل على أن الرجم كان قبل المبعث. وروى الزهري نحوه عن علي بن الحسين عن علي بن أبي طالب عن ابن عباس. وفي آخره قيل للزهري: أكان يرمى في الجاهلية؟ قال: نعم. قلت: أفرأيت قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ۝٩﴾ قال: غلظت وشدد أمرها حين بعث النبي ﷺ. ونحوه قال القتبي. قال ابن قتيبة: كان ولكن اشتدت الحراسة بعد

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٨)، ومسلم (٤/ ١٧٥٠-١٧٥١/ ٢٢٢٩)، والترمذي (٥/ ٣٣٧-٣٣٨/ ٣٢٢٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٤/ ١١٢٧٢).

المبعث، وكانوا من قبل يسترقون ويرمون في بعض الأحوال، فلما بعث محمد ﷺ منعت من ذلك أصلا»[1].

قال الرازي: «الأقرب إلى الصواب أن هذه الشهب كانت موجودة قبل المبعث، إلا أنها زيدت بعد المبعث وجعلت أكمل وأقوى، وهذا هو الذي يدل عليه لفظ القرآن؛ لأنه قال: ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ﴾ وهذا يدل على أن الحادث هو الملء والكثرة، وكذلك قوله: ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ أي: كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب، والآن ملئت المقاعد كلها، فعلى هذا الذي حمل الجن على الضرب في البلاد وطلب السبب، إنما هو كثرة الرجم ومنع الاستراق بالكلية»[2].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٩-١٠).
(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ١٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢﴾

★ غريب الآية:

طرائق: أي: مذاهب وفرق.

قددًا: متفرقة مختلفة. جمع: قِدَّة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول ﷻ مخبرا عن قيل هؤلاء النفر من الجنّ: وأنا لا ندري أعذابا أراد اللَّه أن ينزله بأهل الأرض، بمنعه إيانا السمع من السماء، ورجمه من استمع منا فيها بالشهب ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ يقول: أم أراد بهم ربهم الهدى بأن يبعث منهم رسولا مرشدا يرشدهم إلى الحقّ، وهذا التأويل على التأويل الذي ذكرناه عن ابن زيد قبل.

وذُكر عن الكلبي في ذلك ما: حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، عن الكلبي في قوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ أن يطيعوا هذا الرسول فيرشدهم أو يعصوه فيهلكهم»[1].

قال ابن عاشور: «وهذه نتيجة ناتجة عن قولهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ﴾ الخ لأن ذلك السمع كان لمعرفة ما يجري به الأمر من اللَّه للملائكة، ومما يُخْبِرُهُمْ به مما يريد إعلامهم به فكانوا على علم من بعض ما يتلقفونه، فلما منعوا السمع صاروا لا يعلمون شيئًا من ذلك، فأخبروا إخوانهم بهذا عساهم أن يعتبروا بأسباب هذا التغير، فيؤمنوا بالوحي الذي حرسه اللَّه من أن يطلع عليه أحد قبل

(١) جامع البيان (٢٩/ ١١١).

الذي يوحَى به إليه والذي يحمله إليه. فحاصل المعنى: إنا الآن لا ندري ماذا أريد بأهل الأرض من شر أو خير بعد أن كنا نتجسس الخبر في السماء»[١].

قال السعدي: «وفي هذا بيان لأدبهم إذا أضافوا الخير إلى اللَّه والشر حذفوا فاعله تأدبا»[٢].

قال عطية محمد سالم: «فيه نص على أن الجن لا تعلم الغيب، وقد صرح تعالى في قوله: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[٣] وقد يبدو من هذه الآية إشكال، حيث قالوا أولًا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾[٤]، ثم يقولون: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، والواقع أنهم تساءلوا لما لمسوا السماء فمنعوا منها لشدة حراستها، وأقروا أخيرا لما سمعوا القرآن وعلموا السبب في تشديد حراسة السماء؛ لأنهم لما منعوا ما كان يخطر ببالهم أنه من أجل الوحي لقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝﴾[٦] يدل بفحواه أنهم منعوا من السمع، كما قالوا: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾، ولكن قد يظن ظان أنهم يحاولون السماع ولو مع الحراسة الشديدة، ولكن اللَّه تعالى صرح بأنهم لم ولن يستمعوا بعد ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝﴾[٧]»[٨].

وقوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ يقول القرطبي: «هذا من قول الجن، أي قال بعضهم لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ، وإنا كنا قبل استماع القرآن منا الصالحون ومنا الكافرون. وقيل: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي ومن دون الصالحين في الصلاح، وهو أشبه من حمله على الإيمان والشرك. ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أي فرقا شتى، قاله السدي. الضحاك: أدياننا مختلفة. قتادة: أهواء متباينة،

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٣٠-٢٣١).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٩١).
(٣) سبأ: الآية (١٤).
(٤) الجن: الآيتان (١-٢).
(٥) الجن: الآية (٧).
(٦) الجن: الآية (٨).
(٧) الشعراء: الآية (٢١٢).
(٨) تتمة الأضواء (٨/ ٥٤٣-٥٤٤).

ومنه قول الشاعر:

القابض الباسط الهادي بطاعته   في فتنة الناس إذ أهواؤهم قدد

والمعنى: أي لم يكن كل الجن كفارا بل كانوا مختلفين: منهم كفار، ومنهم مؤمنون صلحاء، ومنهم مؤمنون غير صلحاء. وقال المسيب: كنا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس.

وقال السدي في قوله تعالى: ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ قال: في الجن مثلكم قدرية، ومرجئة، وخوارج، ورافضة، وشيعة، وسنية. وقال قوم: أي: وإنا بعد استماع القرآن مختلفون: منا المؤمنون ومنا الكافرون. أي: ومنا الصالحون ومنا مؤمنون لم يتناهوا في الصلاح. والأول أحسن، لأنه كان في الجن من آمن بموسى وعيسى، وقد أخبر اللَّه عنهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[1] وهذا يدل على إيمان قوم منهم بالتوراة، وكان هذا مبالغة منهم في دعاء من دعوهم إلى الإيمان. وأيضا لا فائدة في قولهم: نحن الآن منقسمون إلى مؤمن وإلى كافر»[2].

وفي الآية قول آخر -يقول أبو السعود- ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أي: الموصوفونَ بصلاحِ الحالِ في شأنِ أنفسِهم وفي معاملتِهم مع غيرِهم، المائلونَ إلى الخيرِ والصلاحِ حسبما تقتضيهِ الفطرةُ السليمةُ، لا إلى الشرِّ والفسادِ كما هو مقتضَى النفوسِ الشريرةِ ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: قومٌ دونَ ذلكَ، فحذف الموصوف وهم المقتصدونَ في صلاحِ الحالِ على الوجهِ المذكورِ، لا في الإيمانِ والتَّقوى كما توهم، فإنَّ هذا بيانٌ لحالِهم قبل استماعِ القرآنِ كما يُعربُ عنه قوله تعالى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ وأمَّا حالُهم بعد استماعِه فسيُحكى بقولِه تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ أي: كُنَّا قبل هذا ذَوِي طرائقَ، أي: مذاهبَ أو مثلَ طرائق في اختلافِ الأحوال، أو كانتْ طرائقُنَا طرائقَ قِددًا أي: متفرقةً مختلفةً»[3].

---

(١) الأحقاف: الآية (٣٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١١).

(٣) تفسير أبي السعود (٩/ ٤٤).

وقوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ قال السعدي: «أي: وإنا في وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة اللَّه وكمال عجزنا، وأن نواصينا بيد اللَّه، فلن نعجزه في الأرض ولن نعجزه إن هربنا، وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته، لا ملجأ منه إلا إليه»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الشر هل يضاف إلى اللَّه ﷻ أم لا

* عن علي بن أبي طالب عن رسول اللَّه ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: **«وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك»**(٢).

★ غريب الحديث:

لبيك: معناه: أنا مقيم على طاعتك إقامة بعد إقامة، يقال لب بالمكان لبًّا وألَبَّ إلبابا أي: أقام به، وأصل لبيك لبين فحذفت النون للإضافة.

سعديك: معناه مساعدة لأمرك بعد مساعدة، ومتابعة لدينك بعد متابعة.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «قال الخطابي وغيره: فيه الإرشاد إلى الأدب في الثناء على اللَّه تعالى، ومدحه بأن يضاف إليه محاسن الأمور دون مساويها على جهة الأدب»(٣).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٠٢-١٠٣)، ومسلم (١/ ٥٣٤-٥٣٥/ ٧٧١)، وأبو داود (١/ ٤٨١-١٨٣/ ٧٦٠)، والترمذي (٥/ ٤٥٣-٤٥٤/ ٣٤٢٢)، والنسائي (٢/ ٤٦٧-٤٦٨/ ٨٩٦)، وأخرجه ابن ماجه (١/ ٣٣٥/ ١٠٥٤) مختصرا دون موضع الشاهد.

(٣) شرح مسلم (٦/ ٥٢).

وقال أيضا: في قوله ﷺ: «والشر ليس إليك» فيه خمسة أقوال:

أحدها: معناه: لا يتقرب به إليك، قاله الخليل بن أحمد، والنضر بن شميل، وإسحاق بن راهويه، ويحيى بن معين، وأبو بكر بن خزيمة، والأزهري وغيرهم.

والثاني: حكاه الشيخ أبو حامد عن المزني، وقاله غيره أيضا معناه: لا يضاف إليك على انفراده، لا يقال: يا خالق القردة والخنازير، ويا رب الشر ونحو هذا، وإن كان خالق كل شيء، ورب كل شيء، وحينئذ يدخل الشر في العموم.

والثالث: معناه: والشر لا يصعد إليك، إنما يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح.

والرابع: معناه: والشر ليس شرا بالنسبة إليك، فإنك خلقته بحكمة بالغة، وإنما هو شر بالنسبة إلى المخلوقين.

والخامس: حكاه الخطابي أنه كقولك: فلان إلى بني فلان إذا كان عداده فيهم أو صنفوه إليهم»[1].

قال ابن القيم: «ولم يقف على المعنى المقصود من قال: الشر لا يتقرب به إليك؛ بل الشر لا يضاف إليه سبحانه بوجه لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله ولا في أسمائه، فإن ذاته لها الكمال المطلق من جميع الوجوه، وصفاته كلها صفات كمال يحمد عليها، ويثنى عليه بها، وأفعاله كلها خير ورحمة، وعدل، وحكمة لا شر فيها بوجه ما، وأسماؤه كلها حسنى، فكيف يضاف الشر إليه؛ بل الشر في مفعولاته ومخلوقاته، وهو منفصل عنه إذ فعله غير مفعوله، ففعله خير كله، وأما المخلوق المفعول ففيه الخير والشر، وإذا كان الشر مخلوقا منفصلا غير قائم بالرب سبحانه فهو لا يضاف إليه، وهو ﷺ لم يقل: أنت لا تخلق الشر حتى يطلب تأويل قوله، وإنما نفى إضافته إليه وصفا وفعلا وأسماء، وإذا عرف هذا فالشر ليس إلا الذنوب وموجباتها، وأما الآخر فهو الإيمان والطاعات وموجباتها، والإيمان والطاعات متعلقة به سبحانه، ولأجلها خلق اللّه خلقه، وأرسل رسله، وأنزل كتبه، وهي ثناء على الرب -تبارك وتعالى-، وإجلاله وتعظيمه وعبوديته، وهذه لها آثار تطلبها وتقتضيها، فتدوم آثارها بدوام متعلقها، وأما الشرور فليس مقصودة

(١) شرح مسلم (٦/ ٥٢-٥٣).

لذاتها، ولا هي الغاية التي خلق لها الخلق، فهي مفعولات قدرت لأمر محبوب، وجعلت وسيلة إليه، فإذا حصل ما قدرت له اضمحلت وتلاشت وعاد الأمر إلى الخير المحض»[(١)].

وقال أيضا: «فإذا قيل: هو مريد للشر أوهم أنه محب له راض به، وإذا قيل: إنه لم يرده أوهم أنه لم يخلقه ولا كونه، وكلاهما باطل، ولذلك إذا قيل: إن الشر فعله أو أنه يفعل الشر أوهم أن الشر فعله القائم به، وهذا محال، وإذا قيل: لم يفعله أو ليس بفعل له أوهم أنه لم يخلقه ولم يكونه، وهذا محال، فانظر ما في إطلاق هذه الألفاظ في النفي والإثبات من الحق والباطل الذي يتبين بالاستقصاء والتفصيل، وأن الصواب في هذا الباب ما دل عليه القرآن والسنة من أن الشر لا يضاف إلى الرب تعالى لا وصفا ولا فعلا، ولا يتسمى باسمه بوجه من الوجوه، وإنما يدخل في مفعولاته بطريق العموم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾[(٢)] فما هاهنا موصولة أو مصدرية، والمصدر بمعنى المفعول، أي: من شر الذي خلقه، أو من شر مخلوقه، وقد يحذف فاعله كقوله حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ وقد يسند إلى محله القائم به كقول إبراهيم الخليل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾[(٣)] وقول الخضر: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾[(٤)] وقال في بلوغ الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾[(٥)] وقد جمع الأنواع الثلاثة في الفاتحة في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾[(٦)]»[(٧)].

* * *

(١) حادي الأرواح (ص: ٢٦٤-٢٦٥).
(٢) الفلق: الآيتان (١-٢).
(٣) الشعراء: الآيات (٧٨-٨٠).
(٤) الكهف: الآية (٧٩).
(٥) الكهف: الآية (٨٢).
(٦) الفاتحة: الآيتان (٦-٧).
(٧) شفاء العليل (٢/ ٢٦١-٢٦٢)، وانظر مجموع الفتاوى (٨/ ٥١١)، فما بعدها.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بخسًا: نَقْصًا. يقال: شراه بثمن بخس، أي: رخيص.

رهقًا: رَهِقَهُ الأمرُ: غَشِيَهُ بِقَهْرٍ. وأرهقت الصلاة: أخرتها حتى غشيني وقت الأخرى.

القاسطون: جمع القاسط، وهو الجائر عن الحق.

تحروا: التحري: تعمد إصابة الحق. وأصله طلب الشيء والقصد له.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قالوا: وأنا لما سمعنا القرآن الذي يهدي إلى الطريق المستقيم آمنا به، يقول: صدّقنا به، وأقررنا أنه حق من عند اللَّه ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ يقول: فمن يصدّق بربه فلا يخاف بخسا يقول: لا يخاف أن ينقص من حسناته، فلا يجازى عليها؛ ولا رَهَقا: ولا إثما يحمل عليه من سيئات غيره، أو سيئة يعملها»[1].

وقد دلت الآية على أن المحسن من الجن في الجنة كما أن مسيئهم في النار قال ابن القيم: «وبهذه الحجة احتج البخاري، ووجه الاحتجاج بها أن البخس المنفي هو نقصان الثواب، والرهق الزيادة في العقوبة على ما عمل، فلا ينقص من ثواب حسناته، ولا يزداد في سيئاته، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾[2] أي: لا يخاف زيادة سيئاته، ولا نقصان

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ١١٢).

(٢) طه: الآية (١١٢).

حسناته»(١).

قال ابن كثير: «أي: منا المسلم ومنا القاسط وهو الجائر عن الحق النائب عنه بخلاف المقسط فإنه العادل، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾، أي: طلبوا لأنفسهم النجاة، ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾، أي: وقودا تسعر بهم»(٢).

قال ابن عاشور: «وشبه حلول الكافرين في جهنم بحلول الحطب في النار على طريقة التمليح والتحقير، أي: هم لجهلهم كالحطب الذي لا يعقل كقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾(٣)»(٤).

قال صديق حسن خان: «وفيه دليل على أن الجن يثاب بالجنة.. وفيه دليل على أن الجني الكافر يعذب في النار»(٥).

قال ابن القيم: «وقد اتفق المسلمون على أن كفار الجن في النار، وقد دل على ذلك القرآن في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(٦) وقال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(٧) الآية فملؤها منه به وبكفار ذريته، وقال تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾(٨) وقال تعالى حكاية عن مؤمنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ إلى قوله: ﴿حَطَبًا﴾ وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾(٩) وقال الله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾(١٠) وجنوده إن لم يختص بالشياطين فهم داخلون في عمومه، وبالجملة فهذا أمر معلوم باضطرار من دين الإسلام، وهو يستلزم تكليف الجن بشرائع ووجوب اتباعهم لهم، فأما شريعتنا فأجمع المسلمون على أن محمدا بعث إلى الجن والإنس، وأنه يجب على الجن طاعته كما يجب على الإنس، وأما قبل نبينا فقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا

---

(١) طريق الهجرتين (ص: ٤٢٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٦٩).
(٣) البقرة: الآية (٢٤).
(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٣٧).
(٥) فتح البيان (١٤/ ٣٥٩-٣٦٠).
(٦) السجدة: الآية (١٣).
(٧) هود: الآية (١١٩).
(٨) الأعراف: الآية (٣٨).
(٩) الأعراف: الآية (١٧٩).
(١٠) الشعراء: الآيتان (٩٤-٩٥).

﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾[١] يدل على أن الأمم الخالية من كفار الجن في النار، وذلك إنما يكون بعد إقامة الحجة عليهم بالرسالة وأما حكم مؤمنيهم في الدار الآخرة فجمهور السلف والخلف على أنهم في الجنة»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات الجن وثوابهم

* عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة الأنصاري عن أبيه أنه أخبره: (أن أبا سعيد الخدري ﷺ قال له: «إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة. قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ»[٣].

⋆ غريب الحديث:

تحب الغنم والبادية: أما الغنم فيحبونها لانتفاعهم بها أكلًا وشربًا ولباسًا، وأما البادية فيحبونها لأجل الغنم، لأن فيها الرعي وطيب الهواء واتساع المرعى، وذلك كله مما يصلح الماشية، وقد يحبون البادية لموافقة طباعهم وصحة أبدانهم.

⋆ فوائد الحديث:

قال العيني: «وفيه أن الجن يسمعون أصوات بني آدم وأن بعض الخلق يشهد لبعض»[٤].

وقد تقدمت فوائده في سورة الأنعام عند قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾[٥].

* * *

(١) الأعراف: الآية (٣٨).
(٢) طريق الهجرتين (ص: ٤١٧-٤١٨).
(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٥). البخاري (٦/ ٤٢٣/ ٣٢٩٦) واللفظ له. النسائي (٢/ ٣٣٩-٣٤٠/ ٦٤٣). ابن ماجه (١/ ٢٣٩-٢٤٠/ ٧٢٣).
(٤) عمدة القاري (٤/ ١٦٢).
(٥) الأنعام: الآية (١٣٠).

قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾

★ غريب الآية:

غدقًا: كثيرًا غزيرًا. قال أمية:

مزاجها سلسبيل ماؤها غدق عذب المذاقة لا ملح ولا كدر

يسلكه: يدخله.

صعدًا: أي: شاقًا صعبًا لا يطيقه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «الضمير في قوله: ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ إلى من يرجع؟ فيه قولان: قال بعضهم: إلى الجن الذين تقدم ذكرهم ووصفهم، أي: هؤلاء القاسطون لو آمنوا لفعلنا بهم كذا وكذا. وقال آخرون: بل المراد الإنس، واحتجوا عليه بوجهين: الأول: أن الترغيب بالانتفاع بالماء الغدق إنما يليق بالإنس لا بالجن. والثاني: أن هذه الآية إنما نزلت بعدما حبس اللَّه المطر عن أهل مكة سنين، أقصى ما في الباب أنه لم يتقدم ذكر الإنس، ولكنه لما كان ذلك معلومًا جرى مجرى قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾[1] وقال القاضي: الأقرب أن الكل يدخلون فيه. وأقول: يمكن أن يحتج لصحة قول القاضي بأنه تعالى لما أثبت حكمًا معللًا بعلة وهو الاستقامة، وجب أن يعم الحكم بعموم العلة»[2].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين: أحدهما: وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها، ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾

(١) القدر: الآية (١).

(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ١٦٢).

أي: كثيرًا. والمراد بذلك سَعَة الرزق. كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾(١) وكقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٢) وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم، كما قال مالك عن زيد بن أسلم: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ﴾ لنبتليهم، من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية؟.

ذكر من قال بهذا القول: قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ يعني بالاستقامة: الطاعة. وقال مجاهد: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ قال: الإسلام. وكذا قال سعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، وعطاء، والسدي، ومحمد بن كعب القرظي.

وقال قتادة: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ يقول: لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا.

وقال مجاهد: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ أي: طريقة الحق. وكذا قال الضحاك، واستشهد على ذلك بالآيتين اللتين ذكرناهما، وكل هؤلاء أو أكثرهم قالوا في قوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنبتليهم به.

وقال مقاتل: نزلت في كفار قريش حين مُنعوا المطر سبع سنين.

والقول الثاني: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ الضلالة ﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي: لأوسعنا عليهم في الرزق استدراجا، كما قال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾(٣) وكقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾(٤) وهذا قول أبي مِجلز لاحق بن حُمَيد؛ فإنه قال في قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ أي: طريقة الضلالة. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، وحكاه البغوي عن الربيع بن أنس، وزيد بن أسلم، والكلبي، وابن كيسان. وله اتجاه ويتأيد بقوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾»(٥).

(١) المائدة: الآية (٦٦).
(٢) الأعراف: الآية (٩٦).
(٣) الأنعام: الآية (٤٤).
(٤) المؤمنون: الآيتان (٥٥-٥٦).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٦٩-٢٧٠).

قال القرطبي: «والأول أشبه لأن الطريقة معرفة بالألف واللام، فالأوجب أن تكون طريقته طريقة الهدى، ولأن الاستقامة لا تكون إلا مع الهدى»[١].

وقوله: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾:

يقول ابن جرير: «يقول ﷻ: ومن يعرض عن ذكر ربه الذي ذكره به وهو هذا القرآن، ومعناه: من يعرض عن استماع القرآن واستعماله يسلكه الله عذابا صعدا، يقول: يسلكه الله عذابا شديدا شاقا»[٢].

قال البقاعي: «يعلوه ويغلبه ويصعد عليه، ويكون كل يوم أعلى مما قبله جزاء وفاقا، فإن الإعراض كلما تمادى زمانه كان أقوى مما كان»[٣].

قال ابن عاشور: «وفي هذا إنذار بأنه يوشك أن يمسك عنهم المطر فيقعوا في القحط والجوع، وهو ما حدث عليهم بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ودعائه عليهم بسنين كَسِنِي يوسف، فإنه دعا بذلك في المدينة في القنوت كما في حديث «الصحيحين» عن أبي هريرة[٤] وقد بينا ذلك في سورة الدخان. وقد كانوا يوم نزول هذه الآية في بحبوحة من العيش، وفي نخيل وجنات، فكان جَعْل ترتُّبِ الإسقاء على الاستقامة على الطريقة كما اقتضاه الشرط بحرف (لو) مشيرًا إلى أن المراد: لأدَمْنا عليهم الإسقاء بالماء الغَدَق، وإلى أنهم ليسوا بسالكين سبيل الاستقامة فيوشك أن يُمسك عنهم الري، ففي هذا إنذار بأنهم إن استمروا على اعوجاج الطريقة أمسك عنهم الماء»[٥].

* * *

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٣-١٤).

(٢) جامع البيان (٢٩/ ١١٥-١١٦).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤٨٩).

(٤) أحمد (٢/ ١٢٣٩)، البخاري (١٢/ ٣٨٥/ ٦٩٤٠). مسلم (١/ ٤٦٦/ ٦٧٥)، أبو داود (٢/ ١٤٢/ ١٤٤٢)، النسائي (٢/ ٥٤٦-٥٤٧/ ١٠٧٢-١٠٧٣)، ابن ماجه (١/ ٣٩٤/ ١٢٤٤).

(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٣٨).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «روي عن سعيد بن جبير أن المراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها الإنسان وهي سبعة: الجبهة واليدان والركبتان والقدمان يقول: هذه الأعضاء التي يقع عليها السجود مخلوقة لله فلا تسجدوا عليها لغيره»[١]. ثم ساق حديث الباب الآتي.

وقال القرطبي: «وقال سعيد بن المسيب وطلق بن حبيب: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد. . يقول: هذه الأعضاء أنعم اللَّه بها عليك فلا تسجد لغيره بها فتجحد نعمة اللَّه. قال عطاء: مساجدك: أعضاؤك التي أمرت أن تسجد عليها لا تذللها لغير خالقها»[٢].

وأما الوجه الثاني في تفسير المساجد في الآية وهو حملها على المساجد المعروفة. قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى آمرا عباده أن يوحدوه في محال عبادته، ولا يدعى معه أحد ولا يشرك به، كما قال قتادة في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾ قال: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا باللَّه، فأمر اللَّه نبيه ﷺ أن يوحد اللَّه وحده»[٣].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن المساجد التي هي أعظم محال للعبادة مبنية على الإخلاص لله، والخضوع لعظمته، والاستكانة لعزته»[٤].

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين، يقول البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ جامعا بين الوجهين في تفسيره: «أي: أوحي إلي ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ أي: مواضع السجود من العالم الآفاقي من الأرض، ومن العالم النفسي من الجسد، كما قاله سعيد بن جبير

---

(١) معالم التنزيل (٨/ ٢٤٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٤-١٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٧٠).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٩٤).

وطلق بن حبيب ﴿لِلَّهِ﴾ أي مختصة بالملك الأعظم»[١].

وقال أيضا: «إن من تعبد لغير سيده في ملك سيده الذي هو العالم الآفاقي، وبآلة سيده الذي هو العالم النفسي كان أشد الناس لومًا وعقوبة، فكيف يليق بكم أن يخلق لكم وجهًا ويدين، ورجلين وأرضًا تنتفعون بها، وسماء تتم نفعها فتسجدون بالأعضاء التي أوجدها لكم في الأرض التي أمكنكم من الانتفاع بها تحت السماء التي أتم منافعها بها لغيره، فتكونون قد صرفتم نعمة السيد التي يجب شكره عليها لغيره، أيفعل هذا عاقل؟»[٢].

قال ابن العربي: «الأرض كلها لله ملكا وخلقا، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[٣]. والمساجد لله رفعة وتشريفًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ والكعبة بيت اللَّه تخصيصا وتعظيما، كما قال تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾[٤]. وفي موضع آخر: ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾[٥] فجعل اللَّه تعالى الأرض كلها مسجدا كما قال ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا**»[٦] واصطفى منها مواضع ثلاثا بصفة المسجدية، وهي: المسجد الأقصى، وهو مسجد إيلياء، ومسجد النبي ﷺ، والمسجد الحرام. واصطفى من الثلاثة المسجد الحرام في قول، ومسجد النبي ﷺ في قول على اختلاف في أيها أفضل»[٧].

وقال أيضا: «المساجد وإن كانت لله ملكا وتشريفا فإنها قد نسبت إلى غيره تعريفا، فيقال: مسجد فلان. وفي صحيح الحديث: أن النبي ﷺ: (سابق بين الخيل التي أضمرت من الحيفاء وأمدها ثنية الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تضمر من الثنية إلى مسجد بني زريق)[٨]. وتكون هذه الإضافة بحكم المحلية،

(١) نظم الدرر (٢٩/ ٤٨٩).
(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٨٩-٤٩٠).
(٣) الأعراف: الآية (١٢٨).
(٤) البقرة: الآية (١٢٥).
(٥) الحج: الآية (٢٦).
(٦) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٤)، والبخاري (١/ ٥٧٤/ ٣٣٥)، ومسلم (١/ ٣٧٠-٣٧١/ ٥٢١)، والنسائي (١/ ٢٢٩-٢٣١/ ٤٣٠) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه.
(٧) أحكام القرآن (٤/ ١٨٦٨).
(٨) أخرجه أحمد (٢/ ٥)، والبخاري (٦/ ٨٨-٨٩/ ٢٨٦٩)، مسلم (٣/ ١٤٩١/ ١٨٧٠)، وأبو داود (٣/ ٦٤/ ٢٥٧٥)، والترمذي (٤/ ١٧٧-١٧٨/ ١٦٩٩)، والنسائي (٦/ ٥٣٥/ ٣٥٨٦).

كأنها في قبلتهم، وقد تكون بتحبيسهم، فإن الأرض لله ملكا، ثم يخص بها من يشاء، فيردها إليه، ويعينها لعبادته، فينفذ ذلك بحكمه، ولا خلاف بين الأمة في تحبيس المساجد والقناطر والمقابر وإن اختلفوا في تحبيس غير ذلك»[١].

قال ابن عطية: «المساجد المخصوصة بينة التمكن في كونها لله تعالى، فيصح أن تفرد للصلاة والدعاء وقراءة العلم، وكل ما هو خالص لله تعالى، وأن لا يتحدث بها في أمور الدنيا. ولا يتخذ طريقًا، ولا يجعل فيها لغير اللَّه نصيب، ولقد قعدت للقضاء بين المسلمين في المسجد الجامع بالمرية مدة، ثم رأيت فيه من سوء المتخاصمين وأيمانهم، وفجور الخصام وغائلته، ودخول النسوان ما رأيت تنزيه البيت عنه، فقطعت القعود للأحكام فيه»[٢].

قال ابن العربي: «قوله: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ هذا توبيخ للمشركين في دعواهم مع اللَّه غيره في المسجد الحرام، وهو لله اصطفاه لهم، واختصهم به، ووضعه مسكنا لهم. وأحياه بعد الممات على يد أبيهم، وعمره من الخراب بسلفهم، وحين بلغت الحالة إليهم كفروا هذه النعمة، وأشركوا باللَّه غيره، فنبه اللَّه ورسوله عليهم، وأوعز على لسانه إليهم به، وأمرهم بإقامة الحق فيه، وإخلاص الدعوة لله بمعالمه»[٣].

قال القاسمي: «فإن المساجد لم تشيد إلا ليذكر فيها اسمه تعالى وحده، ومن هنا ذهبت الحنابلة إلى أنه لا يجتمع في دين اللَّه مسجد وقبر، وأن أيهما طرأ على الآخر وجب هدمه»[٤].

قال شيخ الإسلام: «لا يجوز لأحد أن يرفع يديه داعيا لا إلى الملائكة، ولا إلى غير الملائكة؛ بل هذا من خصائص الربوبية، ومن جوز رفع الأيدي عند الدعاء إلى غير اللَّه فهو من المشركين الذين يدعون غير اللَّه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[٥] الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

(١) أحكام القرآن (٤/ ١٨٦٩).
(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٣٨٣).
(٣) أحكام القرآن (٤/ ١٨٧٠).
(٤) محاسن التأويل (١٦/ ٣١١).
(٥) الأنعام: الآية (٧١).

﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[١] وقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[٢] الآية وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾[٦] ولهذا كانت الإشارة إليه من تمام دعائه، وذلك من تحقيق كونه الصمد الذي يصمد العباد إليه، فإن قصده بالباطن والظاهر والقلب وسائر الجسد أكمل من قصده بالقلب فقط، فيكون الإشارة إليه من تمام كونه صمدا، ويكون اسم الصمد مستلزما لذلك، فكونه موجودا يوجب المباينة التي تقتضي الإشارة إليه، وكونه صمدا مقصودا يقتضي الدعاء المتضمن الإشارة إليه، والإشارة إلى غيره بالدعاء إشراك به، وإخراج له عن أن يكون أحدا»[٧].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان المقصود من المساجد في الآية

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**أمرنا أن نسجد على سبعة أعظم، ولا نكف ثوبا ولا شعرًا**»[٨].

★ **فوائد الحديث:**

استدل بهذا الحديث من ذهب من العلماء كسعيد بن جبير إلى أن المقصود بالمساجد في الآية هي مواضع السجود، وقد تقدم الكلام عليه في توضيح الآية بما أغنى عن إعادته هاهنا.

---

(١) الأنعام: الآية (١٠٨).
(٢) الفرقان: الآية (٦٨).
(٣) الحج: الآيتان (١١-١٢).
(٤) الشعراء: الآية (٢١٣).
(٥) المؤمنون: الآية (١١٧).
(٦) آل عمران: الآية (٨٠).
(٧) تلبيس الجهمية (٢/ ٤٥٠).
(٨) أخرجه: أحمد (١/ ٢٨٥)، والبخاري (٢/ ٣٧٢/ ٨١٠) واللفظ له، ومسلم (١/ ٤٥٤/ ٤٩٠)، وأبو داود (١/ ٥٥٢/ ٨٨٩)، والترمذي (٢/ ٦٢/ ٢٧٣)، والنسائي (٢/ ٥٦٤/ ١١١٤)، وابن ماجه (١/ ٢٨٦/ ٨٨٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾

★ **غريب الآية:**

لبدًا: أي: جماعة متكاثفة بعضهم فوق بعض لشدة زحامهم. يقال: تَلَبَّدَ شعره: إذا أَلْصَقَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «قال الواحدي: إن هذا من كلام الجن لا من جملة الموحى؛ لأن الرسول لا يليق أن يحكي عن نفسه بلفظ المغايبة وهذا غير بعيد، كما في قوله: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ٨٥﴾[1] والأكثرون على أنه من جملة الموحى وفائدة هذا الاختلاف أن من جعله من جملة الموحى فتح الهمزة في أن، ومن جعله من كلام الجن كسرها، ونحن نفسر الآية على القولين، أما على قول من قال: إنه من جملة الموحى، فالضمير في قوله: ﴿كَادُواْ﴾ إلى من يعود؟ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: إلى الجن، ومعنى (قام يدعوه) أي قام يعبده يريد قيامه لصلاة الفجر حين أتاه الجن، فاستمعوا القراءة ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾، أي يزدحمون عليه متراكمين تعجبًا مما رأوا من عبادته، واقتداء أصحابه به قائمًا وراكعًا وساجدًا، وإعجابًا بما تلا من القرآن؛ لأنهم رأوا ما لم يروا مثله، وسمعوا ما لم يسمعوا مثله.

والثاني: لما قدم رسول اللَّه يعبد اللَّه وحده مخالفًا للمشركين في عبادتهم الأوثان، كاد المشركون لتظاهرهم عليه، وتعاونهم على عداوته يزدحمون عليه.

والثالث: وهو قول قتادة: لما قام عبد اللَّه تلبدت الإنس والجن، وتظاهروا عليه ليبطلوا الحق الذي جاء به، ويطفئوا نور اللَّه، فأبى اللَّه إلا أن ينصره ويظهره على من عاداه، وأما على قول من قال: إنه من كلام الجن، فالوجهان أيضًا عائدان فيه»[2].

---

(١) مريم: الآية (٨٥).

(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ١٦٤-١٦٥).

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذكره الخلاف في المسألة: «وأولى الأقوال بالصواب في ذلك قول من قال: ذلك خبر من اللَّه عن أن رسوله محمدا ﷺ لما قام يدعوه كادت العرب تكون عليه جميعا في إطفاء نور اللَّه.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلات بالصواب؛ لأن قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ عقيب قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ وذلك من خبر اللَّه فكذلك قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ وأخرى أنه -تعالى ذكره- أتبع ذلك قوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ فمعلوم أن الذي يتبع ذلك الخبر عما لقي المأمور بأن لا يدعو مع اللَّه أحدا في ذلك، لا الخبر عن كثرة إجابة المدعوين وسرعتهم إلى الإجابة»[1].

قال ابن كثير معلقًا على اختيار الطبري: «وهو الأظهر لقوله بعده: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾، أي: قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه، ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته: ﴿إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى﴾، أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له، وأستجير به وأتوكل عليه، ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾»[2].

وفي هذه الآية دليل على عظم منزلة العبودية؛ لوصف اللَّه بها نبيه في مقام الدعوة إلى اللَّه، وهو من أشرف المقامات، **يقول ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنه سبحانه لما خلق خلقه أطوارا وأصنافا، وسبق في حكمه تفضيله آدم وبنيه على كثير من مخلوقاته جعل عبوديته أفضل درجاتهم، أعني العبودية الاختيارية التي يأتون بها طوعا واختيارا لا كرها واضطرارا، وقد ثبت أن اللَّه سبحانه أرسل جبريل إلى النبي ﷺ يخيره بين أن يكون ملكا نبيا، أو عبدا نبيا، فنظر إلى جبريل كالمستشير له، فأشار إليه أن تواضع، فقال: «بل أن أكون عبدا نبيا»[3] فذكره سبحانه باسم عبوديته في أشرف مقاماته، في مقام الإسراء، ومقام الدعوة، ومقام التحدي، فقال في مقام الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[4] ولم يقل: برسوله ولا نبيه، إشارة إلى

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ١١٩). (٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٧٢).

(٣) أحمد (٢/ ٢٣١)، والبزار [الكشف (٣/ ١٥٥/ ٢٤٦٢)]، وأبو يعلى (١٠/ ٤٩١/ ٦١٠٥)، وأورده الهيثمي في المجمع (٩/ ١٩) وقال: رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال الأولين رجال الصحيح. وصححه ابن حبان الإحسان (١٤/ ٢٨٠/ ٦٣٦٥).

(٤) الإسراء: الآية (١).

أنه قام هذا المقام الأعظم بكمال عبوديته لربه، وقال في مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ وقال في مقام التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[١] وفي الصحيحين في حديث الشفاعة وتراجع الأنبياء فيها، وقول المسيح ﷺ: «اذهبوا إلى محمد عبد غفر اللَّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[٢] فدل ذلك على أنه نال ذلك المقام الأعظم بكمال عبوديته لله، وكمال مغفرة اللَّه له، وإذا كانت العبودية عند اللَّه بهذه المنزلة اقتضت حكمته أن أسكن آدم وذريته دارا ينالون فيها هذه الدرجة بكمال طاعتهم لله، وتقربهم إليه بمحابه، وترك مألوفاتهم من أجله، فكان ذلك من تمام نعمته عليهم، وإحسانه إليهم»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن ابن عباس قال: قول الجن لقومهم: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ قال: لما رأوه يصلي وأصحابه يصلون بصلاته فيسجدون بسجوده قال: فعجبوا من طواعية أصحابه له قالوا لقومهم: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[٤].

★ فوائد الحديث:

أفاد الحديث تفسير الآية، وهو أحد الأقوال المنسوبة إلى ابن عباس في تفسيرها، وقد تقدم الكلام على معنى الآية وأقوال أهل العلم فيها في توضيح الآية.

* * *

(١) البقرة: الآية (٢٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١١٦)، والبخاري (٨/ ٢٠٢-٢٠٣/ ٤٤٧٦)، ومسلم (١/ ١٨٠-١٨١/ ١٩٣)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٢-١٤٤٣/ ٤٣١٢) من حديث أنس ﷺ.

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ١١٠-١١١).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧٠)، الترمذي (٥/ ٣٩٨/ ٣٣٢٣) واللفظ له، وقال: «حديث حسن صحيح»، الحاكم (٢/ ٥٠٤) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٠ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾

★ **غريب الآية:**

ملتحدًا: ملجأ يركن إليه. يقال: التحد إليه: مال.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلفت القراء في قراءة ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ فقرأته عامة قرّاء المدينة والبصرة وبعض الكوفيين على وجه الخبر قال: بالألف؛ ومن قرأ ذلك كذلك، جعله خبرا من اللّه عن نبيه محمد ﷺ أنه قال: فيكون معنى الكلام: وأنه لما قام عبد اللّه يدعوه تلبدوا عليه، قال لهم: إنما أدعو ربي، ولا أشرك به أحدًا. وقرأ ذلك بعض المدنيين وعامة قرّاء الكوفة على وجه الأمر من اللّه ﷻ لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد للناس الذين كادوا يكونوا عليك لبدا، إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا»[1].

قال ابن عاشور: «و﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ يفيد قصرا أي: لا أدعو غيره أي: لا أعبد غيره دونه وعطف عليه: ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ تأكيدا لمفهوم القصر»[2].

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١﴾ **يقول ابن جرير:** «يقول -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ: قل يا محمد لمشركي العرب الذين ردوا عليك ما جئتهم به من النصيحة، إني لا أملك لكم ضرا في دينكم ولا في دنياكم، ولا رشدا أرشدكم؛ لأن الذي يملك ذلك اللّه الذي له ملك كل شيء»[3].

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ١٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٤٣).

(٣) جامع البيان (٢٩/ ١٢٠).

قال البقاعي: «فالآية من الاحتباك وهو ظاهر على هذا التقدير، قال أبو حيان: فحذف من كل ما يدل مقابله عليه - انتهى. ويجوز أن يكون تقديره: لا أملك ضرًا لأني لا أملك لكم إضلالًا، ولا أملك لكم رشدًا فلا أملك لكم نفعًا، فإنه لا نفع في غير الرشاد، ولا ضر في غير الضلال، فقبح اللَّه ابن عربي الطائي الذي يقول في فصوصه: إن الضلال أهدى من الهدى، فلا أسخف عقلًا منه إلا من تبعه - عليهم لعنة اللَّه وخزيه، فإن قالوا: إنه أراد غير ما يفهم من ظاهر اللفظ، فقل: كذبتم فقد بين مراده إطباقكم على الفسق والفجور لا يكاد يجد منكم من يتهم بمذهبه وهو يتقيد بشرع، ولم تخرج الآية بهذا عن الاحتباك، فإن ذكر الضر أولًا دل على حذف النفع ثانيًا، وذكر الرشد ثانيًا دل على حذف الضلال أولًا»[1].

ولهذه الآية في نفي الضرر والنفع عن المخلوقين نظائر في القرآن يقول شيخ الإسلام: «إن ما سوى اللَّه لا يملك لا لنفسه ولا لغيره ضرا ولا نفعا، كما قال تعالى في سياق نهيه عن عبادة المسيح: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾[2] وقد قال لخاتم الرسل: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾[3] وقال: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ وقال على العموم: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾[4] وقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾[5] وقال: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٩٤).
(٢) المائدة: الآيات (٧٢-٧٦).
(٣) الأعراف: الآية (١٨٨).
(٤) فاطر: الآية (٢).
(٥) يونس: الآية (١٠٧).

هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[1] وقال صاحب يس: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾[2]. . فإن اللَّه سبحانه وسعت رحمته كل شيء، وهو ينعم على كثير من خلقه وإن لم يعبده، فنفعه للعباد لا يختص بعابديه، وإن كان في هذا تفصيل ليس هذا موضعه، وما دونه لا ينفع لا من عبده ولا من لم يعبده، وهو سبحانه الضار النافع، قادر على أن يضر من يشاء، وإن كان ما ينزله من الضر بعابديه هو رحمة في حقهم، كما قال أيوب: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ وقال أيضا لرسوله محمد ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ﴾[4] وهو سبحانه يحدث ما يحدثه من الضرر بمن لا يوصف بمعصية من الأطفال والمجانين والبهائم لما في ذلك من الحكمة والنعمة والرحمة، كما هو مبسوط في غير هذا الموضع، فإن المقصود هنا أن نفي الضر والنفع عمن سواه عام»[5].

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ **يقول ابن كثير**: «أخبر عن نفسه أيضا أنه لا يجيره من اللَّه أحد، أي: لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذي من عذابه، ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ قال مجاهد وقتادة والسدي: لا ملجأ. وقال قتادة أيضا: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: لا نصير ولا ملجأ. وفي رواية: لا ولي ولا موئل»[6].

قال ابن عاشور: «وهو اعتراض رد لما يحاولونه منه أن يترك ما يؤذيهم، فلا يذكر القرآن إبطال معتقدهم، وتحقير أصنامهم قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ

(١) الزمر: الآية (٣٨).
(٢) يس: الآيات (٢٢-٢٥).
(٣) الأنبياء: الآية (٨٣).
(٤) البقرة: الآية (١٧٧).
(٥) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٧١-٢٧٣).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٧٢).

عَظِيمٍ ⑮﴾(١)»(٢).

قال السعدي: «فإذا كان الرسول الذي هو أكمل الخلق لا يملك ضرا ولا رشدا، ولا يمنع نفسه من الله شيئا إن أراده بسوء، فغيره من الخلق من باب أولى وأحرى»(٣).

وقوله: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ **يقول ابن جرير**: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ: قل لمشركي العرب: إني لا أملك لكم ضرّا ولا رشدا ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ يقول: إلا أن أبلغكم من الله ما أمرني بتبليغكم إياه، وإلا رسالاته التي أرسلني بها إليكم؛ فأما الرشد والخذلان، فبيد الله، هو مالكه دون سائر خلقه يهدي من يشاء ويخذل من أراد»(٤).

قال الرازي: «قوله: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ ذكروا في هذا الاستثناء وجوهًا أحدها: أنه استثناء من قوله: ﴿لَآ أَمْلِكُ﴾ أي: لا أملك لكم ضرًا ولا رشدًا إلا بلاغًا من الله، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي﴾ جملة معترضة وقعت في البين لتأكيد نفي الاستطاعة عنه، وبيان عجزه على معنى: أنه تعالى إن أراد به سوءًا لم يقدر أحد أن يجيره منه، وهذا قول الفراء. وثانيها: وهو قول الزجاج: أنه نصب على البدل من قوله: ﴿مُلْتَحَدًا﴾ والمعنى: ولن أجد من دونه ملجأ إلا بلاغًا، أي: لا ينجيني إلا أن أبلغ عن الله ما أرسلت به، وأقول: هذا الاستثناء منقطع؛ لأنه تعالى لما لم يقل ولن أجد ملتحدًا؛ بل قال: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾، والبلاغ من الله لا يكون داخلًا تحت قوله: ﴿مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ لأن البلاغ من الله لا يكون من دون الله، بل يكون من الله وبإعانته وتوفيقه. ثالثها: قال بعضهم: (إلا) معناه: إن (لا) ومعناه: إن لا أبلغ بلاغًا، كقولك: (إلا) قيامًا فقعودًا، والمعنى: إن لا أبلغ لم أجد ملتحدًا، فإن قيل: المشهور أنه يقال بلغ عنه فلم قال هاهنا: ﴿بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾؟ قلنا: (من) ليست (بصفة للتبلغ) إنما هي بمنزلة (من) في قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾(٥) بمعنى: بلاغًا كائنًا من الله. أما قوله تعالى: ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ فهو عطف على ﴿بَلَٰغًا﴾ كأنه قال: لا أملك لكم إلا التبليغ والرسالات، والمعنى إلا أن أبلغ عن الله

---

(١) يونس: الآية (١٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٤٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٩٤).

(٤) جامع البيان (٢٩/ ١٢٠).

(٥) التوبة: الآية (١).

فأقول: قال اللَّه كذا ناسبًا القول إليه وأن أبلغ رسالاته التي أرسلني بها من غير زيادة ولا نقصان»[١].

قال الألوسي: «وفيه تهديد عظيم وتوكيل إلى اللَّه -جل وعلا-، وأنه سبحانه هو الذي يجزيه بحسن صنيعه، وسوء صنيعهم، ثم فيه مبالغة من حيث أنه لا يدع التبليغ لتظاهرهم هذا، فإن الذي يستطيعه -عليه الصلاة والسلام- هو التبليغ، ولا يدع المستطاع»[٢].

* * *

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ١٦٦).

(٢) روح المعاني (٢٩/ ٩٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: إنما أبلغكم رسالة الله، فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبدا لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها»(١).

قال السعدي: «وهذا المراد به المعصية الكفرية، كما قيدتها النصوص الأخر المحكمة. وأما مجرد المعصية، فإنه لا يوجب الخلود في النار، كما دلت على ذلك آيات القرآن، والأحاديث عن النبي ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة وأئمة هذه الأمة»(٢).

وقد استدل المعتزلة بالآية وما في معناها على تخليد العصاة في النار، وفي بيان حكم هذه المسألة يقول ابن القيم رحمه الله بعد ذكره لعدة آيات من آيات الوعيد: «وقد اختلف الناس في هذه النصوص على طرق: أحدها: القول بظاهرها، وتخلد أرباب هذه الجرائم في النار، وهو قول الخوارج والمعتزلة، ثم اختلفوا، فقالت الخوارج: هم كفار؛ لأنه لا يخلد في النار إلا كافر، وقالت المعتزلة: ليسوا بكفار؛ بل فساق مخلدون في النار، هذا كله إذا لم يتوبوا، وقالت فرقة: بل هذا الوعيد في حق المستحل لها؛ لأنه كافر، وأما من فعلها معتقدا تحريمها فلا يلحقه هذا الوعيد، وعيد الخلود، وإن لحقه وعيد الدخول. وقد أنكر الإمام أحمد هذا القول وقال: لو استحل ذلك ولم يفعله كان كافرا، والنبي ﷺ إنما قال من فعل كذا وكذا. وقالت فرقة ثالثة: الاستدلال بهذه النصوص مبني على ثبوت العموم، وليس في اللغة ألفاظ عامة، ومن هاهنا أنكر العموم من أنكره، وقصدهم تعطيل هذه الأدلة عن استدلال المعتزلة والخوارج بها، لكن ذلك يستلزم تعطيل الشرع جملة؛

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٧٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٩٥).

بل تعطيل عامة الأخبار، فهؤلاء ردوا باطلا بأبطل منه، وبدعة بأقبح منها، وكانوا كمن رام أن يبني قصرا فهدم مصرا. وقالت فرقة رابعة: في الكلام إضمار، قالوا: والإضمار في كلامهم كثير معروف، ثم اختلفوا في هذا المضمر فقالت طائفة: بإضمار الشرط، والتقدير: فجزاؤه كذا إن جازاه أو إن شاء. وقالت فرقة خامسة بإضمار الاستثناء، والتقدير: فجزاؤه كذا إلا أن يعفو، وهذه دعوى لا دليل في الكلام عليها البتة، ولكن إثباتها بأمر خارج عن اللفظ. وقالت فرقة سادسة: هذا وعيد، وإخلاف الوعيد لا يذم؛ بل يمدح، واللَّه تعالى يجوز عليه إخلاف الوعيد، ولا يجوز عليه خلف الوعد، والفرق بينهما: أن الوعيد حقه، فإخلافه عفو وهبة وإسقاط، وذلك موجب كرمه وجوده وإحسانه، والوعد حق عليه أوجبه على نفسه، واللَّه لا يخلف الميعاد. قالوا: ولهذا مدح به كعب بن زهير رسول اللَّه ﷺ حيث يقول:

نبئت أن رسول اللَّه أوعدني … والعفو عند رسول اللَّه مأمول

وتناظر في هذه المسألة أبو عمرو بن العلاء وعمرو بن عبيد، فقال عمرو بن عبيد: يا أبا عمرو لا يخلف اللَّه وعده، وقد قال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾[1] الآية فقال له أبو عمرو: ويحك يا عمرو من العجمة أتيت، إن العرب لا تعد إخلاف الوعيد ذما؛ بل جودا وكرما، أما سمعت قول الشاعر:

ولا يرهب ابن العم ما عشت صولتي … ولا يختشي من سطوة المتهدد

وإني إن أوعدته أو وعدته … لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وقالت فرقة سابعة: هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضى للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء مانعه، وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتض لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع، فبعضها بالإجماع، وبعضها بالنص، فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا

---

(١) النساء: الآية (٩٣).

مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين. ومن هاهنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات اعتبارا بمقتضى العقاب ومانعه، وإعمالا لأرجحها، قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما، وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية والأحكام القدرية، وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقا وأمرا، وقد جعل اللَّه سبحانه لكل ضد ضدا يدافعه ويقاومه، ويكون الحكم للأغلب منهما، فالقوة مقتضية للصحة والعافية، وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل الطبيعة وفعل القوة، والحكم للغالب منهما، وكذلك قوى الأدوية والأمراض، والعبد يكون فيه مقتض للصحة ومقتض للعطب، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه، فإذا ترجح عليه وقهره كان التأثير له، ومن هاهنا يعلم انقسام الخلق إلى من يدخل الجنة ولا يدخل النار وعكسه، ومن يدخل النار ثم يخرج منها ويكون مكثه فيها بحسب ما فيه من مقتضى المكث في سرعة الخروج وبطئه، ومن له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر اللَّه به في كتابه من أمر المعاد وتفاصيله حتى كأنه يشاهده رأي عين، ويعلم أن هذا هو مقتضى إلهيته سبحانه وربوبيته، وعزته وحكمته، وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة خلاف ذلك إليه نسبة مالا يليق به إليه، فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره، وهذا يقين الإيمان وهو الذي يحرق السيئات كما تحرق النار الحطب. وصاحب هذا المقام من الإيمان يستحيل إصراره على السيئات، وإن وقعت منه وكثرت فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى اللَّه بعدد أنفاسه، وهذا من أحب الخلق إلى اللَّه، فهذه مجامع طرق الناس في نصوص الوعيد»[1].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾:

يقول ابن عاشور: «كانوا إذا سمعوا آيات الوعد بنصر الرسول ﷺ والمسلمين في الدنيا والآخرة، وآيات الوعيد للمشركين بالانهزام وعذاب الآخرة وعذاب الدنيا استسخروا من ذلك وقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[2]، ويقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٩٥-٣٩٨).

(٢) سبأ: الآية (٣٥).

إن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١]، ويقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢]، وقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾[٣]، فهم مغرورون بالاستدراج والإمهال، فلذلك عقب وعيدهم بالغاية المفادة من (حَتى)، فالغاية هنا متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام من سخرية الكفار من الوعيد، واستضعافهم المسلمين في العَدد والعُدد، فإن ذلك يفهم منه أنهم لا يزالون يحسبون أنهم غالبون فائزون، حتى إذا رأوا ما يوعدون تحققوا إخفاق آمالهم»[٤].

وقال ابن كثير: «أي: حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصرًا وأقل عددًا، هم أم المؤمنون الموحدون لله ﷻ، أي: بل المشركين لا ناصر لهم بالكلية، وهم أقل عددًا من جنود اللَّه ﷻ»[٥].

قال الرازي: «واعلم أن نظير هذه الآية قوله في مريم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾[٦] واعلم أن الكافر لا ناصر له، ولا شفيع يوم القيامة على ما قال: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[٧] ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾[٨] ويفر كل أحد منهم من صاحبه على ما قال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾[٩] إلى آخره: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾[١٠] وأما المؤمنون فلهم العزة والكرامة والكثرة قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾[١١] والملك القدوس يسلم عليهم ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾[١٢] فهناك يظهر أن القوة والعدد في جانب المؤمنين أو في جانب الكفار»[١٣].

قال ابن عاشور: «وهذا وعيد لهم بخيبة غرورهم بالأمن من غلب المسلمين في الدنيا، فإنهم كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾[١٤] وقالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا

---

(١) السجدة: الآية (٢٨).
(٢) يونس: الآية (٤٨).
(٣) ص: الآية (١٦).
(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٤٥).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٧٢).
(٦) مريم: الآية (٧٥).
(٧) غافر: الآية (١٨).
(٨) الأنبياء: الآية (٢٨).
(٩) عبس: الآية (٣٤).
(١٠) الحج: الآية (٢).
(١١) الرعد: الآيتان (٢٣و٢٤).
(١٢) يس: الآية (٥٨).
(١٣) التفسير الكبير (٣٠/ ١٦٨).
(١٤) القمر: الآية (٤٤).

وَأَوْلَٰدًا﴾[(١)]»[(٢)].

قال البقاعي: «فياللّه ما أعظم كلام الرسل حيث يستضعفون أنفسهم من حيث هي، ويذكرون قوتهم من جهة مولاهم الذي بيده الملك، وله جنود السماوات والأرض، بخلاف أهل الإلحاد، فإنه لا كلام لهم إلا في تعظيم أنفسهم وازدراء من سواهم، وإذا حاققت أحدًا من أتباع أحد منهم قال هذا على لسان النبوة ونحو هذا من مخادعاتهم»[(٣)].

* * *

(١) سبأ: الآية (٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٤٦).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤٩٩).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «يعني قيام الساعة. وقيل: عذاب الدنيا، أي لا أدري فـ﴿إِنْ﴾ بمعنى (ما) أو (لا)، أي: لا يعرف وقت نزول العذاب ووقت قيام الساعة إلا اللَّه، فهو غيب لا أعلم منه إلا ما يعرفنيه الله»[(١)].

قال الرازي: «والمعنى أن وقوعه متيقن، أما وقت وقوعه فغير معلوم، وقوله: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ أي غاية وبعدًا، وهذا كقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾[(٢)] فإن قيل: أليس أنه قال: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[(٣)] فكان عالمًا بقرب وقوع القيامة، فكيف قال: هاهنا لا أدري أقريب أم بعيد؟ قلنا: المراد بقرب وقوعه هو أن ما بقي من الدنيا أقل مما انقضى، فهذا القدر من القرب معلوم، وأما معنى معرفة القرب القريب وعدم ذلك فغير معلوم»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن النبي ﷺ لا يعلم وقت قيام الساعة

* عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لن يعجز اللَّه هذه الأمة من نصف يوم**»[(٥)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٨). (٢) الأنبياء: الآية (١٠٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣٠)، والبخاري (١١/ ٤٢٢/ ٦٥٠٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٦٨/ ٢٩٥١)، والترمذي (٤/ ٤٣٠/ ٢٢١٤)، من حديث أنس ﷺ. (٤) التفسير الكبير (٣٠/ ١٦٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ١٩٣)، أبو داود (٤/ ٥١٧/ ٤٣٤٩) واللفظ له، الحاكم (٤/ ٤٢٤) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي، كلهم من طرق عن معاوية بن صالح عن عبد الرحمن بن جبير عن أبيه عن أبي ثعلبة الخشني. وله شاهد عن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال: (إني لأرجو أن لا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم) قيل لسعد: وكم نصف ذلك اليوم؟ قال: (خمسمائة سنة) أخرجه: أحمد (١/ ١٧٠)، أبو داود (٤/ ٥١٧/ ٤٣٥٠)، الحاكم (٤/ ٤٢٤) كلهم من طرق عن سعد. قال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين» وتعقبه الذهبي بقوله: «لا واللَّه، ابن أبي مريم ضعيف ولم يرويا له شيئا».

★ **غريب الحديث:**

لن يعجز: «عدم العجز كناية عن التمكن من القربة، والمكانة عند اللَّه تعالى، مثال ذلك قول المقرب عند السلطان: إني لا أعجز أن يوليني الملك كذا وكذا. يعني به أن لي عنده مكانة وقربة يحصل بها كل ما أرجوه عنده»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «فالمعنى: إني أرجو أن يكون لأمتي عند اللَّه مكانة ومنزلة يمهلهم من زماني هذا إلى انتهاء خمسمائة سنة، بحيث لا يكون أقل من ذلك إلى قيام الساعة. وإنما فسر الراوي نصف اليوم بخمسمائة نظرا إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝﴾[٣].

وإنما عبر رسول اللَّه ﷺ عن خمسمائة سنة بنصف يوم تقليلا لبغيتهم، ورفعا لمنزلتهم، أي لا يناقشهم في هذا المقدار القليل؛ بل يزيدهم من فضله. وقد وهم بعضهم ونزل الحديث على أمر القيامة، وحمل اليوم على يوم المحشر، فهب أنه غفل عما حققناه ونبهنا عليه، فهلا انتبه لمكان الحديث وأنه من أي باب من أبواب الكتاب، فإنه مكتوب في باب قرب الساعة، فأين هو منه»[٤].

قال الحافظ: «وقد حمل بعض شراح المصابيح الحديث على حال يوم القيامة وزيفه الطيبي فأصاب»[٥].

قال في العون: «والحديث محمول على قرب قيام الساعة، وعلى هذا حمله أبو داود، ولذلك أورده في هذا الباب، وعلى هذا حمله صاحب المصابيح أيضا، ولذلك أورده في باب قرب الساعة واختاره الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وزيف المعنى الأول»[٦].

قال الحافظ: «ونقل ابن التين عن الداودي أنه أنكر على الطبري دعواه أنه بقي من الدنيا من هجرة المصطفى نصف يوم، وهو خمسمائة عام قال: وتقوم الساعة ويعود الأمر إلى ما كان عليه قبل أن يكون شيء غير الباري تعالى، فلا يبقى غير

---

(١) شرح الطيبي (١١/ ٣٤٨٢).
(٢) الحج: الآية (٤٧).
(٣) السجدة: الآية (٥).
(٤) شرح الطيبي (١١/ ٣٤٨٢-٣٤٨٣).
(٥) الفتح (١١/ ٤٢٨).
(٦) عون المعبود (١١/ ٥١٠).

وجهه، فرد عليه بأن وقت الساعة لا يعلمها إلا اللَّه، فالذي قاله مخالف لصريح القرآن والحديث، ثم تعقبه من جهة أخرى وذلك أنه توهم من كلامه أنه ينكر البعث فأقدم على تكفيره، وزعم أن كلامه لا يحتمل تأويلا، وليس كما قال؛ بل مراد الطبري أنه يصير الأمر أي بعد فناء المخلوقات كلها على ما كان عليه أولا، ثم يقع البعث والحساب، هذا الذي يجب حمل كلامه عليه، وأما إنكاره عليه استخراج وقت الساعة فهو معذور فيه، ويكفي في الرد عليه أن الأمر وقع بخلاف ما قال، فقد مضت خمسمائة ثم ثلاثمائة وزيادة، لكن الطبري تمسك بحديث أبي ثعلبة رفعه: «لن يعجز هذه الأمة أن يؤخرها اللَّه نصف اليوم» الحديث أخرجه أبو داود وغيره، لكنه ليس صريحا في أنها لا تؤخر أكثر من ذلك واللَّه أعلم»[(١)].

قال ابن كثير: «وهذا من دلائل النبوة فإن هذا يقتضي وقوع تأخير الأمة نصف يوم وهو خمسمائة سنة كما فسره الصحابي، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ثم هذا الإخبار بوقوع هذه المدة لا ينفي وقوع ما زاد عليها، فأما ما يذكره كثير من الناس من أنه ﷺ لا يؤلف في قبره، بمعنى لا يمضي عليه ألف سنة من يوم مات إلى حين تقام الساعة، فإنه حديث لا أصل له في شيء من كتب الإسلام واللَّه أعلم»[(٢)].

* * *

(١) الفتح (٨/ ٦٦٠).

(٢) البداية والنهاية (٦/ ٢٥٩).

قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾

★ غريب الآية:

رصدًا: أي: حرسًا وحفظة. واحده: راصد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «فلا يطلعُ على غيبِه اطلاعًا كاملًا ينكشفُ به جليةُ الحالِ انكشافًا تامًا موجبًا لعين اليقينِ أحدًا من خلقه ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أي: إلا رسولًا ارتضاهُ لإظهارِه على بعضِ غيوبهِ المتعلقةِ برسالتِه، كما يُعربُ عنه بيانُ من ارتضَى بالرسول تعلقًا تامًا، إما لكونه من مبادئ رسالتِه بأن يكونَ معجزةً دالةً على صحتها، وإما لكونه من أركانِها وأحكامِها، كعامة التكاليفِ الشرعيةِ التي أُمرَ بها المكلفونَ، وكيفياتِ أعمالِهم وأجزيتِها المترتبةِ عليها في الآخرة، وما تتوقفُ هي عليهِ من أحوالِ الآخرةِ التي من جُمْلتِها قيامُ الساعةِ والبعثُ، وغيرُ ذلكَ من الأمورِ الغيبيةِ التي بيانُها من وظائفِ الرسالةِ، وأما ما لا يتعلقُ بها على أحد الوجهينِ من الغيوبِ التي من جُمْلتِها وقتُ قيامِ الساعةِ، فلا يُظهر عليهِ أحدًا أبدًا، على أنَّ بيانَ وقتِه مخلٌّ بالحكمةِ التشريعيةِ التي عليها يدورُ فلكُ الرسالة وقولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ تقريرٌ وتحقيقٌ للإظهارِ المستفادِ من الاستثناءِ وبيانٌ لكيفيته، أي: فإنَّه يسلكُ من جميع جوانبِ الرسولِ ﷺ عند إظهارِه على غيبه حرسًا من الملائكةِ يحرسُونه من تعرضِ الشياطينِ لما أظهَرُه عليهِ من الغيوبِ المتعلقةِ برسالتِه»[١].

قال القرطبي: «قال العلماء -رحمة الله عليهم-: لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى من

(١) تفسير أبي السعود (٩/ ٤٧-٤٨).

ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم. وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر في الكتب ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول، فيطلعه على ما يشاء من غيبه؛ بل هو كافر باللَّه مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه.

قال بعض العلماء: وليت شعري ما يقول المنجم في سفينة ركب فيها ألف إنسان على اختلاف أحوالهم، وتباين رتبهم، فيهم الملك والسوقة، والعالم والجاهل، والغني والفقير، والكبير والصغير، مع اختلاف طوالعهم، وتباين مواليدهم، ودرجات نجومهم، فعمهم حكم الغرق في ساعة واحدة؟ فإن قال المنجم قبحه الله: إنما أغرقهم الطالع الذي ركبوا فيه، فيكون على مقتضى ذلك أن هذا الطالع أبطل أحكام تلك الطوالع كلها على اختلافها عند ولادة كل واحد منهم، وما يقتضيه طالعه المخصوص به، فلا فائدة أبدا في عمل المواليد، ولا دلالة فيها على شقي ولا سعيد، ولم يبق إلا معاندة القرآن العظيم. وفيه استحلال دمه على هذا التنجيم، ولقد أحسن الشاعر حيث قال:

حكم المنجم أن طالع مولدي ... يقضي علي بميتة الغرق

قل للمنجم صبحة الطوفان هل ... ولد الجميع بكوكب الغرق

وقيل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما أراد لقاء الخوارج: أتلقاهم والقمر في العقرب؟ فقال رضي الله عنه: فأين قمرهم؟ وكان ذلك في آخر الشهر. فانظر إلى هذه الكلمة التي أجاب بها، وما فيها من المبالغة في الرد على من يقول بالتنجيم، والإفحام لكل جاهل يحقق أحكام النجوم»[(١)].

قال الشوكاني: «وفي هذا دليل على أن من ادّعى أن النجوم تدله على ما يكون من حادث فقد كفر بما في القرآن. قال في الكشاف: في هذا.. إبطال للكهانة والتنجيم؛ لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء، وأدخله في السخط»[(٢)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٩).

(٢) فتح القدير (٥/ ٤٤٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في اختصاص اللّه تعالى بعلم الغيب

* عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا اللّه، ولا يعلم ما في غد إلا اللّه، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا اللّه، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا اللّه، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله**»[(١)].

★ فوائد الحديث:

قال السندي: «سميت هذه الخمس مفاتيح الغيب؛ لأن من عنده هذه الخمس فعنده الغيب كله، فصارت كأنها مما يستفتح بها خزائن الغيب»[(٢)].

قال القرطبي: «لا مطمع لأحد في علم شيء من هذه الأمور الخمس؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[(٣)] فلا طريق لعلم شيء من ذلك إلا أن يعلم اللّه تعالى بذلك، أو بشيء منه أحدا ممن شاءه. كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾.

فمن ادعى علم شيء من هذه الأمور كان في دعواه كاذبا إلا أن يسند ذلك إلى رسول بطريق تفيد العلم القطعي، ووجود ذلك متعذر؛ بل ممتنع، وأما ظن الغيب فلم يتعرض شيء من الشرع لنفيه ولا لإثباته، فقد يجوز أن يظن المنجم أو صاحب خط الرمل أو نحو هذا شيئا مما يقع في المستقبل، فيقع على ما ظنه، فيكون ذلك ظنا صادقا إذا كان عن موجب عادي يقتضي ذلك الظن، وليس بعلم، فيفهم هذا منه، فإنه موضع غلط بسببه رجال، وأكلت به أموال. ثم اعلم أن أخذ الأجرة والجعل على ادعاء علم الغيب أو ظنه لا يجوز بالإجماع، على ما حكاه أبو عمر بن عبد البر»[(٤)].

قال الحافظ: «قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة نفع اللّه به: استعار للغيب مفاتيح اقتداء بما نطق به الكتاب العزيز ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ وليقرب الأمر

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٢). البخاري (١٣/ ٤٤٧/ ٧٣٧٩)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١١/ ٧٧٢٨).

(٢) حاشية المسند (٨/ ٣٨٧). (٣) الأنعام: الآية (٥٩).

(٤) المفهم (١/ ١٥٥-١٥٦).

على السامع؛ لأن أمور الغيب لا يحصيها إلا عالمها، وأقرب الأشياء إلى الاطلاع على ما غاب الأبواب، والمفاتيح أيسر الأشياء لفتح الباب، فإذا كان أيسر الأشياء لا يعرف موضعها فما فوقها أحرى أن لا يعرف، قال: والمراد بنفي العلم عن الغيب الحقيقي، فإن لبعض الغيوب أسبابا قد يستدل بها عليها، لكن ليس ذلك حقيقيا، قال: فلما كان جميع ما في الوجود محصورا في علمه شبهه المصطفى بالمخازن، واستعار لبابها المفتاح، وهو كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾[1] قال: والحكمة في جعلها خمسا الإشارة إلى حصر العوالم فيها، ففي قوله: «وما تغيض الأرحام» إشارة إلى ما يزيد في النفس وينقص، وخص الرحم بالذكر لكون الأكثر يعرفونها بالعادة، ومع ذلك فنفى أن يعرف أحد حقيقتها، فغيرها بطريق الأولى، وفي قوله: «ولا يعلم متى يأتي المطر» إشارة إلى أمور العالم العلوي، وخص المطر مع أن له أسبابا قد تدل بجري العادة على وقوعه لكنه من غير تحقيق، وفي قوله: «ولا تدري نفس بأي أرض تموت» إشارة إلى أمور العالم السفلي مع أن عادة أكثر الناس أن يموت ببلده، ولكن ليس ذلك حقيقة؛ بل لو مات في بلده لا يعلم في أي بقعة يدفن منها، ولو كان هناك مقبرة لأسلافه؛ بل قبر أعده هو له. وفي قوله: «ولا يعلم ما في غد إلا الله» إشارة إلى أنواع الزمان وما فيها من الحوادث، وعبر بلفظ غد؛ لتكون حقيقته أقرب الأزمنة، وإذا كان مع قربه لا يعلم حقيقة ما يقع فيه مع إمكان الأمارة والعلامة فما بعد عنه أولى، وفي قوله: «ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله» إشارة إلى علوم الآخرة، فإن يوم القيامة أولها، وإذا نفى علم الأقرب انتفى علم ما بعده، فجمعت الآية أنواع الغيوب، وأزالت جميع الدعاوى الفاسدة، وقد بين بقوله تعالى في الآية الأخرى وهي قوله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أن الاطلاع على شيء من هذه الأمور لا يكون إلا بتوفيق. انتهى ملخصا»[2].

* عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: من حدثك أن محمدا ﷺ رأى ربه فقد كذب وهو يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[3] ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب،

(١) الحجر: الآية (٢١).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٤٥١-٤٥٢)، وانظر بهجة النفوس (٤/ ٢٧٢-٢٧٤).

(٣) الأنعام: الآية (١٠٣).

وهو يقول: (لا يعلم الغيب إلا الله)[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال الغنيمان: «وعلم الغيب من خصائص الرب تعالى التي بعث رسله وأنزل كتبه لبيانها، ونفى ذلك عمن سواه تعالى. وأما قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فهي كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[٢] فهي تبين أن الله تعالى يطلع من يشاء من رسله على ما يشاء من المغيبات، وذلك بوحيه إليهم، مثل إخباره عما جرى من الأمم الماضية، وما أصيبوا به من العذاب وغيره، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾[٣] وكذلك الإخبار عن المستقبل من المعاد، والجنة والنار، التي أطلع عليها رسوله فآمن بها المؤمنون، وعرفوها من كتاب الله تعالى، ومن سنة رسوله ﷺ إجمالاً.

وأما الإحاطة بالمعلومات كلياتها وجزئياتها ما كان منها وما يكون، فهذا إلى الله وحده لا يضاف إلى غيره من الخلق، فمن ادعى شيئا من ذلك لغير الله تعالى، فقد أعظم الفرية على الله تعالى، وعلى رسوله ﷺ.

فعلم الغيب لله وحده، ولا يقال لغيره عالم الغيب، ومن اطلع على شيء منه بواسطة الوحي أو غيره يقال: أطلعه الله عليه، كالإخبار عن حال البرزخ والحساب، والجنة والنار، وما أشبه ذلك، وما يدعيه المتصوفة في مشايخهم هو من تلاعب الشيطان بهم، وكذا ما يسمونه الكشوف لا أصل له»[٤].

قال الحافظ: «وأما ما ثبت بنص القرآن أن عيسى ﵇ قال: إنه يخبرهم بما يأكلون وما يدخرون، وأن يوسف قال: إنه ينبئهم بتأويل الطعام قبل أن يأتي إلى غير ذلك مما ظهر من المعجزات والكرامات، فكل ذلك يمكن أن يستفاد من الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فإنه يقتضي اطلاع الرسول على بعض الغيب»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٠). البخاري (١٣/ ٤٤٧/ ٧٣٨٠)، مسلم (١/ ١٥٩/ ١٧٧). الترمذي (٥/ ٣٦٧-٣٦٨/ ٣٢٧٨)، والنسائي في الكبرى (/ ٤٧١/ ١١٥٣٢). (٢) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٣) هود: الآية (٤٩). (٤) شرح كتاب التوحيد (١/ ١١٧-١١٨).
(٥) الفتح (٨/ ٦٦٠).

قال الغنيمان: «وبهذا وغيره يتبين ضلال الذين يزعمون أن فريقا من الناس ممن يدعون لهم الولاية، أنهم يعلمون الغيب، وكذا الذين يدعون ذلك لرسول اللَّه ﷺ فإنه لا يعلم الغيب إلا اللَّه تعالى، وقد أمره اللَّه أن يعلم الناس أنه لا يعلم الغيب فقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[(١)] فنفى تعالى علم الغيب عن الخلق عموما من في السماوات كالملائكة، ومن في الأرض كالأنبياء، فكيف يدعى علم ذلك لغيرهم.

وأما أصحاب الدجل والتمويه، الذين يحتالون على أكل أموال الناس بالباطل، كالذين يزعمون معرفة ما في المستقبل بواسطة النجوم، أو بقراءة الكف، أو فنجان القهوة، ونحو ذلك. فهؤلاء لا يخفى ضلالهم وكذبهم إلا على أجهل الناس، والمغفلين منهم»[(٢)].

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «وكل هذه الأمور من خصائص الربوبية والإلهية التي بعث اللَّه رسله وأنزل كتبه لبيانها، واختصاصها لله سبحانه دون كل من سواه. وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ كقوله في آية الكرسي: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[(٣)]. فقد أطلع من شاء من أنبيائه ورسله على ما شاء من الغيب بوحيه إليهم، فمن ذلك ما جرى من الأمم السالفة وما جرى عليهم. كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾.

وكذلك ما تضمنه الكتاب والسنة من أخبار المعاد والجنة والنار ونحو ذلك، أطلع اللَّه عليه رسوله، والمؤمنون عرفوه من كتاب اللَّه وسنة رسوله، وآمنوا به. وأما إحاطة العلم بالمعلومات كلياتها وجزئياتها، وما كان منها وما لم يكن، فذاك إلى اللَّه وحده، لا يضاف إلى غيره من خلقه، فمن ادعى ذلك لغير اللَّه فقد أعظم الفرية على اللَّه وعلى رسوله ﷺ، فما أجرأ هذا القائل على اللَّه في سلب حقه، وما أعداه لرسول اللَّه ﷺ ولمن تولاه من المؤمنين والموحدين؟»[(٤)].

* * *

---

(١) النمل: الآية (٦٥).

(٢) شرح كتاب التوحيد (١/ ١١١).

(٣) البقرة: الآية (٢٥٥).

(٤) مجموعة التوحيد (٣٣١-٣٣٢).

قوله تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الذين عني بقوله: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ فقال بعضهم: عُنِي بذلك رسول ﷺ وقالوا: معنى الكلام: ليعلم رسول اللَّه ﷺ أن قد أبلغت الرسل قبله عن ربها.. وقال آخرون: بل معنى ذلك ليعلم المشركون أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: ليعلم محمد أن قد بلغت الملائكة رسالات ربهم.. قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندنا بالصواب، قول من قال: ليعلم الرسول أن الرسل قبله قد أبلغوا رسالات ربهم؛ وذلك أن قوله: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ من سبب قوله: ﴿يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ وذلك خبر عن الرسول، فمعلوم بذلك أن قوله: ليعلم من سببه إذ كان ذلك خبرا عنه»[1].

قال ابن كثير: «ويحتمل أن يكون الضمير عائدًا إلى اللَّه ﷻ، وهو قول حكاه ابن الجوزي في زاد المسير، ويكون المعنى في ذلك: أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما بُيِّن إليهم من الوحي؛ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، ويكون ذلك كقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾[2] وكقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾[3] إلى أمثال ذلك، مع العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعا لا محالة»[4].

وقوله: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ **يقول القرطبي**: «أي: أحاط علمه بما عندهم، أي: بما عند الرسل وما عند الملائكة. وقال ابن جبير: المعنى: ليعلم الرسل أن ربهم قد

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ١٢٢-١٢٣).
(٢) البقرة: الآية (١٤٣).
(٣) العنكبوت: الآية (١١).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٧٤).

أحاط علمه بما لديهم، فيبلغوا رسالاته.

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أي: أحاط بعدد كل شئ وعرفه وعلمه، فلم يخف عليه منه شيء. و﴿عَدَدًا﴾ نصب على الحال، أي: أحصى كل شئ في حال العدد، وإن شئت على المصدر، أي: أحصى وعد كل شئ عددا، فيكون مصدر الفعل المحذوف. فهو سبحانه المحصي المحيط العالم الحافظ لكل شيء»[1].

قال السعدي: «وفي هذه السورة فوائد عديدة منها: وجود الجن، وأنهم مكلفون مأمورون مكلفون منهيون، مجازون بأعمالهم، كما هو صريح في هذه السورة.

ومنها: أن رسول اللَّه ﷺ رسول إلى الجن، كما هو رسول إلى الإنس، فإن اللَّه صرف نفرا من الجن ليستمعوا ما يوحى إليه ويبلغوا قومهم.

ومنها: ذكاء الجن ومعرفتهم بالحق، وأن الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحققوه من هداية القرآن، وحسن أدبهم في خطابهم.

ومنها: اعتناء اللَّه برسوله، وحفظه لما جاء به، فحين ابتدأت بشائر نبوته، والسماء محروسة بالنجوم، والشياطين قد هربت من أماكنها، وأزعجت عن مراصدها، وأن اللَّه رحم به الأرض وأهلها رحمة ما يقدر لها قدر، وأراد بهم ربهم رشدا، فأراد أن يظهر من دينه وشرعه ومعرفته في الأرض، ما تبتهج به القلوب، وتفرح به أولو الألباب، وتظهر به شعائر الإسلام، وينقمع به أهل الأوثان والأصنام..

ومنها: أن هذه السورة قد اشتملت على الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وبينت حالة الخلق، وأن كل أحد منهم لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأن الرسول محمدا ﷺ، إذا كان لا يملك لأحد نفعا ولا ضرا، بل ولا يملك لنفسه، علم أن الخلق كلهم كذلك، فمن الخطأ والغلط اتخاذ من هذا وصفه إلها آخر مع اللَّه.

ومنها: أن علوم الغيوب قد انفرد اللَّه بعلمها، فلا يعلمها أحد من الخلق،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٢١).

إلا من ارتضاه اللَّه وخصه بعلم شيء منها»[١].

قلت: هذه السورة الفريدة التي تحدثت عن عالم لا يمكن الوصول إليه إلا بطريق الخبر عن اللَّه أو عن رسوله ﷺ بالسند الصحيح والمتن الواضح. وبينت في آياتها هذا العالم وأنهم كإخوانهم من الإنس، وُجِدوا لتحقيق العبودية للَّه تعالى، وأن بعض الإنس جهلوا أحوال الجن فتوهموا فيهم أوهامًا أوقعهم ذلك في تعب وشقاء وضنك. وأن الجن كالإنس فيهم المسلمون وفيهم الكفار وفيهم الفساق. فالمسلم يستعيذ من شر الكفار والفساق الذين فيهم إذاية وضرر على الإنس والجن. والملاحظ في هذه السورة بيان تصريحات الجن بحبهم للَّه ولرسوله، وأنهم يحبون الهدى والاهتداء، وكما ذكر اللَّه عنهم في سورة الأحقاف سماعهم لكتاب اللَّه ودعوتهم لذلك، وذكر عنهم في سورة الرحمن أنهم أكثر إجابة من الإنس، فعالم الجن كعالم الإنس عالم دعوة، وأن النبي ﷺ دعاهم إلى اللَّه وبين لهم رسالته. فهل للإنس أن يقتدوا بإخوانهم الجن فيجتهدون في الدعوة إلى اللَّه وإلى الكتاب والسنة كما ذكر اللَّه عن هؤلاء الأخيار من الجن فهذه السورة وأمثالها آيات دعوية على المسلم أن يحرص عليها ويقتدي بهؤلاء الدعاة، وأن يبلغ دين اللَّه قدر ما يستطيع، وأن لا يتوانى في ذلك ويتأخر ويعتذر، واللَّه الموفق وهو الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٩٦-٤٩٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المزمل

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾

★ غريب الآية:

المزمل: المتزمل، وهو المتلفف بثوبه. قال امرؤ القيس:

كأن ثبيرًا في عرانين وبله ... كبير أناس في مجاد مزمل

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل، وهو: التغطي في الليل، وينهض إلى القيام لربه ﷻ، كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦)﴾(١) وكذلك كان رسول اللَّه ﷺ ممتثلا ما أمره اللَّه تعالى به من قيام الليل، وقد كان واجبًا عليه وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩)﴾(٢) وهاهنا بين له مقدار ما يقوم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)﴾»(٣).

قال ابن جرير رحمه الله: «واختلف أهل التأويل في المعنى الذي وصف اللَّه به

(١) السجدة: الآية (١٦).
(٢) الإسراء: الآية (٧٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٧٦).

نبيه ﷺ في هذه الآية من التزمل، فقال بعضهم: وصفه بأنه متزمل في ثيابه، متأهب للصلاة.. عن قتادة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾: أي: المتزمل في ثيابه. حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ هو الذي تزمل بثيابه. وقال آخرون: وصفه بأنه متزمل النبوة والرسالة.. عن عكرمة، في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ قال: زملت هذا الأمر فقم به.

قال أبو جعفر: والذي هو أولى القولين بتأويل ذلك، ما قاله قتادة؛ لأنه قد عقبه بقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ فكان ذلك بيانا عن أن وصفه بالتزمل بالثياب للصلاة، وأن ذلك هو أظهر معنييه»[1].

قال ابن العربي: «فأما العدول عن الحقيقة إلى المجاز فلا يحتاج إليه، لا سيما وفيه خلاف الظاهر؛ وإذا تعاضدت الحقيقة والظاهر لم يجز العدول عنه.

وأما قول عكرمة: إنك زملت هذا الأمر فقم به؛ وإنما يسوغ هذا التفسير لو كانت الميم مفتوحة مشددة بصيغة المفعول الذي لم يسم فاعله، وأما وهو بلفظ الفاعل فهو باطل. وأما قول من قال: إنه زمل بالقرآن فهو صحيح في المجاز، لكنه كما قدمنا لا يحتاج إليه»[2].

قال القرطبي: «وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان: إحداهما الملاطفة؛ فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها.. وإشعارا لترك العتب والتأنيب. فقول الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمْ﴾ فيه تأنيس وملاطفة؛ ليستشعر أنه غير معاتب عليه. والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل راقد ليله ليتنبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه؛ لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة»[3].

قال ابن عاشور: «وتخصيص الليل بالصلاة فيه لأنه وقت النوم عادة، فأمر الرسول ﷺ بالقيام فيه زيادة في إشغال أوقاته بالإقبال على مناجاة الله»[4].

قال الحافظ ابن رجب: «ولأن صلاة الليل أشق على النفوس، فإن الليل محل

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ١٢٤).
(٢) أحكام القرآن (٤/ ١٨٧١).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٢٣).
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٥٩).

النوم والراحة من التعب بالنهار، فترك النوم مع ميل النفس إليه مجاهدة عظيمة، قال بعضهم: أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس، ولأن القراءة في صلاة الليل أقرب إلى التدبر، فإنه تنقطع الشواغل بالليل، ويحضر القلب، ويتواطأ هو واللسان على الفهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾[1] ولهذا المعنى أمر بترتيل القرآن في قيام الليل ترتيلا.. ولأن وقت التهجد من الليل أفضل أوقات التطوع بالصلاة، وأقرب ما يكون العبد من ربه، وهو وقت فتح أبواب السماء، واستجابة الدعاء، واستعراض حوائج السائلين، وقد مدح اللّٰه تعالى المستيقظين بالليل لذكره ودعائه، واستغفاره ومناجاته، فقال اللّٰه تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾[2] وقال اللّٰه تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[3] وقال اللّٰه تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾[4] وقال اللّٰه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۝٦٤﴾[5] وقال اللّٰه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾[6] وقال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[7] وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾[8] وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۝٢٦﴾[9]»[10].

وقال أيضا: «الليل منهل يرده أهل الإرادة كلهم، ويختلفون فيما يردون ويريدون، قد علم كل أناس مشربهم، فالمحب يتنعم بمناجاة محبوبه، والخائف يتضرع لطلب العفو، ويبكي على ذنوبه، والراجي يلح في سؤال مطلوبه، والغافل المسكين أحسن اللّٰه عزاءه في حرمانه، وفوات نصيبه»[11].

وقوله: ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ **قال القاسمي**: «ثم بين تعالى قدر

---

(١) المزمل: الآية (٦).

(٢) السجدة: الآيتان (١٦-١٧).

(٣) آل عمران: الآية (١٧).

(٤) الذاريات: الآيتان (١٧-١٨).

(٥) الفرقان: الآية (٦٤).

(٦) الزمر: الآية (٩).

(٧) آل عمران: الآية (١١٣).

(٨) الإسراء: الآية ٧٩).

(٩) الإنسان: الآية (٢٦).

(١٠) لطائف المعارف (ص: ٤٢-٤٣).

(١١) لطائف المعارف (ص: ٤٩).

القيام مخيرا له بقوله: ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ أي: نصف الليل بدل من الليل، ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ﴾ أي: من النصف ﴿قَلِيلًا﴾ أي: إلى الثلث. ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي: النصف إلى الثلثين، والمقصود التخيير بين قيام النصف وما فوقه وما دونه، ولا يقال: كيف يكون النصف قليلا وهو مساو للنصف الآخر؟ لأن القلة بالنسبة إلى الكل، لا إلى عديله»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حكم قيام الليل وبيان صفته

* عن ابن عباس قال: بت عند خالتي ميمونة فقام النبي ﷺ يصلي من الليل، فصلى ثلاث عشرة ركعة منها ركعتا الفجر، حزرت قيامه في كل ركعة بقدر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ والله أعلم[٢].

★ غريب الحديث:

حزرت: قدرت.

★ فوائد الحديث:

قوله: «بقدر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ لا يعارض صلاته ﷺ بالبقرة وآل عمران ونحو ذلك، فإنه كان في بعض الأحيان يطول وفي بعضها يخفف، ولم تكن له حالة واحدة في صلاة الليل»[٣].

* عن زرارة أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو في سبيل الله، فقدم المدينة، فأراد أن يبيع عقارا له بها. فيجعله في السلاح والكراع. ويجاهد الروم حتى يموت، فلما قدم المدينة، لقي أناسا من أهل المدينة، فنهوه عن ذلك، وأخبروه أن رهطا ستة أرادوا ذلك في حياة نبي الله ﷺ، فنهاهم نبي الله ﷺ،

---

(١) محاسن التأويل (١٦/ ٣١٨).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٦٥-٣٦٦)، أبو داود (٢/ ٩٩/ ١٣٦٥) واللفظ له، النسائى في الكبرى (١/ ١٦٢/ ٤٠٠)، وأخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، والبخاري (٢/ ٢٤٣-٢٤٤/ ٦٩٨)، ومسلم (١/ ٥٣١/ ٧٦٣[١٢٢])، وأبو داود (١/ ٤٠٧/ ٦١٠)، والترمذي (١/ ٤٥١-٤٥٢/ ٢٣٢)، والنسائي (٢/ ٤٣٩/ ٨٤١)، وابن ماجه (١/ ٣١٢/ ٩٧٣)، دون موضع الشاهد.

(٣) الفتح الرباني لأحمد البنا (٤/ ٢٥٥).

وقال: «أليس لكم في أسوة؟» فلما حدثوه بذلك راجع امرأته. وقد كان طلقها، وأشهد على رجعتها، فأتى ابن عباس فسأله عن وتر رسول اللَّه ﷺ؟ فقال ابن عباس: ألا أدلك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول اللَّه ﷺ؟ قال: من؟ قال: عائشة. فأتها فاسألها. ثم ائتني فأخبرني بردها عليك. فانطلقت إليها. فأتيت على حكيم بن أفلح، فاستلحقته إليها. فقال: ما أنا بقاربها. لأني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئا فأبت فيهما إلا مضيا. قال: فأقسمت عليه فجاء. فانطلقنا إلى عائشة. فاستأذنا عليها، فأذنت لنا، فدخلنا عليها، فقالت: أحكيم؟ (فعرفته) فقال: نعم، فقالت: من معك؟ قال: سعد بن هشام. قالت: من هشام؟ قال: ابن عامر. فترحمت عليه وقالت خيرًا. (قال قتادة: وكان أصيب يوم أحد) فقلت: يا أم المؤمنين! أنبئيني عن خلق رسول اللَّه ﷺ. قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق نبي اللَّه ﷺ كان القرآن. قال: فهممت أن أقوم، ولا أسأل أحدا عن شيء حتى أموت. ثم بدا لي فقلت: أنبئيني عن قيام رسول اللَّه ﷺ؟ فقالت: ألست تقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾؟ قلت: بلى. قالت: فإن اللَّه ﷻ افترض قيام الليل في أول هذه السورة. فقام نبي اللَّه ﷺ وأصحابه حولًا. وأمسك اللَّه خاتمتها اثني عشر شهرا في السماء. حتى أنزل اللَّه، في آخر هذه السورة التخفيف. فصار قيام الليل تطوعًا بعد فريضة. قال: قلت: يا أم المؤمنين! أنبئيني عن وتر رسول اللَّه ﷺ. فقالت: كنا نعد له سواكه وطهوره. فيبعثه اللَّه ما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوك ويتوضأ ويصلي تسع ركعات، لا يجلس فيها إلا في الثامنة، فيذكر اللَّه ويحمده ويدعوه، ثم ينهض ولا يسلم، ثم يقوم فيصلي التاسعة، ثم يقعد فيذكر اللَّه ويحمده ويدعوه، ثم يسلم تسليما يسمعنا، ثم يصلي ركعتين بعدما يسلم وهو قاعد. فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني. فلما سن نبي اللَّه ﷺ، وأخذه اللحم، أوتر بسبع. وصنع في الركعتين مثل صنيعه الأول. فتلك تسع يا بني. وكان نبي اللَّه ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها. وكان إذا غلبه نوم أو وجع عن قيام الليل صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة. ولا أعلم نبي اللَّه ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا صلى ليلة إلى الصبح. ولا صام شهرا كاملا غير رمضان. قال: فانطلقت إلى ابن عباس فحدثته بحديثها. فقال: صدقت. لو كنت أقربها أو أدخل عليها لأتيتها

حتى تشافهني به. قال: قلت: لو علمت أنك لا تدخل عليها ما حدثتك حديثها[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: «اختلف الناس في حكم قيام الليل كيف كان؟ والمراد بالآية ما هو؟ فحكى أبو بكر الأدفوي أن قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ ليس بفرض ولا على الوجوب عند بعضهم لقوله: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣﴾، ورد عليه، وليس هكذا صفة الفروض وإنما هو ندب. وقيل: حتم وفرض، وقيل: حتم على النبي ﷺ وحده. ودليل قول عائشة أنه كان فرضا عليه وعلى أمته ثم نسخ. قال مكي: وهو قول كافة أهل العلم»[٢].

قال أبو بكر الجصاص: «لا خلاف بين المسلمين في نسخ فرض قيام الليل وأنه مندوب إليه مرغب فيه، وقد روي عن النبي ﷺ آثار كثيرة في الحث عليه والترغيب فيه»[٣].

قال أبو عمر: «ونسخ الأمر بقيام الليل عن سائر أمته مجمع عليه بقول الله ﷻ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾[٤] وهذا ندب لأن الفرائض محدودات»[٥].

قال النووي: «قوله: (فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة) هذا ظاهره أنه صار تطوعا في حق رسول الله ﷺ والأمة، فأما الأمة فهو تطوع في حقهم بالإجماع. وأما النبي ﷺ فاختلفوا في نسخه في حقه، والأصح عندنا نسخه»[٦].

قال القرطبي: «وقيل: كانت صلاة الليل تطوعا منه، وكانت في الابتداء واجبة على الكل، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة، كما قالت عائشة. . وعلى هذا يكون الأمر بالتنفل على جهة الندب، ويكون الخطاب للنبي ﷺ؛ لأنه مغفور له. فهو إذا تطوع بما ليس بواجب عليه كان ذلك زيادة في

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٣-٥٤)، مسلم (١/ ٥١٢-٥١٤/ ٧٤٦)، أبو داود (٢/ ٨٧-٨٨/ ١٣٤٢)، النسائي (٣/ ٢٢١-٢٢٢/ ١٦٠٠) مطولا، وأخرجه الترمذي (٢/ ٣٠٦/ ٤٤٥)، وابن ماجه (١/ ٣٧٦/ ١١٩١) مختصرا.

(٢) الإكمال (٣/ ٩٥).

(٣) أحكام القرآن (٣/ ٤٦٨).

(٤) المزمل: الآية (٢٠).

(٥) الاستذكار (٥/ ١٨٨-١٨٩).

(٦) شرح مسلم (٦/ ٢٣).

الدرجات. وغيره من الأمة تطوعهم كفارات وتدارك لخلل يقع في الفرض؛ قال معناه مجاهد وغيره»[١].

قال النووي: «وأما ما حكاه القاضي عياض عن بعض السلف أنه يجب على الأمة من قيام الليل ما يقع عليه الاسم ولو قدر حلب شاة فغلط ومردود بإجماع من قبله مع النصوص الصحيحة أنه لا واجب إلا الصلوات الخمس»[٢].

قال القرطبي: «اختلف العلماء في الناسخ للأمر بقيام الليل؛ فعن ابن عباس وعائشة أن الناسخ للأمر بقيام الليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾[٣] إلى آخر السورة. وقيل قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾[٤]. وعن ابن عباس أيضا: هو منسوخ بقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾[٥]. وعن عائشة أيضا والشافعي ومقاتل وابن كيسان: هو منسوخ بالصلوات الخمس. وقيل: الناسخ لذلك قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾[٦]. قال أبو عبد الرحمن السلمي: لما نزلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ قاموا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم، ثم نزل قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾. قال بعض العلماء: وهو فرض نسخ به فرض، كان على النبي ﷺ خاصة لفضله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾[٧].

قلت: القول الأول يعم جميع هذه الأقوال، وقد قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فدخل فيها قول من قال إن الناسخ الصلوات الخمس»[٨].

وقال: «واختلف أيضا: هل كان فرضا على النبي ﷺ وحده، أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء، أو عليه وعلى أمته؟ ثلاثة أقوال: الأول: قول سعيد بن جبير لتوجه الخطاب إليه خاصة. الثاني: قول ابن عباس، قال: كان قيام الليل فريضة على النبي ﷺ وعلى الأنبياء قبله. الثالث: قول عائشة وابن عباس أيضا وهو الصحيح»[٩] ثم ذكر حديث الباب.

---

(١) أحكام القرآن (١٠/ ٢٠٠).
(٢) شرح مسلم (٦/ ٢٣-٢٤).
(٣) المزمل: الآية (٢٠).
(٤) المزمل: الآية (٢٠).
(٥) المزمل: الآية (٢٠).
(٦) المزمل: الآية (٢٠).
(٧) الإسراء: الآية (٧٩).
(٨) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٢٥).
(٩) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٢٤).

عدد الركعات في صلاة الليل:

قال النووي: «قال القاضي: قال العلماء في هذه الأحاديث: إخبار كل واحد من ابن عباس وزيد وعائشة بما شاهد، وأما الاختلاف في حديث عائشة فقيل: هو منها، وقيل: من الرواة عنها، فيحتمل أن إخبارها بأحد عشرة هو الأغلب وباقي روايتها إخبار منها بما كان يقع نادرا في بعض الأوقات، فأكثره خمس عشرة بركعتي الفجر وأقله سبع، وذلك بحسب ما كان يحصل من اتساع الوقت أو ضيقه بطول قراءة كما جاء في حديث حذيفة وابن مسعود، أو لنوم أو عذر مرض أو غيره، أو في بعض الأوقات عند كبر السن، كما قالت: فلما أسن صلى سبع ركعات، أو تارة تعد الركعتين الخفيفتين في أول قيام الليل كما رواه زيد بن خالد، وروتها عائشة بعد هذا في مسلم، وتعد ركعتي الفجر تارة وتحذفهما تارة أو تعد إحداهما، وقد تكون عدت راتبة العشاء مع ذلك تارة وحدفتها تارة»[1].

قال القاضي عياض: «ولا خلاف أنه ليس في ذلك حد لا يزاد عليه ولا ينقص منه، وأن صلاة الليل من الفضائل والرغائب التي كلما زيد فيها زيد في الأجر والفضل، وإنما الخلاف في فعل النبي ﷺ وما اختاره لنفسه، وأشار بعضهم إلى أن تحرى النبي عليه السلام عدد صلاة الليل أعداد صلوات الفريضة الخمس بعشر ركعات مثنى مثنى، وذلك خمس صلوات على ما كانت قبل، وهي كانت أكثر صلاته عليه السلام بالليل غالبا على ما جاء في الحديث المتقدم، وقد يكون على هذا اعتبار نوافل النهار، أو يكون باعتبار ركعاتها، على ما استقرت عليه الصلوات وهي سبع عشرة ركعة، وهو أكثر ما روى عنه عليه السلام في صلاة الليل أو أعداد ركعات الفرائض، وكان عدد ركعات فرض الليل سبعا وإن لم تعد فيها الصبح وجعلت من النهار، وهو أقل ما صلى النبي عليه السلام بالليل، وأقل ما حده العلماء في الأوراد التسع»[2].

قال أبو عمر ابن عبد البر: «وأكثر الآثار على أن صلاته كانت بالوتر إحدى عشرة ركعة، وقد روي ثلاث عشرة ركعة؛ فمنهم من قال فيها ركعتا الفجر، ومنهم من قال إنها زيادة حفظها من تقبل زيادته بما نقل منها، ولا يضرها تقصير من قصر

---

(١) شرح مسلم (٦/ ١٦-١٧).

(٢) الإكمال (٣/ ٨٢).

عنها؛ وكيف كان الأمر، فلا خلاف بين المسلمين أن صلاة الليل ليس فيها حد محدود، وأنها نافلة، وفعل خير وعمل بر؛ فمن شاء استقل، ومن شاء استكثر»[١].

وقال أيضا: «وليس في عدد الركعات من صلاة الليل حد محدود عند أحد من أهل العلم لا يتعدى، وإنما الصلاة خير موضوع، وفعل بر وقربة، فمن شاء استكثر ومن شاء استقل، والله يوفق ويعين من يشاء برحمته لا شريك له»[٢].

قال العراقي بعد سياقه كلام القاضي الذي نقله النووي: «لكن إذا قلنا إن الوتر هو التهجد كما نص عليه الشافعي فالأصح أن الوتر أكثره معلوما لا يزاد عليه»[٣].

قال ابن الملقن: «اختلف أصحابنا في أكثر الوتر والأصح أنه إحدى عشر ركعة وقيل ثلاث عشر ركعة وأقله ركعة»[٤].

قال أبو عمر: «قال الشافعي: الذي أختار للمصلي أن يصلي إحدى عشر ركعة يوتر منها بواحدة»[٥].

قال ابن القيم: «فقد حصل الاتفاق على إحدى عشرة ركعة، واختلف في الركعتين الأخيرتين: هل هما ركعتا الفجر أو هما غيرهما؟ فإذا انضاف ذلك إلى عدد ركعات الفرض والسنن الراتبة التي كان يحافظ عليها، جاء مجموع ورده الراتب بالليل والنهار أربعين ركعة، كان يحافظ عليها دائما سبعة عشر فرضا، وعشر ركعات، أو ثنتا عشرة سنة راتبة، وإحدى عشرة، أو ثلاث عشرة ركعة قيامه بالليل، والمجموع أربعون ركعة، وما زاد على ذلك، فعارض غير راتب، كصلاة الفتح ثمان ركعات، وصلاة الضحى إذا قدم من سفر، وصلاته عند من يزوره، وتحية المسجد ونحو ذلك، فينبغي للعبد أن يواظب على هذا الورد دائما إلى الممات، فما أسرع الإجابة وأعجل فتح الباب لمن يقرعه كل يوم وليلة أربعين مرة والله المستعان»[٦].

الجمع بين أكثر من ركعتين بتسليم واحد:

قال أبو عمر رَحِمَهُ اللَّهُ: «واختصار اختلافهم في صلاة التطوع بالليل: أن مالكا،

(١) فتح البر (٦/ ١٤٣).
(٢) فتح البر (٦/ ١٥٥).
(٣) طرح التثريب (٣/ ٥١).
(٤) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٣/ ٥٤٦).
(٥) فتح البر (٦/ ١٧٦).
(٦) زاد المعاد (١/ ٣٢٦-٣٢٧).

والشافعي، وابن أبي ليلى، وأبا يوسف، ومحمدا، والليث بن سعد؛ قالوا: صلاة الليل مثنى مثنى -تقتضي الجلوس والتسليم في كل اثنتين؛ ألا ترى أنه لا يقال: صلاة الظهر مثنى، لما كانت الأخريان مضمنتين بالأوليين.. وقال أبو حنيفة في صلاة الليل: إن شئت ركعتين، أو أربعا أو ستا، أو ثمانيا. وقال الثوري والحسن ابن حي: صل بالليل ما شئت بعد أن تقعد في كل اثنتين، وتسلم في آخرهن؛ وحجة هؤلاء: ظواهر الأحاديث عن عائشة مثل هذا الحديث، ومثل ما رواه الأسود عن عائشة أنها قالت: كان رسول اللَّه ﷺ: يصلي من الليل تسع ركعات[1]، فلما أسن، صلى سبع ركعات.. قال أبو عمر: فلما اختلفت الآثار عن عائشة في كيفية صلاة النبي ﷺ بالليل هذا الاختلاف، وتدافعت واضطربت، لم يكن في شيء منها حجة على غيره؛ وقامت الحجة بالحديث الذي لم يختلف في نقله ولا في متنه وهو حديث ابن عمر، رواه عنه جماعة من التابعين، كلهم بمعنى واحد: أن النبي ﷺ قال: «**صلاة الليل مثنى مثنى**»[2].. وقضى حديث ابن عمر بأن رواية من روى عن عائشة في صلاة الليل، أن رسول اللَّه ﷺ كان يسلم منها في كل ركعتين أصح وأثبت لقوله: صلاة الليل مثنى مثنى- وباللَّه التوفيق»[3].

وقال أيضا: «قوله ﷺ: «**صلاة الليل مثنى مثنى**»، يوجب أن يجلس المصلي في كل ركعتين منها، ويسلم لا يجوز غير ذلك، لأنه لا يجوز أن يقال: صلاة الظهر مثنى مثنى ولا صلاة العصر مثنى مثنى»[4].

قال القرطبي: «وقد أشكلت هذه الأحاديث على كثير من العلماء، حتى إن بعضهم نسبوا حديث عائشة في صلاة الليل إلى الاضطراب، وهذا إنما كان يصح لو كان الراوي عنها واحدا، أو أخبرت عن وقت واحد، والصحيح: أن كل ما ذكرته صحيح من فعل النبي ﷺ في أوقات متعددة، وأحوال مختلفة، حسب النشاط والتيسير، وليبين: أن كل ذلك جائز»[5].

---

(١) أخرجه: الترمذي (٢/ ٣٠٤-٣٠٥/ ٤٤٣). ابن ماجه (١/ ٤٣٢/ ١٣٦٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٥). البخاري (٢/ ٦٠٦/ ٩٩٠). مسلم (١/ ٥١٦/ ٧٤٩). أبو داود (٢/ ٨٠-٨١/ ١٣٢٦). الترمذي بإثر حديث (٢/ ٤٩١/ ٥٩٧). النسائي (٣/ ٢٥٢/ ١٦٦٩). ابن ماجه (١/ ٤١٨/ ١٣٢٠).

(٣) فتح البر (٦/ ١٤٤-١٤٦).

(٤) فتح البر (٦/ ١٧٦).

(٥) المفهم (٢/ ٣٦٧).

قال الصنعاني: «والأحسن أن يقال: إنها أخبرت عن الأغلب من فعله ﷺ، فلا ينافيه ما خالفه؛ لأنه إخبار عن النادر»[١].

قال أبو عمر: «قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: وأحب الوتر إلي إحدى عشر ركعة، يوتر منها بواحدة، ويسلم في كل ركعتين منها»[٢].

قال النووي: «هذا الحديث -أي: حديث «صلاة الليل مثنى مثنى» - محمول على بيان التسليم وهو أن يسلم من كل ركعتين وسواء نوافل الليل والنهار يستحب أن يسلم من كل ركعتين، فلو جمع ركعات بتسليمة أو تطوع بركعة واحدة جاز عندنا»[٣].

قال المروزي: «فالذي نختاره لمن صلى بالليل في رمضان وغيره أن يسلم بين كل ركعتين حتى إذا أراد أن يوتر صلى ثلاث ركعات يقرأ في الركعة الأولى بـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾ وفي الثانية بـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾ ويتشهد في الثانية ويسلم ثم يقوم فيصلي ركعة يقرأ فيها بفاتحة الكتاب و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ والمعوذتين. وقد روي عن النبي ﷺ أنه أوتر بسبع لم يجلس إلا في السادسة والسابعة ولم يسلم إلا في آخرهن. وقد روي عنه أنه أوتر بتسع لم يجلس إلا في الثامنة والتاسعة وكل ذلك جائز أن يعمل به اقتداء به ﷺ غير أن الاختيار ما ذكرنا؛ لأن النبي ﷺ لما سئل عن صلاة الليل أجاب: «أن صلاة الليل مثنى مثنى»، فاخترنا ما اختار هو لأمته، وأجزنا فعل من اقتدى به ففعل مثل فعله، إذ لم يرو عنه نهي عن ذلك. بل قد روى عنه أنه قال: «**من شاء فليوتر بخمس ومن شاء فليوتر بثلاث ومن شاء فليوتر بواحدة**»، غير أن الأخبار التي رويت عنه أنه أوتر بواحدة هي أثبت وأصح وأكثر عند أهل العلم بالأخبار، واختاره حين سئل كان كذلك، فلذلك اخترنا الوتر بركعة على ما فسرنا واخترنا العمل بالأخبار الأخر؛ لأنها أخبار حسان غير مدفوعة عند أهل العلم بالأخبار»[٤].

قال العراقي: «وهو قول مالك والشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد والجمهور، ورواه ابن أبي شيبة عن أبي هريرة والحسن البصري وسعيد بن جبير

---

(١) سبل السلام (٢/ ٢٨).
(٢) فتح البر (٦/ ١٧٦).
(٣) شرح مسلم (٦/ ٢٧).
(٤) مختصر قيام الليل (ص: ٢٦٢).

وعكرمة مولى بن عباس وسالم بن عبد اللَّه بن عمر ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعي وغيرهم، وحكاه ابن المنذر عن الليث بن سعد، وحكاه ابن عبد البر عن ابن أبي ليلى وأبي ثور وداود، وقال الترمذي في جامعه: والعمل على هذا عند أهل العلم أن صلاة الليل مثنى مثنى، وهو قول سفيان الثوري وابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق انتهى. وقال أبو حنيفة: الأفضل أن يصلي أربعا أربعا، وإن شاء ركعتين، وإن شاء ستا، وإن شاء ثمانيا، وتكره الزيادة على ذلك.

استدل به على أنه لا يزاد في صلاة الليل على ركعتين وبه قال مالك وقال الشيخ تقي الدين في شرح العمدة أنه ظاهر لفظ الحديث؛ لأن المبتدأ محصور في الخبر، فاقتضى ذلك حصر صلاة الليل فيما هو مثنى، وذهب الشافعي والأكثرون إلى جواز الزيادة في صلاة الليل على ركعتين، وحملوا هذا الحديث على أنه بيان للأفضل لا أن غيره ممتنع، فقد صح من فعله ﷺ أنه (كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة، يوتر من ذلك بخمس لا يجلس في شيء إلا في آخرها)[(١)]»[(٢)].

الصفات والكيفيات التي ورد بها قيام الليل:

قال ابن القيم: «وكان يقوم تارة إذا انتصف الليل، أو قبله بقليل، أو بعده بقليل، وربما كان يقوم إذا سمع الصارخ وهو الديك، وهو إنما يصيح في النصف الثاني، وكان يقطع ورده تارة، ويصله تارة وهو الأكثر، ويقطعه كما قال ابن عباس في حديث مبيته عنده: أنه ﷺ استيقظ، فتسوك، وتوضأ، وهو يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾[(٣)]. فقرأ هؤلاء الآيات حتى ختم السورة، ثم قام فصلى ركعتين أطال فيهما القيام والركوع والسجود، ثم انصرف فنام حتى نفخ، ثم فعل ذلك ثلاث مرات بست ركعات، كل ذلك يستاك ويتوضأ، ويقرأ هؤلاء الآيات، ثم أوتر بثلاث، فأذن المؤذن، فخرج إلى الصلاة وهو يقول: «**اللهم اجعل في قلبي نورا، وفي لساني نورا، واجعل في سمعي نورا، واجعل في بصري نورا، واجعل من خلفي نورا، ومن أمامي نورا،**

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٠). مسلم (١/ ٥٠٨/ ٧٣٧). أبو داود (٢/ ٨٥-٨٦/ ١٣٣٨). الترمذي (٢/ ٣٢١/ ٤٥٩). النسائي (٣/ ٢٦٦-٢٦٧/ ١٧١٦). ابن ماجه (١/ ٤٣٢/ ١٣٥٩).

(٢) طرح التثريب (٣/ ٧٤-٧٥).

(٣) آل عمران: الآية (١٩٠).

واجعل من فوقي نورا، ومن تحتي نورا، اللهم أعطني نورا»[١] رواه مسلم. ولم يذكر ابن عباس افتتاحه بركعتين خفيفتين كما ذكرته عائشة، فإما أنه كان يفعل هذا تارة، وهذا تارة، وإما أن تكون عائشة حفظت ما لم يحفظ ابن عباس، وهو الأظهر لملازمتها له، ولمراعاتها ذلك، ولكونها أعلم الخلق بقيامه بالليل، وابن عباس إنما شاهده ليلة المبيت عند خالته، وإذا اختلف ابن عباس وعائشة في شيء من أمر قيامه بالليل، فالقول ما قالت عائشة. وكان قيامه بالليل ووتره أنواعا، فمنها هذا الذي ذكره ابن عباس.

النوع الثاني: الذي ذكرته عائشة أنه كان يفتتح صلاته بركعتين خفيفتين، ثم يتمم ورده إحدى عشرة ركعة، يسلم من كل ركعتين ويوتر بركعة. النوع الثالث: ثلاثة عشرة ركعة كذلك. النوع الرابع: يصلي ثمان ركعات، يسلم من كل ركعتين، ثم يوتر بخمس سردا متوالية، لا يجلس في شيء إلا في آخرهن. النوع الخامس: تسع ركعات، يسرد منهن ثمانيا لا يجلس في شيء منهن إلا في الثامنة، يجلس يذكر الله تعالى ويحمده ويدعوه، ثم ينهض ولا يسلم، ثم يصلي التاسعة، ثم يقعد ويتشهد ويسلم، ثم يصلي ركعتين جالسا بعدما يسلم. النوع السادس: يصلي سبعا كالتسع المذكورة، ثم يصلي بعدها ركعتين جالسا. النوع السابع: أنه كان يصلي مثنى مثنى، ثم يوتر بثلاث لا يفصل بينهن، فهذا رواه الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن عائشة أنه (كان يوتر بثلاث لا فصل فيهن)[٢]. وروى النسائي عنها: (كان لا يسلم في ركعتي الوتر)[٣]. وهذه الصفة فيها نظر، فقد روى أبو حاتم بن حبان في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**لا توتروا بثلاث، أوتروا بخمس أو سبع ولا تشبهوا بصلاة المغرب**»[٤] قال الدارقطني: رواته كلهم ثقات، قال مهنا: سألت أبا عبد الله إلى أي شيء تذهب في الوتر تسلم في الركعتين؟ قال: نعم. قلت: لأي شيء؟ قال: لأن الأحاديث فيه أقوى وأكثر عن النبي ﷺ في الركعتين. الزهري عن عروة عن

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٨٤)، ومسلم (١/ ٥٢٨-٥٢٩/ ٧٦٣[١٨٧]).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٥-١٥٦)، وضعفه الشيخ الألباني أنظر الإرواء (٢/ ١٥٠).

(٣) أخرجه النسائي (٣/ ٢٦١/ ١٢٩٧)، والحاكم (١/ ٣٠٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه ابن حبان (٦/ ١٨٥/ ٢٤٢٩)، والحاكم (١/ ٣٠٤)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

عائشة أنه ﷺ سلم من الركعتين. وقال حرب: سئل أحمد عن الوتر؟ قال يسلم في الركعتين. وإن لم يسلم رجوت ألا يضره، إلا أن التسليم أثبت عن النبي ﷺ. وقال أبو طالب: سألت أبا عبد اللَّه إلى أي حديث تذهب في الوتر؟ قال أذهب إليها كلها: من صلى خمسا لا يجلس إلا في آخرهن، ومن صلى سبعا لا يجلس إلا في آخرهن، وقد روي في حديث زرارة عن عائشة يوتر بتسع يجلس في الثامنة.

قال: ولكن أكثر الحديث وأقواه ركعة، فأنا أذهب إليها. قلت: ابن مسعود يقول ثلاث. قال: نعم قد عاب على سعد ركعة، فقال له سعد أيضا شيئا يرد عليه»[(١)].

تنبيه: وقد أوصلها ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ إلى ثلاثة عشر نوعا في المحلى (٣/ ٤٢) وما بعدها.

الجهر والإسرار فيها:

قال ابن القيم: «وكان رسول اللَّه ﷺ يسر بالقراءة في صلاة الليل تارة ويجهر بها تارة»[(٢)].

قال القاضي أبو بكر بن العربي: «اختلف الناس في أي المقامين أفضل هل التناجي سرا مع المولى أم الجهر لما في ذلك من تضاعف الأجر في تذكرة الغافل وطرد العدو؟ وقد بيناه في موضعه وما حكم به النبي ﷺ ففيها أعدل شاهد، فإنه لم يزل أبا بكر على صفته ولا عمر، وقال لهذا: «ارفع صوتك قليلا حتى يقتدي بك من يسمعك»، وقال لعمر: «اخفض صوتك لئلا يتأذى بك من يحتاج إلى النوم»[(٣)]

---

(١) زاد المعاد (١/ ٣٢٨-٣٣٠). (٢) زاد المعاد (١/ ٣٤٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٢/ ٨١-٨٢/ ١٣٢٩)، والترمذي (٢/ ٣٠٩-٣١٠/ ٤٤٧)، وصححه ابن حبان (٣/ ٦-٧/ ٧٣٣)، قال الترمذي: «حديث غريب، وإنما أسنده يحي بن إسحاق عن حماد بن سلمة، وأكثر الناس إنما رووا هذا الحديث عن ثابت عن عبد اللَّه بن رباح مرسلا». قال أحمد شاكر: «هذا التعليق لا يؤثر في صحة الحديث، فإن يحيى بن إسحاق ثقة صدوق كما قال أحمد، وقال ابن سعد كان ثقة حافظا لحديثه، ووصل الحديث زيادة يجب قبولها. قال الشيخ الألباني: «بل هو مؤثر إن ثبت أن جماعة من الرواة رووه مرسلا؛ لأن الجماعة أفضل من الفرد، وهذا إذا كانوا ثقاتا، ولم أقف على أحد منهم سوى موسى بن إسماعيل شيخ المصنف فقد رواه عن ثابت مرسلا كما رأيت، فإن توبع على إرساله فالقول قول الترمذي، ولكن الحديث صحيح على كل حال للشاهد الآتي بعده، وشاهد آخر من مرسل زيد بن يثيع. صحيح سنن أبي داود (٥/ ٧٥-٧٦).

وهذا إنما كان في حق أبي بكر للقطع على خلوص نيته وسلامته عن الرياء، وتصديقه له في قوله: أسمعت من ناجيت، وأما غيره فالسر له أفضل؛ لأنه أقرب إلى الإخلاص، وأسلم من الآفات. وقد ثبت عن عائشة هاهنا وفي الصحيح أن النبي ﷺ (ربما أسر في قراءته وربما جهر)[١]، فقال الراوي له عبد اللّٰه بن أبي قيس عن عائشة: (الحمد لله الذي جعل في الأمر سعة) ورواه عنها فيقرأ كل أحد بما قدر عليه من نشاطه وكسله. وبما سلم من إخلاصه أو خوفه الرياء والتصنع على نفسه»[٢].

قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والجهر والإسرار في قراءة التطوع ليلا ونهارا مباح للرجال والنساء. إذ لم يأت منع من شيء من ذلك، ولا إيجاب لشيء من ذلك في قرآن ولا سنة. فإن قيل: تخفض النساء قلنا ولم؟ ولم يختلف مسلمان في أن سماع الناس كلام نساء رسول اللّٰه ﷺ مباح للرجال، ولا جاء نص في كراهة ذلك من سائر النساء. وباللّٰه تعالى التوفيق»[٣].

الاستفتاح بركعتين خفيفتين:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنه ﷺ كان يفتتح صلاته بركعتين خفيفتين، ثم يتمم ورده إحدى عشر ركعة، يسلم من كل ركعتين ويوتر بركعة»[٤].

قال القرطبي: «قوله: «إذا قام أحدكم من الليل فليفتتح صلاته بركعتين خفيفتين»[٥] هذا أمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به بقايا النوم، وينشط إلى الصلاة، وقد ثبت: أنه ﷺ كان في وقت يفتتح بركعتين خفيفتين، وفي وقت آخر يفتتح بركعتين أطول من اللتين بعدهما، وبأربع ركعات طوال، فلهذا لا يتخيل أن هذا الأمر من قبيل الواجب، ولم يقل به أحد فيما علمته»[٦].

---

(١) طرف من حديث أخرجه أحمد (٦/ ٧٣-٧٤)، ومسلم (١/ ٢٤٩/ ٣٠٧)، وأبو داود (٢/ ١٤٩-١٤٣٧/ ١٥٠١)، والترمذي (٢/ ٣١١-٣١٢/ ٤٤٩).
(٢) عارضة الأحوذي (٢/ ٢٣٨-٢٤٠).
(٣) المحلى (٣/ ٥٥-٥٦).
(٤) الزاد (١/ ٣٢٩).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٩٩). مسلم (١/ ٥٣٢/ ٧٦٨). أبو داود (٢/ ٧٩/ ١٣٢٣).
(٦) المفهم (٢/ ٣٧٣).

القيام والقعود في صلاة الليل:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكانت صلاته بالليل ثلاثة أنواع:

أحدها: -وهو أكثرها- صلاته قائما. الثاني: أنه كان يصلي قاعدا، ويركع قاعدا. الثالث: أنه كان يقرأ قاعدا، فإذا بقي يسير من قراءته، قام فركع قائما، والأنواع الثلاثة صحت عنه»(١).

قلت: صح من حديث عبد اللَّه بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «**صلاة الرجل قاعدا نصف الصلاة**»(٢).

قال الحافظ أبو عمر: «ومعنى هذا الحديث المقصود بالخطاب إليه الفضل، يريد أن صلاة أحدكم وهو قائم أفضل من صلاته وهو قاعد مرتين وضعفين في الفضل، وفضل صلاته وهو قاعد مثل نصف صلاته في الفضل إذا قام فيها، وذلك واللَّه أعلم، لما في القيام من المشقة، أو لما شاء اللَّه أن يتفضل به. وقد سئل رسول اللَّه ﷺ عن أفضل الصلوات فقال: «طول القنوت»(٣).

والمراد بهذا الحديث ومثله، صلاة النافلة واللَّه أعلم، لأن المصلي فرضا جالسا، لا يخلو من أن يكون مطيقا على القيام، أو عاجزا عنه، فإذا كان مطيقا وصلى جالسا فهذا لا تجزيه صلاته عند الجميع وعليه إعادتها، فكيف يكون لهذا نصف فضل مصل، بل هو عاص بفعله، وأما إذا كان عن القيام عاجزا، فقد سقط فرض القيام عنه إذا لم يقدر عليه، لأن اللَّه لا يكلف نفسا إلا وسعها، وإذا لم يقدر على ذلك صار فرضه عند الجميع أن يصلي جالسا، فإذا صلى كما أمر، فليس المصلي قائما بأفضل منه، لأن كلا قد أدى فرضه على وجهه. والأصل في هذا الباب أن القيام في الصلاة لما وجب فرضا بقوله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾(٤) وقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝﴾، وقعت الرخصة في النافلة أن يصليها الإنسان جالسا من

---

(١) زاد المعاد (١/ ٣٣١-٣٣٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٢). مسلم (١/ ٥٠٧/ ٧٣٥). أبو داود (١/ ٥٨٣-٥٨٤/ ٩٥٠). النسائي (٣/ ٢٤٧/ ١٦٥٨)، من حديث عبد اللَّه بن عمرو.

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٢ و٣٩١). مسلم (١/ ٥٢٠/ ٧٥٦). الترمذي (٢/ ٢٢٩/ ٣٨٧). ابن ماجه (١/ ٤٥٦/ ١٤٢١).

(٤) البقرة: الآية (٢٣٨).

غير عذر، لكثرتها واتصال بعضها ببعض.

وأما الفريضة فلا رخصة في ترك القيام فيها، وإنما يسقط ذلك بعدم الاستطاعة عليه، وقد أجمعوا على أن القيام في الصلاة فرض على الإيجاب لا على التخيير، وأن النافلة فاعلها مخير في القيام فيها، فكفى بهذا بيانا شافيا وبالله التوفيق. وهذا الحديث أصل في إباحة الصلاة جالسا في النافلة»[١].

وصح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ (كان يصلي جالسا فيقرأ وهو جالس فإذا بقي من قراءته قدر ما يكون ثلاثين آية أو أربعين آية قام فقرأ وهو قائم ثم ركع ثم سجد ثم صنع في الركعة الثانية مثل ذلك)[٢].

قال أبو عمر بن عبد البر: «في هذا الحديث إباحة صلاة النافلة جالسا، وجواز أن يكون المصلي في بعضها قائما، وفي بعضها جالسا؛ وجائز أن يفتتحها جالسا ثم يقوم على ما في هذا الحديث؛ وجائز أن يفتتحها قائما ثم يجلس، كل ذلك مباح - والصلاة عمل بر؛ وقد وردت الشريعة بإباحة الجلوس في صلاة النافلة، وذلك إجماع تنقله الخاصة والعامة من العلماء؛ غير أن المصلي فيها جالسا على مثل نصف أجر المصلي قائما»[٣].

قال القرطبي: «والانتقال في النافلة من الجلوس إلى القيام، أو من القيام إلى الجلوس جائز عند جمهور العلماء: مالك، والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم. وكره محمد بن الحسن وأبو يوسف: أن يبتدئ صلاته قائما ثم يقعد، ثم يركع قاعدا. وحجة الجمهور: أنه انتقال من حال إلى حال لو ابتدأ الصلاة عليه لجاز، كالانتقال من القعود إلى القيام المتفق عليه عندهم وعندنا»[٤].

طول صلاة الليل وقصرها:

قال ابن القيم: «وكان رسول الله ﷺ.. يطيل القيام تارة ويخففه تارة»[٥].

---

(١) فتح البر (٦/ ٢٦-٢٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ١٧٨). البخاري (٢/ ٧٤٩/ ١١١٩). مسلم (١/ ٥٠٥/ ٧٣١). أبو داود (١/ ٥٨٥-٥٨٦/ ٩٥٤). الترمذي (٢/ ٢١٣/ ٣٧٤). النسائي (٣/ ٢٤٣-٢٤٤/ ١٦٤٧).

(٣) فتح البر (٦/ ٣٨).

(٤) المفهم (٢/ ٣٦٨).

(٥) زاد المعاد (١/ ٣٤٠).

قال شيخ الإسلام: «واستحب الأئمة أن يكون للرجل عدد من الركعات يقوم بها من الليل لا يتركها، فإن نشط أطالها، وإن كسل خففها»[(١)].

فعن حذيفة ﷺ قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة فقلت: يركع عند المائة ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلا[(٢)]. الحديث.

قال القرطبي: «وهذا التطويل وهذه الكيفية التي صدرت عنه في هذه الصلاة، إنما كان منه بحسب وقت صادفه ووجد وجده، فاستطاب ما كان فيه، واستغرقه عما سواه»[(٣)].

قال القاضي عياض: «وفي هذا الحديث ما كان من تطويل النبي ﷺ صلاة النافلة بالليل، وحجة لمن يرى طول القيام أفضل»[(٤)].

أيهما أفضل طول الصلاة أم كثرة السجود:

قال النووي: «الأحاديث المذكورة في تطويل القراءة والقيام دليل لمذهب الشافعي وغيره ممن قال: تطويل القيام أفضل من تكثير الركوع والسجود، وقال طائفة: تكثير الركوع والسجود أفضل، وقال طائفة: تطويل القيام في الليل أفضل، وتكثير الركوع والسجود في النهار أفضل»[(٥)].

قال شيخ الإسلام: «تنازع الناس: أيما أفضل كثرة الركوع والسجود؟ أو طول القيام؟ وقد ذكر عن أحمد في ذلك ثلاث روايات:

إحداهن: أن كثرة الركوع والسجود أفضل، وهي التي اختارها طائفة من أصحابه.

والثانية: أنهما سواء.

---

(١) الفتاوى (٢٢/ ٢٨٢-٢٨٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٨٤). مسلم (١/ ٥٣٦-٥٣٧/ ٧٧٢)، والنسائي (٣/ ٢٥٠/ ١٦٦٣) وأخرجه أحمد (٥/ ٣٨٢)، أبو داود (١/ ٥٤٣/ ٨٧١). والترمذي (٢/ ٤٨/ ٢٦٢). النسائي (٢/ ٥١٨/ ١٠٠٧). ابن ماجه (١/ ٢٨٧/ ٨٨٨)، مختصرا دون محل الشاهد.

(٣) المفهم (٢/ ٤٠٥).

(٤) الإكمال (٣/ ١٣٧).

(٥) شرح مسلم (٦/ ١٨).

والثالثة: أن طول القيام أفضل، وهذا يحكى عن الشافعي. فنقول: هذه المسألة لها صورتان:

إحداهما: أن يطيل القيام، مع تخفيف الركوع والسجود. فيقال: أيما أفضل هذا؟ أم تكثير الركوع والسجود مع تخفيف القيام؟ ويكون هذا قد عدل بين القيام، وبين الركوع والسجود، فخفف الجميع.

والصورة الثانية: أن يطيل القيام، فيطيل معه الركوع والسجود فيقال: أيما أفضل هذا؟ أم أن يكثر من الركوع والسجود والقيام، وهذا قد عدل بين القيام والركوع والسجود في النوعين، لكن أيما أفضل تطويل الصلاة قياما وركوعا وسجودا، أم تكثير ذلك مع تخفيفها، فهذه الصورة ذكر أبو محمد وغيره فيها ثلاثة روايات، وكلام غيره يقتضي أن النزاع في الصورة الأولى أيضا.

والصواب في ذلك: أن الصورة الأولى -تقليل الصلاة مع كثرة الركوع والسجود، وتخفيف القيام- أفضل من تطويل القيام وحده مع تخفيف الركوع والسجود، ومن فضل تطويل القيام احتجوا بالحديث الصحيح أن رسول اللّه ﷺ سئل: أي الصلاة أفضل فقال: «طول القنوت»[١]. وظنوا أن المراد بطول القنوت طول القيام، وإن كان مع تخفيف الركوع والسجود، وليس كذلك. فإن القنوت هو دوام العبادة والطاعة، ويقال لمن أطال السجود: إنه قانت. قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾[٢] فجعله قانتا في حال السجود، كما هو قانت في حال القيام، وقدم السجود على القيام.

وفي الآية الأخرى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾[٣] ولم يقل قنوتا، فالقيام ذكره بلفظ القيام، لا بلفظ القنوت. وقال تعالى: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[٤] فالقائم قد يكون قانتا، وقد لا يكون، وكذلك الساجد، فالنبي ﷺ بين أن طول القنوت أفضل الصلاة، وهو يتناول القنوت في حال السجود، وحال القيام، وهذا الحديث يدل على الصورة الثانية، وأن تطويل الصلاة قياما وركوعا

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٢ و٣٩١). مسلم (١/ ٥٢٠/ ٧٥٦). الترمذي (٢/ ٢٢٩/ ٣٨٧). ابن ماجه (١/ ٤٥٦/ ١٤٢١).

(٢) الزمر: الآية (٩).

(٣) الفرقان: الآية (٦٤).

(٤) البقرة: الآية (٢٣٨).

وسجودا أولى من تكثيرها قياما وركوعا وسجودا، لأن طول القنوت يحصل بتطويلها لا بتكثيرها، وأما تفضيل طول القيام مع تخفيف الركوع والسجود على تكثير الركوع والسجود فغلط، فإن جنس السجود أفضل من جنس القيام، من وجوه متعددة:

أحدها: أن السجود بنفسه عبادة، لا يصلح أن يفعل إلا على وجه العبادة لله وحده، والقيام لا يكون عبادة إلا بالنية، فإن الإنسان يقوم في أمور دنياه، ولا ينهى عن ذلك.

الثاني: أن الصلاة المفروضة لابد فيها من السجود، وكذلك كل صلاة فيها ركوع لابد فيها من سجود، لا يسقط السجود فيها بحال من الأحوال، فهو عماد الصلاة، وأما القيام فيسقط في التطوع دائما، وفي الصلاة على الراحلة في السفر، وكذلك يسقط القيام في الفرض عن المريض، وكذلك عن المأموم إذا صلى إمامه جالسا. كما جاءت به الأحاديث الصحيحة..

الوجه الثالث: أن القيام إنما صار عبادة بالقراءة، أو بما فيه من ذكر ودعاء، كالقيام في الجنازة، فأما القيام المجرد فلم يشرع قط عبادة، مع إمكان الذكر فيه: بخلاف السجود فإنه مشروع بنفسه عبادة، حتى خارج الصلاة، شرع سجود التلاوة، والشكر وغير ذلك..

الوجه الرابع: أن يقال: القيام يمتاز بقراءة القرآن، فإنه قد نهي عن القراءة في الركوع والسجود، وقراءة القرآن أفضل من التسبيح، فمن هذا الوجه تميز القيام، وهو حجة من سوى بينهما فقال: السجود بنفسه أفضل، وذكر القيام أفضل، فصار كل منهما أفضل من وجه، أو تعادلا. لكن يقال قراءة القرآن تسقط في مواضع، وتسقط عن المسبوق القراءة والقيام أيضا..»[1].

ثم ذكر أوجها أخرى ثم قال: «فهذه الوجوه وغيرها مما يبين أن جنس السجود أفضل من جنس القيام والقراءة، ولو أمكن أن يكون أطول من القيام لكان ذلك أفضل؛ لكن هذا يشق مشقة عظيمة، فلهذا خفف السجود عن القيام مع أن السنة تطويله إذا طول القيام.. وأما إذا طال القيام والركوع والسجود فهذا أفضل من إطالة القيام فقط، وأفضل من تكثير الركوع والسجود والقيام بقدر ذلك، والكلام

(١) الفتاوى (٢٣/ ٦٩-٧٤).

إنما هو في الوقت الواحد: كثلث الليل، أو نصفه، أو سدسه أو الساعة، هل هذا أفضل من هذا، أو هذا أفضل من هذا»(١).

وقال أيضا رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكانت صلاة رسول اللَّه ﷺ معتدلة. إذا أطال القيام أطال الركوع والسجود، وإذا خفف القيام خفف الركوع والسجود، وهكذا كان يفعل في المكتوبات، وقيام الليل، وصلاة الكسوف، وغير ذلك.

وقد تنازع الناس، هل الأفضل طول القيام؟ أم كثرة الركوع والسجود؟ أو كلاهما سواء؟ على ثلاثة أقوال: أصحها أن كليهما سواء، فإن القيام اختص بالقراءة، وهي أفضل من الذكر والدعاء، والسجود نفسه أفضل من القيام، فينبغي أنه إذا طول القيام أن يطيل الركوع والسجود، وهذا هو طول القنوت الذي أجاب به النبي ﷺ لما قيل له: أي الصلاة أفضل؟ فقال: «طول القنوت» فإن القنوت هو إدامة العبادة، سواء كان في حال القيام، أو الركوع أو السجود. كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ فسماه قانتا في حال سجوده، كما سماه قانتا في حال قيامه»(٢).

قضاء قيام الليل لمن فاته:

قال شيخ الإسلام: «وإذا نام عنها صلى بدلها من النهار، كما كان النبي ﷺ إذا نام عن صلاة الليل صلى في النهار اثنتي عشرة ركعة»(٣).

قال النووي: «قولها -أي: عائشة في حديث الباب- «وكان إذا غلبه نوم أو وجع عن قيام الليل صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة) هذا دليل على استحباب المحافظة على الأوراد وأنها إذا فاتت تقضى»(٤).

قال أبو عمر: «وهذا الوقت فيه من السعة ما ينوب عن صلاة الليل، فيتفضل اللَّه برحمته على من استدرك من ذلك ما فاته، وليس من زوال الشمس إلى صلاة الظهر ما يستدرك فيه كل أحد حزبه، وهذا بين -واللَّه أعلم»(٥).

* وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: **«ما من امرئ تكون له صلاة بليل**

---

(١) الفتاوى (٢٣/ ٨٠-٨٢).
(٢) الفتاوى (٢٢/ ٢٧٣).
(٣) الفتاوى (٢٢/ ٢٨٣).
(٤) شرح مسلم (٦/ ٢٤).
(٥) فتح البر (٦/ ١٣٩).

يغلبه عليها النوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه عليه صدقه»[١] .

قال أبو عمر : «وفي هذا الحديث ما يدل على أن المرء يجازى على ما نوى من الخير -وإن لم يعمله- كما لو أنه عمله ، وأن النية يعطى عليها كالذي يعطى على العمل- إذا حيل بينه وبين ذلك العمل ، وكانت نيته أن يعمله ، ولم تنصرف نيته حتى غلب عليه بنوم ، أو نسيان ، أو غير ذلك من وجوه الموانع ؛ فإذا كان ذلك كتب له أجر ذلك العمل ، وإن لم يعمله ، فضلا من اللّٰه ورحمة ، جازاه على العمل ، ثم على النية ، إن حال دون العمل حائل»[٢] .

وقال أيضًا : «وفي هذا الحديث ما يدل على أن المرء مجازى على ما نوى من عمل الخير ، وإن لم يعمله ، كما لو عمله إذا لم يحبسه عنه شغل دنيا مباحا أو مكروها وكان المانع له عذرا من اللّٰه لا ينفك منه»[٣] .

وهذا يقول القاضي عياض : «تفضل من اللّٰه تفضل عليه به ، ودليل على أن صلاة الليل والذكر فيها أفضل من صلاة النهار وعمله ، إذ لم يجعل له هذه الفضيلة إلا لغلبة نومه عليه ، وقد ذكر مالك في موطئه عنه ﷺ : «**ما من امرئ يكون له صلاة من الليل فغلبه عليها نوم إلا كتب له أجر صلاته ، وكان نومه عليه صدقة**» ، وهذا أتم في التفضل ومجازاته بنيته ، وهذا لمن كانت عادته ذلك ، وظاهره أن له أجره كاملا كما لو عمله ؛ لأن اللّٰه حبسه عنه ، وقد جاءت بهذا ظواهر أحاديث كثيرة ، ولهذا أجاز مالك لهذا أن يصليه بعد طلوع الفجر وكان ذلك الوقت عنده وقت ضرورة ، لما فاته من نوافل الليل ، كقيامه ، ووتر ليله ، وهو لا يجيز التنفل بعد طلوع الفجر ، ولا يصلى حينئذ إلا الفجر ، وهو قول جماعة من الصحابة والعلماء للأثر الوارد في ذلك ، وروي عن الحسن وطاوس وعطاء إجازة ذلك مطلقا ، وروي عن مالك - أيضا- إجازة ما خف من ذلك كالست ركعات ونحوها . قال بعض شيوخنا : وقال بعضهم : يحتمل أن يكون آخرها غير مضاعف بعشر بخلاف إذا عملها ، إذ الذي يصليها أكمل أجرا أو يكون له أجر بنيته أو أجر من يتمنى أن يصلي تلك الصلاة ، أو أجر تأسفه على ما فاته منها ، والأول أظهر ، لاسيما مع قوله : «وكان نومه عليه

---

(١) أخرجه : أحمد (٦/ ١٨٠) . أبو داود (٢/ ٧٦/ ١٣١٤) . النسائي (٣/ ٢٨٦/ ١٧٨٣) .

(٢) فتح البر (٦/ ١٣٣) .

(٣) الاستذكار (٥/ ١٨٥) .

صدقة»، فلو نقصه النوم من الأجر لم يكن صدقة، بل كان مانعا له من خير ومفترا في أجور الفضائل، والأجور ليست على قياس، وإنما هي بفضل من اللّه بما شاء على من يشاء كيف شاء»[١].

حكم قيام الليل كله إلى الصباح:

قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما قيام الليل فقد صح أن رسول اللّه ﷺ لم يقم ليلة قط حتى الصباح»[٢].

فعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: **«أحب الصلاة إلى اللّه صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلى اللّه صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يوما ويفطر يوما»**[٣].

قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإذ هذا أحب الصلاة إلى اللّه تعالى فما زاد على هذا فهو دون هذا بلا شك؛ فإذا كان دون هذا فهو عمل ضائع لا أجر فيه. فهو تكلف، وقد نهينا عن التكلف، وقد منع من قيام الليل كله سلمان ومعاذ وغيرهما»[٤].

قال الحافظ: «قال المهلب: كان داود عليه السلام يجم نفسه بنوم أول الليل ثم يقوم في الوقت الذي ينادي اللّه فيه: هل من سائل فأعطيه سؤله، ثم يستدرك بالنوم ما يستريح به من نصب القيام في بقية الليل، وهذا هو النوم عند السحر كما ترجم به المصنف وإنما صارت هذه الطريقة أحب من أجل الأخذ بالرفق للنفس التي يخشى منها السآمة، وقد قال ﷺ: **«إن اللّه لا يمل حتى تملوا»**[٥] واللّه أحب أن يديم فضله ويوالي إحسانه، وإنما كان ذلك أرفق لأن النوم بعد القيام يريح البدن ويذهب ضرر السهر وذبول الجسم، بخلاف السهر إلى الصباح. وفيه من المصلحة أيضا استقبال صلاة الصبح وأذكار النهار بنشاط وإقبال، وأنه أقرب إلى عدم الرياء؛ لأن من نام السدس الأخير أصبح ظاهر اللون سليم القوى، فهو أقرب إلى أن يخفي عمله

---

(١) الإكمال (٣/ ٩٧-٩٨). (٢) المحلى (٣/ ٥٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٠٦). البخاري (٣/ ٢٠/ ١١٣١). مسلم (٢/ ٨١٦/ ١١٥٩[١٨٩]). أبو داود (٢/ ٨٢١/ ٢٤٤٨). النسائي (٣/ ٢٣٧/ ١٦٢٩). ابن ماجه (١/ ٥٤٦/ ١٧١٢).

(٤) المحلى (٣/ ٥٥).

(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٥١). البخاري (١/ ١٣٦/ ٤٣). مسلم (١/ ٥٤٢/ ٧٨٥). النسائي (٣/ ٢٤١-٢٤٢/ ١٦٤١).

الماضي على من يراه، أشار إلى ذلك ابن دقيق العيد»[(١)].

قال النووي: «وحاصل الحديث بيان رفق رسول اللَّه ﷺ بأمته وشفقته عليهم وإرشادهم إلى مصالحهم، وحثهم على ما يطيقون الدوام عليه، ونهيهم عن التعمق والإكثار من العبادات التي يخاف عليهم الملل بسببها، أو تركها أو ترك بعضها. . وقد ذم اللَّه تعالى قوما أكثروا العبادة ثم فرطوا فيها. فقال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[(٢)]»[(٣)].

حكم الوتر:

قال أبو عمر: «الوتر سنة وهو من صلاة الليل لأنه بها سمي وترا وإنما هو وتر لها»[(٤)].

قال المازري: «مذهب أبي حنيفة أن الوتر واجب وليس بفرض على طريقته وطريقة أصحابه في التفرقة بين الفرض والواجب مع أنهما جميعا يأثم تاركهما عنده. وفرق بعضهم بينهما بأن الواجب هو ما وجب بالسنة، والفرض ما وجب بالقرآن. وقال بعضهم: الواجب ما لا يكفر من خالف فيه، والفرض ما يكفر من خالف فيه. وهذه التفرقة عندنا غير صحيحة على مقتضى اللسان؛ بل الأولى على حكم الاشتقاق أن يكون الواجب آكد من الفرض. وأما الوتر فهو عند مالك سنة، وما وقع لبعض أصحابنا من تجريح تاركه. ولبعضهم من تأديبه محمول على أنه إنما استحق ذلك لأن تركه عنده علم على الاستخفاف بالدين، لا لأجل أن الوتر فرض»[(٥)].

قال ابن العربي: «من يرى أن صلاة الليل فرض يرى الوتر فرضا وقد ذكر الطحاوي أن وجوب الوتر إجماع من الصحابة، وليس كما زعم، فقد ذكرنا الخلاف والوجوب لا يكون إلا بقول ثابت من الشارع أو بإجماع من أهل شريعة وقته»[(٦)].

قال أبو عمر: «الفرائض لا تثبت إلا بيقين لا خلاف فيه، فكيف والقول بأن

---

(١) الفتح (٣/ ٢١).
(٢) الحديد: الآية (٢٧).
(٣) شرح مسلم (٨/ ٣٢-٣٣).
(٤) فتح البر (٦/ ٨٤).
(٥) المعلم (١/ ٣٠٢).
(٦) عارضة الأحوذي (٢/ ٢٤٤).

الوتر سنة ليس بواجب يكاد أن يكون إجماعا لشذوذ الخلاف فيه»[١].

وقال أيضًا: «وأما حديثه عن أبي بكر بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب ﷺ عن سعيد بن يسار، عن ابن عمر، أنه أنكر عليه إذ نزل فأوتر وقال له: أليس لك في رسول اللَّه ﷺ أسوة حسنة؟ كان رسول اللَّه ﷺ يوتر على البعير[٢].

ففيه أوضح الدلائل على أن الوتر ليس بواجب فرضا، ولا يشبه المكتوبات، لأن الإجماع منعقد أنه لا يجوز لأحد أن يصلي على الدواب شيئا من فرائض الصلوات إلا في شدة الخوف خاصة، وفي غلبة المطر عليه إذا كان الماء فوقه، وتحته فإنهم اختلفوا في ذلك.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يتنفل على البعير ويوتر عليه. فبان بذلك خروج الوتر عن طريق الوجوب. وهذه سنة جهلها أبو حنيفة فلم يجز لأحد أن يوتر على الدابة أو البعير في المحمل. وكره ذلك له إلا من عذر. وخالفه أصحابه وسائر الفقهاء، إلا فرقة تابعته، وهي محجوجة بإجماع العلماء ووراثة عن نبيهم ﷺ أنه كان يتنفل على محمله حيث ما توجهت به حاجته.

وثبت عنه ﷺ أنه كان يتنفل ويوتر على البعير. فبان بذلك أنه نافلة وسنة لإجماعهم على أنه لا يجوز ذلك في المكتوبة. وهذا كاف حجة بالغة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»[٣].

قال صديق حسن خان: «والحق أن الوتر سنة هو أوكد السنن بينه علي وابن عمر وعبادة بن الصامت وإليه ذهب أكثر العلماء»[٤].

قال محمد بن نصر المروزي: «افترض اللَّه الصلاة على النبي ﷺ وأمته أول ما افترض ليلة أسري به خمس صلوات في اليوم والليلة فأخبر النبي ﷺ بذلك أمته ثم لم يزل بعد هجرته وقدومه المدينة ونزول الفرائض عليه فريضة بعد فريضة من الزكاة

---

(١) الاستذكار (٥/ ٢٦٧).

(٢) أحمد (٧/ ٢)، البخاري (٢/ ٦١٩/ ٩٩٩)، مسلم (١/ ٤٨٧/ ٧٠٠[٣٦])، الترمذي (٢/ ٣٣٥-٣٣٦/ ٤٧٢)، النسائي (٣/ ٢٥٧-٢٥٨/ ١٦٨٧)، ابن ماجه (١/ ٣٧٩/ ١٢٠٠).

(٣) الاستذكار (٥/ ٢٧١-٢٧٤).

(٤) الروضة الندية (١/ ٣٠٠).

والصيام والحج والجهاد يخبر بمثل ذلك إلى أن توفي صلوات اللَّه وسلامه عليه، وقدمت عليه وفود العرب بعد فتحه مكة ورجوعه إلى المدينة. وذلك في سنة تسع وعشر من البادية ونواحيها يسألونه عن الفرائض يخبرهم في كل ذلك أن عدد الصلوات المفترضات خمس. ووجه معاذ بن جبل إلى اليمن وذلك قبل وفاته بقليل، فأمر أن يخبرهم بأن فرض الصلوات خمس، ثم آخر ما خطب بذلك في حجة الوداع فأخبرهم أن عدد الصلوات المفترضات خمس لا أكثر من ذلك. وفيها نزلت: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾[1]. ثم لم ينزل بعد ذلك فريضة ولا حرام ولا حلال. فرجع رسول اللَّه ﷺ فمات بعد رجوعه بأقل من ثلاثة أشهر، ثم أخبر أبو بكر بذلك بعد وفاته، ثم أخبر علي بن أبي طالب أن الوتر ليس بحتم كالصلاة المكتوبة ولكنه سنة، وغير جائز أن يكون مثل أبي بكر وعلي يجهلان فريضة صلاة من الصلوات المفروضات وهما يحتاجان إليها في كل ليلة حتى يجحدا فرضها، من ظن هذا بهما فقد أساء الظن بهما»[2].

وقال أيضًا: «إن الصلوات المكتوبات الموظفات على العباد في اليوم والليلة هي خمس صلوات وما زاد على ذلك فتطوع. ثم اتفاق الأمة على ذلك أن الصلوات المكتوبات هي خمس لا أكثر.

ودليل آخر: وهو وتر النبي ﷺ بركعة وبثلاث وبخمس وسبع وأكثر من ذلك. فلو كان الوتر فرضا لكان موقتا معروفا عدده لا يجوز أن يزاد فيه ولا ينقص منه كالصلوات الخمس المفروضات، وأحاديث رسول اللَّه ﷺ وأصحابه على خلاف ذلك لأنهم قد أوتروا وترا مختلفا في العدد، وكره غير واحد من الصحابة والتابعين الوتر بثلاث بلا تسليم في الركعتين كراهة أن يشبهوا التطوع بالفريضة.

ودليل ثالث: وهو أن النبي ﷺ أوتر على راحلته قد ثبت ذلك عنه وفعله غير واحد من الصحابة والتابعين. وقد أجمعت الأمة على أن الصلاة المفروضة لا يجوز أن تصلى على الراحلة ففي ذلك بيان أن الوتر تطوع وليس بفرض.

ودليل رابع: وهو أن الوتر يعمل به الخاص والعام من المسلمين في كل ليلة.

---

(١) المائدة: الآية (٣).

(٢) مختصر قيام الليل (ص: ٢٤٦-٢٤٧).

فلو كان فرضا لما خفي وجوبه على العامة كما لم يخف وجوب الظهر والعصر والصلوات الخمس، ولنقلوا علم ذلك كما نقلوا علم صلاة المغرب وسائر الصلوات أنها مفروضات قد توارثوا علم ذلك ينقله قرن عن قرن من لدن النبي ﷺ إلى يومنا هذا، لا يختلفون في ذلك ولا يتنازعون. فلو كان الوتر فرضا كسائر الصلوات لتوارثوا علمه ونقله قرن عن قرن كذلك.

كيف وقد روى عن جماعة من الصحابة والتابعين أنهم قالوا: الوتر تطوع وليس بفرض، منهم علي بن أبي طالب، ولا يجوز أن يكون مثل علي يجهل فريضة صلاة من الصلوات يحتاج إليها في كل ليلة حتى يجحد فرضها، فيزعم أنها ليست بحتم من ظن هذا بعلي فقد أساء به الظن، وكذلك سائر الصحابة وجماعة من التابعين قد روى عنهم مفسرا أن الوتر تطوع»[1].

الوتر يكون بثلاث وخمس وسبع.. وواحدة:

قال أبو عمر ابن عبد البر: «فمن شاء أوتر بثلاث، ومن شاء أوتر بخمس، ومن شاء أوتر بسبع، ومن شاء أوتر بتسع، ومن شاء أوتر بإحدى عشر ركعة، لا يسلم إلا في آخرهن وروي ذلك عن جماعة من السلف من الصحابة والتابعين، وهو قول الثوري، وكان إسحاق بن راهويه يقول: أما من أوتر بثلاث أو خمس، أو سبع، أو تسع فإن شاء سلم بينهن، وإن شاء لم يسلم إلا في آخرهن، وأما من أوتر بإحدى عشر ركعة، فإنه يسلم في كل ركعتين، ويفرد الوتر بركعة»[2].

قال محمد بن نصر المروزي: «فالأمر عندنا أن الوتر بواحدة وبثلاث وخمس وسبع وتسع كل ذلك جائز حسن على ما روينا من الأخبار عن النبي ﷺ وأصحابه من بعده، والذي نختار ما وصفنا من قبل. قال: فإن صلى رجل العشاء الآخرة ثم أراد أن يوتر بعدها بركعة واحدة لا يصلي قبلها شيئا فالذي نختاره له ونستحبه أن يقدم قبلها ركعتين أو أكثر، ثم يوتر بواحدة، فإن هو لم يفعل وأوتر بواحدة جاز ذلك. وقد روينا عن غير واحد من علية أصحاب محمد ﷺ أنهم فعلوا ذلك، وقد كره ذلك مالك وغيره، وأصحاب النبي ﷺ أولى بالاتباع. وقال إسماعيل بن سعيد

---

(١) مختصر قيام الليل (ص: ٢٧٣-٢٧٤).

(٢) فتح البر (٦/ ١٧٣).

الشالنجي: سألت أحمد عن الوتر بركعة واحدة. فقال: إن كان قبلها تطوع فلا بأس، قلت: ما معنى قولك إن كان قبلها تطوع؟ أرأيت إن لم يرد أن يصلي تطوعا تأمره بذلك!. قال: لا بأس بذلك إن أخذ بفعل سعد وغيره. وقال أبو أيوب: لا بأس أن يوتر بركعة وما زاد فهو أفضل. وبه قال أبو خيثمة. وقال ابن أبي شيبة: يجزئ الوتر بركعة.

حدثنا يحيى عن مالك عن ابن شهاب: أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كان يوتر بعد العتمة بواحدة. قال مالك رحمه الله: وليس على هذا العمل. وقال الشافعي رحمه الله: والذي اختار ما فعله النبي ﷺ، كان يصلي إحدى عشرة ركعة يوتر منها بواحدة. قال المزني: رحمه الله وأنكر على مالك قوله: لا أحب أن يوتر بأقل من ثلاث ويسلم بين الركعة والركعتين من الوتر، واحتج بأن من سلم من اثنتين فقد فصلهما مما بعدهما وأنكر على الكوفي الوتر بثلاث كالمغرب.

قال محمد بن نصر: وزعم النعمان رحمه الله أن الوتر ثلاث ركعات لا يجوز أن يزاد على ذلك ولا ينقص منه. فمن أوتر بواحدة فوتره فاسد، والواجب عليه أن يعيد الوتر، فيوتر بثلاث لا يسلم إلا في آخرهن. فإن سلم في الركعتين بطل وتره. وزعم أنه ليس للمسافر أن يوتر على دابته لأن الوتر عنده فريضة. وزعم أنه من نسي الوتر فذكره في صلاة الغداة بطلت صلاته، وعليه أن يخرج منها فيوتر ثم يستأنف الصلاة. وقوله: هذا خلاف للأخبار الثابتة عن رسول اللّه ﷺ وأصحابه، وخلاف لما أجمع عليه أهل العلم»[1].

قال صديق حسن خان: «فالقول بأن الوتر ثلاث ركعات فقط لا يجوز أن يكون الإيتار بغيرها ضيق عطن، وقصور باع، ولمثل هذا صار أكثر فقهاء العصر لا يعرفون الوتر إلا بأنها ثلاث ركعات بعد صلاة العشاء، حتى إن كثيرا منهم يكون له قيام في الليل وتهجد، فتراه يصلي الركعات المتعددة ويظن أن الوتر شيء قد فعله، وأنه لا تعلق له بهذه الصلاة التي يفعلها في الليل، وهو لا يدري أن الوتر هو ختام صلاة الليل، وأنه لا صلاة بعده إلا الركعتان المعروفتان بسنة الفجر، وكثيرا ما يقع الإنسان في الابتداع وهو يظن أنه في الاتباع، والسبب عدم الشغل بالعلم

(١) مختصر قيام الليل (٢٧١-٢٧٢).

وسؤال أهل الذكر، وأما ما روي عن الحسن البصري أنه قال: أجمع المسلمون على أن الوتر ثلاث لا يسلم إلا في آخرهن.

فإن أراد أن الإجماع وقع على هذا القدر، وأنه لا يجوز الإيتار بغيره، فهو من البطلان بمكان لا يخفى على عارف، فهذه الدفاتر الإسلامية الحاكية لمذاهب الصحابة الذين أدركهم الحسن البصري، ولمذاهب التابعين الذين هو واحد منهم، قاضية بخلاف هذه الحكاية، وهي بين أيدينا، وإن أراد أن هذه الصفة هي إحدى صفات الوتر فنحن نقول بموجب ذلك»[1].

جعل الوتر آخر الصلاة بالليل:

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا الحديث أخذ بظاهره -أي: حديث الباب حديث عائشة- الأوزاعي وأحمد فيما حكاه القاضي عنهما فأباحا ركعتين بعد الوتر جالسا، وقال أحمد: لا أفعله ولا أمنع من فعله، قال: وأنكره مالك، قلت: الصواب أن هاتين الركعتين فعلهما ﷺ بعد الوتر جالسا لبيان جواز الصلاة بعد الوتر، وبيان جواز النفل جالسا، ولم يواظب على ذلك، بل فعله مرة أو مرتين أو مرات قليلة، ولا تغتر بقولها: كان يصلي، فإن المختار الذي عليه الأكثرون والمحققون من الأصوليين أن لفظة (كان) لا يلزم منها الدوام ولا التكرار، وإنما هي فعل ماض يدل على وقوعه مرة، فإن دل دليل على التكرار عمل به وإلا فلا تقضتيه بوضعها.. وإنما تأولنا حديث الركعتين جالسا لأن الروايات المشهورة في الصحيحين وغيرهما عن عائشة مع روايات خلائق من الصحابة في الصحيحين مصرحة بأن آخر صلاته ﷺ في الليل كان وترا وفي الصحيحين أحاديث كثيرة مشهورة بالأمر بجعل آخر صلاة بالليل وترا منها: «**اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترًا**»[2] و«صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بواحدة» وغير ذلك. فكيف يظن به ﷺ مع هذه الأحاديث وأشباهها أنه يداوم على ركعتين بعد الوتر ويجعلهما آخر صلاة الليل، وإنما معناه ما قدمناه من بيان الجواز، وهذا

---

(١) الروضة الندية (١/ ٣٠٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٠). البخاري (٢/ ٦١٩/ ٩٩٨). مسلم (١/ ٥١٧-٥١٨/ ٧٥١[١٥١]). أبو داود (٢/ ١٤٠/ ١٤٣٨).

الجواب هو الصواب، وأما ما أشار إليه القاضي من ترجيح الأحاديث المشهور ورد رواية الركعتين جالسا، فليس بصواب؛ لأن الأحاديث إذا صحت وأمكن الجمع بينها تعين، وقد جمعنا بينها ولله الحمد»[١].

قال ابن القيم: «وقد ثبت عنه ﷺ أنه كان يصلي بعد الوتر ركعتين جالسا تارة، وتارة يقرأ فيهما جالسا، فإذا أراد أن يركع، قام فركع، وفي (صحيح مسلم)[٢] عن أبي سلمة قال: سألت عائشة ﵂ عن صلاة رسول اللَّه ﷺ، فقالت: كان يصلي ثلاث عشرة ركعة، يصلي ثمان ركعات، ثم يوتر، ثم يصلي ركعتين وهو جالس، فإذا أراد أن يركع، قام فركع. وقد أشكل هذا على كثير من الناس، فظنوه معارضا، لقوله ﷺ: «**اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترا**». وأنكر مالك ﵀ هاتين الركعتين، وقال أحمد: لا أفعله ولا أمنع من فعله، قال: وأنكره مالك وقالت طائفة: إنما فعل هاتين الركعتين، ليبين جواز الصلاة بعد الوتر، وأن فعله لا يقطع التنفل، وحملوا قوله: «اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترا» على الاستحباب، وصلاة الركعتين بعده على الجواز.

والصواب: أن يقال: إن هاتين الركعتين تجريان مجرى السنة، وتكميل الوتر، فإن الوتر عبادة مستقلة، ولا سيما إن قيل بوجوبه، فتجري الركعتان بعده مجرى سنة المغرب من المغرب، فإنها وتر النهار، والركعتان بعدها تكميل لها، فكذلك الركعتان بعد وتر الليل. واللَّه أعلم»[٣].

قال محمد بن نصر المروزي: «اختلف أصحابنا فذهبت طائفة إلى أنه إذا قام من الليل شفع وتره بركعة أخرى ثم صلى ركعتين ركعتين ثم أوتر في آخر صلاته بركعة. واحتجوا بقول النبي ﷺ: «**اجعلوا آخر صلاتكم من الليل وترا**». فقالوا: إذا هو قام من الليل فلم يشفع وتره وصلى مثنى مثنى ثم لم يوتر في آخر صلاته كان قد جعل صلاته من الليل شفعا ولا وترا، وترك قول النبي ﷺ. «اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترا». كان إسحاق بن إبراهيم وجماعة من أصحابنا يذهبون إلى هذا، ويحتجون

(١) شرح مسلم (٦/ ١٩).
(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٨٩)، ومسلم (١/ ٥٠٩/ ٧٣٨)، وأبو داود (٢/ ٨٦/ ١٣٤١)، والترمذي (٢/ ٣٠٢/ ٤٣٩)، والنسائي (٣/ ٢٦٠/ ١٦٩٦).
(٣) زاد المعاد (١/ ٣٣٢-٣٣٣).

لما ذكرنا ويحتجون مع هذه الحجة بأخبار رويت عن أصحاب محمد ﷺ أنهم فعلوا ذلك. . وقالت طائفة أخرى: إذا أوتر الرجل بركعة من أول الليل وسلم منها فقد قضى وتره، فإذا هو نام بعد ذلك وأحدث لعلة أحداثا مختلفة، ثم قام فاغتسل أو توضأ وتكلم بين ذلك ثم صلى ركعة أخرى فهذه صلاة غير تلك الصلاة، وغير جائز في النظر أن تتصل هذه الركعة بالركعة الأولى التي صلاها في أول الليل، فتصيران صلاة واحدة، وبينهما من الأحداث ما ذكرنا، فإنما هاتان صلاتان متباينتان كل واحدة غير الأخرى، ومن فعل ذلك فقد أوتر مرتين ثم إذا هو أوتر أيضا في آخر صلاته صار موترا ثلاث مرارا.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا وتران في ليلة**»[1]. قالوا وأما رواية ابن عمر عن النبي ﷺ: «**اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترا**» فإنما ذلك في الرجل يريد أن يصلي من الليل فالسنة أن يصلي مثنى مثنى، ثم يوتر آخر صلاته، فإذا هو فعل ذلك ونام ثم قام فبدا له أن يصلي فليس في ذلك دليل أن هذا ينبغي له أن يوتر مرة أخرى؛ لأنه قد قضى وتره مرة وليس من السنة أن يوتر في ليلة مرتين ولا ثلاثا.

وقال مالك: من أوتر من أول الليل ثم نام ثم قام فبدا له أن يصلي فليصل مثنى مثنى وهو أحب ما سمعت إلي. قال محمد بن نصر: وهذا مذهب الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ وأحمد رَحِمَهُ اللَّهُ وهو أحب إلي. . وقال بعض من ذهب هذا المذهب قول النبي ﷺ: «اجعلوا آخر صلاتكم من الليل وترا» إنما هو ندب واختيار وليس بإيجاب. والدليل على ذلك صلاة النبي ﷺ بعد الوتر بالليل، وكذلك قوله: «**صلاة الليل مثنى مثنى والوتر ركعة**» إنما هو ندب واختيار لا إيجاب. والدليل عليه وتر النبي ﷺ بخمس وسبع وتسع لم يسلم إلا في آخرهن، وسئل أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ فيمن أوتر أول الليل ثم قام يصلي. قال: يصلي ركعتين ركعتين، قيل: وليس عليه وتر. قال: لا»[2].

هل المستحسن تقديم الوتر أول الليل أو تأخيره عنه؟:

قال أبو عمر ابن عبد البر: «تقديم الوتر في أول الليل وتأخيره عن ذلك. . أمر مجتمع عليه لا مدخل للقول فيه، لأن الوتر من صلاة الليل، وصلاة الليل لا وقت

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٣). أبو داود (٢/ ١٤٠-١٤١/ ١٤٣٩). الترمذي (٢/ ٣٣٣-٣٣٤/ ٤٧٠) وقال: «حسن غريب». النسائي (٣/ ٢٥٥/ ١٦٧٨). وصححه ابن حبان (٦/ ٢٠١-٢٠٢/ ٢٤٤٩)، من حديث طلق بن علي.

(٢) مختصر قيام الليل (ص: ٢٨٠-٢٨٦).

لها محدود، وإنما الأوقات للمكتوبات، فما فعل الإنسان من ذلك فحسن»[١].

قال ابن دقيق العيد: «اختلفوا في أن الأفضل تقديم الوتر في أول الليل أو تأخيره إلى آخره على وجهين لأصحاب الشافعي مع الاتفاق على جواز ذلك.. وقيل بالفرق بين من يرجو أن يقوم في آخر الليل وبين من يخاف أن لا يقوم، والأول تأخيره أفضل والثاني تقديمه أفضل: ولا شك أنا إذا نظرنا إلى آخر الليل من حيث هو كذلك كانت الصلاة فيه أفضل من أوله، لكن إذا عارض ذلك احتمال تفويت الأصل قدمناه على فوات الفضيلة»[٢].

قال خطاب السبكي: «إن الأفضل لمن علم أنه لا يقوى على القيام آخر الليل أن يوتر أوله، وأن الأفضل لمن قوى على القيام آخر الليل أن يوتر آخره، قال عمر بن الخطاب: إن الأكياس الذين يوترون أول الليل، وأن الأقوياء الذين يوترون آخر الليل. وهو الأفضل»[٣].

القنوت في الوتر:

قال الحافظ: «المراد به هنا الدعاء في الصلاة في محل مخصوص من القيام»[٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولم يحفظ عنه ﷺ أنه قنت في الوتر إلا في حديث رواه ابن ماجه، عن علي بن ميمون الرقي، حدثنا مخلد بن يزيد، عن سفيان، عن زبيد اليامي، عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى، عن أبيه، عن أبي بن كعب، أن رسول اللَّه ﷺ (كان يوتر فيقنت قبل الركوع)[٥].. وقد روى أحمد وأهل السنن من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: علمني رسول اللَّه ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: **«اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، إنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من**

(١) الاستذكار (٥/ ٢٧٤).

(٢) أحكام الأحكام (٢/ ٨٦).

(٣) المنهل (٨/ ٧٣).

(٤) الفتح (٢/ ٦٢٢).

(٥) أخرجه: ابن ماجه (١/ ٣٤٧/ ١١٨٢)، وأبو داود بإثر حديث (٢/ ١٣٥/ ١٤٢٧)، والنسائي (٣/ ٢٦١/ ١٦٩٨)، وصححه الألباني في الإرواء (٤٢٦).

واليت، تباركت ربنا وتعاليت»[١]. زاد البيهقي والنسائي: «**ولا يعز من عاديت**». وزاد النسائي في روايته: «**وصل اللّه على النبي**». وزاد الحاكم في المستدرك وقال: علمني رسول اللّه ﷺ في وتري إذا رفعت رأسي ولم يبق إلا السجود. ورواه ابن حبان في صحيحه ولفظه: سمعت رسول اللّه ﷺ يدعو. قال الترمذي: وفي الباب عن علي رضي الله عنه، وهذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه، من حديث أبي الحوراء السعدي، واسمه ربيعة بن شيبان، ولا نعرف عن النبي ﷺ في القنوت في الوتر شيئا أحسن من هذا انتهى.

والقنوت في الوتر محفوظ عن عمر، وابن مسعود، والرواية عنهم أصح من القنوت في الفجر، والرواية عن النبي ﷺ في قنوت الفجر أصح من الرواية في قنوت الوتر»[٢].

قال ابن قدامة: «إن القنوت مسنون في الوتر في الركعة الواحدة في جميع السنة. هذا المنصوص عند أصحابنا، وهذا قول ابن مسعود، وإبراهيم، وإسحاق، وأصحاب الرأي. وروي ذلك عن الحسن»[٣].

وقال أيضا: «ويقنت بعد الركوع. نص عليه أحمد. وروي نحو ذلك عن أبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وأبي قلابة وأبي المتوكل، وأيوب السختياني. وبه قال الشافعي. وروي عن أحمد أنه قال: أنا أذهب إلى أنه بعد الركوع، فإن قنت قبله فلا بأس. ونحو هذا قال أيوب السختياني؛ لما روى حميد، قال: سئل أنس عن القنوت في صلاة الصبح، فقال: (كنا نقنت قبل الركوع وبعده)، رواه ابن ماجه[٤]. وقال مالك وأبو حنيفة: يقنت قبل الركوع. وروي ذلك عن أبي، وابن مسعود وأبي موسى والبراء وابن عباس وأنس وعمر بن عبد العزيز، وعبيدة وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وحميد الطويل؛ لأن في حديث أبي: ويقنت قبل الركوع»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١٩٩). أبو داود (٢/ ١٣٣-١٣٤/ ١٤٢٥). الترمذي (٢/ ٣٢٨/ ٤٦٤) وقال: «حديث حسن». النسائي (٣/ ٢٧٥/ ١٧٤٤). ابن ماجه (١/ ٣٧٢-٣٧٣/ ١١٧٨). وصححه ابن حبان (٣/ ٢٢٥/ ٩٤٥) والحاكم (٣/ ١٧٢).

(٢) زاد المعاد (١/ ٣٣٤-٣٣٥).

(٣) المغني (٢/ ٥٨٠).

(٤) (١/ ٣٧٤/ ١١٧٣)، وقال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح ورجاله ثقات». وقال الحافظ في الفتح (٢/ ٦٢٣): إسناده قوي.

(٥) المغني (٢/ ٥٨١-٥٨٢).

قال الحافظ: «ومجموع ما جاء عن أنس من ذلك أن القنوت للحاجة بعد الركوع لا خلاف عنه في ذلك، وأما لغير الحاجة فالصحيح عنه أنه قبل الركوع، وقد اختلف عمل الصحابة في ذلك، والظاهر أنه من الاختلاف المباح»[١].

قال المباركفوري: «يجوز القنوت في الوتر قبل الركوع وبعده، والمختار عندي كونه بعد الركوع قال العراقي: ويعضد كونه بعد الركوع أولى فعل الخلفاء الأربعة لذلك، والأحاديث الواردة في الصبح»[٢].

قضاء الوتر لمن فاته:

قال محمد بن نصر المروزي: «فالذي عليه العمل عند جمهور أهل العلم أن لا يؤخر الوتر إلى طلوع الفجر اتباعا للأخبار التي رويناها أن النبي ﷺ أمر بالوتر قبل الصبح، وكان وتره ﷺ عامته كذلك في آخر الليل قبل طلوع الفجر، ثم اختلف الناس فيمن نام عن الوتر أو سها عنه أو فرط فيه، فلم يوتر حتى طلع الفجر. فرأى بعضهم أن الفجر إذا طلع فقد ذهب وقت الوتر، ولا يقضى بعد ذلك لأنه ليس بفرض، وإنما يصلي في وقته فإذا ذهب وقته لم يقض»[٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم يكن ﷺ يدع قيام الليل حضرا ولا سفرا، وكان إذا غلبه نوم أو وجع، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة. فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: في هذا دليل على أن الوتر لا يقضى لفوات محله، فهو كتحية المسجد، وصلاة الكسوف والاستسقاء ونحوها، لأن المقصود به أن يكون آخر صلاة الليل وترا، كما أن المغرب آخر صلاة النهار، فإذا انقضى الليل وصليت الصبح، لم يقع الوتر موقعه. هذا معنى كلامه. وقد روى أبو داود، وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «**من نام عن الوتر أو نسيه، فليصله إذا أصبح أو ذكر**»[٤]»[٥].

قال خطاب السبكي: «وفيه دلالة على مشروعية قضاء الوتر. وبه قال جمهور

---

(١) فتح الباري (٢/ ٦٢٣).
(٢) تحفة الأحوذي (٢/ ٤٦٣).
(٣) مختصر قيام الليل (ص: ٣٠٥).
(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٣١). أبو داود (٢/ ١٣٧/ ١٤٣١). الترمذي (٢/ ٣٣٠/ ٤٦٥). ابن ماجه (١/ ٣٧٥/ ١١٨٨). الحاكم (١/ ٣٠٢) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.
(٥) زاد المعاد (١/ ٣٢٤).

الصحابة والتابعين ومن بعدهم منهم سعد بن أبي وقاص وعلي وابن مسعود وابن عمر وعبادة بن الصامت وعامر بن ربيعة وأبو الدرداء ومعاذ بن جبل وفضالة بن عبيد وابن عباس وعمرو بن شرحبيل وعبيدة السلماني وإبراهيم النخعي ومحمد بن المنتشر وأبو العالية، والثوري وأبو حنيفة ومالك والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق. واختلف في وقت قضائه، فقال ابن عباس ومسروق والحسن البصري وإبراهيم النخعي ومكحول وقتادة ومالك وأحمد وإسحاق وأبو خيثمة: يقضى بعد الفجر ما لم تصل الصبح»[1].

قال محمد بن نصر المروزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يمكن أن يكون الذين رأوا أن يوتروا عند الإقامة وبعد الإقامة كان مذهبهم أن لا يقضى الوتر بعد صلاة الفجر، فلذلك كانوا يأمرون بقضائه قبل صلاة الفجر، لأنهم كانوا لا يرون قضاءه بعد الفجر. قد روى عن جماعة مفسرا على ما قلنا. وقال بعضهم: إذا صلى الغداة لم يوتر بالنهار فإذا كانت الليلة الثانية أوتر وترين: وتر الليلة الماضية، ووتر الليلة التي هو فيها؛ لأن وتر الليل لا يقضى بالنهار. سئل سعيد بن جبير عن رجل لم يوتر حتى أصبح، قال: فليوتر ليلة أخرى. . قال: والذي أقول به أنه يصلي الوتر ما لم يصل الغداة فإذا صلى الغداة فليس عليه أن يقضيه بعد ذلك، وإن قضاه على ما يقضى التطوع فحسن، قد صلى النبي ﷺ الركعتين قبل الفجر بعد طلوع الشمس في الليلة التي نام فيها عن صلاة الغداة حتى طلعت الشمس، وقضى الركعتين اللتين كان يصليهما بعد الظهر بعد العصر في اليوم الذي شغل فيه عنهما، وقد كانوا يقضون صلاة الليل إذا فاتتهم بالليل نهارا، فذلك حسن وليس بواجب»[2].

وقال المباركفوري: «قال ابن الملك أي: فليقض الوتر بعد الصبح متى اتفق، وإليه ذهب الشافعي في أظهر قوليه. وقال مالك وأحمد لا يقضي الوتر بعد الصبح انتهى. قلت: مذهب الشافعي موافق لهذا الحديث وهو حجة على مالك وأحمد»[3].

* عن ابن عباس قال: (لما نزلت أول المزمل كانوا يقومون نحوا من قيامهم في

---

(١) المنهل (٨/ ٦٨).

(٢) مختصر قيام الليل (ص: ٣١١-٣١٢).

(٣) التحفة (٢/ ٤٦٥).

شهر رمضان حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها سنة)[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: «قيل: نسخه بعد عشر سنين وهو الظاهر، لأن نسخها على ما روى آخرها ونزل آخرها بالمدينة، والسورة كلها مكية من أول ما نزل من القرآن إلا الآيتين آخرها»[٢].

قال الحافظ: «ومقتضى ذلك أن النسخ وقع بمكة لأن الإيجاب متقدم على فرض الخمس ليلة الإسراء، وكانت قبل الهجرة بأكثر من سنة على الصحيح، وحكى الشافعي عن بعض أهل العلم أن آخر السورة نسخ افتراض قيام الليل إلا ما تيسر منه لقوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾[٣] ثم نسخ فرض ذلك بالصلوات الخمس. واستشكل محمد بن نصر ذلك كما تقدم ذكره والتعقب عليه في أول كتاب الصلاة، وتضمن كلامه أن الآية التي نسخت الوجوب مدنية، وهو مخالف لما عليه الأكثر من أن السورة كلها مكية. نعم ذكر أبو جعفر النحاس أنها مكية إلا الآية الأخيرة»[٤].

قال ابن عاشور: «فالذي نعتمد عليه أن أول السورة نزل بمكة لا محالة.. وأن قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ﴾[٥] إلى آخر السورة نزل بالمدينة بعد سنين من نزول أول السورة؛ لأن فيه ناسخا لوجوب قيام الليل على النبي ﷺ»[٦].

وهذا هو الذي استظهره أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في المفهم[٧].

* * *

---

(١) أخرجه: ابن أبي شيبة (٧/ ٢٦٦/ ٣٥٩٤٢) واللفظ له، أبو داود (٢/ ٧٢/ ١٣٠٥). البيهقي (٢/ ٥٠٠)، الحاكم (٢/ ٥٠٥) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.

(٢) الإكمال (٣/ ٩٥).

(٣) المزمل: الآية (٢٠).

(٤) الفتح (٣/ ٢٨).

(٥) المزمل: الآية (٢٠).

(٦) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٥٤).

(٧) المفهم (٢/ ٣٧٩).

قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «معناه في اللغة تمهل وفرق بين الحروف لتبين. والمقصد أن يجد الفكر فسحة للنظر وفهم المعاني، وبذلك يرق القلب. قال ابن كيسان: المراد تفهمه تاليا له، ومنه الثغر الرتل التي بينه فسح وفتوح»[٢].

قال القرطبي: «وقال أبو بكر بن طاهر: تدبر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرك بالإقبال عليه»[٣].

قال صديق حسن خان: «والمقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب عند القراءة، لا مجرد إخراج الحروف من الحلقوم بتعويج الوجه والفم وألحان الغناء، كما يعتاده قراء هذا الزمان من أهل مصر وغيره، في مكة المكرمة وغيرها، بل هو بدعة أحدثها البطالون الأكالون، والحمقاء الجاهلون بالشرائع وأدلتها الصادقة، وليس هذا بأول قارورة كسرت في الإسلام»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حكم ترتيل القراءة وصفة قراءة رسول الله ﷺ

* عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها**»[٥].

---

(١) المزمل: الآية (٤).

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٣٨٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٢٦).

(٤) فتح البيان (١٤/ ٣٨٢).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١٩٢)، أبو داود (٢/ ١٥٣/ ١٤٦٤) واللفظ له، الترمذي (٥/ ١٦٣/ ٢٩١٤) وقال: «حديث حسن صحيح»، النسائي في الكبرى (٥/ ٢٢/ ٨٠٥٦)، الحاكم (١/ ٥٥٢-٥٥٣) سكت عنه وصححه الذهبي، وابن حبان (٣/ ٤٣/ ٧٦٦).

★ **فوائد الحديث:**

قال خطاب السبكي: «في الحديث دلالة على الترغيب في حفظ القرآن وإتقانه والترتيل في القراءة»[١].

قال الطيبي: «قال التوربشتي: الصحبة للشيء الملازمة له إنسانا كان أو حيوانا، مكانا كان أو زمانا، ويكون بالبدن، وهو الأصل والأكثر، ويكون بالعناية والهمة، وصاحب القرآن هو الملازم له بالهمة والعناية، ويكون ذلك تارة بالحفظ والتلاوة، وتارة بالتدبر له والعمل به. وإن ذهبنا إلى الأول، فالمراد من الدرجات بعضها دون بعض، والمنزلة التي في الحديث هي ما يناله العبد من الكرامة على حسب منزلته في الحفظ والتلاوة لا غير، وذلك لما عرفنا من أصل الدين: أن العامل بكتاب اللَّه المتدبر له أفضل من الحافظ والتالي له إذا لم ينل شأوه في العمل والتدبر، وقد كان في الصحابة من هو أحفظ لكتاب اللَّه من أبي بكر الصديق ﷺ، وأكثر تلاوة منه، وكان هو أفضلهم على الإطلاق؛ لسبقه عليهم في العلم باللَّه، وبكتابه، وتدبره له، وعمله به. وإن ذهبنا إلى الثاني -وهو أحق الوجهين وأتمهما- فالمراد من الدرجات التي يستحقها بالآيات سائرها، وحينئذ تقدر التلاوة في القيامة على مقدار العمل، فلا يستطيع أحد أن يتلو به إلا وقد قام بما يجب عليه فيها، واستكمال ذلك إنما يكون للنبي ﷺ، ثم للأمة بعده على مراتبهم ومنازلهم في الدين، كل منهم يقرأ على مقدار ملازمته إياه تدبرا وعملا»[٢].

قال الطيبي: «أقول لعل الشيخ التوربشتي عنى برده القول الأول ضعف هذا القول، وظاهر كلام القاضي اختياره، والذي يذهب إليه أن سياق هذا الحديث تحريض لصاحب القرآن على التحري في القراءة، والإمعان في النظر فيه، والملازمة له، والعمل بمقتضاه، وكل هذه الفوائد يعطيها معنى الصاحب استعارة؛ لأن أصل المصاحبة بالبدن، وقد علم أن الصاحب من يرافقك بالبدن ويوافقك بما يهمك، ويعاونك فيما ينفعك، ويدافع عنك ما يضرك، فإذن هو جامع لمعنى القراءة والتدبر والعمل فقوله: «اقرأ وارق» أمر له في الآخرة بالقراءة التي توصله

---

(١) المنهل (٨/ ١٢٤).

(٢) شرح الطيبي (٥/ ١٦٥٤).

إلى مصاعد ودرجات»[١].

«ويؤخذ من الحديث أنه لا ينال هذا الثواب الأعظم إلا من حفظ القرآن واتقن أداءه وقراءته كما ينبغي له»[٢].

* عن قتادة قال: سألت أنس بن مالك عن قراءة النبي ﷺ، فقال: «كان يمد مدا»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال خطاب السبكي: «قوله: «يمد مدا»: أي كان يطيل الحروف الصالحة للإطالة، وهي كل حرف بعده ألف أو واو أو ياء، والحكمة في المد في القراءة الاستعانة على تدبر المعاني والتفكر فيها وتذكر من يتذكر»[٤].

قال الحافظ: «المد عند القراءة على ضربين: أصلي وهو إشباع الحرف الذي بعده ألف أو واو أو ياء، وغير أصلي وهو ما إذا أعقب الحرف الذي هذه صفته همزة. وهو متصل ومنفصل، فالمتصل ما كان من نفس الكلمة والمنفصل ما كان بكلمة أخرى، فالأول يؤتى فيه بالألف والواو والياء ممكنات من غير زيادة، والثاني يزاد في تمكين الألف والواو والياء زيادة على المد الذي لا يمكن النطق بها إلا به من غير إسراف. والمذهب الأعدل أنه يمد كل حرف منها ضعفي ما كان يمده أولا وقد يزاد على ذلك قليلا، وما أفرط فهو غير محمود»[٥].

قال ابن بطال: «وإنما كان -أي النبي ﷺ- يفعل ذلك والله أعلم لأمر الله له بالترتيل، وأن يقرأه على مكث، وألا يحرك به لسانه ليعجل به، فامتثل أمر ربه -تعالى- فكان يقرؤه على مهل ليبين لأمته كيف يقرءون، وكيف يمكنهم تدبر القرآن وفهمه»[٦].

---

(١) شرح الطيبي (٥/ ١٦٥٥).

(٢) عون المعبود (٤/ ٣٣٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٩، ١٣١ و١٩٢)، البخاري (٩/ ١١١/ ٥٠٤٥)، أبو داود (٢/ ١٥٤/ ١٤٦٥)، النسائي (٢/ ٥٢١/ ١٠١٣)، ابن ماجه (١/ ٤٣٠/ ١٣٥٣).

(٤) المنهل العذب (٨/ ١٢٥) بتصرف.

(٥) الفتح (٩/ ١١٢).

(٦) شرح البخاري (١٠/ ٢٧٤).

قال خطاب السبكي: «وفي الحديث دلالة على استحباب التأني في القراءة وعدم الإسراع فيها، لأن ذلك زينة القرآن الذي يتمكن القارئ من التدبر في معانيه»[١].

* عن أبي وائل قال: غدونا على عبد اللَّه فقال رجل: قرأت المفصل البارحة، فقال: هذا كهذ الشعر إنا قد سمعنا القراءة وإني لأحفظ القرناء التي كان يقرأ بهن النبي ﷺ: ثماني عشرة سورة من المفصل وسورتين من آل حم[٢].

★ غريب الحديث:

هذًّا: الهذ الإسراع، ونصبه على المصدر.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «فيه النهي عن الهذ، والحث على الترتيل والتدبر، وبه قال جمهور العلماء»[٣].

وقال الحافظ: «إن استحباب الترتيل لا يستلزم كراهة الإسراع، وإنما الذي يكره الهذ وهو الإسراع المفرط بحيث يخفى كثير من الحروف، أو لا تخرج من مخارجها»[٤].

وقال أيضًا: «والتحقيق أن لكل من الإسراع والترتيل جهة فضل، بشرط أن يكون المسرع لا يخل بشيء من الحروف والحركات والسكون الواجبات، فلا يمتنع أن يفضل أحدهما الآخر وأن يستويا، فإن من رتل وتأمل كمن تصدق بجوهرة واحدة مثمنة، ومن أسرع كمن تصدق بعدة جواهر لكن قيمتها قيمة الواحدة، وقد تكون قيمة الواحدة أكثر من قيمة الأخريات، وقد يكون بالعكس»[٥].

* عن أم سلمة أنها ذكرت أو كلمة غيرها قراءة رسول اللَّه ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ

---

(١) المنهل (٨/ ١٢٦).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٤٢١)، والبخاري (٩/ ١٠٨-١٠٩/ ٥٠٤٣)، ومسلم (١/ ٥٦٣/ ٧٢٢)، وأبو داود (٢/ ١١٧/ ١٣٩٦)، والترمذي (٢/ ٤٩٨-٤٩٩/ ٦٠٢)، والنسائي (٢/ ٥١٦-٥١٧/ ١٠٠٤).

(٣) شرح مسلم (٦/ ٩١).

(٤) الفتح (٩/ ١٠٩).

(٥) الفتح (٩/ ١١٠).

ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[١] يقطع قراءته آية آية[٢].

* عن حفصة أنها قالت: (ما رأيت رسول اللَّه ﷺ صلى في سبحته قاعدا، حتى كان قبل وفاته بعام، فكان يصلي في سبحته قاعدا، وكان يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها)[٣].

★ فوائد الحديثين:

قال الشوكاني: «فيه استحباب ترتيل القراءة. والمراد بقولها: حتى تكون أطول من أطول منها أن مدة قراءته لها أطول من قراءة سورة أخرى أطول منها إذا قرئت غير مرتلة، وإلا فلا يمكن أن تكون السورة نفسها أطول من أطول منها من غير تقييد بالترتيل والإسراع»[٤].

قال أبو عمر: «وفيه ترتيل القرآن في الصلاة، وهو الذي أمر اللَّه به رسوله، واختاره له ولسائر أمته، قال اللَّه ﷻ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾، والترتيل التمهل والترسل، ليقع مع ذلك التدبر؛ وكذلك كانت قراءته ﷺ حرفا حرفا فيما حكت أم سلمة وغيرها»[٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد اختلف الناس في الأفضل من الترتيل وقلة القراءة، أو السرعة مع كثرة القراءة: أيهما أفضل؟ على قولين. فذهب ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم وغيرهما إلى أن الترتيل والتدبر مع قلة القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها. واحتج أرباب هذا القول بأن المقصود من القراءة فهمه وتدبره، والفقه فيه والعمل به، وتلاوته وحفظه وسيلة إلى معانيه، كما قال بعض السلف: نزل القرآن ليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملا، ولهذا كان أهل القرآن هم العالمون به، والعاملون بما فيه، وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب. وأما من حفظه ولم يفهمه ولم

---

(١) الفاتحة: الآيات (١-٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٠٢)، وأبو داود (٤/ ٢٩٤/ ٤٠٠١) واللفظ له، والترمذي (٥/ ١٧٠/ ٢٩٢٧) وقال: غريب وصححه ابن خزيمة (١/ ٢٤٨-٢٤٩/ ٤٩٣)، والحاكم (٢/ ٢٣١-٢٣٢) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٨٥). مسلم (١/ ٥٠٧/ ٧٣٣). الترمذي (٢/ ٢١١-٢١٢/ ٣٧٣)، النسائي (٣/ ٢٤٧/ ١٦٥٧).

(٤) نيل الأوطار (٣/ ٨١).

(٥) فتح البر (٦/ ٤٢).

يعمل بما فيه، فليس من أهله وإن أقام حروفه إقامة السهم.

قالوا: ولأن الإيمان أفضل الأعمال، وفهم القرآن وتدبره هو الذي يثمر الإيمان، وأما مجرد التلاوة من غير فهم ولا تدبر، فيفعلها البر والفاجر، والمؤمن والمنافق، كما قال النبي ﷺ: «**ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن، كمثل الريحانة، ريحها طيب، وطعمها مر**»(١).

والناس في هذا أربع طبقات: أهل القرآن والإيمان، وهم أفضل الناس. والثانية: من عدم القرآن والإيمان. الثالثة: من أوتي قرآنا، ولم يؤت إيمانا. الرابعة: من أوتي إيمانا ولم يؤت قرآنا.

قالوا: فكما أن من أوتي إيمانا بلا قرآن أفضل ممن أوتي قرآنا بلا إيمان، فكذلك من أوتي تدبرا، وفهما في التلاوة أفضل ممن أوتي كثرة قراءة وسرعتها بلا تدبر. قالوا: وهذا هدي النبي ﷺ، فإنه كان يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها، وقام بآية حتى الصباح.

وقال أصحاب الشافعي رحمه الله: كثرة القراءة أفضل، واحتجوا بحديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ حرفا من كتاب الله، فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الم﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»(٢). رواه الترمذي وصححه.. والصواب في المسألة أن يقال: إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجل وأرفع قدرا، وثواب كثرة القراءة أكثر عددا، فالأول: كمن تصدق بجوهرة عظيمة، أو أعتق عبدا قيمته نفيسة جدا، والثاني: كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم، أو أعتق عددا من العبيد قيمتهم رخيصة، وفي صحيح البخاري عن قتادة قال: سألت أنسا عن قراءة النبي ﷺ، فقال: كان يمد مدا. وقال شعبة: حدثنا أبو جمرة، قال: قلت لابن عباس: إني رجل سريع القراءة وربما قرأت القرآن في ليلة مرة أو مرتين، فقال ابن عباس: لأن أقرأ سورة واحدة

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٧). البخاري (٩/ ٦٩٣/ ٥٤٢٧). مسلم (١/ ٥٤٩/ ٧٩٧). أبو داود (٥/ ١٦٦/ ٤٨٢٩). الترمذي (٥/ ١٣٨/ ٢٨٦٥). النسائي (٨/ ٤٩٩/ ٥٠٥٣). ابن ماجه (١/ ٧٧/ ٢١٤).

(٢) أخرجه: الترمذي (٥/ ١٦١/ ٢٩١٠) وقال: «حسن صحيح غريب من هذا الوجه» والدارمي (٢/ ٤٢٩) والحاكم (١/ ٥٦٦) وصححه ووافقه الذهبي.

أعجب إلي من أن أفعل الذي تفعل، فإن كنت فاعلا ولابد، فاقرأ قراءة تسمع أذنيك، ويعيها قلبك»[١].

* عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «هذا يتأول على وجوه: أحدها تحسين الصوت والوجه الثاني: الاستغناء بالقرآن عن غيره، وإليه ذهب سفيان بن عيينة، ويقال: تغنى الرجل: بمعنى استغنى. قال الأعشى:

وكنت امرءا زمنا بالعراق عفيف المنازل طويل التغن

أي: الاستغناء، وفيه وجه ثالث قاله ابن الأعرابي صاحبنا، أخبرني إبراهيم بن فراس قال: سألت ابن الأعرابي عن هذا فقال: إن العرب كانت تتغنى بالركبان إذا ركبت الإبل، وإذا جلست في الأفنية، وعلى أكثر أحوالها، فلما نزل القرآن أحب النبي ﷺ أن يكون القرآن هجيراهم مكان التغني بالركبان»[٣].

قال الحافظ: «والحاصل أنه يمكن الجمع بين أكثر التأويلات المذكورة، وهو أنه يحسن به صوته جاهرا به مترنما على طريق التحزن، مستغنيا به عن غيره من الأخبار، طالبا به غنى النفس راجيا به غنى اليد، وقد نظمت ذلك في بيتين:

تغن بالقرآن حسن به الصو ت حزينا جاهرا رنم

واستغن عن كتب الألى طالبا غنى يد والنفس ثم الزم

.. ولا شك أن النفوس تميل إلى سماع القراءة بالترنم أكثر من ميلها لمن لا يترنم، لأن للتطريب تأثيرا في رقة القلب وإجراء الدمع.. أما تحسين الصوت وتقديم حسن الصوت على غيره فلا نزاع في ذلك.. والذي يتحصل من الأدلة أن حسن الصوت بالقرآن مطلوب، فإن لم يكن حسنا فليحسنه ما استطاع، كما قال ابن

---

(١) زاد المعاد (١/ ٣٣٧-٣٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٥٧١)، أبو داود (٢/ ١٥٥-١٥٦/ ١٤٦٩)، ابن ماجه (١/ ٤٢٤/ ١٣٣٧) بنحوه. وصححه ابن حبان (١/ ٣٢٦-٣٢٧/ ١٢٠)، الحاكم (١/ ٥٦٩) ووافقه الذهبي.

(٣) المعالم (٢/ ١٥٦) حاشية السنن.

أبي مليكة أحد رواة الحديث، وقد أخرج ذلك عنه أبو داود بإسناد صحيح. ومن جملة تحسينه أن يراعي فيه قوانين النغم، فإن الحسن الصوت يزداد حسنا بذلك، وإن خرج عنها أثر ذلك في حسنه، وغير الحسن ربما انجبر بمراعاتها ما لم تخرج عن شرط الأداء المعتبر عند أهل القراءات، فإن خرج عنها لم يف تحسين الصوت بقبح الأداء، ولعل هذا مستند من كره القراءة بالأنغام؛ لأن الغالب على من راعى الأنغام أن لا يراعي الأداء، فإن وجد من يراعيهما معا فلا شك في أنه أرجح من غيره؛ لأنه يأتي بالمطلوب من تحسين الصوت ويجتنب الممنوع من حرمة الأداء والله أعلم»[1].

وقال: «وكان بين السلف اختلاف في جواز القرآن بالألحان.. فحكى عبد الوهاب المالكي عن مالك تحريم القراءة بالألحان، وحكاه أبو الطيب الطبري والماوردي وابن حمدان الحنبلي عن جماعة من أهل العلم، وحكى ابن بطال وعياض والقرطبي من المالكية والماوردي والبندنيجي والغزالي من الشافعية، وصاحب الذخيرة من الحنفية الكراهة، واختاره أبو يعلى وابن عقيل من الحنابلة، وحكى ابن بطال عن جماعة من الصحابة والتابعين الجواز، وهو المنصوص للشافعي، ونقله الطحاوي عن الحنفية، وقال الفوراني من الشافعية في الإبانة يجوز بل يستحب، ومحل هذا الاختلاف إذا لم يختل شيء من الحروف عن مخرجه، فلو تغير قال النووي في (التبيان): أجمعوا على تحريمه، ولفظه: أجمع العلماء على استحباب تحسين الصوت بالقرآن ما لم يخرج عن حد القراءة بالتمطيط، فإن خرج حتى زاد حرفا أو أخفاه حرم، قال: وأما القراءة بالألحان فقد نص الشافعي في موضع على كراهته وقال في موضع آخر لا بأس به، فقال أصحابه: ليس على اختلاف قولين، بل على اختلاف حالين، فإن لم يخرج بالألحان على المنهج القويم، جاز وإلا حرم. وحكى الماوردي عن الشافعي أن القراءة بالألحان إذا انتهت إلى إخراج بعض الألفاظ عن مخارجها حرم، وكذا حكى ابن حمدان الحنبلي في (الرعاية)، وقال الغزالي والبندنيجي وصاحب الذخيرة من الحنفية: إن لم يفرط في التمطيط الذي يشوش النظم استحب وإلا فلا. وأغرب الرافعي فحكى

---

(١) الفتح (٩/ ٨٨-٨٩).

عن (أمالي السرخسي) أنه لا يضر التمطيط مطلقا، وحكاه ابن حمدان رواية عن الحنابلة، وهذا شذوذ لا يعرج عليه»[١].

قال ابن الجزري: «فالتجويد هو حلية التلاوة، وزينة القراءة، وهو إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها مراتبها، ورد الحرف إلى مخرجه وأصله، وإلحاقه بنظيره وتصحيح لفظه وتلطيف النطق به على حال صيغته، وكمال هيئته؛ من غير إسراف ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف.. وهذه سنة اللَّه -تبارك وتعالى- فيمن يقرأ القرآن مجودا مصححا كما أنزل، تلتذ الأسماع بتلاوته، وتخشع القلوب عند قراءته، حتى يكاد أن يسلب العقول ويأخذ بالألباب؛ سر من أسرار اللَّه تعالى يودعه من يشاء من خلقه؛ ولقد أدركنا من شيوخنا من لم يكن له حسن صوت ولا معرفة بالألحان إلا أنه كان جيد الأداء؛ قيما باللفظ؛ فكان إذا قرأ أطرب المسامع؛ وأخذ من القلوب بالمجامع، وكان الخلق يزدحمون عليه، ويجتمعون على الاستماع إليه، أمم من الخواص والعوام، يشترك في ذلك من يعرف العربي ومن لا يعرفه من سائر الأنام، مع تركهم جماعات من ذوي الأصوات الحسان، عارفين بالمقامات والألحان لخروجهم عن التجويد والإتقان.. فليس التجويد بتمضيغ اللسان، ولا بتقعير الفم، ولا بتعويج الفك، ولا بترعيد الصوت، ولا بتمطيط الشد، ولا بتقطيع المد، ولا بتطنين الغنات، ولا بحصرمة الراآت؛ قراءة تنفر عنها الطباع، وتمجها القلوب والأسماع، بل القراءة السهلة العذبة الحلوة اللطيفة، التي لا مضغ فيها ولا لوك، ولا تعسف ولا تكلف، ولا تصنع ولا تنطع، ولا تخرج عن طباع العرب، وكلام الفصحاء بوجه من وجوه القراآت والأداء»[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ما ذكر اختلاف الناس في القراءة بالألحان وناقش أدلتهم: «وفصل النزاع، أن يقال: التطريب والتغني على وجهين:

أحدهما: ما اقتضته الطبيعة، وسمحت به من غير تكلف ولا تمرين ولا تعليم، بل إذا خلي وطبعه، واسترسلت طبيعته، جاءت بذلك التطريب والتلحين، فذلك

---

(١) الفتح (٩/ ٨٩).
(٢) النشر (١/ ٢١٢-٢١٣).

جائز، وإن أعان طبيعته بفضل تزيين وتحسين، كما قال أبو موسى الأشعري للنبي ﷺ: «لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا»[١] والحزين ومن هاجه الطرب، والحب والشوق لا يملك من نفسه دفع التحزين والتطريب في القراءة، ولكن النفوس تقبله وتستحليه لموافقته الطبع، وعدم التكلف والتصنع فيه، فهو مطبوع لا متطبع، وكلف لا متكلف، فهذا هو الذي كان السلف يفعلونه ويستمعونه، وهو التغني الممدوح المحمود، وهو الذي يتأثر به التالي والسامع، وعلى هذا الوجه تحمل أدلة أرباب هذا القول كلها.

الوجه الثاني: ما كان من ذلك صناعة من الصنائع، وليس في الطبع السماحة به، بل لا يحصل إلا بتكلف وتصنع وتمرن، كما يتعلم أصوات الغناء بأنواع الألحان البسيطة، والمركبة على إيقاعات مخصوصة، وأوزان مخترعة، لا تحصل إلا بالتعلم والتكلف، فهذه هي التي كرهها السلف وعابوها وذموها، ومنعوا القراءة بها، وأنكروا على من قرأ بها، وأدلة أرباب هذا القول إنما تتناول هذا الوجه، وبهذا التفصيل يزول الاشتباه، ويتبين الصواب من غيره، وكل من له علم بأحوال السلف، يعلم قطعا أنهم برآء من القراءة بألحان الموسيقى المتكلفة، التي هي إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة، وأنهم أتقى لله من أن يقرؤوا بها، ويسوغوها، ويعلم قطعا أنهم كانوا يقرؤون بالتحزين والتطريب، ويحسنون أصواتهم بالقرآن، ويقرؤونه بشجى تارة، وبطرب تارة، وبشوق تارة، وهذا أمر مركوز في الطباع تقاضيه، ولم ينه عنه الشارع مع شدة تقاضي الطباع له؛ بل أرشد إليه وندب إليه، وأخبر عن استماع اللَّه لمن قرأ به، وقال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» وفيه وجهان: أنه إخبار بالواقع الذي كلنا نفعله، والثاني: أنه نفي لهدي من لم يفعله عن هديه وطريقته ﷺ»[٢].

* عن عبد اللَّه بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن عبد اللَّه بن قيس أو الأشعري أعطي مزمارا من مزامير آل داود**»[٣].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦/ ١٦٩-١٧٠/ ٧١٩٧)، والحاكم (٣/ ٤٦٦)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي وأصل القصة في الصحيحين.

(٢) الزاد (١/ ٤٩٢-٤٩٣).

(٣) أحمد (٥/ ٣٥١). مسلم (١/ ٥٤٦/ ٧٩٣).

★ **غريب الحديث:**

المزمار: هو نفس صوت الإنسان يسمى مزمارا.

آل داود: أراد بآل داود، نفس داود خاصة لأنه لم يذكر أن أحدا من آل داود كان أعطي من حسن الصوت ما أعطي داود.

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: «لا خلاف في أن حسن الصوت في القراءة مستحسن، والترتيل فيها وتحسين تلاوة القرآن مشروع مندوب إليه»[1].

قال النووي: «أجمع العلماء ﷺ من السلف والخلف من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وأقوالهم وأفعالهم مشهورة نهاية الشهرة، فنحن مستغنون عن نقل شيء من أفرادها.. قال العلماء رحمهم الله: فيستحب تحسين الصوت بالقراءة وترتيبها، ما لم يخرج عن حد القراءة بالتمطيط، فإن أفرط حتى زاد حرفا أو أخفاه فهو حرام»[2].

وقال أيضًا: «اعلم أن جماعات من السلف، كانوا يطلبون من أصحاب القراءة بالأصوات الحسنة. أن يقرؤوا وهم يستمعون، وهذا متفق على استحبابه، وهو عادة الأخيار والمتعبدين وعباد اللّٰه الصالحين، وهو سنة ثابتة عن رسول اللّٰه ﷺ.. وقد استحب بعض العلماء أن يستفتح مجلس حديث النبي ﷺ ويختم بقراءة قارئ حسن الصوت ما تيسر من القرآن»[3].

* * *

---

(١) الإكمال (٣/ ١٦٠).
(٢) التبيان (ص: ٨٧-٨٩).
(٣) التبيان (ص: ٩٠-٩١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال عطية سالم: «معلوم أن القول هنا هو القرآن كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩﴾[(١)] وقوله: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١﴾[(٢)] وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣﴾[(٣)] وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[(٤)] ونحو ذلك من الآيات»[(٥)].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ هو متصل بما فرض من قيام الليل، أي: سنلقي عليك بافتراض صلاة الليل قولا ثقيلا يثقل حمله، لأن الليل للمنام، فمن أمر بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك إلا بحمل شديد على النفس ومجاهدة للشيطان، فهو أمر يثقل على العبد. وقيل: إنا سنوحي إليك القرآن، وهو قول ثقيل يثقل العمل بشرائعه. قال قتادة: ثقيل والله فرائضه وحدوده. مجاهد: حلاله وحرامه. الحسن: العمل به. أبو العالية: ثقيلا بالوعد والوعيد والحلال والحرام. محمد بن كعب: ثقيلا على المنافقين. وقيل: على الكفار، لما فيه من الاحتجاج عليهم، والبيان لضلالتهم وسب آلهتهم، والكشف عما حرفه أهل الكتاب. السدي: ثقيل بمعنى كريم، مأخوذ من قولهم: فلان ثقيل علي، أي يكرم علي. الفراء: ﴿ثَقِيلًا﴾ رزينا ليس بالخفيف السفساف لأنه كلام ربنا. وقال الحسين بن الفضل: ثقيلا لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق، ونفس مزينة بالتوحيد. وقال ابن زيد: هو والله ثقيل مبارك، كما ثقل في الدنيا يثقل في الميزان يوم القيامة. وقيل: ﴿ثَقِيلًا﴾ أي ثابتا كثبوت الثقيل في محله، ويكون معناه أنه ثابت الإعجاز، لا يزول إعجازه أبدا. وقيل: هو القرآن نفسه، كما جاء في الخبر: (أن النبي ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرانها -يعني صدرها- على

---

(١) التكوير: الآية (١٩).
(٢) القصص: الآية (٥١).
(٣) الطارق: الآية (١٣).
(٤) النساء: الآية (١٢٢).
(٥) تتمة الأضواء (٨/ ٦١١-٦١٢).

الأرض، فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه). . قال ابن العربي: وهذا أولى، لأنه الحقيقة، وقد جاء ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[١]. وقال ﷺ: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»[٢]»[٣].

قال عطية سالم: «وقد بين تعالى أن هذا الثقل قد يخففه اللَّه على المؤمنين، كما في الصلاة في قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾[٤]، وكذلك القرآن ثقيل على الكفار خفيف على المؤمنين محبب إليهم.

وقد جاء في الآثار أن بعض السلف كان يقوم الليل كله بسورة من سور القرآن تلذذًا وارتياحًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[٥] فهو ثقيل في وزنه، ثقيل في تكاليفه، ولكن يخففه اللَّه وييسره لمن هداه ووفقه إليه»[٦].

قال الألوسي: «واستدل بالآية على أنه لا ينبغي أن يقال: سورة خفيفة؛ لما أن اللَّه تعالى سمى فيها القرآن كله قولا ثقيلا، وهذا من باب الاحتياط كما لا يخفى»[٧].

قال ابن القيم: «وسئل -أي: الإمام مالك- عن مسألة فقال: لا أدري، فقيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة، فغضب وقال: ليس في العلم شيء خفيف، أما سمعت قول اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾ فالعلم كله ثقيل، وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة»[٨].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة نزول الوحي وشدته

* عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا أوحي إليه، وهو على ناقته، وضعت

---

(١) الحج: الآية (٧٨).

(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦)، والطبراني (٨/ ٢١٦/ ٢٨٦٨)، وأرده الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٧٩) وقال: رواه أحمد والطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف. وصححه لشواهده الشيخ الألباني في الصحيحة (٢٩٢٤) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٢٦-٢٧)، وأحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٨٧٦).

(٤) البقرة: الآيتان (٤٥-٤٦).

(٥) القمر: الآية (١٧).

(٦) تتمة الأضواء (٨/ ٦١٢-٦١٣).

(٧) روح المعاني (٢٩/ ١٠٥).

(٨) إعلام الموقعين (٤/ ٢١٨).

جرانها فلم تستطع أن تتحرك، وتلت قول اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[1].

★ **غريب الحديث:**

فتضرب بجرانها: بكسر الجيم باطن العنق، والبعير إذا استراح مد عنقه على الأرض.

★ **فوائد الحديث:**

فيه يقول الحافظ: «دلالة على كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحي، لما فيه من مخالفة العادة»[2].

* عن أبي هريرة قال: (كان رسول اللَّه ﷺ إذا أوحي إليه لم يستطع أحد منا يرفع طرفه إليه حتى ينقضي الوحي)[3].

* عن عائشة أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول اللَّه ﷺ فقال: يا رسول الله! كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول**» قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا[4].

* عن سهل بن سعد الساعدي أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول اللَّه ﷺ أملى عليه: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل اللَّه) فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملها علي قال: يا رسول الله! واللَّه لو أستطيع الجهاد لجاهدت -وكان أعمى- فأنزل

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ١١٨)، الحاكم (٢/ ٥٠٥) واللفظ له وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٥٧) وقال: «رواه أحمد رجاله رجال الصحيح».

(٢) الفتح (١/ ٢٨).

(٣) أخرجه: الحاكم (٢/ ٢٢٢) وقال: «حديث صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي، وأخرجه بنحو منه في سياق طويل مسلم (٣/ ١٤٠٥-١٤٠٧/ ١٧٨٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٢-٣٨٣/ ١١٢٩٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ١٦٣)، البخاري (١/ ٢٣/ ٢)، مسلم (٤/ ١٨٣٦/ ٢٣٣٣)، الترمذي (٥/ ٥٥٧-٥٥٨/ ٣٦٣٤)، النسائي (٢/ ٤٨٥-٤٨٦/ ٩٣٣).

اللَّه على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سري عنه فأنزل اللَّه ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾[1][2].

★ **غريب الحديث:**

ترض: من الرض بتشديد الضاد المعجمة وهو الدق الجرش.

★ **فوائد الأحاديث:**

قال العيني: «كان -عليه الصلاة والسلام- يلاقي التعب والكرب عند نزول الوحي، وذلك لأنه -عليه الصلاة والسلام- كان إذا ورد عليه الوحي يجد له مشقة، ويغشاه الكرب لثقل ما يلقى عليه. قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾.. وإنما كان ذلك ليبلو صبره، ويحسن تأديبه فيرتاض لاحتمال ما كلفه من أعباء النبوة»[3].

قال الحافظ: «قال شيخنا شيخ الإسلام البلقيني: سبب ذلك أن الكلام العظيم له مقدمات تؤذن بتعظيمه للاهتمام به.. وفائدة هذه الشدة ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفى والدرجات»[4].

* * *

---

(١) النساء: الآية (٩٥).

(٢) أحمد (٥/ ١٩٠-١٩١)، البخاري (٨/ ٣٢٨-٣٢٩/ ٤٥٩٢). وأبو داود (٣/ ٢٤-٢٥/ ٢٥٠٧)، الترمذي (٥/ ٢٢٦/ ٣٠٣٣). النسائي (٦/ ٣١٥-٣١٦/ ٣٠٩٩).

(٣) عمدة القاري بتصرف (١/ ٧٩).

(٤) الفتح (١/ ٢٦-٢٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «قال العلماء: ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: أوقاته وساعاته، لأن أوقاته تنشأ أولا فأولا، يقال: نشأ الشيء ينشأ: إذا ابتدأ وأقبل شيئا بعد شيء، فهو ناشئ، وأنشأه اللّه فنشأ، ومنه نشأت السحابة إذا بدأت وأنشأها اللّه، فناشئة: فاعلة من نشأت تنشأ فهي ناشئة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝١٨﴾[1] والمراد: إن ساعات الليل الناشئة، فاكتفى بالوصف عن الاسم، فالتأنيث للفظ ساعة، لأن كل ساعة تحدث.

وقيل: الناشئة مصدر بمعنى قيام الليل كالخاطئة والكاذبة، أي إن نشأة الليل هي أشد وطئا.

وقيل: إن ناشئة الليل قيام الليل. قال ابن مسعود: الحبشة يقولون: نشأ أي قام فلعله أراد أن الكلمة عربية، ولكنها شائعة في كلام الحبشة غالبة عليهم، وإلا فليس في القرآن ما ليس من لغة العرب»[2].

قال الحافظ ابن حجر: «وذهب الجمهور إلى أنه ليس في القرآن شيء بغير العربية وقالوا: ما ورد من ذلك فهو من توافق اللغتين، وعلى هذا فناشئة الليل مصدر بوزن فاعلة من نشأ إذا قام، أو اسم فاعل أي النفس الناشئة بالليل أي التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة أي تنهض، وحكى أبو عبيد في (الغريبين) أن كل ما حدث بالليل وبدا فهو ناشئ وقد نشأ. وفي (المجاز) لأبي عبيدة: ناشئة الليل آناء الليل ناشئة بعد ناشئة، قال ابن التين: والمعنى أن الساعات الناشئة من الليل -أي المقبلة بعضها في أثر بعض- هي أشد»[3].

---

(١) الزخرف: الآية (١٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٢٧).

(٣) الفتح (٣/ ٢٩).

قال ابن العربي: «اختلف العلماء في تعيينها -أي ناشئة الليل- على أقوال، جملتها قولان:

أحدهما: أنها بين المغرب والعشاء، منهم ابن عمر، إشارة إلى أن لفظ نشأ يعطى الابتداء، فهو بالأولية أحق، ومنه قوله الشاعر:

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسي النشأ الصغار

الثاني: أنه الليل كله؛ قال ابن عباس: وهو الذي اختاره مالك بن أنس، وهو الذي يعطيه اللفظ، وتقتضيه اللغة»[1].

قال الشوكاني: «وقوله: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ قرأ الجمهور: ﴿وَطْئًا﴾ بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة، واختار هذه القراءة أبو حاتم. وقرأ أبو العالية، وابن أبي إسحاق، ومجاهد، وأبو عمرو، وابن عامر، وحميد، وابن محيصن، والمغيرة، وأبو حيوة بكسر الواو وفتح الطاء ممدودة، واختار هذه القراءة أبو عبيد، فالمعنى على القراءة الأولى أن الصلاة في ناشئة الليل أثقل على المصلي من صلاة النهار؛ لأن الليل للنوم. قال ابن قتيبة: المعنى: أنها أثقل على المصلي من ساعات النهار، من قول العرب: اشتدّت على القوم وطأة السلطان: إذا ثقل عليهم ما يلزمهم منه، ومنه قوله ﷺ: «**اللّهمّ اشدد وطأتك على مضر**»[2].

والمعنى على القراءة الثانية: أنها أشدّ مواطأة، أي: موافقة، من قولهم: واطأت فلانًا على كذا مواطأة ووطاء: إذا وافقته عليه. قال مجاهد وابن أبي مليكة: أي: أشد موافقة بين السمع والبصر، والقلب واللسان، لانقطاع الأصوات والحركات فيها، ومنه ﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾[3] أي: ليوافقوا. وقال الأخفش: أشدّ قيامًا. وقال الفرّاء: أي: أثبت للعمل، وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة، والليل وقت الفراغ عن الاشتغال بالمعاش، فعبادته تدوم ولا تنقطع. وقال الكلبي: أشدّ نشاطًا ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: وأشدّ مقالًا، وأثبت قراءة لحضور

---

(١) أحكام القرآن (٤/ ١٨٧٦-١٨٧٧).

(٢) أحمد (٢/ ٢٣٩)، البخاري (١٢/ ٣٨٥/ ٦٩٤٠). مسلم (١/ ٤٦٦/ ٦٧٥)، أبو داود (٢/ ١٤٢/ ١٤٤٢)، النسائي (٢/ ٥٤٦-٥٤٧/ ١٠٧٢-١٠٧٣)، ابن ماجه (١/ ٣٩٤/ ١٢٤٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) التوبة: الآية (٣٧).

القلب فيها وهدوء الأصوات، وأشدّ استقامة واستمرارًا على الصواب؛ لأن الأصوات فيها هادئة، والدنيا ساكنة، فلا يضطرب على المصلي ما يقرؤه. قال قتادة ومجاهد: أي أصوب للقراءة، وأثبت للقول؛ لأنه زمان التفهم. قال أبو عليّ الفارسي: أقوم قيلًا، أي: أشدّ استقامة لفراغ البال بالليل. قال الكلبي: أي أبين قولًا بالقرآن. وقال عكرمة: أي أتمّ نشاطًا وإخلاصًا وأكثر بركة. وقال ابن زيد: أجدر أن يتفقه في القرآن. وقيل: أعجل إجابة للدعاء»[١].

قال القرطبي: «بين تعالى في هذه الآية فضل صلاة الليل على صلاة النهار، وأن الاستكثار من صلاة الليل بالقراءة فيها أمكن وأعظم للأجر، وأجلب للثواب»[٢].

* * *

---

(١) فتح القدير (٥/ ٤٥٠-٤٥١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٢٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾

★ غريب الآية:

تبتل: انقطع لعبادته. وأصل التبتل: الانقطاع والانفراد. قال امرؤ القيس:

يضيء الظلام بالعشي كأنه ... منارة ممسى راهب متبتل

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: إن موقع هذه الجملة موقع العلة لشيء مما في جملة ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾، وذلك دائر بين أن يكون تعليلًا لاختيار الليل لفرض القيام عليه فِيه، فيفيد تأكيدًا للمحافظة على قيام الليل؛ لأن النهار لا يغني غَناءه، فيتحصل من المعنى: قم الليل؛ لأن قيامه أشد وقعًا وأرسخ قولًا؛ لأن النهار زمن فيه شغل عظيم لا يترك لك خلوة بنفسك. وشغل النبي ﷺ في النهار بالدعوة إلى اللَّه، وإبلاغ القرآن، وتعليم الدين، ومحاجة المشركين، وافتقادَ المؤمنين المستضعفين، فعبر عن جميع ذلك بالسبح الطويل، وبيْن أن يكون تلطفًا واعتذارًا عن تكليفه بقيام الليل، وفيه إرشاد إلى أن النهار ظرف واسع لإيقاع ما عسى أن يكلفه قيامُ الليل من فتور بالنهار؛ لينام بعض النهار وليقوم بمهامه فيه»[1].

قال الألوسي: «﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ أي: تقلبًا وتصرفًا في مهماتك واشتغالًا بشواغلك، فلا تستطيع أن تتفرغ للعبادة، فعليك بها في الليل، وأصل السبح المر السريع في الماء، فاستعير للذهاب مطلقًا كما قاله الراغب، وأنشدوا قول الشاعر:

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٤).

أباحوا لكم شرق البلاد وغربها ففيها لكم يا صاح سبح من السبح

وهذا بيان للداعي الخارجي إلى قيام الليل بعد بيان ما في نفسه من الداعي، وقيل: أي: إن لك في النهار فراغًا وسعة لنومك وتصرفك في حوائجك، وقيل: إن فاتك من الليل شيء فلك في النهار فراغ تقدر على تداركه فيه، فالسبح الفراغ، وهو مستعمل في ذلك لغة أيضًا، لكن الأول أوفق، لمعنى قولهم: سبح في الماء وأنسب للمقام، ثم إن الكلام على هذا إما تتميم للعلة يهون عليه أن النهار يصلح للاستراحة فليغتنم الليل للعبادة، وليشكر أن لم يكلف استيعابهما بالعبادة، أو تأكيد للاحتفاظ به بأنه إن فات لا بد من تداركه بالنهار، ففيه متسع لذلك، وفيه تلويح إلى معنى جعل الليل والنهار خلفة»[١].

قال ابن العربي: «في هذه الآية تنبيه على نوم القائلة الذي يستريح به العبد من قيام الليل في الصلاة أو في العلم»[٢].

وقوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ **قال أبو السعود**: «أي: ودُمْ على ذِكرِه تعالى ليلًا ونهارًا، على أيِّ وجهٍ كانَ من تسبيحٍ وتهليلٍ وتحميدٍ وصلاةٍ وقراءةِ قُرآنٍ ودراسةِ علمٍ. ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ أي: وانقطعْ إليهِ بمجامعِ الهمةِ واستغراقِ العزيمةِ في مراقبتِه، وحيثُ لم يكن ذلك إلا بتجريدِ نفسهِ -عليه الصلاة والسلام- عن العوائقِ الصَّادةِ عن مراقبةِ اللَّه تعالى وقطعِ العلائقِ عمَّا سواهُ قيل: ﴿تَبْتِيلًا﴾ مكان تبتلًا مع ما فيهِ من رعايةِ الفواصلِ»[٣].

قال ابن القيم: «ومصدر بتل تبتلا كالتعلم والتفهم، ولكن جاء على التفعيل مصدر تفعل لسر لطيف، فإن في هذا الفعل إيذانا بالتدريج والتكلف، والتعمل والتكثر والمبالغة، فأتى بالفعل الدال على أحدهما بالمصدر الدال على الآخر، فكأنه قيل: بتل نفسك إلى اللَّه تبتيلا، وتبتل إليه تبتلا، ففهم المعنيان من الفعل ومصدره، وهذا كثير في القرآن، وهو من أحسن الاختصار والإيجاز»[٤].

قال القرطبي: «أي: ادعه بأسمائه الحسنى، ليحصل لك مع الصلاة محمود العاقبة. وقيل: أي: اقصد بعملك وجه ربك، وقال سهل: اقرأ باسم اللَّه الرحمن

---

(١) روح المعاني (١٩/ ١٠٥-١٠٦).

(٢) أحكام القرآن (٤/ ١٨٧٨).

(٣) تفسير أبي السعود (٩/ ٥١).

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٢٩).

الرحيم في ابتداء صلاتك توصلك بركة قراءتها إلى ربك، وتقطعك عما سواه، وقيل: اذكر اسم ربك في وعده ووعيده، لتتوفر على طاعته وتعدل عن معصيته. وقال الكلبي: صل لربك أي بالنهار»[١].

وقال ابن العربي: «قد تقدم في سورة (المائدة) في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[٢] حال الدين في الكراهية لمن تبتل فيه، وانقطع وسلك سبيل الرهبانية بما يغني عن إعادته. وأما اليوم وقد مرجت عهود الناس، وخفت أماناتهم، واستولى الحرام على الحطام، فالعزلة خير من الخلطة، والعزبة أفضل من التأهل، ولكن معنى الآية: انقطع عن الأوثان والأصنام، وعن عبادة غير اللَّه، وكذلك قال مجاهد: معناه: أخلص له العبادة، وانقطع عن الناس والنساء، وهو اختيار البخاري لأجل ما روي من نهي عن النبي ﷺ عن التبتل، فصار التبتل مأمورا به في القرآن، منهيا عنه في السنة، ومتعلق الأمر غير متعلق النهي، إذ لا يتناقضان، وإنما بعث ليبين للناس ما نزل إليهم، فالتبتل المأمور به: الانقطاع إلى اللَّه بإخلاص العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٣] والتبتل المنهي عنه: هو سلوك مسلك النصارى في ترك النكاح والترهب في الصوامع، لكن عند فساد الزمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن»[٤].

قال ابن عاشور: «وخلاصة المعنى أن النبي ﷺ مأمور أن لا تخلو أوقاته عن إقبال على عبادة اللَّه ومراقبته، والانقطاع للدعوة لدين الحق، وإذ قد كان النبي ﷺ من قبلُ غير غافل عن هذا الانقطاع بإرشاد من اللَّه، كما ألهمه التحنّث في غار حراء، ثم بما أفاضه عليه من الوحي والرسالة. فالأمر في قوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ مراد به الدوام على ذلك فإنه قد كان يذكر اللَّه فيما قبل فإن في سورة القلم -وقد نزلت قبل المزمل-: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾[٥] على أن القرآن الذي أنزل أولًا أكثره إرشاد للنبي ﷺ إلى طرائق دعوة الرسالة، فلذلك كان غالب ما في هذه السورِ الأولِ منه مقتصرًا على سَن التكاليف الخاصة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٣٠).
(٢) المائدة: الآية (٨٧).
(٣) البينة: الآية (٥).
(٤) أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٨٧٩-١٨٨٠).
(٥) القلم: الآية (٥١).

بالرسول ﷺ»[١].

قوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ قال ابن كثير: «أي: هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إله إلا هو، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل، ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[٢] وكقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[٣] وآيات كثيرة في هذا المعنى، فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله، وتخصيصه بالتوكل عليه»[٤].

قال السعدي: «وهذا اسم جنس يشمل المشارق والمغارب كلها، فهو تعالى رب المشارق والمغارب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي مصلحة له من العالم العلوي والسفلي، فهو رب كل شيء وخالقه ومدبره. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الأعلى، الذي يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم، والإجلال والتكريم»[٥].

قال ابن القيم وهو يتحدث عن المفرد والجمع: «ومن هذا المعنى مجيء المشرق والمغرب في القرآن تارة مجموعين، وتارة مثنيين، وتارة مفردين، لاختصاص كل محل بما يقتضيه من ذلك، فالأول كقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠﴾[٦]. والثاني كقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨﴾[٧] والثالث كقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ فتأمل هذه الحكمة البالغة في تغاير هذه المواضع في الإفراد والجمع والتثنية بحسب مواردها، يطلعك على عظمة القرآن الكريم وجلالته، وأنه تنزيل من حكيم حميد. فحيث جمعت كان المراد بها مشارق الشمس ومغاربها في أيام السنة، وهي متعددة، وحيث أفردت كان المراد أفقي المشرق والمغرب. وحيث ثنيا كان المراد مشرقي صعودها وهبوطها ومغربيهما، فإنها تبتدئ صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوجها وارتفاعها، فهذا مشرق صعودها، وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء، فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقا واحدا، ومشرق هبوطها بجملته مشرقا واحدا،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٦).
(٢) هود: الآية (١٢٣).
(٣) الفاتحة: الآية (٥).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٨٢).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٠٠).
(٦) المعارج: الآية (٤٠).
(٧) الرحمن: الآيتان (١٧-١٨).

ويقابلها مغرباها، فهذا وجه اختلاف هذه في الإفراد والتثنية والجمع. وأما وجه اختصاص كل موضع بما وقع فيه فلم أر أحدا تعرض له ولا فتح بابه، وهو بحمد اللَّه بين من السياق، فتأمل وروده مثنى في سورة الرحمن لما كان مساق السورة مساق المثاني المزدوجات، فذكر أولا نوعي الإيجاد، وهما الخلق والتعظيم، ثم ذكر سراجي العالم ومظهري نوره، وهما الشمس والقمر، ثم ذكر نوعي النبات ما قام منه على ساق، وما انبسط منه على وجه الأرض، وهما النجم والشجر، ثم ذكر نوعي السماء المرفوعة والأرض الموضوعة، وأخبر أنه رفع هذه ووضع هذه، ووسط بينهما ذكر الميزان ثم ذكر العدل والظلم في الميزان، فأمر بالعدل ونهى عن الظلم، ثم ذكر نوعي الخارج من الأرض وهما الحبوب والثمار، ثم ذكر خلق نوعي المكلفين، وهما نوع الإنسان ونوع الجان، ثم ذكر نوعي المشرقين ونوعي المغربين، ثم ذكر بعد ذلك البحرين الملح والعذب، فتأمل حسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السورة، وجلالة ورودهما لذلك، وقدر موضعهما اللفظ مفردا ومجموعا تجد السمع ينبو عنه، ويشهد العقل بمنافرته للنظم.

ثم تأمل ورودهما مفردين في سورة المزمل لما تقدمهما ذكر الليل والنهار، فأمر رسوله بقيام الليل، ثم أخبره أن له في النهار سبحا طويلا، فلما تقدم ذكر الليل وما أمر به فيه، وذكر النهار وما يكون منه فيه، عقب ذلك بذكر المشرق والمغرب اللذين هما مظهر الليل والنهار، فكان ورودهما مفردين في هذا السياق أحسن من التثنية والجمع؛ لأن ظهور الليل والنهار هما واحد، فالنهار أبدا يظهر من المشرق، والليل أبدا يظهر من المغرب، ثم تأمل مجيئهما مجموعين في سورة المعارج في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٤١﴾[1] لما كان هذا القسم في سياق سعة ربوبيته، وإحاطة قدرته، والمقسم عليه أرباب هؤلاء، والإتيان بخير منهم، ذكر المشارق والمغارب لتضمنهما انتقال الشمس التي هي أحد آياته العظيمة الكبيرة، ونقله سبحانه لها وتصريفها كل يوم في مشرق ومغرب، فمن فعل هذا كيف يعجزه أن يبدل هؤلاء وينقل إلى أمكنتهم خيرا منهم؟. وأيضا فإن تأثير مشارق الشمس ومغاربها في اختلاف أحوال النبات

(١) المعارج: الآيتان (٤٠-٤١).

والحيوان أمر مشهور، وقد جعل اللّه تعالى ذلك بحكمته سببا لتبدل أجسام النبات، وأحوال الحيوانات وانتقالها من حال إلى غيره، ويبدل الحر بالبرد والبرد بالحر، والصيف بالشتاء والشتاء بالصيف، إلى سائر تبدل أحوال الحيوان والنبات والرياح والأمطار والثلوج وغير ذلك من التبدلات والتغيرات الواقعة في العالم بسبب اختلاف مشارق الشمس ومغاربها، كان ذلك تقدير العزيز العليم، فكيف لا يقدر مع ما يشهدونه من ذلك على أن يبدل خيرا منهم، وأكد هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ فلا يليق بهذا الموضع سوى لفظة الجمع. ثم تأمل كيف جاءت أيضا في سورة الصافات مجموعة في قوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾[1] لما جاءت مع جملة المربوبات المتعددة، وهي السماوات والأرض وما بينهما، كان الأحسن مجيئها مجموعة، لينتظم مع ما تقدم من الجمع والتعدد. ثم تأمل كيف اقتصر على المشارق دون المغارب لاقتضاء الحال لذلك فإن المشارق مظهر الأنوار، وأسباب انتشار الحيوان وحياته وتصرفه ومعاشه وانبساطه، فهو إنشاء مشهود، فقدمه بين يدي الرد على منكري البعث، ثم ذكر تعجب من تكذيبهم واستبعادهم البعث بعد الموت، ثم قدر الموت وحالهم فيه، وكان الاقتصار على ذكر المشارق هاهنا في غاية المناسبة للغرض المطلوب، واللّه أعلم»[2].

وقوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ **قال صديق حسن خان**: «أي: إذا عرفت أنه المختص بالربوبية فاتخذه قائما بأمورك وعول عليه في جميعها، وقيل: كفيلا بما وعدك من الجزاء والنصر، وفائدة الفاء أن لا تلبث بعد أن عرفت في تفويض الأمور إلى الواحد القهار إذ لا عذر لك في الانتظار بعد الإقرار»[3].

قال البقاعي: «وليس ذلك بأن يترك الإنسان كل عمل، فإن ذلك طمع فارغ؛ بل بالإجمال في طلب كل ما ندب الإنسان إلى طلبه، ليكون متوكلًا في السبب لا من دون سبب، فإنه يكون حينئذ كمن يطلب الولد من غير زوجة، وهو مخالف لحكمة هذه الدار المبنية على الأسباب، ولو لم يكن في إفراده بالوكالة إلا أنه يفارق الوكلاء بالعظمة والشرف والرفق من جميع الوجوه، فإن وكيلك من الناس دونك،

(١) الصافات: الآية (٥).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٢١-١٢٣).

(٣) فتح البيان (١٤/ ٣٨٨).

وأنت تتوقع أن يكلمك كثيرًا في مصالحك، وربك أعظم العظماء، وهو يأمرك أن تكلمه كثيرًا في مصالحك، وتسأله طويلًا، ووكيلك من الناس إذا حصّل مالك سألك الأجرة وهو سبحانه يوفر مالك ويعطيك الأجر، ووكيلك من الناس ينفق عليك من مالك، وهو سبحانه يرزقك وينفق عليك من ماله، ومن تمسك بهذه الآية عاش حرًا كريمًا، ومات خالصًا شريفًا، ولقي اللَّه تعالى عبدًا صافيًا مختارًا تقيًا، ومن شرط الموحد أن يتوجه إلى الواحد، ويقبل على الواحد، ويبذل له نفسه عبودية، ويأتمنه على نفسه، ويفوض إليه أموره، ويترك التدبير، ويثق به، ويركن إليه، ويتذلل لربوبيته، ويتواضع لعظمته، ويتزين ببهائه، ويتخذه عدة لكل نائبة دنيا وآخرة»[1].

قال ابن القيم: «وهذا يبطل قول من قال من جهلة القوم: إن توكيل الرب فيه جسارة على الباري؛ لأن التوكل يقتضي إقامة الوكيل مقام الموكل، وذلك عين الجسارة قال: ولولا أن اللَّه أباح ذلك وندب إليه: لما جاز للعبد تعاطيه، وهذا من أعظم الجهل، فإن اتخاذه وكيلا هو محض العبودية، وخالص التوحيد، إذا قام به صاحبه حقيقة»[2].

وقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠﴾ **قال السعدي**: «فلما أمره اللَّه بالصلاة خصوصا، وبالذكر عموما، وبذلك يحصل للعبد ملكة قوية في تحمل الأثقال، وفعل الشاق من الأعمال، أمره بالصبر على ما يقول فيه المعاندون له، ويسبونه ويسبون ما جاء به، وأن يمضي على أمر اللَّه، لا يصده عنه صاد، ولا يرده راد، وأن يهجرهم هجرا جميلا، وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية فيه، فيقابلهم بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره بجدالهم بالتي هي أحسن»[3].

قال الرازي: «واعلم أن مهمات العباد محصورة في أمرين: كيفية معاملتهم مع اللَّه، وكيفية معاملتهم مع الخلق، والأول أهم من الثاني، فلما ذكر تعالى في أول هذه السورة ما يتعلق بالقسم الأول، أتبعه بما يتعلق بالقسم الثاني، وهو سبحانه

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٧).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٣٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٠٠).

جمع كل ما يحتاج إليه من هذا الباب في هاتين الكلمتين، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مخالطًا للناس أو مجانبًا عنهم، فإن خالطهم فلا بد له من المصابرة على إيذائهم وإيحاشهم، فإنه إن كان يطمع منهم في الخير والراحة لم يجد فيقع في الغموم والأحزان، فثبت أن من أراد مخالطة مع الخلق فلا بد له من الصبر الكثير، فأما إن ترك المخالطة فذاك هو الهجر الجميل، فثبت أنه لا بد لكل إنسان من أحد هذين الأمرين، والهجر الجميل أن يجانبهم بقلبه وهواه، ويخالفهم في الأفعال مع المدارة والإغضاء وترك المكافأة، ونظيره: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾[١] ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[٢] ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾[٣] قال المفسرون: هذه الآية إنما نزلت قبل آية القتال، ثم نسخت بالأمر بالقتال، وقال آخرون: بل ذلك هو الأخذ بإذن اللَّه فيما يكون أدعى إلى القبول، فلا يرد النسخ في مثله، وهذا أصح»[٤].

* * *

(١) النساء: الآية (٦٣).

(٢) الأعراف: الآية (١٩٩).

(٣) النجم: الآية (٢٩).

(٤) التفسير الكبير (٢٩/ ١٨١).

قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ذَرْنِي: اتركني ودَعْني.

النَّعْمَة: بفتح النون، التنعم ورغد العيش.

أنكالا: الأنكال: القيود، واحدها: نِكْل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ثم قال له متوعدًا لكفار قومه ومتهددًا -وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء-: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ أي: دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم، وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم، ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: رويدا، كما قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾[1]»[2].

قال ابن عاشور: «ووصفهم بـ﴿أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ توبيخًا لهم بأنهم كذبوا لغرورهم وبطرهم بسعة حالهم، وتهديدًا لهم بأن الذي قال: ﴿ذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ سيزيل عنهم ذلك التنعم.

وفي هذا الوصف تعريض بالتهكم، لأنهم كانوا يعدُّون سعة العيش ووفرة المال كمالًا، وكانوا يعيّرون الذين آمنوا بالخصاصة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾[4].. وجعلهم ذوي النَّعمة المفتوحة النون للإشارة إلى أن قُصارى حظهم في هذه الحياة هي النَعمة، أي: الانطلاق في العيش

---

(١) لقمان: الآية (٢٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٨٢).

(٣) المطففين: الآيتان (٢٩-٣٠).

(٤) محمد: الآية (١٢).

بلا ضيق، والاستظلال بالبيوت والجنات، والإقبال على لذيذ الطعوم ولذائذ الانبساط إلى النساء والخمر والميسر، وهم معرضون عن كمالات النفس ولذة الاهتداء والمعرفة، قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾[(١)]»[(٢)].

قال الرازي: «﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ فيه وجهان: أحدهما: المراد من القليل الحياة الدنيا. والثاني: المراد من القليل بتلك المدة القليلة الباقية إلى يوم بدر فإن اللَّه أهلكهم في ذلك اليوم»[(٣)].

قال البقاعي: «وفيه بشارة له ﷺ بالبقاء بعد أخذهم كما كان، وأنه ليس محتاجًا في أمرهم إلى غير وكلهم ﷺ بإلقائهم عن باله ﷺ وتفريغ ظاهره وباطنه، لما هو مأمور به من اللَّه ﷻ من الإقبال على اللَّه سبحانه، ففي الآية أن من اشتغل بعدوه وكله اللَّه إلى نفسه، فكان ذلك كالمانع من أخذ اللَّه له، فإذا توكل عليه فقد أزال ذلك المانع»[(٤)].

* * *

(١) الفرقان: الآية (٤٤).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٩-٢٧٠).
(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ١٨١).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٩-٢٠).

قوله تعالى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝﴾

★ **غريب الآية:**

غصة: الغصة: تردد اللقمة في الحلق.

كثيبًا: الكثيب: الرمل المجتمع.

مهيلا: سائلا متناثرًا. ينهار بسرعة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «قوله: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أي: غير سائغ؛ يأخذ بالحلق: لا هو نازل ولا هو خارج، وهو الغسلين والزقوم والضريع؛ قاله ابن عباس. وعنه أيضا: أنه شوك يدخل الحلق، فلا ينزل ولا يخرج. وقال الزجاج: أي طعامهم الضريع؛ كما قال: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝﴾[1] وهو شوك كالعوسج. وقال مجاهد: هو الزقوم، كما قال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝﴾[2] والمعنى واحد»[3].

قوله: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ **قال ابن كثير**: «أي تصير ككثبان الرمل بعدما كانت حجارة صماء، ثم إنها تنسف نسفا فلا يبقى منها شيء إلا ذهب حتى تصير الأرض قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا، أي: واديا، ولا أمتا أي: رابية، ومعناه: لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع»[4].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ لا يعارض قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝﴾[5]؛ لأن قوله: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾

---

(١) الغاشية: الآية (٦).

(٢) الدخان: الآيتان (٤٣-٤٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٣٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٨٢).

(٥) القارعة: الآية (٥).

تشبيه بليغ؛ والجبال بعد طحنها المنصوص عليه بقوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾[١] تشبه الرمل المتهايل، وتشبه أيضا الصوف المنفوش»[٢].

* * *

(١) الواقعة: الآية (٥).

(٢) دفع إيهام الاضطراب (ص: ٢٥٤-٢٥٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴿١٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

وبيلا: أي: شديدًا ثقيلًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يقول تعالى: احمدوا ربكم على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير، الشاهد على الأمة بأعمالهم، واشكروه وقوموا بهذه النعمة الجليلة، وإياكم أن تكفروها، فتعصوا رسولكم، فتكونوا كفرعون حين أرسل اللَّه إليه موسى ابن عمران، فدعاه إلى اللَّه، وأمره بالتوحيد، فلم يصدقه؛ بل عصاه، فأخذه اللَّه أخذا وبيلا، أي: شديدا بليغا»[1].

فإن قيل: ما معنى كون الرسول شاهدا عليهم -**يقول الرازي**- الجواب من وجهين:

الأول: أنه شاهد عليهم يوم القيامة بكفرهم وتكذيبهم.

الثاني: المراد كونه مبينًا للحق في الدنيا، ومبينًا لبطلان ما هم عليه من الكفر؛ لأن الشاهد بشهادته يبين الحق، ولذلك وصفت بأنها بينة، فلا يمتنع أن يوصف -عليه الصلاة والسلام- بذلك من حيث إنه بين الحق، وهذا بعيد؛ لأن اللَّه تعالى قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ أي عدولًا خيارًا ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾[2] فبين أنه يكون شاهدًا عليهم في المستقبل، ولأن حمله على الشهادة في الآخرة حقيقة، وحمله على البيان مجاز، والحقيقة أولى»[3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٠٢).

(٢) البقرة: الآية (١٤٣).

(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ١٨٤).

وفي معنى تشبيه إرسال اللَّه محمدا ﷺ إلى قومه بإرسال موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل أقوال: قال ابن عاشور: «واختير لهم ضرب المثل بفرعون مع موسى عليه السلام؛ لأن الجامع بين حال أهل مكة وحال أهل مصر في سبب الإعراض عن دعوة الرسول هو مجموع ما هم عليه من عبادة غير اللَّه، وما يملأ نفوسهم من التكبر والتعاظم على الرسول المبعوث إليهم بزعمهم أن مثلهم لا يطيع مِثله كما حكى اللَّه تعالى عنهم بقوله: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾[(١)] وقد قال أهل مكة: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾[(٢)] وقد حكى اللَّه عنهم أنهم قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾[(٣)]. وقد تكرر في القرآن ضرب المثل بفرعون لأبي جهل، وهو زعيم المناوئين للنبي ﷺ، والمؤلبين عليه، وأشد صناديد قريش كفرًا»[(٤)].

قال صديق حسن خان: «وإنما خص موسى وفرعون بالذكر لأن خبرهما كان مستفيضا عند أهل مكة لأنهم كانوا جيران اليهود»[(٥)].

قال القرطبي: «قال مقاتل: ذكر اللَّه موسى وفرعون لأن أهل مكة ازدروا محمدا ﷺ واستخفوا به لأنه ولد فيهم؛ كما أن فرعون ازدرى موسى لأنه رباه ونشأ فيما بينهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا﴾[(٦)]»[(٧)].

قال الألوسي: «في إعادة فرعون والرسول مظهرين تفظيع لشأن عصيانه، وأن ذلك لكونه عصيان الرسول لا لكونه عصيان موسى، وفيه أن عصيان المخاطبين أفظع وأدخل في الذم إذ زاد -جل وعلا- لهذا الرسول وصفا آخر أعني: ﴿شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ وأدمج فيه أنهم لو آمنوا كانت الشهادة لهم»[(٨)].

قال الشوكاني: «وفيه تخويف لأهل مكة أنه سينزل بهم من العقوبة مثل ما نزل به وإن اختلف نوع العقوبة»[(٩)].

---

(١) المؤمنون: الآية (٤٧).
(٢) الزخرف: الآية (٣١).
(٣) الفرقان: الآية (٢١).
(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٧٣).
(٥) فتح البيان (١٤/ ٣٩٠).
(٦) الشعراء: الآية (١٨).
(٧) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٣٣).
(٨) روح المعاني (٢٩/ ١٠٨).
(٩) فتح القدير (٥/ ٤٥٣).

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: فكيف يحصل لكم الفكاك والنجاة من يوم القيامة، اليوم المهيل أمره، العظيم قدره، الذي يشيب الولدان، وتذوب له الجمادات العظام، فتتفطر به السماء، وتنتثر به نجومها ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ أي: لا بد من وقوعه، ولا حائل دونه»[1].

قال ابن كثير: «يحتمل أن يكون ﴿يَوْمًا﴾ معمولا لتتقون، كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود: فكيف تخافون أيها الناس يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به؟ ويحتمل أن يكون معمولا لكفرتم، فعلى الأول: كيف يحصلُ لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم؟. وعلى الثاني: كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه؟ وكلاهما معنى حسن، ولكن الأول أولى، والله أعلم»[2].

قال القرطبي: «والولدان: الصبيان، وقال السدي: هم أولاد الزنا. وقيل: أولاد المشركين. والعموم أصح، أي يشيب فيه الصغير من غير كبر.. وقيل: هذا ضرب مثل لشدة ذلك اليوم وهو مجاز، لأن يوم القيامة لا يكون فيه ولدان، ولكن معناه: أن هيبة ذلك اليوم بحال لو كان فيه هناك صبي لشاب رأسه من الهيبة. ويقال: هذا وقت الفزع، وقيل أن ينفخ في الصور نفخة الصعق، فالله أعلم»[3].

قال صديق حسن خان: «وقيل: يحتمل أن يكون المراد وصف ذلك اليوم بالطول وأن الأطفال يبلغون منه الشيخوخة والشيب والأول -إشارة إلى القول بأن

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٠٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٨٣).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٣٤).

الشيب للولدان على حقيقته- أولى، وفي هذا توبيخ لهم شديد، وتقريع عظيم»[١].

وقوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ﴾ **قال القرطبي**: «أي متشققة لشدته. ومعنى ﴿بِهِۦ﴾ أي فيه، أي في ذلك اليوم لهوله. هذا أحسن ما قيل فيه. ويقال: مثقلة به إثقالا يؤدي إلى انفطارها لعظمته عليها وخشيتها من وقوعه، كقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[٢]. وقيل: ﴿بِهِۦ﴾ أي: له، أي: لذلك اليوم، يقال: فعلت كذا بحرمتك ولحرمتك، والباء واللام وفي متقاربة في مثل هذا الموضع، قال اللَّه تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[٣] أي في يوم القيامة. وقيل: ﴿بِهِۦ﴾ أي بالأمر، أي: السماء منفطر بما يجعل الولدان شيبا. وقيل: منفطر باللَّه، أي بأمره»[٤].

قال ابن كثير معلقًا على هذا القول الأخير: «ومنهم من يعيد الضمير على اللَّه ﷻ وروي عن ابن عباس ومجاهد وليس بقوي؛ لأنه لم يجر له ذكر هاهنا»[٥].

قال ابن عاشور: «وذكر انفطار السماء في ذلك اليوم زيادة في تهويل أحواله؛ لأن ذلك يزيد المهددين رعبا وإن لم يكن انفطار السماء من آثار أعمالهم، ولا له أثر في زيادة نكالهم»[٦].

قال الرازي: «إن السماء على عظمها وقوتها تتفطر فيه، فما ظنك بغيرها من الخلائق، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾[٧]»[٨].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أهوال يوم القيامة

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**يقول اللَّه تعالى: يا آدم! فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير** ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ

(١) فتح البيان (١٤/ ٣٩١).
(٢) الأعراف: الآية (١٨٧).
(٣) الأنبياء: الآية (٤٧).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٣٤).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٨٣).
(٦) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٧٦).
(٧) الانفطار: الآية (١).
(٨) التفسير الكبير (٣٠/ ١٨٥).

شَدِيدٌ﴾[1] قالوا: يا رسول الله! وأينا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا، فإن منكم رجلا، ومن يأجوج ومأجوج ألفا، ثم قال: والذي نفسي بيده إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبرنا، فقال: أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فكبرنا فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، فكبرنا، فقال: ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود»[2].

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث بيان لما يكون يوم القيامة من الأهوال العظيمة، والتي منها ما يقال لآدم ﷺ من الأمر بإخراج بعث النار في يوم يشيب فيه الصغير من شدة الهول وعظم الفزع.

* * *

(١) الحج: الآية (٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣)، البخاري (٦/ ٤٧١/ ٣٣٤٨)، مسلم (١/ ٢٠١/ ٢٢٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٠٩/ ١١٣٣٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «واعلم أنه تعالى بدأ في أول السورة بشرح أحوال السعداء، ومعلوم أن أحوالهم قسمان: أحدهما: ما يتعلق بالدين والطاعة للمولى، فقدم ذلك، والثاني: ما يتعلق بالمعاملة مع الخلق، وبين ذلك بقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾[1] وأما الأشقياء فقد بدأ بتهديدهم على سبيل الإجمال، وهو قوله تعالى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾[2] ثم ذكر بعده أنواع عذاب الآخرة، ثم ذكر بعده عذاب الدنيا، وهو الأخذ الوبيل في الدنيا، ثم وصف بعده شدة يوم القيامة، فعند هذا تم البيان بالكلية، فلا جرم ختم ذلك الكلام بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾ أي: هذه الآيات تذكرات مشتملة على أنواع الهداية والإرشاد ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ واتخاذ السبيل عبارة عن الاشتغال بالطاعة والاحتراز عن المعصية»[3].

قال ابن عاشور: «وهذا تنويه بآيات القرآن، وتجديد للتحريض على التدبر فيه والتفكر على طريقة التعريض. وفرع على هذا التحريض التعريضيِّ تحريضٌ صريح بقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي من كان يريد أن يتخذ إلى ربّه سبيلًا فقد تهيأ له اتخاذ السبيل إلى الله بهذه التذكرة، فلم تَبق للمتغافل معذرة.

والإتيان بموصول ﴿مَن شَآءَ﴾ من قبيل التحريض؛ لأنه يقتضي أن هذا السبيل موصل إلى الخير فلا حائل يحول بين طالب الخير وبين سلوك هذا السبيل إلّا مشيئته؛ لأن قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾ قرينة على ذلك. ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾[4]. فليس ذلك إباحةً

(١) المزمل: الآية (١٠). (٢) المزمل: الآية (١١).

(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ١٨٦).

(٤) الكهف: الآية (٢٩).

للإيمان والكفر، ولكنه تحريض على الإيمان، وما بعده تحذير من الكفر، أي: تبعة التفريط في ذلك على المفرط. ولذلك قال ابن عطية: ليس معناه إباحة الأمر وضده؛ بل يتضمن معنى الوعد والوعيد»[١].

قال السعدي: «وفي هذا دليل على أن اللَّه تعالى أقدر العباد على أفعالهم، ومكنهم منها، لا كما يقوله الجبرية: إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم، فإن هذا خلاف النقل والعقل»[٢].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٧٧-٢٧٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٠٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «معنى الآية: أن اللَّه تعالى يعلم أنك تقوم أنت وغيرك من أمتك قيامًا مختلفًا فيه، مرة يكثر ومرة يقل، ومرة أدنى من الثلثين، ومرة أدنى من الثلث، وذلك لعدم تحصيل البشر لمقادير الزمن مع عدم النوم، وتقدير الزمان حقيقة إنما هو لله تعالى»[2].

قرأ ابن كثير وقرأ الكوفيون ونصفَه بالنصب، والمعنى أن اللَّه يعلم أن رسول اللَّه ﷺ يقوم أقل من ثلثي الليل، ويقوم نصفه، ويقوم ثلثه»[3].

قال الشوكاني: «وقرأ الجمهور: ونصفه وثلثه بالجر عطفا على ثلثي الليل، والمعنى: أن اللَّه يعلم أن رسوله ﷺ يقوم أقلّ من ثلثي الليل، وأقلّ من نصفه، وأقلّ من ثلثه، واختار قراءة الجمهور أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ فكيف يقومون نصفه وثلثه وهم لا يحصونه. وقال الفرّاء: القراءة الأولى أشبه بالصواب؛ لأنه قال: أقلّ من ثلثي الليل، ثم فسر نفس القلة ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ﴾ معطوف على الضمير في تقوم: أي: وتقوم ذلك القدر معك طائفة من أصحابك.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ﴾ أي: يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها، ويختص بذلك دون غيره، وأنتم لا تعلمون ذلك على الحقيقة. قال عطاء: يريد: لا يفوته علم ما تفعلون. أي: أنه يعلم مقادير الليل والنهار، فيعلم قدر الذي تقومونه من الليل»[4].

قال ابن عاشور: «وهذه أحوال مختلفة في قيام النبي ﷺ بالليل تابعة لاختلاف

---

(١) المزمل: الآية (٢٠).

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٣٩٠).

(٣) أفاده الشوكاني في فتح القدير (٥/ ٤٥٦).

(٤) فتح القدير (٥/ ٤٥٦-٤٥٧).

أحوال الليالي والأيام في طول بعضها وقصر بعض، وكلها داخلة تحت التخيير الذي خيره اللَّه في قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾[١] إلى قوله: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾[٢].

وبه تظهر مناسبة تعقيب هذه الجملة بالجملة المعترضة، وهي جملة: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ أي: قد علمها اللَّه كلها وأنبأه بها. فلا يختلف المقصود باختلاف القراءات. فمن العجاب قول الفرّاء أن النصب أشبه بالصواب»[٣].

* * *

(١) المزمل: الآية (٢).

(٢) المزمل: الآية (٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٨١).

قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «أي: لن تطيقوا معرفة حقائق ذلك والقيام به. وقيل: أي: لن تطيقوا قيام الليل. والأول أصح، فإن قيام الليل ما فرض كله قط. قال مقاتل وغيره: لما نزلت: ﴿قُمِ الَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾[٢] شق ذلك عليهم، وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه، فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ، فانتفخت أقدامهم، وانتقعت ألوانهم، فرحمهم الله وخفف عنهم، فقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ و﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، أي علم أنكم لن تحصوه، لأنكم إن زدتم ثقل عليكم، واحتجتم إلى تكليف ما ليس فرضا، وإن نقصتم شق ذلك عليكم.

قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي فعاد عليكم بالعفو، وهذا يدل على أنه كان فيهم في ترك بعض ما أمر به. وقيل: أي فتاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم. وأصل التوبة الرجوع كما تقدم، فالمعنى رجع لكم من تثقيل إلى تخفيف، ومن عسر إلى يسر. وإنما أمروا بحفظ الأوقات على طريق التحري، فخفف عنهم ذلك التحري»[٣].

وقوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾ **قال ابن جرير**: «يقول: فاقرءوا من الليل ما تيسر لكم من القرآن في صلاتكم؛ وهذا تخفيف من الله ﷻ عن عباده فرضه الذي كان فرض عليهم بقوله: ﴿قُمِ الَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝﴾»[٤].

قال الشوكاني: «أي: فاقرؤوا في الصلاة بالليل ما خف عليكم وتيسّر لكم منه

---

(١) المزمل: الآية (٢٠).
(٢) المزمل: الآيات (٢-٤).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٣٥-٣٦).
(٤) جامع البيان (٢٩/ ١٤١).

من غير أن ترقبوا وقتًا. قال الحسن: هو ما نقرأ في صلاة المغرب والعشاء. قال السديّ: ما تيسّر منه هو مائة آية. قال الحسن أيضًا: من قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن. وقال كعب: من قرأ في ليلة مائة آية كتب من القانتين. وقال سعيد: خمسون آية. وقيل: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾[1] فصلوا ما تيسّر لكم من صلاة الليل، والصلاة تسمى قرآنًا، كقوله: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾[2]. قيل: إن هذه الآية نسخت قيام الليل ونصفه، والنقصان من النصف والزيادة عليه، فيحتمل أن يكون ما تضمنته هذه الآية فرضًا ثابتًا، ويحتمل أن يكون منسوخًا لقوله: ﴿وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾[3]. قال الشافعي: الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين. فوجدنا سنة رسول اللَّه ﷺ تدلّ على أن لا واجب من الصلاة إلاّ الخمس.

وقد ذهب قوم إلى أن قيام الليل نسخ في حقه وفي حق أمته. وقيل: نسخ التقدير بمقدار، وبقي أصل الوجوب. وقيل: إنه نسخ في حق الأمة، وبقي فرضًا في حقه، والأولى القول بنسخ قيام الليل على العموم في حقه ﷺ وفي حق أمته، وليس في قوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ ما يدل على بقاء شيء من الوجوب؛ لأنه إن كان المراد به القراءة من القرآن، فقد وجدت في صلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من النوافل المؤكدة، وإن كان المراد به الصلاة من الليل، فقد وجدت صلاة الليل بصلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من التطوّع. وأيضًا الأحاديث الصحيحة المصرّحة بقول السائل لرسول اللَّه ﷺ: هل عليّ غيرها، يعني: الصلوات الخمس؟ فقال: «لا، إلَّا أن تطوّع»[4] تدل على عدم وجوب غيرها. فارتفع بهذا وجوب قيام الليل، وصلاته على الأمة، كما ارتفع وجوب ذلك على النبيّ ﷺ بقوله: ﴿وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾»[5].

قال صديق حسن خان: «قال الواحدي: قال المفسرون في قوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا

---

(١) المزمل: الآية (٢٠). (٢) الإسراء: الآية (٧٨).

(٣) الإسراء: الآية (٧٩).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٦٢)، والبخاري (١/ ١٤٢/ ٤٦)، مسلم (١/ ٤٠-٤١/ ١١)، وأبو داود (١/ ٢٧٢-٢٧٣/ ٣٩١)، والنسائي (١/ ٢٤٦-٢٤٧/ ٤٥٧)، من حديث طلحة بن عبيد اللَّه ﷺ.

(٥) فتح القدير (٥/ ٤٥٧-٤٥٨).

﴿تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾ كان هذا في صدر الإسلام، ثم نسخ بالصلوات الخمس عن المؤمنين، وثبت على النبيّ ﷺ خاصة، وذلك قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قلت: فيه نظر، لأن وجوب الصلوات الخمس لا ينافي وجوب قيام الليل، وشرط الناسخ أن يكون حكمه منافيا ومعارضا لحكم المنسوخ كوجوب العدة بحول مع وجوبها بأربعة أشهر فليتأمل، فالصواب أن يكون النسخ بغير ذلك كالحديث الذي قدمنا»[١].

قال ابن كثير: «وقد استدل أصحاب الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بهذه الآية، وهي قوله: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ على أنه لا يتعين قراءة الفاتحة في الصلاة؛ بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن، ولو بآية أجزأه؛ واعتضدوا بحديث المسيء صلاته الذي في الصحيحين: «**ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن**».

وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت، وهو في الصحيحين أيضا: أن رسول اللّه ﷺ قال: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**» وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «**كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهي خِدَاج، فهي خِدَاج، فهي خِدَاج، غير تمام**»[٢]»[٣].

قال ابن عاشور: «لا دلالة في الآية على مقدار ما يجزئ من القراءة في الصلاة، إذ ليس سياقها في هذا المهيع، ولئن سلمنا فإن ما تيسر مجمل، وقد بينه قول النبي ﷺ: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**»[٤]»[٥].

قلت: وقد تقدم ذكر الخلاف في هذه المسألة مع بيان الراجح من الأقوال فيها في سورة الفاتحة بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

(١) فتح البيان (١٤/ ٣٩٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٨٥) مسلم (١/ ٢٩٦/ ٣٩٥)، أبو داود (١/ ٥١٤,. ٥١٢/ ٨٢١)، الترمذي (٥/ ١٨٦,. ١٨٤/ ٢٩٥٣)، النسائي (٢/ ٤٧٣-٤٧٤/ ٩٠٨)، وابن ماجه (١/ ٢٧٣-٢٧٤/ ٨٣٨) مختصرا. كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة عن أبي هريرة به.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٨٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٢١)، البخاري (٢/ ٣٠١/ ٧٥٦)، مسلم (١/ ٢٩٥/ ٣٩٤)، أبو داود (١/ ٥١٤/ ٨٢٢)، الترمذي (٢/ ٢٥/ ٢٤٧)، النسائي (٢/ ٤٧٤/ ٩٠٩)، ابن ماجه (١/ ٢٧٣/ ٨٣٧)، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٨٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في كم يقرأ القرآن وصفة قراءته

* عن سفيان قال: قال لي ابن شبرمة: نظرت كم يكفي الرجل من القرآن؛ فلم أجد سورة أقل من ثلاث آيات، فقلت: لا ينبغي لأحد أن يقرأ أقل من ثلاث آيات. قال علي: حدثنا سفيان أخبرنا منصور عن إبراهيم عن عبد الرحمن بن يزيد أخبره علقمة عن أبي مسعود ولقيته وهو يطوف بالبيت، فذكر قول النبي ﷺ: «**إنه من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**»[1].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «أشار [أي: البخاري] إلى الرد على من قال: أقل ما يجزئ من القراءة في كل يوم وليلة جزء من أربعين جزءا من القرآن، وهو منقول عن إسحاق بن راهويه والحنابلة لأن عموم قوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾[2] يشمل أقل من ذلك، فمن ادعى التحديد فعليه البيان»[3].

وقال أيضا: «وما استدل به ابن عيينة إنما يجيء على أحد ما قيل في تأويل (كفتاه) أي في القيام في الصلاة بالليل.. بخلاف ما قال ابن شبرمة»[4].

قال ابن بطال: «ذكر أهل التفسير في تأويل قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ قالوا: ثلاث آيات فصاعدا. ويقال: أقصر سورة في القرآن كما قال ابن شبرمة. قوله ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه». نص في أن قارئ الآيتين داخل في معنى قوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾»[5].

* عن عبد الله بن عمرو قال: (أنكحني أبي امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كنته فيسألها عن بعلها، فتقول: نعم الرجل من رجل، لم يطأ لنا فراشا ولم يفتش لنا كنفا منذ أتيناه، فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي ﷺ فقال: «**القني به**» فلقيته بعد، فقال: «**كيف تصوم؟**» قلت: أصوم كل يوم، قال: «**وكيف تختم؟**» قلت: كل ليلة، قال:

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢١). البخاري (٩/ ١١٦/ ٥٠٥١)، مسلم (١/ ٥٥٤-٥٥٥/ ٨٠٧). أبو داود (٢/ ١١٨/ ١٣٩٧). الترمذي (٥/ ١٤٧/ ٢٨٨١)، النسائي في الكبرى (٥/ ١٤/ ٨٠١٨). ابن ماجه (١/ ٤٣٦/ ١٣٦٩).

(٢) المزمل: الآية (٢٠).

(٣) الفتح (٩/ ١١٧).

(٤) الفتح (٩/ ١١٧).

(٥) شرح البخاري (١٠/ ٢٨٠).

«**صم في كل شهر ثلاثة، واقرأ القرآن في كل شهر**»، قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: «**صم ثلاث أيام في الجمعة**»، قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: «**أفطر يومين وصم يوما**»، قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: «**صم أفضل الصوم صوم داود صيام يوم وإفطار يوم، واقرأ في كل سبع ليال مرة**». فليتني قبلت رخصة رسول اللَّه ﷺ، وذاك أني كبرت وضعفت فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار والذي يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أيامًا وأحصى وصام مثلهن، كراهية أن يترك شيئا فارق النبي ﷺ عليه). قال أبو عبد الله: وقال بعضهم: في ثلاث أو في سبع وأكثرهم على سبع[١].

⋆ **غريب الحديث:**

كنته: بفتح الكاف وتشديد النون هي زوج الولد.

لم يطأ فراشا: أي لم يضاجعنا حتى يطأ فراشنا.

يفتش لنا كنفًا: كنفا بفتح الكاف والنون بعدها فاء هو الستر والجانب، وأرادت بذلك الكناية عن عدم جماعه لها، لأن عادة الرجل أن يدخل يده مع زوجته في دواخل أمرها. وقال الكرماني: يحتمل أن يكون المراد بالكنف الكنيف، وأرادت أنه لم يطعم عندها حتى يحتاج إلى أن يفتش عن موضع قضاء الحاجة، كذا قال: والأول أولى»[٢].

⋆ **فوائد الحديث:**

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «[فيه] الإرشاد إلى الاقتصاد في العبادة، والإرشاد إلى تدبر القرآن، وقد كانت للسلف عادات مختلفة فيما يقرؤون كل يوم حسب أحوالهم وأفهامهم ووظائفهم، فكان بعضهم يختم القرآن في كل شهر، وبعضهم في عشرين يوما، وبعضهم في عشرة أيام، وبعضهم أو أكثرهم في سبعة، وكثير منهم في ثلاثة،

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٥٨). البخاري (٩/ ١١٠/ ٥٠٥٢)، مسلم (٢/ ٨١٢-٨١٤/ ١١٥٩). النسائي (٤/ ٥٢٧/ ٢٣٨٩)، وأخرجه الترمذي (٥/ ٢٨٠/ ٢٩٤٦)، وأبو داود (٢/ ١١٢/ ١٣٨٨)، وابن ماجه (١/ ٤٢٨/ ١٣٤٦) بنحوه.

(٢) الفتح (٩/ ١١٨).

وكثير في كل يوم وليلة، وبعضهم في كل ليلة، وبعضهم في اليوم والليلة ثلاث ختمات، وبعضهم ثمان ختمات، وهو أكثر ما بلغنا، وقد أوضحت هذا كله مضافا إلى فاعليه وناقليه في كتاب آداب القراء مع جمل من نفائس تتعلق بذلك، والمختار أنه يستكثر منه ما يمكنه الدوام عليه، ولا يعتاد إلا ما يغلب على ظنه الدوام عليه في حال نشاطه وغيره، هذا إذا لم تكن له وظائف عامة أو خاصة يتعطل بإكثار القرآن عنها، فإن كانت له وظيفة عامة كولاية وتعليم ونحو ذلك فليوظف لنفسه قراءة يمكنه المحافظة عليها مع نشاطه وغيره من غير إخلاف بشيء من كمال تلك الوظيفة، وعلى هذا يحمل ما جاء عن السلف، واللَّه أعلم»[1].

وقال أيضًا: «والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر ما يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولا بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهذرمة»[2].

قال الحافظ: «وكأن النهي عن الزيادة ليس على التحريم، كما أن الأمر في جميع ذلك ليس للوجوب، وعرف ذلك من قرائن الحال التي أرشد إليها السياق، وهو النظر إلى عجزه عن سوى ذلك في الحال أو في المآل، وأغرب بعض الظاهرية فقال: يحرم أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث»[3].

قال القرطبي: «قوله: «فاقرأه في سبع ولا تزد» ذهب إلى منع الزيادة على السبع كثير من العلماء. واختار بعضهم قراءته في ثمان، وكان بعضهم يختم في خمس، وآخر في ست، وبعضهم يختم في كل ليلة. وكأن من لم يمنع الزيادة على السبع حمل قوله: «لا تزد» على أنه من باب الرفق، وخوف الانقطاع، فإن أمن ذلك جاز بناء على: أن ما كثر من العبادة والخير فهو أحب إلى اللَّه. والأولى ترك الزيادة أخذا بظاهر المنع، واقتداء برسول اللَّه ﷺ فلم يرو عنه: أنه ختم القرآن كله في ليلة، ولا في أقل من سبع، وهو أعلم بالمصالح والأجر. وذلك فضل اللَّه يؤتيه من

(١) شرح مسلم (٨/ ٣٤-٣٥)
(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (ص:٤٨-٤٩).
(٣) الفتح (٩/ ١٢٠).

يشاء، فقد يعطي على القليل ما لا يعطي على الكثير، لا سيما وقد تبينت مصلحة القلة والمداومة. وآفة الكثرة الانقطاع»[1].

قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «صح أن رسول اللَّه ﷺ نازله إلى ثلاث ليال، ونهاه أن يقرأه في أقل من ثلاث وهذا كان في الذي نزل من القرآن، ثم بعد هذا القول نزل ما بقي من القرآن. فأقل مراتب النهي أن تكره تلاوة القرآن كله في أقل من ثلاث، فما فقه ولا تدبر من تلى في أقل من ذلك. ولو تلا ورتل في أسبوع ولازم ذلك، لكان عملا فاضلا، فالدين يسر، فواللَّه إن ترتيل سبع القرآن في تهجد قيام الليل مع المحافظة على النوافل الراتبة، والضحى، وتحية المسجد، مع الأذكار المأثورة الثابتة، والقول عند النوم واليقظة، ودبر المكتوبة والسحر، مع النظر في العلم النافع والاشتغال به مخلصا لله، مع الأمر بالمعروف، وإرشاد الجاهل وتفهيمه، وزجر الفاسق ونحو ذلك، مع أداء الفرائض في جماعة بخشوع وطمأنينة وانكسار وإيمان، مع أداء الواجب واجتناب الكبائر، وكثرة الدعاء والاستغفار، والصدقة وصلة الرحم، والتواضع، والإخلاص في جميع ذلك، لشغل عظيم جسيم، ولمقام أصحاب اليمين وأولياء اللَّه المتقين، فإن سائر ذلك مطلوب. فمتى تشاغل العابد بختمة في كل يوم، فقد خالف الحنيفية السمحة، ولم ينهض بأكثر ما ذكرناه، ولا تدبر ما يتلوه.

هذا السيد العابد الصاحب كان يقول لما شاخ: ليتني قبلت رخصة رسول اللَّه ﷺ. وكذلك قال له عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الصوم، وما زال يناقصه حتى قال له: «صم يوما وأفطر يوما». . وكل من لم يلزم نفسه في تعبده وأوراده بالسنة النبوية، يندم ويترهب ويسوء مزاجه، ويفوته خير كثير من متابعة سنة نبيه الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، الحريص على نفعهم، وما زال ﷺ معلما للأمة أفضل الأعمال، وآمرا بهجر التبتل والرهبانية التي لم يبعث بها، فنهى عن سرد الصوم، ونهى عن الوصال، وعن قيام أكثر الليل إلا في العشر الأخير، ونهى عن العزبة للمستطيع، ونهى عن ترك اللحم إلى غير ذلك من الأوامر والنواهي. فالعابد بلا معرفة لكثير من ذلك معذور مأجور، والعابد العالم بالآثار المحمدية المتجاوز لها مفضول مغرور، وأحب

(١) المفهم (٣/ ٢٢٩-٢٣٠).

الأعمال إلى اللَّه تعالى أدومها وإن قل. ألهمنا اللَّه وإياكم حسن المتابعة، وجنبنا الهوى والمخالفة»[١].

قال الحافظ: «المراد بالقرآن في حديث الباب جميعه، ولا يرد على هذا أن القصة وقعت قبل موت النبي ﷺ بمدة وذلك قبل أن ينزل بعض القرآن الذي تأخر نزوله، لأنا نقول: سلمنا ذلك لكن العبرة بما دل عليه الإطلاق، وهو الذي فهم الصحابي فكان يقول: ليتني لو قبلت الرخصة. ولاشك أنه بعد النبي ﷺ كان قد أضاف الذي نزل آخرا إلى ما نزل أولا، فالمراد بالقرآن جميع ما كان نزل إذ ذاك وهو معظمه، ووقعت الإشارة إلى أن ما نزل بعد ذلك يوزع بقسطه، واللَّه أعلم»[٢].

* عن عمر بن الخطاب قال سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول اللَّه ﷺ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول اللَّه ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول اللَّه ﷺ. فقلت: كذبت أقرأنيها على غير ما قرأت فانطلقت به أقوده إلى رسول اللَّه ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها فقال: «**أرسله، اقرأ يا هشام؟**» فقرأ القراءة التي سمعته، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**كذلك أنزلت**»، ثم قال رسول اللَّه ﷺ: «**اقرأ يا عمر؟**» فقرأت فقال: «**كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه**»[٣].

★ **غريب الحديث:**

أساوره: بالسين المهملة أي اواثبه وأزجره.

فلببته بردائه: أي أدرت رداءه على رقبته وجمعت طرفيه عند لبته وأمسكته خشية أن ينفلت.

---

(١) السير (٣/ ٨٤-٨٦).

(٢) الفتح (٩/ ١٢١).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٤). البخاري (١٣/ ٦٣٦-٦٣٧/ ٧٥٥٠)، مسلم (١/ ٥٦٠/ ٨١٨). أبو داود (١٥٨-١٥٩/ ١٤٧٥). الترمذي (٥/ ١٧٧-١٧٨/ ٢٩٤٣). النسائي (٢/ ٤٨٩/ ٩٣٧).

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «وقوله في آخره: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه» الضمير للقرآن، والمراد بالمتيسر منه في الحديث غير المراد به في الآية، لأن المراد بالمتيسر في الآية بالنسبة للقلة والكثرة، والمراد به في الحديث بالنسبة إلى ما يستحضره القارئ من القرآن، فالأول من الكمية، والثاني من الكيفية»[1].

قال ابن بطال: «قال المهلب: ومعنى قوله: «فاقرؤوا ما تيسير من القرآن» ما تيسر على القلب حفظه من آياته، وعلى اللسان من لغاته، وإعراب حركاته، كما فسره النبي ﷺ في هذا الحديث»[2].

قال الحافظ: «واستدل بقوله ﷺ: «**فاقرؤوا ما تيسر منه**» على جواز القراءة بكل ما ثبت من القرآن»[3].

* عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ دخل المسجد فدخل رجل فصلى فسلم على النبي ﷺ فرد وقال: «**ارجع فصل فإنك لم تصل**» فرجع يصلي كما صلى ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فقال: «**ارجع فصل فإنك لم تصل**» (ثلاثًا) فقال: والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره، فعلمني: فقال: «**إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعا، ثم ارفع حتى تعدل قائما، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا، وافعل ذلك في صلاتك كلها**»[4].

★ **فوائد الحديث:**

استدل بهذا الحديث والآية الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ على عدم فرضية قراءة الفاتحة في الصلاة، وقد تقدم الخلاف في المسألة مع بيان الراجح فيها في سورة الفاتحة فلتراجع.

---

(١) الفتح (١٣/ ٦٣٧).
(٢) شرح البخاري (١٠/ ٥٤٧).
(٣) الفتح (٩/ ٤٦).
(٤) أحمد (٢/ ٤٣٧)، البخاري (٢/ ٣٠١/ ٧٥٧)، مسلم (١/ ٢٩٨/ ٣٩٧)، أبو داود (١/ ٥٣٤/ ٨٥٦)، الترمذي (٢/ ١٠٣-١٠٤/ ٣٠٣)، النسائي (٢/ ٤٦١/ ٨٨٣)، ابن ماجه (١/ ٣٣٦-٣٣٧/ ١٠٦٠).

قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: علم ربكم أيها المؤمنون أن سيكون منكم أهل مرض قد أضعفه المرض عن قيام الليل ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في سفر ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ في تجارة قد سافروا لطلب المعاش فأعجزهم، فأضعفهم أيضا عن قيام الليل ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقول: وآخرون أيضا منكم يجاهدون العدوّ فيقاتلونهم في نُصرة دين اللَّه، فرحمكم اللَّه فخفف عنكم، ووضع عنكم فرض قيام الليل ﴿فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ يقول: فاقرءوا الآن إذ خفف ذلك عنكم من الليل في صلاتكم ما تيسَّر من القرآن. والهاء في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ من ذكر القرآن»[2].

قال ابن عاشور: «قد كان بعض الصحابة يتأول من هذه الآية فضيلة التجارة والسفر للتجر، حيث سوى اللَّه بين المجاهدين والمكتسبين المال الحلال، يعني: أن اللَّه ما ذكر هذين السببين لنسخ تحديد القيام إلاّ تنويهًا بهما؛ لأن في غيرهما من الأعذار ما هو أشبه بالمرض، ودقائق القرآن ولطائفه لا تنحصر»[3].

قوله: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾: **قال السعدي:** «ثم أمر العباد بعبادتين، هما أم العبادات وعمادها: إقامة الصلاة، التي لا يستقيم الدين إلا بها، وإيتاء الزكاة التي هي برهان الإيمان، وبها تحصل المواساة للفقراء والمساكين، ولهذا

(١) المزمل: الآية (٢٠).

(٢) جامع البيان (٢٩/ ١٤١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٨٥-٢٨٦).

قال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: بأركانها، وشروطها، ومكملاتها، ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾ أي: خالصا لوجه اللَّه، من نية صادقة، وتثبيت من النفس، ومال طيب، ويدخل في هذا، الصدقة الواجبة والمستحبة»[١].

وقوله: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾ **قال صديق حسن خان**: «أي: أنفقوا ما سوى المفروض في سبل الخير من أموالكم إنفاقا حسنا عن طيب قلب، وإنما أضافه إلى نفسه لئلا يمن على الفقير فيما يتصدق به عليه، وهذا لأن الفقير معاون له في تلك القربة فلا تكون له عليه منة، بل المنة للفقير عليه»[٢].

قال ابن عاشور: «شبه إعطاء الصدقة للفقير بقرض يُقرضه اللَّه لأن اللَّه وعد على الصدقة بالثواب الجزيل، فشابه حالُ معطي الصدقة مستجيبًا رغبة اللَّه فيه بحال من أقرض مستقرضًا في أنه حقيق بأن يُرجع إليه ما أقرضه، وذلك في الثواب الذي يُعطاه يوم الجزاء»[٣].

وقوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾ **قال ابن جرير**: «يقول: وما تقدّموا أيها المؤمنون لأنفسكم في دار الدنيا من صدقة أو نفقة تنفقونها في سبيل اللَّه، أو غير ذلك من نفقة في وجوه الخير، أو عمل بطاعة اللَّه من صلاة أو صيام أو حجّ، أو غير ذلك من أعمال الخير في طلب ما عند اللَّه، تجدوه عند اللَّه يوم القيامة في معادكم، هو خيرا لكم مما قدمتم في الدنيا، وأعظم منه ثوابا: أي ثوابه أعظم من ذلك الذي قدّمتموه لو لم تكونوا قدّمتموه»[٤].

قال السعدي: «وليعلم أن مثقال ذرة في هذه الدار من الخير يقابله أضعاف أضعاف الدنيا، وما عليها في دار النعيم المقيم، من اللذات والشهوات، وأن الخير والبر في هذه الدنيا، مادة الخير والبر في دار القرار، وبذره وأصله وأساسه، فواأسفاه على أوقات مضت في الغفلات، وواحسرتاه على أزمان تقضت بغير الأعمال الصالحات، وواغوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها، ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها منها. فلك اللهم الحمد، وإليك المشتكى، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٠٥-٥٠٦). (٢) فتح البيان (١٤/ ٣٩٧).
(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٨٧).
(٤) جامع البيان (٢٩/ ١٤٢).

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير فائدة كبيرة، وذلك أن العبد ما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلا، أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب آناء الليل والنهار، فمتى لم يتغمده اللَّه برحمته ومغفرته، فإنه هالك»[1].

قال ابن عطية: «قال بعض العلماء: فالاستغفار بعض الصلاة مستنبط من هذه الآية، ومن قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2] فكأن هذا الاستغفار من التقصير وتفلت الفكر أثناء الصلاة»[3].

قلت: هذه السورة من السور الفريدة التي تميزت بأمور انفردت بها. وكل سور القرآن تتميز بأمور تنفرد بها. فسورتنا هذه طرقت أسماعنا بآيات توقظ الغافل، وتنبه الشارد وتربطه بربه في أوقات خلواته، وتبين ذلك ماثلًا في شخص الأسوة ﷺ وثلته الأخيار الفضلاء الذين كانوا على نهجه، وكانوا يرسمون سيرته، ويسيرون على نهجه خطوة خطوة، لا تزول أقدامهم عن خطواته ﷺ. فقيام الليل من أفضل العبادات، وهو دأب الصالحين، وفيه حياة القرآن، وهو من خصوصيات أهل القرآن، وهو تربية ومدرسة عالية... ومن وفقه اللَّه للقيام في الثلث الأخير من الليل فهو من أشرف الأوقات، فيه ينزل رب العزة والجلال، فيَدُهُ -تبارك وتعالى- برحمته وفضله وعفوه وتجاوزه لعباده مفتوحة. فقراءة هذه السورة وتذكرها مما يسير بالتقي خطوات إلى الأمام.

هذا إلى جانب ما احتوت عليه هذه السورة الكريمة من بيان الرادّين لدعوة رسول اللَّه ﷺ، والواقفين في وجهه من عتاة أهل الكبر والمعاندين له، وهم فراعنة ذلك الزمان، وكل زمان له فراعنته يردون دعوة رسول اللَّه ﷺ، ويصدون عنها بكل الوسائل التي يملكونها، وزماننا هذا كثرت فراعنته، فكل من كان همه هدم الإسلام بقلمه أو بخطابه أو بقراره أو بفعله، ويحارب التوحيد، ويحارب القرآن، ويحارب السنة؛ فهو تبع لفرعون موسى ومن كان على شاكلته كأبي جهل وأمية بن خلف وعبد اللَّه بن أبي بن سلول. فلا تعجب من فعلهم، فإن اللَّه سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٠٦-٥٠٧).

(٢) الذاريات: الآيتان (١٧-١٨).

(٣) المحرر الوجيز (٥/ ٣٩١).

وفي السورة من اليسر وبيان سماحة الإسلام وسهولته، وأن المسلم يأخذ من العبادة ما يستطيع بعد أداء الفرائض والواجبات وإعطاء الحقوق لمن يستحقها . ومنها بيان ركائز الإسلام، وأن في الإسلام أمورًا لا يمكن التجاوز عنها ولا التساهل فيها بعد التوحيد وتحسين المعتقد، وهي الصلاة والزكاة لمن وجبت عليه، وأن التسابق في فعل الخيرات هو منهاج أهل الإسلام.

* * *



سورة المدثر

أغراض السورة

قال البقاعي: «مقصودها الجد والاجتهاد في الإنذار بدار البوار لأهل الاستكبار، وإثبات البعث في أنفس المكذبين الفجار، والإشارة بالبشارة لأهل الادكار، بحلم العزيز الغفار، واسمها المدثر أدل ما فيها على ذلك»[١].

قال ابن عاشور: «جاء فيها من الأغراض تكريم النبي ﷺ، والأمر بإبلاغ دعوة الرسالة، وإعلان وحدانية اللّٰه بالإلهية، والأمر بالتطهر الحسي والمعنوي، ونبذ الأصنام، والإكثار من الصدقات، والأمر بالصبر، وإنذار المشركين بهول البعث، وتهديد من تصدى للطعن في القرآن، وزعم أنه قول البشر، وكفر الطاعن نعمة اللّٰه عليه فأقدم على الطعن في آياته مع علمه بأنها حق، ووصف أهوال جهنم، والرد على المشركين الذين استخفوا بها وزعموا قلة عدد حفظتها، وتحدي أهل الكتاب بأنهم جهلوا عدد حفظتها، وتأييسهم من التخلص من العذاب، وتمثيل ضلالهم في الدنيا، ومقابلة حالهم بحال المؤمنين أهل الصلاة والزكاة والتصديق بيوم الجزاء»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تاريخ نزول السورة

* عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن، عن أول ما نزل من القرآن، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾. قلت: يقولون: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[٣].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٩).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٩٣).
(٣) العلق: الآية (١).

فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد اللَّه ﵄ عن ذلك، وقلت له مثل الذي قلت، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول اللَّه ﷺ، قال: «**جاورت بحراء، فلما قضيت جواري هبطت، فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا، ونظرت أمامي فلم أر شيئا، ونظرت خلفي فلم أر شيئا، فرفعت رأسي فرأيت شيئا، فأتيت خديجة فقلت: دثروني، وصبوا علي ماء باردًا، فدثروني وصبوا علي ماء باردا قال: فنزلت:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ ابن حجر: «المراد بالأولية في قوله: (أول ما نزل سورة المدثر) أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي، أو مخصوصة بالأمر بالإنذار، لا أن المراد أنها أولية مطلقة، فكأن من قال أول ما نزل (اقرأ) أراد أولية مطلقة، ومن قال إنها المدثر أراد بقيد التصريح بالإرسال»[٢].

قال الكرماني: «فإن قلت المشهور بل الصحيح أن أول ما نزل هو ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ قلت: ليس في حديثه أنه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ بل استخرج جابر ذلك من الحديث باجتهاده وظنه، وهو لا يعارض الحديث الصحيح المذكور في أول هذا الجامع الصريح فيه بأنه إقرأ، ثم لفظ فرأيت شيئا مجمل يحتمل أن يكون المراد به رأيت جبريل، وقد قال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ فخفت من ذلك ثم أتيت خديجة فقلت دثروني»[٣].

قال الحافظ: «ويحتمل أن تكون الأولية في نزول يا أيها المدثر بقيد السبب، أي هي أول ما نزل من القرآن بسبب متقدم، وهو ما وقع من التدثر الناشئ عن الرعب، وأما إقرأ فنزلت ابتداء بغير سبب متقدم، ولا يخفى بعد هذا الاحتمال. وفي أول سورة نزلت قول آخر نقل عن عطاء الخراساني قال: المزمل نزلت قبل المدثر. وعطاء ضعيف، وروايته معضلة لأنه لم يثبت لقاؤه لصحابي معين، وظاهر

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٦ و٣٩٢)، البخاري (٨/ ٨٧٥/ ٤٩٢٢)، مسلم (١/ ١٤٣/ ١٦١)، الترمذي (٥/ ٣٩٩/ ٣٣٢٥)، النسائي في الكبرى (٦/ ٥٠٢/ ١١٦٣٢).

(٢) الفتح (٨/ ٨٧٦-٨٧٧).

(٣) شرح البخاري (١٨/ ١٦٩).

الأحاديث الصحيحة تأخر المزمل؛ لأن فيها ذكر قيام الليل وغير ذلك مما تراخى عن ابتداء نزول الوحي، بخلاف المدثر فإن فيها ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝﴾.. والمشكل من رواية يحيى بن أبي كثير قوله: «جاورت بحراء شهرا، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي، فنوديت -إلى أن قال- فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء -يعني جبريل- فأتيت خديجة فقلت: دثروني». ويزيل الإشكال أحد أمرين: إما أن يكون سقط على يحيى بن أبي كثير وشيخه من القصة مجيء جبريل بحراء بإقرأ باسم ربك وسائر ما ذكرته عائشة، وإما أن يكون جاور ﷺ بحراء شهرا آخر»[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم أكرمه اللَّه تعالى بالنبوة، فجاءه الملك وهو بغار حراء، وكان يحب الخلوة فيه، فأول ما أنزل عليه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝﴾[2] هذا قول عائشة والجمهور.

وقال جابر: أول ما أنزل عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝﴾. والصحيح قول عائشة لوجوه:

أحدها: أن قوله: «ما أنا بقارئ» صريح في أنه لم يقرأ قبل ذلك شيئا.

الثاني: الأمر بالقراءة في الترتيب قبل الأمر بالإنذار، فإنه إذا قرأ في نفسه، أنذر بما قرأه، فأمره بالقراءة أولا، ثم الإنذار بما قرأه ثانيا.

الثالث: أن حديث جابر، وقوله: أول ما أنزل من القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝﴾ قول جابر، وعائشة أخبرت عن خبره ﷺ عن نفسه بذلك.

الرابع: أن حديث جابر الذي احتج به صريح في أنه قد تقدم نزول الملك عليه أولا قبل نزول ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝﴾ فإنه قال: «فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء، فرجعت إلى أهلي فقلت: زملوني دثروني»، فأنزل اللَّه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. وقد أخبر أن الملك الذي جاءه بحراء أنزل عليه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝﴾ فدل حديث جابر على تأخر نزول ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝﴾ والحجة في روايته، لا في رأيه، واللَّه أعلم»[3].

قوله: «**دثروني**» في رواية ابن شهاب: «**زملوني زملوني**» **قال الحافظ**: «وكأنه

---

(١) الفتح (٨/ ٨٧٧).
(٢) العلق: الآية (١).
(٣) زاد المعاد (١/ ٨٤-٨٥).

رواها بالمعنى، والتزميل والتدثير يشتركان في الأصل وإن كانت بينهما مغايرة في الهيئة. ووقع في رواية مسلم «فقلت دثروني، فدثروني وصبوا علي ماء» ويجمع بينهما بأنه أمرهم فامتثلوا. وأغفل بعض الرواة ذكر الأمر بالصب، والاعتبار بمن ضبط، وكأن الحكمة في الصب بعد التدثر طلب حصول السكون لما وقع في الباطن من الانزعاج، أو أن العادة أن الرعدة تعقبها الحمى، وقد عرف من الطب النبوي معالجتها بالماء البارد.

قوله: «فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ يعرف من اتحاد الحديثين في نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ عقب قوله: «دثروني» و«زملوني» أن المراد بزملوني دثروني، ولا يؤخذ من ذلك نزول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾[١] حينئذ لأن نزولها تأخر عن نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ بالاتفاق، لأن أول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ الأمر بالإنذار وذلك أول ما بعث، وأول المزمل الأمر بقيام الليل وترتيل القرآن فيقتضي تقدم نزول كثير من القرآن قبل ذلك، وقد تقدم في تفسير المدثر أنه أنزل من أولها إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾[٢] وفيها محصل ما يتعلق بالرسالة، ففي الآية الأولى المؤانسة بالحالة التي هو عليها من التدثر إعلاما بعظيم قدره، وفي الثانية الأمر بالإنذار قائما وحذف المفعول تفخيما، والمراد بالقيام إما حقيقته أي قم من مضجعك، أو مجازه أي قم مقام تصميم، وأما الإنذار فالحكمة في الاقتصار عليه هنا فإنه أيضا بعث مبشرا لأن ذلك كان أول الإسلام، فمتعلق الإنذار محقق؛ فلما أطاع من أطاع نزلت: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[٣] وفي الثالثة تكبير الرب تمجيدا وتعظيما، ويحتمل الحمل على تكبير الصلاة كما حمل الأمر بالتطهير على طهارة البدن والثياب كما تقدم البحث فيه وفي الآية الرابعة، وأما الخامسة فهجران ما ينافي التوحيد وما يؤول إلى العذاب، وحصلت المناسبة بين السورتين المبتدأ بهما النزول فيما اشتملتا عليه من المعاني الكثيرة باللفظ الوجيز، وفي عدة ما نزل من كل منهما ابتداء والله أعلم»[٤].

* * *

(١) المزمل: الآية (١).
(٢) المدثر: الآية (٥).
(٣) الفتح: الآية (٨).
(٤) الفتح (٨/ ٩٣٦-٩٣٧).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾

★ **غريب الآية:**

المدثر: أي: المتدثر، وهو المتلفف في الدثار، وهو ما يكون من الثياب فوق الشعار.

الرجز: القذر، مثل الرِّجْس.

لا تمنن: المن: ذكر النعمة والاستكثار بها. قال الشاعر:

وإن امـرؤ أهـدى إلـيَّ صـنـيـعـة   وذكـر فـيـهـا مـرة لـبـخـيـلُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذ ناداه بحاله، وعبر عنه بصفته، ولم يقل يا محمد ويا فلان، ليستشعر اللين والملاطفة من ربه كما تقدم في سورة المزمل.. قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ خوف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا. وقيل: الإنذار هنا إعلامهم بنبوته، لأنه مقدمة الرسالة. وقيل: هو دعاؤهم إلى التوحيد، لأنه المقصود بها. وقال الفراء: قم فصل وأمر بالصلاة»[١].

قال الشيخ عطية سالم: «الإنذار: إعلام بتخويف، فهو أخص من مطلق الإعلام، وهو متعد لمفعولين المُنْذَر باسم المفعول والمُنْذَر به، ولم يذكر هنا واحد منهما. أما المنذر فقد بينت آيات أخر أنه قد يكون للكافرين، كما في قوله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[٢] تخويفًا لهم. وقد يكون للمؤمنين لأنهم المنتفعون به كما في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾[٣]. وقد يكون للجميع أي:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٤١).   (٢) مريم: الآية (٩٧).
(٣) يس: الآية (١١).

لعامة الناس كما في قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾[١]. وأما المنذر به فهو ما يكون يوم القيامة. وقد قدر الأمرين هنا ابن جرير بقوله: فأنذر عذاب اللَّه قومك الذين أشركوا باللَّه وعبدوا غيره»[٢].

قال ابن عاشور: «والظاهر: أن هذه الآية أول ما نزل في الأمر بالدعوة؛ لأن سورة العلق لم تتضمن أمرًا بالدعوة، وصدر سورة المزمل تضمن أنه مسبوق بالدعوة لقوله فيه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[٤]. وإنما كان تكذيبهم بعد أن أبلغهم أنه رسول من اللَّه إليهم، وابتدئ بالأمر بالإنذار لأن الإنذار يجمع معاني التحذير من فعل شيء لا يليق وعواقبه، فالإنذار حقيق بالتقديم قبل الأمر بمحامد الفعال؛ لأن التخلية مقدمة على التحلية، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، ولأن غالب أحوال الناس يومئذٍ محتاجة إلى الإنذار والتحذير»[٥].

قال البقاعي: «أي: فافعل الإنذار لكل من يمكن إنذاره، فأنذر من كان راقدًا في غفلاته، متدثرًا بأثواب سكراته، لاهيًا عما أمامه من أهوال يوم القيامة، وكذا من كان مستيقظًا ولكنه متدثر بأثواب تشويفاته وأغشية فتراته، فإنه يجب على كل مربوب أن يشكر ربه، وإلا عاقبه بعناده له، أو غفلته عنه بما أقله الإعراض عنه، وحذف المفعول إشارة إلى عموم الإنذار لكل من يمكن منه المخالفة عقلًا وهم جميع الخلق»[٦].

قال ابن القيم: «فإنه أي: النبي ﷺ لما أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝﴾ شمر عن ساق الدعوة وقام في ذات اللَّه أتم قيام، ودعا إلى اللَّه ليلا ونهارا، وسرا وجهارا، ولما نزل عليه: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[٧] فصدع بأمر اللَّه لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى اللَّه الصغير والكبير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، والأحمر والأسود، والجن والإنس.

(١) يونس: الآية (٢).
(٢) تتمة الأضواء (٨/ ٦١٧).
(٣) المزمل: الآية (١٥).
(٤) المزمل: الآية (١١).
(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٩٥).
(٦) نظم الدرر (٢١/ ٤١).
(٧) الحجر: الآية (٩٤).

ولما صدع بأمر اللَّه وصرح لقومه بالدعوة وناداهم بسب آلهتهم، وعيب دينهم، اشتد أذاهم له، ولمن استجاب له من أصحابه، ونالوه ونالوهم بأنواع الأذى، وهذه سنة اللَّه ﷻ في خلقه، كما قال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[1] وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾[2] وقال: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾[3] فعزى سبحانه نبيه بذلك، وأن له أسوة بمن تقدمه من المرسلين، وعزى أتباعه بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[4] وقوله: ﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾[5].

فليتأمل العبد سياق هذه الآيات وما تضمنته من العبر وكنوز الحكم، فإن الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم آمنا، وإما ألا يقول ذلك؛ بل يستمر على السيئات والكفر، فمن قال آمنا امتحنه ربه وابتلاه، وفتنه والفتنة الابتلاء والاختبار ليتبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل آمنا فلا يحسب أنه يعجز اللَّه ويفوته ويسبقه، فإنه إنما يطوي المراحل في يديه. وكيف يفر المرء عنه بذنبه إذا كان تطوى في يديه المراحل.

فمن آمن بالرسل وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه، فابتلي بما يؤلمه، وإن لم يؤمن بهم، ولم يطعهم عوقب في الدنيا والآخرة، فحصل له ما يؤلمه، وكان هذا

---

(١) فصلت: الآية (٤٣).
(٢) الأنعام: الآية (١١٢).
(٣) الذاريات: الآيتان (٥٢-٥٣).
(٤) البقرة: الآية (٢١٤).
(٥) العنكبوت: الآيات (١-١٠).

المؤلم له أعظم ألما وأدوم من ألم اتباعهم، فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء، ثم يصير إلى الألم الدائم. وسئل الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أيما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى؟ فقال: لا يمكن حتى يبتلى، واللَّه تعالى ابتلى أولي العزم من الرسل، فلما صبروا مكنهم فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة، وإنما يتفاوت أهل الآلام في العقول، فأعقلهم من باع ألما مستمرا عظيما بألم منقطع يسير، وأشقاهم من باع الألم المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمر.

فإن قيل كيف يختار العاقل هذا؟ قيل الحامل له على هذا النقد والنسيئة. والنفس موكلة بحب العاجل ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾[1] ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾[2] وهذا يحصل لكل أحد، فإن الإنسان مدني بالطبع لا بد له أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب تارة منهم، وتارة من غيرهم، كمن عنده دين وتقى حل بين قوم فجار ظلمة، ولا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم أو سكوته عنهم، فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرهم في الابتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم فلا بد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم، فالحزم كل الحزم في الأخذ بما قالت عائشة أم المؤمنين لمعاوية: «من أرضى اللَّه بسخط الناس كفاه اللَّه مؤنة الناس، ومن أرضى الناس بسخط اللَّه لم يغنوا عنه من اللَّه شيئا»[3]، ومن تأمل أحوال العالم رأى هذا كثيرا فيمن يعين الرؤساء على أغراضهم الفاسدة، وفيمن يعين أهل البدع على بدعهم هربا من عقوبتهم، فمن هداه اللَّه وألهمه رشده ووقاه شر نفسه امتنع من الموافقة على فعل المحرم، وصبر على عدوانهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، كما كانت للرسل وأتباعهم كالمهاجرين والأنصار، ومن ابتلي من

---

(١) القيامة: الآيتان (٢٠و٢١).

(٢) الإنسان: الآية (٢٧).

(٣) أخرجه: الترمذي (٤/ ٥٢٧/ ٢٤١٤)، وابن حبان (١/ ٥١٠/ ٢٧٦ الإحسان).

العلماء والعباد وصالحي الولاة والتجار وغيرهم.

ولما كان الألم لا محيص منه البتة عزى اللَّه سبحانه من اختار الألم اليسير المنقطع على الألم العظيم المستمر»[١].

وقوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝﴾ **قال القرطبي**: «أي: سيدك ومالكك ومصلح أمرك فعظم، وصفه بأنه أكبر من أن يكون له صاحبة أو ولد قال ابن العربي: وهذا القول وإن كان يقتضي بعمومه تكبير الصلاة، فإنه مراد به التكبير والتقديس والتنزيه، لخلع الأنداد والأصنام دونه، ولا تتخذ وليا غيره، ولا تعبد سواه، ولا ترى لغيره فعلا إلا له، ولا نعمة إلا منه.

وقد روي أن أبا سفيان قال يوم أحد: اعل هبل، فقال النبي ﷺ: «**قولوا: اللَّه أعلى وأجل**»[٢]، وقد صار هذا اللفظ بعرف الشرع في تكبير العبادات كلها أذانا وصلاة وذكرا بقوله: (اللَّه أكبر) وحمل عليه لفظ النبي ﷺ الوارد على الإطلاق في موارد، منها قوله: «**تحريمها التكبير، وتحليلها التسليم**»[٣] والشرع يقتضي بعرفه ما يقتضي بعمومه، ومن موارده أوقات الإهلال بالذبائح لله تخليصا له من الشرك، وإعلانا باسمه في النسك، وإفرادا لما شرع منه لأمره بالسفك»[٤].

وقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝﴾ **قال ابن القيم**: «وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هاهنا: القلب، والمراد بالطهارة: إصلاح الأعمال والأخلاق، قال الواحدي: اختلف المفسرون في معناه، فروى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يعني: من الإثم، ومما كانت الجاهلية تجيزه، وهذا قول قتادة ومجاهد، قالا: نفسك فطهر من الذنب، ونحوه قول الشعبي وإبراهيم والضحاك والزهري، وعلى هذا القول: الثياب عبارة عن النفس، والعرب تكنى بالثياب عن النفس، ومنه قول الشماخ:

---

(١) زاد المعاد (٣/ ١٢-١٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٩٣)، والبخاري (٦/ ١٩٩-٢٠٠/ ٣٠٣٩)، وأبو داود (٣/ ١١٧-١١٨/ ٢٦٦٢)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٨٩-١٩٠/ ٨٦٣٥)، مطولا من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٢٣و١٢٩)، وأبو داود (١/ ٤٩-٥٠/ ٦١)، والترمذي (١/ ٨-٩/ ٣)، وقال هذا الحديث أصح شيء في الباب وأحسن، وابن ماجه (١/ ١٠١/ ٢٧٥) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٤١-٤٢)، وانظر أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٨٨٦).

رموها بأثواب خفاف فلا ترى لها شبها إلا النعام المنفرا

رموها : يعني : الركاب بأبدانهم . وقال عنترة :

فشككت بالرمح الطويل ثيابه ليس الكريم على القنى بمحرم

يعني : نفسه وقال في رواية الكلبي : يعني لا تغدر فتكون غادرا دنس الثياب، وقال سعيد بن جبير : كان الرجل إذا كان غادرا ، قيل : دنس الثياب وخبيث الثياب، وقال عكرمة : لا تلبس ثوبك على معصية ولا على فجرة، وروي ذلك عن ابن عباس، واحتج بقول الشاعر :

وإني بحمد اللَّه لا ثوب غادر لبست ولا من خزية أتقنع

وهذا المعنى أراد من قال في هذه الآية : وعملك فأصلح، وهو قول أبي رزين ورواية منصور عن مجاهد وأبي روق، وقال السدي : يقال للرجل إذا كان صالحا : إنه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجرا : إنه لخبيث الثياب، قال الشاعر :

لاهم إن عامر بن جهم أوذم حجا في ثياب دسم

يعني : أنه متدنس بالخطايا ، وكما وصفوا الغادر الفاجر بدنس الثوب وصفوا الصالح بطهارة الثوب، قال امرؤ القيس :

ثياب بني عوف طهارى نقية

يريد أنهم لا يغدرون؛ بل يفون، وقال الحسن : خلقك فحسنه، وهذا قول القرطبي، وعلى هذا : الثياب عبارة عن الخلق، لأن خلق الإنسان يشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه، وروى العوفي عن ابن عباس في هذه الآية : لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طيب، والمعنى : طهرها من أن تكون مغصوبة أو من وجه لا يحل اتخاذها منه .

وروي عن سعيد بن جبير : وقلبك ونيتك فطهر، وقال أبو العباس : الثياب اللباس، ويقال : القلب وعلى هذا ينشد :

فسلي ثيابي من ثيابك تنسلي

وذهب بعضهم في تفسير هذه الآية إلى ظاهرها وقال : إنه أمر بتطهير ثيابه من النجاسات التي لا تجوز معها الصلاة، وهو قول ابن سيرين وابن زيد، وذكر

أبو إسحاق: وثيابك فقصر، قال: لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسة، فإنه إذا انجر على الأرض لم يؤمن أن يصيبه ما ينجسه، وهذا قول طاوس، وقال ابن عرفة: معناه: نساءك طهرهن. وقد يكنى عن النساء بالثياب واللباس قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾[١] وكنى عنهن بالإزار ومنه قول الشاعر:

ألا أبلغ أبا حفص رسولا فدى لك من أخي ثقة إزاري

أي: أهلي، ومنه قول البراء بن معرور للنبي ﷺ ليلة العقبة: (لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا أي: نساءنا)[٢]. قلت: الآية تعم هذا كله وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم إن لم تتناول ذلك لفظا، فإن المأمور به إن كان طهارة القلب فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك، فإن خبث الملبس يكسب القلب هيئة خبيثة، كما أن خبث المطعم يكسبه ذلك، ولذلك حرم لبس جلود النمور والسباع بنهي النبي ﷺ عن ذلك في عدة أحاديث صحاح لا معارض لها، لما تكسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات، فإن الملابس الظاهرة تسري إلى الباطن، ولذلك حرم لبس الحرير والذهب على الذكور لما يكتسب القلب من الهيئة التي تكون لمن ذلك لبسه من النساء وأهل الفجور والخيلاء. والمقصود: أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها، فإن كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها، فالمقصود لنفسه أولى أن يكون مأمورا به، وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النفس فلا يتم إلا بذلك، فتبين دلالة القرآن على هذا وهذا»[٣].

قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ قال الرازي: «ذكروا في الرجز وجوهًا الأول: قال العتبي: الرجز العذاب قال اللّٰه تعالى: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾[٤] أي العذاب، ثم سمي كيد الشيطان رجزًا لأنه سبب للعذاب، وسميت الأصنام رجزًا لهذا المعنى أيضًا، فعلى هذا القول تكون الآية دالة على وجوب الاحتراز عن كل المعاصي، ثم على هذا القول احتمالان: أحدهما: أن قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ يعني كل ما يؤدي إلى الرجز فاهجره، والتقدير: وذا الرجز فاهجر، أي: ذا العذاب، فيكون

---

(١) البقرة: الآية (١٨٧).
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٠).
(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٨٧-٩١).
(٤) الأعراف: الآية (١٣٤).

المضاف محذوفًا. والثاني: أنه سمي إلى ما يؤدي إلى العذاب عذابًا تسمية للشيء باسم ما يجاوره ويتصل به.

القول الثاني: أن الرجز اسم للقبيح المستقذر، وهو معنى الرجس، فقوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ كلام جامع في مكارم الأخلاق، كأنه قيل له: اهجر الجفاء والسفه وكل شيء قبيح، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز، وهذا يشاكل تأويل من فسر قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ على تحسين الخلق وتطهير النفس عن المعاصي والقبائح»[(١)].

وقال أيضا: «احتج من جوز المعاصي على الأنبياء بهذه الآية، قال لولا أنه كان مشتغلًا بها وإلا لما زجر عنها بقوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ والجواب: المراد منه الأمر بالمداومة على ذلك الهجران، كما أن المسلم إذا قال: اهدنا فليس معناه أنا لسنا على الهداية فاهدنا، بل المراد ثبتنا على هذه الهداية، فكذا هاهنا»[(٢)].

قال ابن كثير: «وعلى كل تقدير، فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[(٣)] وقال موسى لأخيه هارون: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[(٤)]»[(٥)].

وقوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ **قال ابن العربي**: «فيها ستة أقوال:

الأول: لا تعط عطية فتطلب أكثر منها؛ روي عن ابن عباس.

الثاني: لا تعط الأغنياء عطية لتصيب منهم أضعافها.

الثالث: لا تعط عطية تنتظر ثوابها.

الرابع: ولا تمنن بالنبوة على الناس تأخذ أجرا منهم عليها.

الخامس: لا تمنن بعملك تستكثره على ربك؛ قاله الحسن.

السادس: لا تضعف عن الخير أن تستكثر منه.

هذه الأقوال يتقارب بعضها، وهي الثلاثة الأول؛ فأما قوله: (لا تعط عطية

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ١٩٤).
(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ١٩٤).
(٣) الأحزاب: الآية (١).
(٤) الأعراف: الآية (١٤٢).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٨٩).

فتطلب أكثر منها) فهذا لا يليق بالنبي ﷺ، ولا يناسب مرتبته، وقد قال: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾[1] على ما بينا معناه، وقد روى أبو داود وغيره عن عائشة: (أن النبي ﷺ كان يقبل الهدية، ويثيب عليها)[2]، وفي الصحيح في الحديث واللفظ للبخاري قال ﷺ: «**لو دعيت إلى كراع لأجبت، ولو أهدي إلي ذراع لقبلت**»[3]، ولفظه مختلف فكان يقبلها سنة، ولا يستكثرها شرعة؛ وإذا كان لا يعطي عطية يستكثر بها فالأغنياء أولى بالاجتناب؛ لأنها باب من أبواب المذلة؛ وكذلك قول من قال: إن معناه: لا تعط عطية تنتظر ثوابها؛ فإن الانتظار تعلق بالإطماع؛ وذلك في حيزه بحكم الامتناع، وقد قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[4]، وذلك جائز لسائر الخلق؛ لأنه من متاع الحياة الدنيا، وطلب الكسب فيها والتكاثر منها، وأما من قال: أراد به العمل، أي: لا تستكثر به على ربك فهو صحيح؛ فإن ابن آدم لو أطاع اللّه عمره من غير فتور لما بلغ لنعم اللّه بعض الشكر، وهذا كله بني على أصل، وذلك أن قوله: ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ قد وردت القراءات بالروايات فيه بإسكان الراء.

وروي بضم الراء، فإذا أسكنت الراء كانت جوابا للأمر بالتقلل، فيكون الأول الثاني، وإن ضممت الراء كان الفعل بتقدير الاسم، وكان بمعنى الحال. والتقدير: ولا تمنن مستكثرا، وكان الثاني غير الأول، وهذا ينبني على أصل وهو القول في تحقيق المن؛ وهو ينطلق على معنيين: أحدهما العطاء. والثاني: التعداد على المنعم عليه بالنعم، فيرجع إلى القول الأول.

ويعضده قوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[5] وقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[6]، ويعضد الثاني قوله: ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[7] وقوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا

---

(١) الروم: الآية (٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٩٠)، والبخاري (٥/ ٢٦٢/ ٢٥٨٥)، وأبو داود (٣/ ٨٠٦-٨٠٧/ ٣٤٥٩)، والترمذي (٤/ ٢٩٨/ ١٩٥٣)، من حديث عائشة ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٤-٤٧٩)، والبخاري (٥/ ٢٤٩/ ٢٥٦٨)، والنسائي في الكبرى (٤/ ١٤٠/ ٦٦٠٩)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) طه: الآية (١٣١).

(٥) البقرة: الآية (٢٦٤).

(٦) فصلت: الآية (٨).

(٧) ص: الآية (٣٩).

بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[(١)]. وقال النبي ﷺ: «**ما أحد أمن علينا من ابن أبي قحافة**»[(٢)]. والآية تتناول المعنيين كليهما، والله أعلم»[(٣)].

قال القرطبي: «هذه الأقوال وإن كانت مرادة فأظهرها قول ابن عباس: (لا تعط لتأخذ أكثر مما أعطيت من المال)، يقال: مننت فلانا كذا أي أعطيته. ويقال للعطية المنة، فكأنه أمر بأن تكون عطاياه لله، لا لارتقاب ثواب من الخلق عليها، لأنه ﷺ ما كان يجمع الدنيا، ولهذا قال: «**ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم**»[(٤)]. وكان ما يفضل من نفقة عياله مصروفا إلى مصالح المسلمين، ولهذا لم يورث، لأنه كان لا يملك لنفسه الادخار والاقتناء، وقد عصمه الله تعالى عن الرغبة في شئ من الدنيا، ولذلك حرمت عليه الصدقة وأبيحت له الهدية، فكان يقبلها ويثيب عليها»[(٥)].

قال الرازي: «ما الحكمة في أن الله تعالى منعه من هذا العمل؟ الجواب: الحكمة فيه من وجوه:

الأول: لأجل أن تكون عطاياه لأجل الله لا لأجل طلب الدنيا، فإنه نهي عن طلب الدنيا في قوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ وذلك لأن طالب الدنيا لا بد وأن تكون الدنيا عنده عزيزة، ومن كان كذلك لم يصلح لأداء الرسالة.

الثاني: أن من أعطى غيره القليل من الدنيا ليأخذ الكثير لا بد وأن يتواضع لذلك الغير ويتضرع له، وذلك لا يليق بمنصب النبوة، لأنه يوجب دناءة الآخذ، ولهذا السبب حرمت الصدقات عليه، وتنفير المأخوذ منه، ولهذا قال: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرًا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ۝٤٠﴾[(٦)]»[(٧)].

---

(١) محمد: الآية (٤).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٨)، والبخاري (١/ ٧٣٤/ ٤٦٦)، ومسلم (٤/ ١٨٥٤-١٨٥٥/ ٢٣٨٢)، والترمذي (٥/ ٥٦٧-٥٦٨/ ٣٦٥٩).

(٣) أحكام القرآن (٤/ ١٨٨٨-١٨٨٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٢٣-٣٢٤)، وابن حبان (١١/ ١٩٣-١٩٤/ ٤٨٥٥) واللفظ له، والحاكم (٢/ ١٣٥) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، من حديث عبادة بن الصامت.

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٤٥).

(٦) الطور: الآية (٤٠).

(٧) التفسير الكبير (٣٠/ ١٩٥).

قال ابن عاشور: «مناسبة عطف ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝﴾ على الأمر بهجر الرجز أن المنّ في العطية كثير من خُلق أهل الشرك، فلما أمره اللَّه بهجر الرجز نهاه عن أخلاق أهل الرجز نهيًا يقتضي الأمر بالصدقة والإكثار منها بطريق الكناية، فكأنه قال: وتصدق وأكثر من الصدقة ولا تمنن، أي لا تعدّ ما أعطيته كثيرًا فتمسك عن الازدياد فيه، أو تتطرق إليك ندامة على ما أعطيت وهذا من بديع التأكيد لحصول المأمور به جعلت الصدقة كالحاصلة، أي: لأنها من خلقه ﷺ إذ كان أجود الناس، وقد عرف بذلك من قبل رسالته؛ لأن اللَّه هيأه لمكارم الأخلاق، فقد قالت له خديجة في حديث بدء الوحي «إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم»[1]. ففي هذه الآية إيماء إلى التصدق، كما كان فيها إيماء إلى الصلاة، ومن عادة القرآن الجمع بين الصلاة والزكاة»[2].

وقوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝﴾ قال القرطبي: «ولسيدك ومالكك فاصبر على أداء فرائضه وعبادته. وقال مجاهد: على ما أوذيت. وقال ابن زيد: حملت أمرا عظيما، محاربة العرب والعجم، فاصبر عليه لله. وقيل: فاصبر تحت موارد القضاء لأجل اللَّه تعالى. وقيل: فاصبر على البلوى، لأنه يمتحن أولياءه وأصفياءه. وقيل: على أوامره ونواهيه. وقيل: على فراق الأهل والأوطان»[3].

قال الرازي: «فيه وجوه:

أحدها: إذا أعطيت المال فاصبر على ترك المن والاستكثار، أي: اترك هذا الأمر لأجل مرضاة ربك.

وثانيها: إذا أعطيت المال فلا تطلب العوض، وليكن هذا الترك لأجل ربك.

وثالثها: أنا أمرناك في أول هذه السورة بأشياء ونهيناك عن أشياء، فاشتغل بتلك الأفعال والتروك لأجل أمر ربك، فكأن ما قبل هذه الآية تكاليف بالأفعال والتروك، وفي هذه الآية بين ما لأجله يجب أن يؤتى بتلك الأفعال والتروك وهو طلب رضا الرب»[4].

---

(١) أحمد (٦/ ٢٣٢-٢٣٣)، والبخاري (٨/ ٧١٥/ ٤٩٥٣-٤٩٥٤)، ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٠/ ١٦٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٩٨-٢٩٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٤٦).

(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ١٩٦-١٩٧).

قال السعدي: «فامتثل رسول اللَّه ﷺ لأمر ربه وبادر إليه، فأنذر الناس، وأوضح لهم بالآيات البينات جميع المطالب الإلهية، وعظم اللَّه تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يعبد من دون اللَّه، وما يعبد معه من الأصنام وأهلها، والشر وأهله، وله المنة على الناس بعد منة اللَّه من غير أن يطلب منهم على ذلك جزاء ولا شكورا، وصبر لله أكمل صبر، فصبر على طاعة اللَّه، وعن معاصي اللَّه، وعلى أقدار اللَّه المؤلمة، حتى فاق أولي العزم من المرسلين، صلوات اللَّه وسلامه عليه وعليهم أجمعين»(١).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥١٠).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الناقور: الصور الذي ينفخ فيه.

يسير: سهل، قليل الكلفة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: فإذا نفخ في الصور للقيام من القبور وجمع الخلائق للبعث والنشور»[(١)].

قال البقاعي: «عبر عنه بالنقر إشارة إلى أنه في شدته كالنقر في الصلب، فيكون عنه صوت هائل، وأصل النقر القرع الذي هو سبب الصوت، فهو أشد من صدعك لهم بالإنذار للحذار من دار البوار، فهنالك ترد الأرواح إلى أجسادها، فيبعث الناس فيقومون من قبورهم كنفس واحدة، وترى عاقبة الصبر، ويرى أعداؤك عاقبة الكبر، والتعبير فيه بصيغة المبالغة وجعله فاعلًا كالجاسوس إشارة إلى زيادة العظمة، حتى كأنه هو الفاعل على هيئة هي في غاية الشدة والقوة، وحذر النبي ﷺ أصحابه ﷺ من النفخ في الصور وقربه فقالوا: «كيف نقول يا رسول الله؟ قال: **قولوا حسبنا اللّه ونعم الوكيل**»[(٢)] ويجوز أن يكون التسبب عن الأمر بالصبر، أي: اصبر فلنأخذن بثأرك في ذلك اليوم بما يقر عينك، فيكون تسلية له ﷺ وتهديدًا لهم»[(٣)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥١١).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٧-٧٣)، والترمذي (٤/ ٥٣٦/ ٢٤٣١)، وحسنه، والحاكم (٤/ ٥٥٩)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٣/ ١٠٥/ ٨٢٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٤٦-٤٧).

قال الرازي: «قوله: ﴿فَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى اليوم الذي ينقر فيه في الناقور، والتقدير: فذلك اليوم يوم عسير، وأما ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ ففيه وجوه: الأول: أن يكون تفسيرًا لقوله: ﴿فَذَٰلِكَ﴾ لأن قوله: ﴿فَذَٰلِكَ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى النقر، وأن يكون إشارة إلى اليوم المضاف إلى النقر، فكأنه قال: فذلك أعني اليوم المضاف إلى النقر يوم عسير، فيكون ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ في محل النصب. والثاني: أن يكون ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ مرفوع المحل بدلًا من ذلك ﴿يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾ خبر كأنه قيل: فيوم النقر يوم عسير فعلى هذا يومئذ في محل الرفع لكونه بدلًا من ذلك، إلا أنه لما أضيف اليوم إلى إذ وهو غير متمكن بني على الفتح. الثالث: أن تقدير الآية فذلك النقر يومئذ نقر يوم عسير على أن يكون العامل في ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ هو النقر.

عسر ذلك اليوم على الكافرين لأنهم يناقشون في الحساب، ويعطون كتبهم بشمائلهم، وتسود وجوههم، ويحشرون زرقًا، وتتكلم جوارحهم فيفتضحون على رؤوس الأشهاد، وأما المؤمنون فإنه عليهم يسير؛ لأنهم لا يناقشون في الحساب، ويحشرون بيض الوجوه، ثقال الموازين، ويحتمل أن يكون إنما وصفه اللَّه تعالى بالعسر لأنه في نفسه كذلك للجميع من المؤمنين والكافرين على ما روي أن الأنبياء يومئذ يفزعون، وأن الولدان يشيبون، إلا أنه يكون هول الكفار فيه أشد، فعلى القول الأول لا يحسن الوقف على قوله: ﴿يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾ فإن المعنى أنه: على الكافرين عسير وغير يسير، وعلى القول الثاني يحسن الوقف؛ لأن المعنى: أنه في نفسه عسير على الكل، ثم الكافر مخصوص فيه بزيادة خاصة، وهو أنه عليه غير يسير.

فإن قيل: فما فائدة قوله: ﴿غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ وعسير مغن عنه؟ الجواب: أما على القول الأول: فالتكرير للتأكيد كما تقول: أنا لك محب غير مبغض وولي غير عدو، وأما على القول الثاني: فقوله: ﴿عَسِيرٌ﴾ يفيد أصل العسر الشامل للمؤمنين والكافرين، وقوله: ﴿غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ يفيد الزيادة التي يختص بها الكافر؛ لأن العسر قد يكون عسرًا قليلًا يسيرًا، وقد يكون عسرًا كثيرًا، فأثبت أصل العسر للكل، وأثبت العسر بصفة الكثرة والقوة للكافرين»[1].

* * *

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ١٩٩).

قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾

★ غريب الآية:

ذرني: دعني وخلِّني.

مهدت: وَطَّأْتُ وسَهَّلْتُ.

عنيدًا: العنيد: الحَائِد عن القصد والسواء المخالف لهما.

سأرهقه صعودا: أي: سأكلفه عذابًا شديدًا لا يطاق. والصعود: العقبة التي يصعب صُعُودُها.

عبس: قَطَّبَ وجهه. وضد العبوس: البشاشة والطلاقة.

بسر: كلح وجهه وعبس. قال الشاعر:

وقد رابني منها صدود رأيته ... وإعراضها عن حاجتي وبُسُورُها

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول اللَّه تعالى متوعدا لهذا الخبيث الذي أنعم اللَّه عليه بنعم الدنيا، فكفر بأنعم اللَّه، وبدلها كفرا، وقابلها بالجحود بآيات اللَّه والافتراء عليها، وجعلها من قول البشر، وقد عدد اللَّه عليه نعمه حيث قال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾، أي: خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد، ثم رزقه اللَّه ﴿مَالًا مَّمْدُودًا﴾، أي: واسعا كثيرا. قيل: ألف دينار. وقيل: مائة ألف دينار، وقيل: أرضا يستغلها. وقيل غير ذلك. وجعل له ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾، قال مجاهد:

لا يغيبون، أي: حضورا عنده لا يسافرون في التجارات، بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم، يتمتع بهم ويتملى بهم. وكانوا -فيما ذكره السدي، وأبو مالك، وعاصم بن عمر بن قتادة- ثلاثة عشر. وقال ابن عباس ومجاهد: كانوا عشرة. وهذا أبلغ في النعمة وهو إقامتهم عنده.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾﴾، أي: مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك، ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾﴾، أي: معاندا، وهو: الكفر على نعمه بعد العلم.. قال مجاهد: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ أي: مشقة من العذاب، وقال قتادة: عذابا لا راحة فيه، واختاره ابن جرير.. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾، أي: إنما أرهقناه صعودا، أي: قربناه من العذاب الشاق؛ لبعده عن الإيمان، لأنه فكر وقدر، أي: تروى ماذا يقول في القرآن حين سئل عن القرآن، ففكر ماذا يختلق من المقال، ﴿وَقَدَّرَ﴾ أي: تروى، ﴿فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾، دعاء عليه، ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾، أي: أعاد النظرة والتروي، ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾، أي: قبض بين عينيه وقطب ﴿وَبَسَرَ﴾، أي: كلح وكره، ومنه قول توبة بن الحمير الشاعر:

وقد رابني منها صدود رأيته وإعراضها عن حاجتي وبُسُورُها

وقوله: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾﴾، أي: صرف عن الحق ورجع القهقرى مستكبرا عن الانقياد للقرآن، ﴿فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾﴾، أي: هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم، ولهذا قال: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾، أي: ليس بكلام الله.

وهذا المذكور في هذا السياق هو: الوليد بن المغيرة المخزومي، أحد رؤساء قريش -لعنه الله-»[١].

وفي هذه الآية «وعيد محض، والمعنى: أنا أكفي عقابه وشأنه كله»[٢].

قال البقاعي: «فسكت ألفا ونطق خلفا، فكان شبيهًا من بعض الوجوه بما قاله بعضهم:

لو قيل كم خمس وخمس لاغتدى يومًا وليلته يعد ويحسب

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٩١-٢٩٢).

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٣٩٤).

ويقول معضلة عجيب أمرها ... ولئن عجبت لها لأمري أعجب
حتى إذا خدرت يداه وعورت ... عيناه مما قد يخط ويكتب
أوفى على شرف وقال ألا انظروا ... ويكاد من فرح يجن ويسلب
خمس وخمس ستة أو سبعة ... قولان قالهما الخليل وثعلب

هكذا كل حق يجد المبالغ في ذمه لا ينفك ذمه عن إفهام مدح له ينقض كلامه، ولكن أين النقاد المعدود من الأفراد بين العباد، وهذا الكلام صالح لعموم كل من خلقه سبحانه هكذا في الروغان من الحق، لما تفضل اللَّه به عليه من الرئاسة؛ لأن أهل العظمة في الدنيا هم في الغالب القائمون في رد الحق والتعاظم على أهله كما ذكر هنا، ولا ينافي ذلك ما قالوه: إنها نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي؛ بل ذلك من إعجاز كلام اللَّه تعالى أن تنزل الآية في شخص فتبين حاله غاية البيان، ويعم غيره ذلك البيان»[١].

قال ابن عاشور: «والمقصود إبلاغ هذا إليه مع تطمين النبي ﷺ بأن الوليد سيقطع عنه مدد الرزق لئلا تكون نعمته فتنة لغيره من المعاندين، فيغريهم حاله بأن عنادهم لا يضرهم؛ لأنهم لا يحسبون حياة بعد هذه كما حكى اللَّه من قول موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[٢].

وفي هذا الإبطال والردع إيذان بأن كفران النعمة سبب لقطعها قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[٣]»[٤].

وفي هذه الآية دليل على أن القرآن كلام اللَّه قال شيخ الإسلام: «إن هذا القرآن الذي يقرأه المسلمون هو كلام اللَّه الذي أنزله على نبيه ﷺ، كما ثبت ذلك بالنص وإجماع المسلمين، وقد كفر اللَّه من قال: إنه قول البشر، ووعده أنه سيصليه سقر في قوله: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ ولا ريب أنه لم يرد بقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ

(١) نظم الدرر (٢١/ ٥٦-٥٧).
(٢) يونس: الآية (٨٨).
(٣) إبراهيم: الآية (٧).
(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٠٥).

ﵟٱلۡبَشَرِ ٢٥ﵞ كما أراده اللَّه بقوله: ﵟإِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ﵞ[(١)] فإنه لو أراد أن البشر بلغوه عن غيرهم كما يتعلمه الناس بعضهم من بعض، لم يكن هذا باطلا، وإنما أراد أن البشر أحدثوه وأنشؤوه عنه، فمن جعل لفظه ونظمه من إحداث محمد فقد جعل نصفه قول البشر، ومن جعله من إحداث جبريل فقد جعل نصفه قول الملائكة، ومن جعله مخلوقا في الهواء أو غيره جعله كلاما لذلك الهواء، وكفر من قال: إنه قول الملك، أو قول الهواء، أو الشجر؛ بل كفر من قال: إنه قول البشر، فدل ذلك على أنه ليس شيء من القرآن لا لفظه ولا معناه من قول أحد من المخلوقين، ولا من كلامه؛ بل هو كلام اللَّه تعالى، وأيضا فالإشارة في قوله: ﵟإِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ٢٥ﵞ لا تعود إلى المعنى دون اللفظ؛ بل إليهما»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول هذه الآيات

* عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا، قال: لم؛ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله. قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا. قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك كاره له. قال: وماذا أقول؟ فواللَّه ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيدته مني، ولا بأشعار الجن، واللَّه ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، وواللَّه إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة، وأنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وأنه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فيه فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره فنزلت: ﵟذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ﵞ[(٣)].

★ **فوائد الحديث:**

وقال السعدي: «هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، المعاند للحق،

---

(١) الحاقة: الآية (٤٠). (٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٤٣-٥٤٤).

(٣) أخرجه: الحاكم (٢/ ٥٠٧) وقال: «حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري» ووافقه الذهبي. البيهقي في الدلائل (٢/ ١٩٨-١٩٩) واللفظ له، وفي الشعب (١/ ١٥٦-١٥٧/ ١٣٤).

المبارز لله ولرسوله بالمحاربة والمشاقة. فذمه اللّٰه ذما لم يذم به غيره، وهذا جزاء كل من عاند الحق ونابذه، أن له الخزي في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى. . فتبا له، ما أبعده من الصواب، وأحراه بالخسارة والتباب!! كيف يدور في الأذهان، أو يتصوره ضمير أي إنسان، أن يكون أعلى الكلام وأعظمه، كلام الرب الكريم، الماجد العظيم، يشبه كلام المخلوقين الفقراء الناقصين؟!. أم كيف يتجرأ هذا الكاذب العنيد، على وصفه بهذا الوصف لكلام الله؟!. فما حقه إلا العذاب الشديد، ولهذا قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥١١-٥١٣).

قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾

★ **غريب الآية:**

سقر: اسم من أسماء جهنم.

لواحة: مُغَيِّرَة. تقول: لاحَتْهُ الشمسُ ولَوَّحَتْهُ: إذا غَيَّرَتْ وَجْهَهُ.

للبشر: للخلق. سموا بشرًا باعتبار ظهور جلدهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «ولما قال هذا القول الذي حكاه اللَّه عنه، قال اللَّه ﷻ: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦﴾ أي: سأدخله النار، وسقر من أسماء النار، ومن دركات جهنم. وقيل: إن هذه الجملة بدل من قوله: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾ ثم بالغ سبحانه في وصف النار وشدة أمرها فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧﴾ أي: وما أعلمك أيّ شيء هي، والعرب تقول: وما أدراك ما كذا: إذا أرادوا المبالغة في أمره، وتعظيم شأنه، وتهويل خطبه»[1].

قال القرطبي: «هذه مبالغة في وصفها، أي: وما أعلمك أي شيء هي؟ وهي كلمة تعظيم، ثم فسر حالها فقال: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨﴾ أي: لا تترك لهم عظما ولا لحما ولا دما إلا أحرقته. وكرر اللفظ تأكيدا. وقيل: لا تبقي منهم شيئا ثم يعادون خلقا جديدا، فلا تذر أن تعاود إحراقهم هكذا أبدا. وقال مجاهد: لا تبقي من فيها حيا ولا تذره ميتا، تحرقهم كلما جددوا. وقال السدي: لا تبقي لهم لحما ولا تذر لهم عظما»[2].

وقوله: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩﴾ **قال الألوسي:** «قال ابن عباس ومجاهد وأبو رزين

(١) فتح القدير (٥/ ٤٦٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٥١).

والجمهور: أي: مغيرة للبشرات، مسودة للجلود، وفي بعض الروايات عن بعض بزيادة محرقة، والمراد في الجملة فلواحة من لوحته الشمس إذا سودت ظاهره وأطرافه قال:

تقول ما لاحك يا مسافر   يا ابنة عمي لاحني الهواجر

والبشر جمع بشرة وهي ظاهر الجلد وفي بعض الآثار أنها تلفح الجلد لفحة فتدعه أشد سوادًا من الليل، واعترض بأنه لا يصح وصفها بتسويدها الظاهر الجلود مع قوله سبحانه: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾ الصريح في الإحراق، وأجيب بأنها في أول الملاقاة تسوده، ثم تحرقه وتهلكه، أو الأول حالها مع من دخلها، وهذا حالها مع من يقرب منها، وأنت تعلم أنه إذا قيل: لا يحسن وصفها بتسويد ظاهر الجلود بعد وصفها بأنها لا تبقي ولا تذر لم يحسن هذا الجواب، وقد يجاب حينئذ بأن المراد ذكر أوصافها المهولة الفظيعة من غير قصد إلى ترق من فظيع إلى أفظع، وكونها لواحة وصف من أوصافها، ولعله باعتبار أول الملاقاة، وقيل: الإهلاك، وفي ذكره من التفظيع ما فيه؛ لما أن في تسويد الجلود مع قطع النظر عما فيه من الإيلام تشويهًا للخلق، ومثلة للشخص، فهو من قبيل التتميم، وفي استلزام الإهلاك تسويد الجلود تردد، وإن قيل به فتدبر، وجوز على تفسير لواحة بما ذكر كون البشر اسم جنس بمعنى الناس، ويرجع المعنى إلى ما تقدم، وقال الحسن وابن كيسان والأصم لواحة بناء مبالغة من لاح إذا ظهر، والبشر بمعنى الناس، أي: تظهر للناس لعظمها وهولها كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾[(١)]»[(٢)].

وقوله: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ **قال الشوكاني**: «قال المفسرون: يقول: على النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها. وقيل: تسعة عشر صنفًا من أصناف الملائكة. وقيل: تسعة عشر صفًا من صفوفهم. وقيل: تسعة عشر نقيبًا مع كل نقيب جماعة من الملائكة، والأوّل أولى. قال الثعلبي: ولا ينكر هذا، فإذا كان ملك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكونوا تسعة عشر على عذاب بعض الخلق»[(٣)].

---

(١) النازعات: الآية (٣٦).

(٢) روح المعاني (٢٩/ ١٢٥).

(٣) فتح القدير (٥/ ٤٦٦).

قال القرطبي: «والصحيح إن شاء اللَّه أن هؤلاء التسعة عشر هم الرؤساء والنقباء، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[(١)]»[(٢)].

قلت: ولذا قال ابن كثير: «﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾ أي: من مقدمي الزبانية، عظيم خلْقهم، غليظ خلُقهم»[(٣)].

قال القاسمي: «وفيه إشارة إلى أن زبانية العذاب الأخروي تفوق زبانية الجبابرة في الدنيا أضعافا مضاعفة، تنبيها على هول العذاب وكبر مكانه»[(٤)].

قال ابن عاشور: «إن الملائكة التسعة عشر موزَّعون على دركات سقر أو جهنمَ لكل دَرك مَلك، فلعل هذه الدركات معين كل درك منها لأهل شعبة من شُعب الكفر، ومنها الدرك الأسفل الذي ذكره اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[(٥)] فإن الكفر أصناف منها إنكار وجود اللَّه، ومنها الوثنية، ومنها الشرك بتعدد الإله، ومنها عبادة الكواكب، ومنها عبادة الشيطان والجن، ومنها عبادة الحيوان، ومنها إنكار رسالة الرسل، ومنها المجوسية المانوية والمزدكية والزندقة، وعبادة البشر مثل الملوك، والإباحيةُ ولو مع إثبات الإله الواحد.

وفي ذكر هذا العدد تحد لأهل الكتابين يبعثهم على تصديق القرآن، إذ كان ذلك مما استأثر به علماؤهم كما سيأتي قوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾[(٦)]»[(٧)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر بعض الملائكة الموكلين بالنار

* عن ابن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»[(٨)].

(١) المدثر: الآية (٣١).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٥٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٩٣).
(٤) محاسن التأويل (١٦/ ٣٣٩).
(٥) النساء: الآية (١٤٥).
(٦) المدثر: الآية (٣١).
(٧) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣١٣).
(٨) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٨٤/ ٢٨٤٢)، والترمذي (٤/ ٦٠٤/ ٢٥٧٣).

★ **غريب الحديث:**

زمام: الزمام ما يجعل في أنف البعير يشد عليه المقود.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن هبيرة: «الذي أراه في هذا الحديث من الفقه أن سبعين ألفًا في سبعين ألف أربعة آلاف ألف ألف وتسعمائة ألف ألف، يجرونها إليهم من ثقلها وتغيظها، فهؤلاء الملائكة يكفون أذاها أن يصيب بريئًا أو يؤذي من ليس من أهلها»[1].

قال القرطبي: «هذه الأزمة التي تساق بها جهنم تمنع من خروجها على أرض المحشر، فلا يخرج منها إلا الأعناق التي أمرت بأخذ من شاء اللَّه بأخذه.. وملائكتها كما وصفهم اللَّه غلاظ شداد، وأما قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ فالمراد رؤساؤهم، وأما جملتهم فالعبارة عنهم كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾»[2].

قال الشيخ العثيمين: وهذا يدل على عظمة هذه النار، نسأل اللَّه أن يعيذنا والمسلمين منها ومن هول ذلك اليوم؛ لأن اللَّه تعالى جعل سبعين ألف ملك مع كل زمام من سبعين ألف زمام يجرون بها جهنم والعياذ باللَّه، فهذا العدد الكبير من الملائكة يدل على أن الأمر عظيم، والخطر جسيم»[3].

* * *

---

(١) الإفصاح (٢/ ١٢٠).

(٢) التذكرة (ص: ٣٨٨).

(٣) شرح رياض الصالحين (٥/ ٣٤٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «وذلك لشدتهم وقوتهم. ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يحتمل أن المراد: إلا لعذابهم وعقابهم في الآخرة، ولزيادة نكالهم فيها، والعذاب يسمى فتنة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ⑬﴾[2] ويحتمل أن المراد: أنا ما أخبرناكم بعدتهم، إلا لنعلم من يصدق ممن يكذب، ويدل على هذا ما ذكر بعده في قوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ﴾ فإن أهل الكتاب، إذا وافق ما عندهم وطابقه، ازداد يقينهم بالحق، والمؤمنون كلما أنزل اللَّه آية، فآمنوا بها وصدقوا، ازداد إيمانهم، ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ﴾ أي: ليزول عنهم الريب والشك، وهذه مقاصد جليلة، يعتني بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين، وزيادة الإيمان في كل وقت، وكل مسألة من مسائل الدين، ودفع الشكوك والأوهام التي تعرض في مقابلة الحق، فجعل ما أنزله اللَّه على رسوله محصلا لهذه الفوائد الجليلة، ومميزا للكاذبين من الصادقين، ولهذا قال: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك وشبهة ونفاق. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ﴾ وهذا على وجه الحيرة والشك، والكفر منهم بآيات اللَّه، وهذا وذاك من هداية اللَّه لمن يهديه، وإضلاله لمن يضله، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ فمن هداه اللَّه، جعل ما أنزل على رسوله رحمة في حقه، وزيادة في إيمانه ودينه، ومن أضله جعل ما أنزله على رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة، وظلمة في حقه، والواجب أن يتلقى ما أخبر

---

(١) المدثر: الآية (٣١).

(٢) الذاريات: الآية (١٣).

اللَّه به ورسوله بالتسليم»[١].

قال ابن القيم: «أخبر اللَّه سبحانه عن الحكمة التي جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر، فذكر سبحانه خمس حكم: فتنة الكافرين، فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم، وقوة يقين أهل الكتاب فتقوى أنفسهم بموافقة الخبر بذلك لما عندهم عن أنبيائهم من غير تلق من رسول اللَّه ﷺ عنهم، فتقوم الحجة على معاندهم، وينقاد للإيمان من يرد اللَّه أن يهديه، وزيادة إيمان الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والإقرار به، وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به، فهذه أربع حكم: فتنة الكفار، ويقين أهل الكتاب، وزيادة إيمان المؤمنين، وانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب، الخامس: حيرة الكافر ومن في قلبه مرض، وعمى قلبه عن المراد بذلك فيقول: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۚ﴾ وهذا حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يفتتن به كفرا وجحودا، وقلب يزداد به إيمانا وتصديقا، وقلب يتيقنه فتقوم عليه به الحجة، وقلب يوجب له حيرة وعمى، فلا يدري ما يراد به، واليقين وعدم الريب في هذا الموضع إن رجعا إلى شيء واحد كان ذكر عدم الريب مقررا لليقين ومؤكدا له ونافيا عنه ما يضاده بوجه من الوجوه، وإن رجعا إلى شيئين بأن يكون اليقين راجعا إلى الخبر المذكور عن عدة الملائكة، وعدم الريب عائدا إلى عموم ما أخبر الرسول به، لدلالة هذا الخبر الذي لا يعلم إلا من جهة الرسل على صدقه، فلا يرتاب من قد عرف صحة هذا الخبر بعد صدق الرسول ﷺ ظهرت فائدة ذكره»[٢].

وفي هذه الآية -**يقول ابن عاشور**- إبطال توهم المشركين حقارة عدد خزنة النار، وهو كلام جار على تقدير الأسلوب الحكيم، إذ الكلام قد أثار في النفوس تساؤلًا عن فائدة جعل خزنة جهنم تسعةَ عشر، وهلاّ كانوا آلافًا ليكون مرآهم أشد هولًا على أهل النار، أو هلاّ كانوا ملكًا واحدًا، فإن قُوى الملائكة تأتي كل عمل يسخرها اللَّه له، فكان جواب هذا السؤال: أن هذا العدد قد أظهر لأصناف الناس مبلغ فَهم الكفار للقرآن. وإنما حصلت الفتنة من ذكر عددهم في الآية السابقة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥١٤-٥١٥).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٢٢).

فقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ تقديره: وما جعلنا ذكر عدتهم إلاّ فتنة، ولاستيقان الذين أوتوا الكتاب، وازدياد الذين آمنوا إيمانًا، واضطراب الذين في قلوبهم مرض، فيظهر ضلال الضالين واهتداء المهتدين. فاللَّه جعل عدة خزنة النار تسعة عشر لحكمة أخرى غير ما ذكر هنا اقتضت ذلك الجعل يعلمها الله»[1].

وفي هذه الآية يقول **عطية محمد سالم**: «بيان أن الواجب على المؤمن المبادر بالتصديق والانقياد، ولو لم يعلم الحكمة أو السر أو الغرض بناء على أن الخبر من اللَّه تعالى، وهو أعلم بما رواه.

وفي هذه المسألة مثار نقاش حكمة التشريع، وهذا أمر واسع، ولكن المهم عندنا هنا ونحن في عصر الماديات وتقدم المخترعات وظهور كثير من علامات الاستفهام عند كثير من آيات الأحكام، فإنا نود أن نقول: إن كل ما صح عن الشارع الحكيم من كتاب أو سنة وجب التسليم والانقياد إليه، علمنا الحكمة أو لم نعلم؛ لأن علمنا قاصر وفهمنا محدود، والعليم الحكيم الرَّؤوف الرَّحيم سبحانه لا يكلِّف عباده إلا بما فيه الحكمة. ومجمل القول أن الأحكام بالنسبة لحكمتها قد تكون محصورة في أقسام ثلاثة:

القسم الأول: حكم تظهر حكمته بنص كما في وجوب الصلاة، جاء أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهذه حكمة جليلة، والزكاة جاء عنها أنها تطهرهم وتزكيهم. وفي الصوم جاء فيه: لعلكم تتقون.

وفي الحج جاء فيه: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾[2] فمع أنها عبادات لله فقد ظهرت حكمتها جلية. وفي الممنوعات كما قالوا في الضروريات الست، حفظ الدين والعقل، والدم والعرض، والنسب والمال لقيام الحياة ووفرة الأمن، وصيانة المجتمع، وجعلت فيها حدود لحفظها وغير ذلك.

وقسم لم تظهر حكمته بهذا الظهور، ولكنه لم يخل من حكمة، كالطواف والسعي، والركوع والسجود، والوضوء والتيمم والغسل ونحو ذلك. وقسم ابتلاء وامتحان أولًا، ولحكمة ثانيًا، كتحويل القبلة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣١٤).

(٢) الحج: الآية (٢٨).

ﵟٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚﵞ[١]، وفي التحول عنها حكمة كما في قوله تعالى: ﵟلِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌﵞ[٢]، والمسلم في كلتا الحالتين ظهرت له الحكمة أو لم تظهر وجب عليه الامتثال والانقياد.. وقد تنكشف الأمور عن حكمة لا نعلمها كما في قصة موسى مع الخضر ﵉ إذ خرق السفينة وقتل الغلام، وأقام الجدار، وكلها أعمال لم يعلم لها موسى ﵇ حكمة، فلما أبداها له الخضر علم مدى حكمتها، وهكذا نحن اليوم وفي كل يوم، وقد بين تعالى هذا الموقف بقوله: ﵟوَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗﵞ[٣] وقد جاء في نهاية الآية الكريمة ما يلزم البشر بالعجز، ويدفعهم إلى التسليم في قوله: ﵟوَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚﵞ فكذلك بقية الأمور من اللَّه تعالى هو أعلم بها، والعلم عند اللَّه تعالى»[٤].

* * *

---

(١) البقرة: الآية (١٤٣).

(٢) البقرة: الآية (١٥٠).

(٣) آل عمران: الآية (٧).

(٥) تتمة الأضواء (٨/ ٦٢٤-٦٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ۝٣١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «وما يعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم إلا هو، فإذا كنتم جاهلين جنوده وأخبركم بها الخبير، فعليكم أن تصدقوا خبره من غير شك ولا ارتياب»[1].

قال الشوكاني: «والمعنى: أن خزنة النار وإن كانوا تسعة عشر فلهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا اللَّه سبحانه»[2].

وهذا إعلام بأن الأمر فوق ما يتوهم، وأن الخبر إنما هو عن بعض القدرة لا عن كلها، والسماء كلها عامرة بأنواع من الملائكة كلهم في عبادة متصلة، خشوع دائم، وطاعة لا فترة في شيء من ذلك ولا دقيقة واحدة»[3].

قال ابن كثير: «أي: ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى، لئلا يتوهم متوهم أنما هم تسعة عشر فقط، كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة، ومن الفلاسفة اليونانيين. ومن تابعهم من الملتين الذين سمعوا هذه الآية، فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة، التي اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها، فأفهموا صدر هذه الآية وقد كفروا بآخرها، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾»[4].

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ **قال السعدي**: «أي: وما هذه الموعظة والتذكار مقصودا به العبث واللعب، وإنما المقصود به أن يتذكر به البشر ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه»[5].

---

(١) تيسير الكريم (٧/ ٥١٥).
(٢) فتح القدير (٥/ ٤٧٠).
(٣) أفاده ابن عطية في المحرر الوجيز (٥/ ٣٩٧).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٩٥).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥١٦).

قال القرطبي: «يعني الدلائل والحجج والقرآن. وقيل: ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: وما هذه النار التي هي سقر ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ أي: عظة ﴿لِلْبَشَرِ﴾ أي للخلق. وقيل: نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة. قاله الزجاج.

وقيل: أي ما هذه العدة ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي: ليتذكروا ويعلموا كمال قدرة اللَّه تعالى، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار، فالكناية على هذا في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ﴾ ترجع إلى الجنود، لأنه أقرب مذكور»(١).

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٥٤).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أسفر: لاح وأضاء.

الكُبَر: الدواهي والعظائم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الألوسي: «كلا ردع لمن أنكرها [أي: الذكرى] وقيل: زجر عن قول أبي جهل وأصحابه أنهم يقدرون على مقاومة خزنة جهنم. وقيل: ردع عن الاستهزاء بالعدة المخصوصة، وقال الفراء: هي صلة للقسم، وقدرها بعضهم بحقًا وبعضهم بألا الاستفتاحية. وقال الزمخشري: إنكار بعد أن جعلها سبحانه ذكرى أن يكون لهم ذكرى، وتعقبه أبو حيان بأنه لا يسوغ في حقه تعالى أن يخبر أنها ذكرى للبشر ثم ينكر أن يكون لهم ذكرى، وأجيب بأنه لا تناقض؛ لأن معنى كونها ذكرى أن شأنها أن تكون مذكرة لكل أحد، ومن لم يتذكر لغلبة الشقاء عليه لا يعد من البشر، ولا يلتفت لعدم تذكره، كما أن حلاوة العسل لا يضرها كونها مرة في فم منحرف المزاج المحتاج إلى العلاج»[(١)].

قال الشوكاني معلقًا على القول الثاني: «وهذا هو الظاهر من معنى الآية»[(٢)].

قلت: وهو اختيار ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)].

قال ابن القيم: «أقسم سبحانه بالقمر الذي هو آية الليل، وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وبارئه وحكمته وعلمه وعنايته بخلقه ما هو معلوم

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ١٣٠).

(٢) فتح القدير (٥/ ٤٧٠).

(٣) جامع البيان (٢٩/ ١٦٢).

بالمشاهدة. وهو سبحانه أقسم بالسماء وما فيها مما لا نراه من الملائكة، وما فيها مما نراه من الشمس والقمر والنجوم، وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر: من الليل والنهار، وكل ذلك آية من آياته، ودلالة من دلائل ربوبيته.. وذلك مما يدل من له أدنى عقل على أنه بتسخير مسخر، وأمر آمر، وتدبير مدبر، بهرت حكمته العقول، وأحاط علمه بكل دقيق وجليل، وفرق ما علمه الناس من الحكم التي في خلقهما ما لا تصل إليه عقولهم ولا تنتهي إلى مباديها أوهامهم، فغايتنا الاعتراف بجلال خالقهما وكمال حكمته ولطف تدبيره، وأن نقول ما قاله أولوا الألباب قبلنا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1] ولو أن العبد وصف له جرم أسود مستدير عظيم الخلق يبدو فيه النور كخيط متسخ، ثم يتزايد كل ليلة حتى يتكامل نوره فيصير أضوأ شيء وأحسنه وأجمله، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حاله الأول، فيحصل بسبب ذلك معرفة الأشهر والسنين، وحساب آجال العالم: من مواقيت حجهم وصلاتهم، ومواقيت أجائرهم ومداييناتهم ومعاملتهم التي لا تقوم مصالحهم إلا بها، فمصالح الدنيا والدين متعلقة بالأهلة. وقد ذكر سبحانه ذلك في ثلاثة آيات من كتابه: أحدها قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[2] والثانية قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾[3] والثالثة قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ۝١٢﴾[4] فلولا ما يحدثه اللَّه سبحانه في آيات الليل من زيادة ضوئها ونقصانه، لم يعلم ميقات الحج والصوم والعدد، ومدة الرضاع ومدة الحمل، ومدة الإجارة ومدة آجال الحاملات.. فالرب ﷻ دبر الأهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه في مصالح دينهم ودنياهم، مع ما يتصل به من الاستدلال به على وحدانية الرب وكمال حكمته وعلمه وتدبيره، فشهادة الحق بتغير الأجرام الفلكية وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها، فهي آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية، وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين: بأنها أزلية أبدية لا يتطرق إليها التغيير،

---

(١) آل عمران: الآية (١٩١).
(٢) البقرة: الآية (١٨٩).
(٣) يونس: الآية (٥).
(٤) الإسراء: الآية (١٢).

ولا يمكن عدمها . فإذا تأمل البصير القمر مثلا ، وافتقاره إلى محل يقوم به ، وسيره دائبا لا يفتر مسير مسخر مدبر ، وهبوطه تارة ، وارتفاعه تارة ، وأفوله تارة ، وظهوره تارة ، وذهاب نوره شيئا فشيئا ، ثم عوده إليه كذلك ، وسبب ضوئه جملة واحدة حتى يعود قطعة مظلمة بالكسوف ؛ علم قطعا أنه مخلوق مربوب مسخر تحت أمر خالق قاهر مسخر له كما يشاء ، وعلى أن الرب سبحانه لم يخلق هذا باطلا ، وأن هذه الحركة فيه لابد أن تنتهي إلى الانقطاع والسكون ، وأن هذا الضوء والنور لابد أن ينتهي إلى ضده ، وأن هذا السلطان لابد أن ينتهي إلى العزل ، وسيجمع بينهما جامع المتفرقات بعد أن لم يكونا مجتمعين ، ويذهب بهما حيث شاء ، ويرى المشركين من عبدتهما حال آلهتم التي عبدوها من دونه . .

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا اللّه باطل

ولو شاء تعالى لأبقى القمر على حالة واحدة لا يتغير ، وجعل التغيير في الشمس ، ولو شاء لغيرهما معا ، ولو شاء لأبقاهما على حالة واحدة ، ولكن يري عباده آياته في أنواع تصاريفها ليدلهم على أنه اللّه الذي لا إله إلا هو الملك الحق المبين ، الفعال لما يريد ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] وأما تأثير القمر في ترطيب أبدان الحيوان والنبات وفي المياه وجزر البحر ومده وبحرانات الأمراض وتنقلها من حال إلى حال وغير ذلك من المنافع فأمر ظاهر»[2].

وقوله : ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ **قال السعدي** : «أقسم تعالى بالليل وقت إدباره ، والنهار وقت إسفاره ؛ لاشتمال المذكورات على آيات اللّه العظيمة الدالة على كمال قدرة اللّه وحكمته ، وسعة سلطانه ، وعموم رحمته ، وإحاطة علمه»[3].

قال ابن القيم : «وأما إقسامه سبحانه ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾ فلما في إدباره وإقبال النهار من أبين الدلالات الظاهرة على المبدأ والمعاد ، فإنه مبدأ ومعاد يومي مشهود

(١) الأعراف : الآية (٥٤).
(٢) التبيان (ص : ١٠٠-١٠٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥١٦).

بالعيان، بينما الحيوان في سكون الليل قد هدأت حركاتهم وسكنت أصواتهم ونامت عيونهم، وصاروا إخوان الأموات، إذا أقبل من النهار داعيه، وأسمع الخلائق مناديه، فانتشرت منهم الحركات، وارتفعت منهم الأصوات، حتى كأنهم قاموا أحياء من القبور يقول قائلهم: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور» فهو معاد جديد بدأه وأعاده الذي يبدئ ويعيد، فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهار؟ . فمن تأمل حال الليل إذا عسعس وأدبر، والصبح إذا تنفس وأسفر، فهزم جيوش الظلام بنفسه، وأضاء أفق العالم بقبسه، وفل كتائب الكواكب بعساكره، وأضحك نواحي الأرض بتباشيره وبشائره، فيالهما آيتان شاهدتان بوحدانية منشئهما، وكمال ربوبيته، وعظم قدرته وحكمته واقتضى هذا التدبير المحكم أن وقع مقدار الليل والنهار على أربعة وعشرين ساعة، ويأخذ كل منهما من صاحبه، ومنتهى كل منهما إذا امتد خمسة عشر ساعة، فلو زاد مقدار النهار على ذلك إلى خمسين ساعة مثلا أو أكثر لاختل نظام العالم، وفسد أكثر الحيوان والنبات، ولو نقص مقداره عن ذلك لاختل النظام أيضا وتعطلت المصالح، ولو استويا دائما لما اختلفت فصول السنة التي باختلافها مصالح العباد والحيوان، فكان في هذا التقدير والتدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع ما يشهد بأن ذلك تقدير العزيز العليم، ولهذا يذكر سبحانه هذا التقدير ويضيفه إلى عزته وعلمه كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾[2] وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾[3] فهذه ثلاثة مواضع يذكر فيها أن تقدير حركات الشمس والقمر والأجرام

---

(١) يس: الآيتان (٣٧-٣٨).

(٢) فصلت: الآيات (٩-١٢).

(٣) الأنعام: الآية (٩٦).

العلوية، وما ينشأ عنها كان من مقتضى عزته وعلمه، وأنه قدره بهاتين الصفتين، وفي هذا تكذيب لأعداء اللَّه الملاحدة الذين ينفون قدرته واختياره وعلمه بالمغيبات.

وأقسم سبحانه بهذه الأشياء الثلاثة وهي القمر، والليل إذا أدبر، والصبح إذا أسفر على المعاد؛ لما في القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه، فإنه يتضمن كمال قدرته وحكمته، وعنايته بخلقه، وإبداء الخلق وإعادته، كما هو مشهود في إبداء النهار والليل وإعادتهما، وفي إبداء النور وإعادته في القمر، وفي إبداء الزمان وإعادته الذي هو حاصل بسير الشمس والقمر، وإبداء الحيوان والنبات وإعادتهما، وإبداء فصول السنة وإعادتها، وإبداء ما يحدث في تلك الفصول وإعادته، فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد الذي أخبرت به الرسل كلهم عنه، فصرف سبحانه الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها، وجعلها للفطر تارة، وللسمع تارة، وللمشاهدة تارة، فجعلها آفاقية ونفسية، ومنقولة ومعقولة، ومشهودة بالعيان، ومذكورة بالجنان، فأبى الظالمون إلا كفورا ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾[(١)]»[(٢)].

قال ابن عاشور: «وهذه ثلاثة أيمان لزيادة التأكيد، فإن التأكيد اللفظي إذا أكد بالتكرار يكرر ثلاث مرات غالبًا، أقسم بمخلوق عظيم، وبحالين عظيمين من آثار قدرة اللَّه تعالى.

ومناسبة القَسَم بـ﴿وَٱلۡقَمَرِ ٣٢ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ٣٤﴾ أن هذه الثلاثة تظهر بها أنوار في خلال الظلام، فناسبت حالي الهدى والضلال، من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ ومن قوله: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾ ففي هذا القسم تلويح إلى تمثيل حال الفريقين من الناس عند نزول القرآن بحال اختراق النور في الظلمة»[(٣)].

وقوله: ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ٣٥﴾ **قال الشوكاني**: «الضمير راجع إلى سقر، أي: إنّ سقر لإحدى الدواهي، أو البلايا الكبر، والكبر جمع كبرى، وقال مقاتل: إن

---

(١) الفرقان: الآية (٣).
(٢) التبيان (ص: ١٠٣-١٠٥).
(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٢٢).

الكبر اسم من أسماء النار. وقيل: إنها، أي: تكذيبهم لمحمد لإحدى الكبر. وقيل: إن قيام الساعة لإحدى الكبر»[١].

ورجح صديق حسن خان الوجه الأول وهو أن الضمير راجع إلى سقر بقوله بعد حكاية الأقوال الواردة في الآية: «والأول أولى»[٢].

قال الألوسي: «أي: إن سقر لإحدى الدواهي الكبر على معنى أن البلايا الكبيرة كثيرة، وسقر واحدة منها. قيل: فيكون في ذلك إشارة إلى أن بلاءهم غير محصور فيها؛ بل تحل بهم بلايا غير متناهية، أو أن البلايا الكبيرة كثيرة وسقر من بينهم واحدة في العظم لا نظير لها، وهذا كما يقال: فلان أحد الأحدين وهو واحد الفضلاء، وهي إحدى النساء، وعلى هذا اقتصر الزمخشري»[٣].

وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ **قال القرطبي**: «اللام متعلقة بـ﴿نَذِيرٗا﴾، أي: نذيرا لمن شاء منكم أن يتقدم إلى الخير والطاعة، أو يتأخر إلى الشر والمعصية، نظيره: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ﴾[٤] أي في الخير ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾[٥] عنه. قال الحسن: هذا وعيد وتهديد وإن خرج مخرج الخبر، كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾[٦]. وقال بعض أهل التأويل: معناه: لمن شاء اللَّه أن يتقدم أو يتأخر، فالمشيئة متصلة باللَّه -جل ثناؤه-، والتقديم الإيمان، والتأخير الكفر. وكان ابن عباس يقول: هذا تهديد وإعلام أن من تقدم إلى الطاعة والإيمان بمحمد ﷺ جوزي بثواب لا ينقطع، ومن تأخر عن الطاعة وكذب محمدا ﷺ عوقب عقابا لا ينقطع. وقال السدي: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ﴾ إلى النار المتقدم ذكرها، ﴿أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ عنها إلى الجنة»[٧].

ومما يستفاد من الآية وجوب المحافظة على الأوقات واستغلالها في طاعة اللَّه قال ابن القيم وهو يتحدث عن العبد وما لله عليه من العبودية في كل الأوقات قال: «وله عليه في كل وقت من أوقاته عبودية تقدمه إليه، وتقربه منه، فإن شغل وقته بعبودية الوقت تقدم إلى ربه، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة تأخر، فالعبد لا يزال

(١) فتح القدير (٥/ ٤٧٠).
(٢) فتح البيان (١٤/ ٤١٧).
(٣) روح المعاني (٢٩/ ١٣٠).
(٤) الحجر: الآية (٢٤).
(٥) الحجر: الآية (٢٤).
(٦) الكهف: الآية (٢٩).
(٧) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٥٦).

في التقدم أو تأخر، ولا وقوف في الطريق البتة، قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧﴾»[١].

وقال أيضا: «إن إضاعة الوقت الصحيح يدعو إلى درك النقيصة، إذ صاحب حفظه مترق على درجات الكمال، فإذا أضاعه لم يقف موضعه بل ينزل إلى درجات من النقص، فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولا بد، فالعبد سائر لا واقف، فإما إلى فوق، وإما إلى أسفل، إما إلى أمام، وإما إلى وراء، وليس في الطبيعة ولا في الشريعة وقوف البتة، ما هو إلا مراحل تطوى أسرع طي إلى الجنة أو إلى النار، فمسرع ومبطئ، ومتقدم ومتأخر، وليس في الطريق واقف البتة، وإنما يتخالفون في جهة المسير، وفي السرعة والبطء ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾، ولم يذكر واقفا إذ لا منزل بين الجنة والنار، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة فمن لم يتقدم إلى هذه الأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة»[٢].

* * *

(١) الفوائد (ص: ٢٤٩).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٦٧).

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال صديق حسن خان: «أي: مأخوذة بعملها مرتهنة به، إما خلصها، وإما أوبقها، والرهينة اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم، وليست صفة، ولو كانت صفة لقيل: رهين؛ لأن فعيلا يستوي فيه المذكر والمؤنث، والمعنى: كل نفس رهينة بكسبها غير مفكوكة عنه، كافرة كانت أو مؤمنة، عاصية أو غير عاصية، ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم بل يفكون بما أحسنوا من أعمالهم، والاستثناء متصل؛ لأن المستثنى هو المؤمنون الخالصون من الذنوب.

وقوله: ﴿رَهِينَةٌ﴾ أي: على الدوام بالنسبة للكفار، وعلى وجه الانقطاع بالنسبة لعصاة المؤمنين، واختلف في تعيينهم فقيل: هم الملائكة، وقيل: المؤمنون، وقيل: أولاد المسلمين وأطفالهم، وقيل: الذين كانوا عن يمين آدم، وقيل: أصحاب الحق، وقيل: هم المعتمدون على الفضل دون العمل، وقيل: هم الذين اختارهم اللَّه لخدمته، وقال ابن عباس: هم المسلمون، وقال علي: هم أطفال المسلمين، قيل: هو أشبه بالصواب؛ لأن الأطفال لم يكتسبوا إثما يرتهنون به»[1].

والأرجح في تعيينهم أنهم الذين قبلوا هدى اللَّه واتبعوا رضاه، فهم أصحاب اليمين الذين آمنوا باللَّه وصدقوا المرسلين، وسلكوا غير سبيل المنحرفين»[2].

وقوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾:

قال السعدي: أي: في جنات قد حصل لهم بها جميع مطلوباتهم، وتمت لهم الراحة والطمأنينة، حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضت بهم المحادثة، أن سألوا عن المجرمين، أي حال وصلوا إليها، وهل وجدوا ما وعدهم اللَّه تعالى؟ فقال بعضهم

---

(١) فتح البيان (١٤/ ٤١٨-٤١٩).

(٢) أفاده ابن القيم في التبيان (ص: ١٠٥).

لبعض: هل أنتم مطلعون عليهم، فاطلعوا عليهم في وسط الجحيم يعذبون»[١].

قال الشوكاني: «وقوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يجوز أن يكون على بابه أي: يسأل بعضهم بعضًا، ويجوز أن يكون بمعنى يسألون. أي: يسألون غيرهم، نحو دعيته وتداعيته، فعلى الوجه الأوّل يكون ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ متعلقًا بـ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: يسأل بعضهم بعضًا عن أحوال المجرمين، وعلى الوجه الثاني تكون «عن» زائدة، أي: يسألون المجرمين.

وقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ هو على تقدير القول، أي: يتساءلون عن المجرمين يقولون لهم: ما سلككم في سقر، أو يسألونهم قائلين لهم: ما سلككم في سقر، والجملة على كلا التقديرين في محل نصب على الحال، والمعنى: ما أدخلكم في سقر، تقول سلكت الخيط في كذا: إذا دخلته فيه»[٢].

قال ابن عاشور: «فإن كان السؤال على حقيقته، والاستفهام مستعملًا في أصل معناه كان الباعث على السؤال: إمَّا نسيان الذي كانوا عَلِموه في الدنيا من أسباب الثواب والعقاب، فيبقى عموم: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ الراجع إلى أصحاب اليمين، وعموم المجرمين على ظاهره، فكل من أصحاب اليمين يشرف على المجرمين من أعالي الجنة فيسألهم عن سبب ولوجهم النار، فيحصل جوابهم، وذلك إلهام من اللَّه، ليحمده أهل الجنّة على ما أخذوا به من أسباب نجاتهم ممّا أصاب المجرمين ويفرحوا بذلك.

وإما أن يكون سؤالًا موجهًا من بعض أصحاب اليمين إلى ناس كانوا يَظنونهم من أهل الجنة فرأوهم في النار من المنافقين أو المرتدين بعد موت أصحابهم، فيكون المراد بأصحاب اليمين بعضهم، وبالمجرمين بعضهم، وهذا مثل ما في قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾[٣] الآيات في سورة الصافات، وقوله فيها: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾[٤]. وإن كان السؤال ليس على حقيقته وكان

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥١٧).
(٢) فتح القدير (٥/ ٤٧٣).
(٣) الصافات: الآيتان (٢٧-٢٨).
(٤) الصافات: الآيات (٥١-٥٥).

الاستفهام مستعملًا في التنديم أو التوبيخ، فعموم أصحاب اليمين وعموم المجرمين على حقيقته»[١].

قال البقاعي: «فالآية من الاحتباك، أثبت أولا الارتهان دليلا على حذف ضده ثانيا، وأثبت ثانيا الجنة دليلا على حذف ضدها أولا»[٢].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٧٢).

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «﴿قَالُواْ﴾: يعني: أهل النار ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أي المؤمنين الذين يصلون. ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: لم نك نتصدق. ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: كنا نخالط أهل الباطل في باطلهم. وقال ابن زيد: نخوض مع الخائضين في أمر محمد ﷺ، وهو قولهم لعنهم اللَّه كاهن، مجنون، شاعر، ساحر. وقال السدي: أي وكنا نكذب مع المكذبين. وقال قتادة: كلما غوى غاو غوينا معه. وقيل معناه: وكنا أتباعا ولم نكن متبوعين. ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ أي: لم نك نصدق بيوم القيامة، يوم الجزاء والحكم. قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أي: جاءنا ونزل بنا الموت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[1]»[2].

قال ابن القيم: «فهذه أربع صفات أخرجتهم من زمرة المفلحين، وأدخلتهم في جملة الهالكين:

الأولى: ترك الصلاة وهي عمود الإخلاص للمعبود.

الثانية: ترك إطعام المسكين الذي هو من مراتب الإحسان للعبيد، فلا إخلاص للخالق، ولا إحسان للمخلوق. كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾[3] وقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[4] وهذا ضد ما وصف به أصحاب اليمين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾[5] وقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ

---

(١) الحجر: الآية (٩٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٥٧).
(٣) الماعون: الآيتان (٦-٧).
(٤) التوبة: الآية (٥٤).
(٥) الأنفال: الآية (٣).

خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾[١] وقرن سبحانه بين هذين الأصلين في غير موضع في كتابه، فأمر بهما تارة، وأثنى على فاعليهما تارة، وتوعد بالويل والعقاب تاركهما تارة، فإن مدار النجاة عليهما، ولا فلاح لمن أخل بهما. الصفة الثالثة والرابعة: الخوض بالباطل والتكذيب بالحق، فاجتمع لهم عدم الإخلاص والإحسان، والخوض بالباطل والتكذيب بالحق، واجتمع لأصحاب اليمين: الإخلاص والإحسان والتصديق بالحق والتكلم به، فاستقام إخلاصهم وإحسانهم ويقينهم وكلامهم، واستبدل أصحاب الشمال بالإخلاص شركا، وبالإحسان إساءة، وباليقين شكا وتكذيبا، وبالكلام النافع خوضا في الباطل، فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين، أي: لم يكن لهم من شفيع فيهم؛ لأن الشفاعة تقع فيهم ولا تنفع، وهذا لما أعرضوا عن التذكرة ولم يرفعوا بها رأسا، وجفلوا عن سماعها، كما تجفل حمر الوحش من الأسد أو من الرماة»[٢].

قال ابن عاشور: «وفي الآية إشارة إلى أن المسلم الذي أضاع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مستحق حظا من سقر على مقدار إضاعته، وعلى ما أراد الله من معادلة حسناته وسيئاته وظواهره وسرائره، وقبل الشفاعة وبعدها»[٣].

«وفيها تنبيه على أن رسوخ القدم في الصلاة مانع من مثل حالهم، وعلى أنهم يعاقبون على فروع الشريعة وإن كانت لا تصح منهم، فلو فعلوها قبل الإيمان لم يعتد بها، وعلى أن الصلاة أعظم الأعمال، وأن الحساب بها يقدم على غيرها»[٤].

* * *

(١) السجدة: الآية (١٦).
(٢) التبيان (ص: ١٠٥-١٠٦).
(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٢٨).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٧٥).

قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾

★ غريب الآية:

قسورة: القسورة: الأسد. مأخوذ من القسر: وهو القهر. سمي بذلك لقهره السباع، وقيل: القسورة الرامي.

صحفًا: جمع صحيفة. والصحيفة: التي يكتب فيها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: من كان متصفا بهذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه، لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلا، فأما من وافى اللَّه كافرا يوم القيامة فإنه له النار لا محالة خالدا فيها»[1].

قال ابن جرير: «وفي هذه الآية دلالة واضحة على أن اللَّه -تعالى ذكره- مشفع بعض خلقه في بعض»[2].

قال الشيخ عطية محمد سالم: «فيه أن الكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين، كما أن فيها إثبات الشفاعة للشافعين، ومفهوم كونها لا تنفع الكفار أنها تنفع غيرهم. وقد جاءت نصوص في الشفاعة لمن ارتضاهم اللَّه، وقد دلت نصوص على كلا الأمرين، فمن عدم الشفاعة للكفار قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[3]. وقوله: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾[4] ونحو ذلك من الآيات.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٩٨).

(٢) جامع البيان (٢٩/ ١٦٦).

(٣) غافر: الآية (١٨).

(٤) الشعراء: الآيتان (٩٩-١٠٠).

وفي القسم الثاني قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[1]. وكذلك الشفيع لا يشفع إلا من أذن له، ولا يشفعون إلا فيمن أذنوا فيه، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[2] وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[3]. ومبحث الشفاعة واسع مقرر في كتب العقائد. وخلاصة القول فيها أنها لا تكون إلا بإذن من اللَّه للمأذون له فيها، وقد ثبت للنَّبي ﷺ الشفاعة العظمى وهي المقام المحمود، وعدة شفاعات بعدها منها ما اختص به ﷺ كالشفاعة العظمى ودخول الجنة، والشفاعة في غير مسلم وهو عمه أبو طالب للتخفيف عنه، ومنها ما يشاركه فيها غيره من الأنبياء والصلحاء، واللَّه تعالى أعلم»[4].

وقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩﴾ **قال الألوسي**: «أي: فإذا كان حال المكذبين به على ما ذكر، فأي شيء حصل لهم معرضين عن القرآن، مع تعاضد موجبات الإقبال عليه وتآخذ الدواعي إلى الإيمان به»[5].

فإن قيل: فكيف يلتئم إنكاره سبحانه عليهم الإعراض مع أنه هو الذي جعلهم معرضين؟ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الجواب عن هذا السؤال: «قيل: هم دائرون بين عدله وحجته عليهم، فمكنهم وفتح لهم الباب، ونهج لهم الطريق، وهيأ لهم الأسباب، فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، ودعاهم على ألسنة رسله، وجعل لهم عقولا تميز بين الخير والشر، والنافع والضار، وأسباب الردى وأسباب الفلاح، وجعل لهم أسماعا وأبصارا، فآثروا الهوى على التقوى، واستحبوا العمى على الهدى، وقالوا معصيتك آثر عندنا من طاعتك، والشرك أحب إلينا من توحيدك، وعبادة سواك أنفع لنا في دنيانا من عبادتك، فأعرضت قلوبهم عن ربهم، وخالقهم ومليكهم، وانصرفت عن طاعته ومحبته، فهذا عدله فيهم، وتلك حجته عليهم، فهم سدوا على أنفسهم باب الهدى، إرادة منهم واختيارا فسده عليهم اضطرارا، فخلاهم وما اختاروا لأنفسهم، وولاهم ما تولوه، ومكنهم فيما ارتضوه، وأدخلهم من الباب الذي استبقوا إليه، وأغلق عنهم الباب الذي تولوا عنه

(١) الأنبياء: الآية (٢٨).
(٢) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٣) طه: الآية (١٠٩).
(٤) تتمة أضواء البيان (٨/ ٦٢٧-٦٢٨).
(٥) روح المعاني (٢٩/ ١٣٣).

وهم معرضون، فلا أقبح من فعلهم، ولا أحسن من فعله، ولو شاء لخلقهم على غير هذه الصفة، ولأنشأهم على غير هذه النشأة، ولكنه سبحانه خالق العلو والسفل، والنور والظلمة، والنافع والضار، والطيب والخبيث، والملائكة والشياطين، والشاء والذئاب، ومعطيها آلاتها وصفاتها، وقواها وأفعالها، ومستعملها فيما خلقت له، فبعضها بطباعها، وبعضها بإرادتها ومشيئتها، وكل ذلك جار على وفق حكمته، وهو موجب حمده، ومقتضى كماله المقدس، وملكه التام، ولا نسبة لما علمه الخلق من ذلك إلى ما خفي عليهم بوجه ما، إن هو إلا كنقرة عصفور من البحر»[1].

وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝﴾ **قال القرطبي**: «أي: كأن هؤلاء الكفار في فرارهم من محمد ﷺ ﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ قال ابن عباس: أراد الحمر الوحشية. وقرأ نافع وابن عامر بفتح الفاء، أي منفرة مذعورة، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. والباقون بالكسر، أي نافرة. يقال: نفرت واستنفرت بمعنى، مثل عجبت واستعجبت، وسخرت واستسخرت، وأنشد الفراء:

أمسك حمارك إنه مستنفر   في إثر أحمرة عمدن لغرب

قوله تعالى: ﴿فَرَّتْ﴾ أي: نفرت وهربت ﴿مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أي: من رماة يرمونها. وقال بعض أهل اللغة: إن القسورة الرامي، وجمعه القسورة. وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك وابن كيسان: القسورة: هم الرماة والصيادون، ورواه عطاء عن ابن عباس وأبو ظبيان عن أبي موسى الأشعري.

وقيل: إنه الأسد، قاله أبو هريرة وابن عباس أيضا. ابن عرفة: من القسر بمعنى القهر أي: إنه يقهر السباع، والحمر الوحشية تهرب من السباع. وروى أبو جمرة عن ابن عباس قال: ما أعلم القسورة الأسد في لغة أحد من العرب، ولكنها عصب الرجال، قال: فالقسورة جمع الرجال، وأنشد:

يا بنت كوني خيرة لخيره   أخوالها الجن وأهل القسوره

وعنه: ركز الناس أي حسهم وأصواتهم. وعنه أيضا: ﴿مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أي: من

---

(١) شفاء العليل (١/ ٢٥٤-٢٥٥).

حبال الصيادين . . وقال ابن الأعرابي : القسورة : أول الليل ، أي فرت من ظلمة الليل . وقاله عكرمة أيضا . وقيل : هو أول سواد الليل ، ولا يقال لآخر سواد الليل قسورة . وقال زيد بن أسلم : من رجال أقوياء ، وكل شديد عند العرب فهو قسورة وقسور»[1] .

قال الألوسي : «وأيّا ما كان فقد شبهوا في إعراضهم عن القرآن واستماع ما فيه من المواعظ وشرادهم عنه بحمر وحشية جدت في نفارها مما أفزعها ، وفي تشبيههم بالحمر مذمة ظاهرة ، وتهجين لحالهم بين كما في قوله سبحانه : ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ ﴾[2] أو شهادة عليهم بالبله وقلة العقل»[3] .

قال ابن القيم : «وهذا من بديع القياس والتمثيل ، فإن القوم في جهلهم بما بعث اللَّه به رسوله كالحمر ، -وهي لا تعقل شيئا- فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور ، وهذا غاية الذم لهؤلاء ، فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم ، كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها ، وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة ، فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضا ، وحضه على النفور ، فإن في الاستفعال من الطلب قدرا زائدا على الفعل المجرد ، فكأنها تواصت بالنفور وتواطأت عليه ، ومن قرأها بفتح الفاء فالمعنى : أن القسورة استنفرها ، وحملها على النفور ببأسه وشدته»[4] .

وقوله : ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢﴾ **قال ابن جرير** : «يقول - تعالى ذكره- : ما بهؤلاء المشركين في إعراضهم عن هذا القرآن أنهم لا يعلمون أنه من عند اللَّه ، ولكن كل رجل منهم يريد أن يؤتى كتابا من السماء ينزل عليه»[5] .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[6] وقوله : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾[7] وقوله : ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[8] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٥٨).
(٢) الجمعة : الآية (٥).
(٣) روح المعاني (٢٩/ ١٣٤).
(٤) إعلام الموقعين (١/ ١٦٤).
(٥) جامع البيان (٢٩/ ١٧١).
(٦) الأنعام : الآية (١٢٤).
(٧) الأنعام : الآية (٧).
(٨) الإسراء : الآية (٩٣).

وقوله: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ۝٥٣﴾ قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ما الأمر كما يزعمون من أنهم لو أوتوا صحفا منشّرة صدّقوا ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾، يقول: لكنهم لا يخافون عقاب اللّه، ولا يصدقون بالبعث والثواب والعقاب؛ فذلك الذي دعاهم إلى الإعراض عن تذكرة اللّه، وهوّن عليهم ترك الاستماع لوحيه وتنزيله»[١].

* * *

(١) جامع البيان (٢٩/ ١٧١).

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾ ليس الأمر كما يقول هؤلاء المشركون في هذا القرآن من أنه سحر يؤثر، وأنه قول البشر، ولكنه تذكرة من اللّٰه لخلقه ذكرهم به.. وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: فمن شاء من عباد اللّٰه الذين ذكرهم اللّٰه بهذا القرآن ذكره فاتعظ، فاستعمل ما فيه من أمر اللّٰه ونهيه ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وما يذكرون هذا القرآن فيتعظون به، ويستعملون ما فيه، إلا أن يشاء اللّٰه أن يذكروه؛ لأنه لا أحد يقدر على شيء إلا بأن يشاء اللّٰه يقدره عليه، ويعطيه القدرة عليه.

وقوله: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: اللّٰه أهل أن يتقي عباده عقابه على معصيتهم إياه، فيجتنبوا معاصيه، ويُسارعوا إلى طاعته، ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ يقول: هو أهل أن يغفر ذنوبهم إذا هم فعلوا ذلك، ولا يعاقبهم عليها مع توبتهم منها»[١].

قال السعدي: «فيها رد على القدرية الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة اللّٰه، والجبرية الذين يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة ولا فعل حقيقة، وإنما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئة حقيقة وفعلا، وجعل ذلك تابعا لمشيئته»[٢].

قال القاسمي: «وفيه ترويح لقلبه صلوات اللّٰه عليه مما كان يخامره من إعراضهم ويحرص من إيمانهم»[٣].

قلت: هذه السورة تميزت عن باقي سور القرآن بذكر أعداء القرآن الذين يصفونه

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ١٧٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥١٩-٥٢٠).

(٣) محاسن التأويل (١٦/ ٣٤٦).

بما لا يليق به، فرد اللَّه عليهم ردًّا مفصلًا، وبين لهم المظاهر الكونية التي يديرها اللَّه -تبارك وتعالى- بعلمه وحكمته وإرادته. وأن المشركين لا يلتفتون إلى هذه العبر الكونية، ولا يلتفتون إلى السنن الشرعية، فهم معرضون إعراض الحمر الخائفة ممن يريد القبض عليها. وما أقبح هذا التمثيل في الإعراض عن دين اللَّه وتوحيده وسننه النافعة للبشر، التي فيها خيرهم ونفعهم، فهم لا يعقلون.

والتشبيه بهذه البهائم دائمًا مشين سيئ؛ لما جمعت من الصفات والأفعال السيئة المنكرة. فالمشركون وأهل الضلال والبدع؛ أوصافهم وأفعالهم وأقوالهم أشر من أوصاف الحمر وأفعالها؛ فتلك على فطرتها وخلقتها، وهؤلاء والعياذ باللَّه منتكسون مرتكسون، ما استفادوا لا من سمعهم، ولا من أبصارهم، ولا من قلوبهم وعقولهم، ولا اعتبروا بمن مضى قبلهم، ولا بما هم فيه! نسأل اللَّه أن يفتح قلوبنا للهداية، وأن يجعلها مغلقة عن الغواية والضلالة.

* * *



سورة القيامة

أغراض السورة

قال البقاعي: «مقصودها الدلالة على عظمة المدثر المأمور بالإنذار ﷺ لعظمة مرسله سبحانه، تمام اقتداره بأنه كشف له العلوم حتى صار إلى الأعيان بعد الرسوم بشرح آخر سورته من أن هذا القرآن تذكرة عظيمة لما أودعه اللَّه من وضوح المعاني وعذوبة الألفاظ، وجلالة النظوم، وورنق السبك وعلو المقاصد، فهو لذلك معشوق لكل طبع، معلوم ما خفي من أسراره، وإشاراته بصدق النية وقوة العزم بحيث يصير بعد كشفه إذا أثر كأنه كان منسيا بعد حفظه فذكر، فمن شاء ذكره، فحفظه وعلم معانيها، وتخلق بها، وإنما المانع من ذلك مشيئة اللَّه تعالى، فمن شاء حجبه عنه أصلا ورأسا، ومن شاء حجبه عن بعضه، ومن شاء كشف عنه الحجاب، وجعله يعينه على أعظم الصواب، دون شك ولا ارتياب، وجلى عليه أوانسه، وعرائسه، وحباه جواهره ونفائسه، وحلاه به، فكان ملكه وسائسه، كما كان المدثر ﷺ حين كان خلقه القرآن، واسمها القيامة واضح في ذلك جدا، وليس فيها ما يقوم بالدلالة عليه غيره إذا تؤملت الآية مع ما أشارت إليه لا النافية للقسم أو المؤكدة مع أنه في الوضوح في حد لا يحتاج إلى الإقسام عليه، لأنه لا يوجد أحد يدع من تحت يده يعدوا بعضهم على بعض، ويتصرفون فيما خولهم فيه من غير حساب، فكيف بأحكم الحاكمين الذي وكل بعبيده أضعافهم من الملائكة، فهم يديرون في كل لحظة فيهم كؤوس المنايا، ويأخذون من أمرهم به سبحانه إلى داره البرزخ للتهيئة للعرض، ويسوقهم زمرا بعد زمر إلى العود في الأرض حتى ينتهي الجمع في القبور، ويقيمهم بالنقر في الناقور، والنفخ في الصور، إلى ساحة الحساب للثواب

والعقاب، ولم يحجب عن علم ذلك حتى ضل عنه أكثر الخلق إلا مشيئته سبحانه بتغليب النفس الأمارة حتى صارت اللوامة منهمكة في الشر شديدة اللوم عن الإقصار عن شيء منه، كما أن ما جلاه لنبيه محمد ﷺ حتى كان خلقه، ولمن أراد من أتباعه إلا إرادته سبحانه بتغليب المطمئنة حتى صار الكل روحا صرفا، ونورا خالصا بحتا»[1].

* * *

(١) نظم الدرر (٢١/ ٨٢-٨٤).

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾

★ **غريب الآية:**

اللوامة: كثيرة اللوم.

بنانه: البنان: الأصابع. وقيل: أطرافها. قال النابغة:

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأن بَنَانَهُ يكاد من اللطافة يُعْقَدُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «ليست لا هاهنا نافية ولا زائدة وإنما أتى بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين، لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح. فالمقسم به في هذا الموضع هو المقسم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم»[1].

قال ابن القيم: «فقد تضمن الإقسام ثبوت الجزاء ومستحق الجزاء، وذلك يتضمن إثبات الرسالة والقرآن والمعاد، وهو سبحانه يقسم على هذه الأمور الثلاثة، ويقررها أبلغ التقرير، لحاجة النفوس إلى معرفتها والإيمان بها، وأمر رسوله أن يقسم عليه كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾[3] وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾[4] فهذه ثلاثة مواضع لا رابع لها يأمر نبيه ﷺ أن يقسم على ما أقسم عليه هو سبحانه من النبوة والقرآن والمعاد، فأقسم سبحانه لعباده وأمر أصدق خلقه أن يقسم لهم،

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٢١).
(٢) يونس: الآية (٥٣).
(٣) سبأ: الآية (٣).
(٤) التغابن: الآية (٧).

وأقام البراهين القطعية على ثبوت ما أقسم عليه، فأبى الظالمون إلا جحودا وتكذيبا»(١).

قال البقاعي: «جاز القسم بالشيء على وجوده إشارة إلى أنه في العظمة في الدرجة العليا كما يقول الإنسان: واللَّه إن اللَّه موجود، أي: لا شيء أحلف به على وجوده -يا أيها المنكر- أعظم منه حتى أحلف به، ولا بد لي من الحلف لأجل إنكارك، فأنا أحلف به عليه، فالمعنى حينئذ أنه لا شيء أدل على عظمة اللَّه من هذين الشيئين، فلذا أوقع القسم بهما، وسر التأكيد بـ ﴿لَآ﴾ -كما قال الرازي في اللوامع: إن الإثبات من طريق النفي آكد، كأنه رد على المنكر أولًا، ثم أثبت القسم ثانيًا، فإن الجمع بين النفي والإثبات دليل الحصر»(٢).

قال القرطبي: «يوم القيامة: أي: يوم يقوم الناس فيه لربهم، ولله ﷻ أن يقسم بما شاء»(٣).

وقال أيضًا مفسرًا القيامة: «وهي في العربية مصدر قام يقوم، ودخلها التأنيث للمبالغة على عادة العرب، واختلف في تسميتها بذلك على أربعة أقوال:

الأول: لوجود هذه الأمور فيها.

الثاني: لقيام الخلق كلهم من قبورهم إليها قال اللَّه تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾(٤).

الثالث: لقيام الناس لرب العالمين، كما روى مسلم عن ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٥) قال: «**يوم يقوم أحدكم في رشحه إلى نصف أذنيه**»(٦).

الرابع: لقيام الروح والملائكة صفا قال اللَّه تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾(٧).

---

(١) التبيان (ص: ١٦).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ٨٥).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٦١).
(٤) المعارج: الآية (٤٣).
(٥) المطففين: الآية (٦).
(٦) أخرجه أحمد (٢/ ١٣، ١٩، ٣١)، والبخاري (٨/ ٩٠٢/ ٤٩٣٨)، ومسلم (٤/ ٢١٩٥-٢١٩٦/ ٢٨٦٢)، والترمذي (٥/ ٤٠٤-٤٠٥/ ٣٣٣٥-٣٣٣٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٠٩/ ١١٦٥٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٠/ ٤٢٧٨).
(٧) النبأ: الآية (٣٨).

قال علماؤنا: واعلم أن كل ميت مات فقد قامت قيامته، ولكنها قيامة صغرى وكبرى، فالصغرى هي ما يقوم على كل إنسان في خاصته من خروج روحه، وفراق أهله، وانقطاع سعيه، وحصوله على عمله، إن كان خيرا فخير، وإن كان شرا فشر، والقيامة الكبرى هي التي تعم الناس، وتأخذهم أخذة واحدة، والدليل على أن كل ميت يموت فقد قامت قيامته قول النبي ﷺ لقوم من الأعراب وقد سألوه متى القيامة؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال: «**إن يعش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم**»[1] أخرجه مسلم وغيره وقال الشاعر:

خرجت من الدنيا وقامت قيامتي	**غداة أقيل الحاملون جنازتي**
و عجل أهلي حفر قبري وصيروا	**خروجي وتعجيلي إليه كرامتي**
كأنهم لم يعرفوا قط سيرتي	**غداة أتى يومي علي وساعتي**»[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما اللوامة: فاختلف في اشتقاق هذه اللفظة، هل هي من التلوم، وهو التلون والتردد، أو من اللوم؟ وعبارات السلف تدور على هذين المعنيين. قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: ما اللوامة؟ قال: هي النفس اللؤوم. وقال مجاهد: هي التي تندم على ما فات وتلوم عليه. وقال قتادة: هي الفاجرة، وقال عكرمة: تلوم على الخير والشر. قال عطاء عن ابن عباس: كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، تلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحسانا، وتلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته. وقال الحسن: إن المؤمن -والله- ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالاته، يستقصرها في كل ما يفعل ويلوم نفسه، وإن الفاجر ليمضي قدما لا يعاتب نفسه.

فهذا عبارات من ذهب إلى أنها من اللوم. وأما من جعلها من التلوم فلكثرة ترددها وتلومها، وأنها لا تستقر على حال واحدة. والأول أظهر؛ فإن هذا المعنى لو أريد لقيل: المتلومة. كما يقال: المتلونة والمترددة. ولكن هو من لوازم القول الأول، فإنها لتلومها وعدم ثباتها تفعل الشيء ثم تلوم عليه. فالتلوم من لوازم اللوم.

والنفس قد تكون تارة أمارة، وتارة لوامة، وتارة مطمئنة، بل في اليوم الواحد

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٤٣٩-٤٤٠/ ٦٥١١) ومسلم (٤/ ٢٢٦٩/ ٢٩٥٢)، من حديث عائشة.
(٢) التذكرة (٢١٦).

والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا وهذا. والحكم للغالب عليها من أحوالها، وكونها مطمئنة وصف مدح لها. وكونها أمارة بالسوء وصف ذم لها. وكونها لوامة ينقسم إلى المدح والذم، بحسب ما تلوم عليه»[١].

قال ابن جرير بعد ذكره الأقوال الواردة في المسألة: «وهذه الأقوال التي ذكرناها عمن ذكرناها عنه وإن اختلفت بها ألفاظ قائليها، فمتقاربات المعاني، وأشبه القول في ذلك بظاهر التنزيل أنها تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندم على ما فات»[٢].

وقال أيضًا: «وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: أيظن ابن آدم أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرقها، بل قادرين على أعظم من ذلك، أن نسوي بنانه، وهي أصابع يديه ورجليه، فنجعلها شيئا واحدا كخف البعير، أو حافر الحمار، فكان لا يأخذ ما يأكل إلا بفيه كسائر البهائم، ولكنه فرق أصابع يديه يأخذ بها، ويتناول ويقبض إذا شاء ويبسط، فحسن خلقه»[٣].

قال ابن القيم: «ثم أنكر على الإنسان بعد هذه الآية حسبانه وظنه أن اللَّه لا يجمع عظامه بعدما فرقها البلى، ثم أخبر سبحانه عن قدرته على جمع غيرها من عظامه، وعلى هذا فيكون سبحانه قد احتج على فعله لما أنكره أعداؤه بقدرته عليه، وأخبر عن فعله بأنه لا يلزمهم من القدرة وقوع المقدور والمعنى: بل نجمعها قادرين على تسوية بنانه، ودل على هذا المعنى المحذوف قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ فإنها حرف إيجاب لما تقدم من النفي، فلهذا يستغنى عن ذكر الفعل بذكر الحرف الدال عليه، فدلت الآية على الفعل، وذكرت القدرة لإبطال قول المكذبين.

وفي ذكر البنان لطيفة أخرى وهي أنها أطرافه، وآخر ما يتم به خلقه، فمن قدر على جمع أطرافه وآخر ما يتم به خلقه مع دقتها وصغرها ولطافتها، فهو على مادون ذلك أقدر، فالقوم لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرمام، قيل: إنا نجمع ونسوي أكثرها تفرقا، وأدقها أجزاء، وآخر أطراف البدن وهي عظام الأنامل ومفاصلها.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٢٨-١٢٩).

(٢) جامع البيان (٢٩/ ١٧٥).

(٣) جامع البيان (٢٩/ ١٧٥).

وقالت طائفة: المعنى: نحن قادرون على أن نسوي أصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيئا واحدا، كخف البعير، وحافر الحمار، لا نفرق بينهما ولا يمكنه أن يعمل بها شيئا مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال، والبسط والقبض، والتأتي لما يريد من الحوائج، وهذا قول ابن عباس وكثير من المفسرين، والمعنى على هذا القول: إنا في الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه مجموعة دون تفرق، فكيف لا نقدر على جمعها بعد تفريقها.

فهذا وجه من الاستدلال غير الأول، وهو الاستدلال بقدرته سبحانه على جمع العظام التي فرقها ولم يجمعها، والأول استدلال بقدرته سبحانه على جمع عظامه بعد تفريقها، وهما وجهان حسنان، وكل منهما له ترجيح من وجه، فيرجح الأول أنه هو المقصود، وهو الذي أنكره الكفار، وهو إجراء على نسق الكلام واطراده، ولأن الكلام لم يسق لجمع العظام وتفريقها في الدنيا، وإنما سيق لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت، ويرجح القول الثاني -ولعله قول جمهور المفسرين حتى إن فيهم من لم يذكر غيره- وأنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة وهي تفريق البنان مع انتظامها في كف واحد، وارتباط بعضها ببعض، فهي متفرقة في عضو واحد، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى، ويحرك واحدة والأخرى ساكنة، ويعمل بواحدة والأخرى معطلة، وكلها في كف واحد قد جمعها ساعد واحد، فلو شاء سبحانه لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف، ففاته هذه المنافع والمصالح التي حصلت بتفريقها، ففي هذا أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت»[1].

وقال أيضًا مبينًا أسرار السورة وفوائدها: «ومن أسرارها أنها تضمنت إثبات قدرة الرب على ما علم أنه لا يكون ولا يفعله، وهذا على أحد القولين في قوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ فأخبر أنه قادر عليه ولم يفعله ولم يرده، وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ۝١٨﴾[2] وهذا أيضا على أحد القولين، أي: تغور العيون في الأرض فلا يقدر على الماء. قال ابن عباس: يريد أن سيغيض فيذهب فلا يكون من هذا الباب؛ بل يكون من باب القدرة على ما سيفعله، وأصرح من هذين الموضعين قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ

(١) التبيان (٩٢-٩٣).
(٢) المؤمنون: الآية (١٨).

﴿ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾[1] وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال عند نزول هذه الآية: «**أعوذ بوجهك**»[2] ولكن قد ثبت عنه ﷺ أنه لابد أن يقع في أمته خسف، ولكن لا يكون عاما، وهذا عذاب من تحت الأرجل، وروي أنه كان في الأمة قذف أيضا، وهذا عذاب من فوق، فيكون هذا من باب الإخبار بقدرته على ما سيفعله، وإن أريد به القدرة على عذاب الاستئصال فهو من القدرة على مالا يريده، وقد صرح سبحانه بأنه لو شاء لفعل ما لم يفعله في غير موضع من كتابه، كقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[3] وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[4] ونظائره، وهذا مما لا خفاء فيه بين أهل السنة، وبه تبين فساد قول من قال: إن القدرة لا تكون إلا مع الفعل لا قبل، وأن الصواب التفصيل بين القدرة الموجبة والمصححة، فنفي القدرة عن الفاعل قبل الملابسة مطلقا خطأ، والله أعلم»[5].

وفي وجه عدم ذكر جواب القسم **يقول ابن القيم أيضًا**: «وكون الجواب غير مذكور يجوز أن يكون مما حذف لدلالة السياق عليه والعلم به، ويجوز أن يكون من القسم المقصود به التنبيه على دلالة المقسم به، وكونه آية ولم يقصد به مقسما عليه معينا، فكأنه يقول: اذكر يوم القيامة والنفس اللوامة مقسما بها لكونها من آياتنا وأدلة ربوبيتنا»[6].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾ قال: يقسم ربك بما شاء من خلقه. قلت: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ قال: من النفس الملوم. قلت: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ قال: لو شاء لجعله خفًّا أو حافرًا[7].

---

(١) الأنعام: الآية (٦٥).

(٢) أحمد (٣/ ٣٠٩)، البخاري (٨/ ٣٧٠-٣٧١/ ٤٦٢٨)، الترمذي (٥/ ٢٤٤/ ٣٠٦٥)، النسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٠/ ١١١٦٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) يونس: الآية (٩٩).

(٤) السجدة: الآية (١٣).

(٥) التبيان (٩٧-٩٨).

(٦) التبيان (٩٢).

(٧) أخرجه: ابن جرير (٢٩/ ١٧٣) والحاكم (٢/ ٥٠٨-٥٠٩) وقال: «حديث صحيح الإسناد» ووافق الذهبي.

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «قال ابن عباس: يعني الكافر يكذب بما أمامه من البعث والحساب. وقاله عبد الرحمن بن زيد، ودليله: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾ أي: يسأل متى يكون! على وجه الانكار والتكذيب. فهو لا يقنع بما هو فيه من التكذيب، ولكن يأثم لما بين يديه. ومما يدل على أن الفجور التكذيب ما ذكره القتبي وغيره: أن أعرابيا قصد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وشكا إليه نقب إبله ودبرها، وسأله أن يحمله على غيرها فلم يحمله، فقال الاعرابي:

أقسم بالله أبو حفص عمر ... ما مسها من نقب ولا دبر

فاغفر له اللهم إن كان فجر

يعني: إن كان كذبني فيما ذكرت. وعن ابن عباس أيضا: يعجل المعصية ويسوف التوبة. وفي بعض الحديث قال: يقول سوف أتوب ولا يتوب، فهو قد أخلف فكذب. وهذا قول مجاهد والحسن وعكرمة والسدي وسعيد بن جبير، يقول: سوف أتوب، سوف أتوب، حتى يأتيه الموت على أشر أحواله. وقال الضحاك: هو الأمل يقول سوف أعيش وأصيب من الدنيا ولا يذكر الموت. وقيل: أي يعزم على المعصية أبدا وإن كان لا يعيش إلا مدة قليلة. فالهاء على هذه الأقوال للانسان. وقيل: الهاء ليوم القيامة. والمعنى: بل يريد الانسان ليكفر بالحق بين يدي يوم القيامة»[١].

قال ابن كثير مرجحًا القول الأول بأنه «هو الأظهر من المراد، ولهذا قال بعده: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾؟ أي: يقول متى يكون يوم القيامة؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه، وتكذيب لوجوده، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٦٢).

كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

قال ابن القيم: «وهذا قول ابن زيد واختيار ابن قتيبة وابن اسحق قال هؤلاء: ودليل ذلك قوله: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾ ويرجح هذا القول لفظة ﴿بَلْ﴾ فإنها تعطي أن الإنسان لم يؤمن بيوم القيامة مع هذا البيان والحجة؛ بل هو مريد للتكذيب به، ويرجحه أيضا أن السياق كله في ذم المكذب بيوم القيامة، لا في ذم العاصي والفاجر، وأيضا فإن ما قبل الآية وما بعدها يدل على المراد، فإنه قال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾[(٣)] فأنكر سبحانه عليه حسبانه أن اللَّه لا يجمع عظامه، ثم قرر قدرته على ذلك، ثم أنكر عليه إرادة التكذيب بيوم القيامة، فالأول حسبان منه أن لا يحييه بعد موته. والثاني تكذيب منه بيوم البعث، وأنه يريد أن يكذب بما وضح، وبان دليل وقوعه وثبوته، فهو مريد للتكذيب به، ثم أخبر عن تصريحه بالتكذيب فقال: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾ فالأول إرادة التكذيب. والثاني نطق بالتكذيب وتكلم به، وهذا قول قوي كما ترى، لكن ينبغي إفراغ هذه الألفاظ في قوالب هذا المعنى، فإن لفظة (يفجر) إنما تدل على عمل الفجور لا على التكذيب، وحذف الموصول مع ما جره وإبقاء الصلة خلاف الأصل، فإن أصحاب هذا القول قالوا تقديره ليكفر بما أمامه، وهذا المعنى صحيح لكن دلالة هذا اللفظ عليه ليست بالبينة. فالجواب أن الأمر كذلك لكن الفعل إذا ضمن معنى فعل آخر لم يلزم إعطاءه حكمه من جميع الوجوه؛ بل من جلالة هذه اللغة العظيمة الشأن وجزالتها أن يذكر المتكلم فعلا وما يضمنه معنى فعل آخر ويجري على المضمن أحكامه لفظا، وأحكام الفعل الآخر معنى، فيكون في قوة ذكر الفعلين مع غاية الاختصار، ومن تدبر هذا وجده كثيرا في كلام اللَّه تعالى.

فلفظ (يفجر) اقتضت ﴿أَمَامَهُۥ﴾ بلا واسطة حرف ولا اسم موصول، فأعطيت ما اقتضته لفظا واقتضى ما تضمنه الفعل من ذكر الحرف والموصول، فأعطيته معنى، فهذا وجه هذا القول لفظا ومعنى واللَّه أعلم»[(٤)].

قال ابن عاشور: «وأعيد لفظ الإنسان إظهارا في مقام الإضمار؛ لأن المقام

---

(١) سبأ: الآيتان (٢٩و٣٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٠١).
(٣) القيامة: الآيتان (٣و٤).
(٤) التبيان (٩٤).

لتفريعه والتعجب من ضلاله»[١].

وقوله: ﴿يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۝﴾ قال الشوكاني: «المعنى: يسأل متى يوم القيامة سؤال استبعاد واستهزاء»[٢].

وفي هذه الآية: دليل على أن الإنسان الذي يميل طبعه إلى الاسترسال في الشهوات والاستكثار من اللذات لا يكاد يقر بالحشر والنشر وبعث الأموات؛ لئلا تتنغص عليه اللذات فيكون أبدا منكرا لذلك»[٣].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٤٢).
(٢) فتح القدير (٥/ ٤٧٨).
(٣) أفاده الرازي في التفسير الكبير (٣٠/ ٢٢٠).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾

★ **غريب الآية:**

بَرَقَ: حار ودهش من الفزع. قال ذو الرمة:

ولو أنَّ لقمان الحكيم تَعَرَّضَتْ ... لعينيه ميٌّ سافرًا كاد يبرق

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «عدل عن أن يجابوا بتعيين وقت ليوم القيامة إلى أن يهدَّدوا بأهواله، لأنهم لم يَكونوا جادِّين في سؤالهم، فكان من مقتضى حالهم أن يُنذروا بما يقع من الأهوال عند حلول هذا اليوم مع تضمين تحقيق وقوعه، فإن كلام القرآن إرشاد وهدْي ما يترك فُرصَة للهدي والإرشاد إلاّ انتهزها، وهذا تهديد في ابتدائه جاء في صورة التعيين لوقت يوم القيامة، إيهامًا بالجواب عن سؤالهم، كأنه حملٌ لكلامهم على خلاف الاستهزاء على طريقة الأسلوب الحكيم. وفيه تعريض بالتوبيخ على أن فرطوا في التوقي من ذلك اليوم، واشتغلوا بالسؤال عن وقته. وقريب منه ما روي أن رجلًا من المسلمين سأل رسول اللَّه ﷺ «متى الساعة؟ فقال له: **مَاذا أعددت لها**»[1].

فإن هذه الأحوال المذكورة في الآية مما يقع عند حلول الساعة وقيام القيامة، فكان ذلك شيئًا من تعيين وقته بتعيين أشراطه»[2].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى ذكر من علامات القيامة في هذا الموضع أمورًا ثلاثة أولها: قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ قرئ بكسر الراء وفتحها، قال الأخفش: المكسورة في كلامهم أكثر والمفتوحة لغة أيضًا، قال الزجاج: برق بصره بكسر الراء يبرق برقًا إذا تحير، والأصل فيه أن يكثر الإنسان من النظر إلى لمعان البرق،

---

(١) أحمد (٣/ ١١٠)، البخاري (١٠/ ٦٨٢/ ٦١٧١)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٣/ ٢٦٣٩«١٦٤»)، أبو داود (٥/ ٣٤٥/ ٥١٢٧)، الترمذي (٤/ ٥١٣/ ٢٣٨٥) بألفاظ متقاربة.

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٤٣-٣٤٤).

فيؤثر ذلك في ناظره، ثم يستعمل ذلك في كل حيرة، وإن لم يكن هناك نظر إلى البرق، كما قالوا: قمر بصره إذا فسد من النظر إلى القمر، ثم استعير في الحيرة، وكذلك بعل الرجل في أمره، أي: تحير ودهش، وأصله من قولهم: بعلت المرأة إذا فاجأها زوجها، فنظرت إليه وتحيرت، وأما برق بفتح الراء، فهو من البريق، أي لمع من شدة شخوصه، وقرأ أبو السمال بلق بمعنى انفتح، وانفتح يقال: بلق الباب وأبلقته وبلقته فتحته.

اختلفوا في أن هذه الحالة متى تحصل؟ فقيل: عند الموت، وقيل: عند البعث، وقيل: عند رؤية جهنم، فمن قال: إن هذا يكون عند الموت، قال: إن البصر يبرق على معنى يشخص عند معاينة أسباب الموت والملائكة، كما يوجد ذلك في كل واحد إذا قرب موته، ومن مال إلى هذا التأويل، قال: إنهم إنما سألوه عن يوم القيامة، لكنه تعالى ذكر هذه الحادثة عند الموت، والسبب فيه من وجهين:

الأول: أن المنكر لما قال: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ على سبيل الاستهزاء فقيل له: إذا برق البصر وقرب الموت زالت عنه الشكوك، وتيقن حينئذ أن الذي كان عليه من إنكار البعث والقيامة خطأ.

الثاني: أنه إذا قرب موته وبرق بصره تيقن أن إنكار البعث لأجل طلب اللذات الدنيوية كان باطلًا، وأما من قال بأن ذلك إنما يكون عند قيام القيامة، قال: لأن السؤال إنما كان عن يوم القيامة، فوجب أن يقع الجواب بما يكون من خواصه وآثاره، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾[1].. ولا شك أن تفسير هذه الآيات بعلامات القيامة أولى من تفسيرها بعلامات الموت وأشد مطابقة لها»[2].

قال القرطبي: «وقوله: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝﴾ أي: ذهب ضوؤه، والخسوف في الدنيا إلى انجلاء، بخلاف الآخرة فإنه لا يعود ضوؤه، ويحتمل أن يكون بمعنى غاب، ومنه قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾[3]»[4].

---

(١) إبراهيم: الآية (٤٢).
(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٢٠-٢٢١).
(٣) القصص: الآية (٨١).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٦٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أحكام صلاتي الكسوف والخسوف

* عن عائشة زوج النبي ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ صلى يوم خسفت الشمس فقام فكبر فقرأ قراءة طويلة، ثم ركع ركوعا طويلا، ثم رفع رأسه فقال: «**سمع اللَّه لمن حمده**» وقام كما هو ثم قرأ قراءة طويلة وهي أدنى من القراءة الأولى، ثم ركع ركوعا طويلا وهي أدنى من الركعة الأولى، ثم سجد سجودا طويلا، ثم فعل في الركعة الآخرة مثل ذلك، ثم سلم -وقد تجلت الشمس- فخطب الناس فقال في كسوف الشمس والقمر: «**إنهما آيتان من آيات اللَّه لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة**»(١).

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: «[فيه] رد قول من زعم من العلماء أن الكسوف للشمس والخسوف للقمر، لقوله تعالى: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾ روي ذلك عن عروة بن الزبير، وفي الآثار الثابتة الكسوف والخسوف مقولان في الشمس والقمر أنهما: «آيتان من آيات اللَّه لا يخسفان..»»(٢).

قال القاضي عياض: «ذهب بعض أهل اللغة المتقدمين إلى أنه لا يقال في الشمس إلا خسفت، وفي القمر كسف، وذكر بعضهم هذا عن عروة، ولا يصح عنه والقرآن يرده، قال اللَّه تعالى: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾»(٣).

قال الحافظ: «والمشهور في استعمال الفقهاء أن الكسوف للشمس والخسوف للقمر واختاره ثعلب، وذكر الجوهري أنه أفصح، وقيل يتعين ذلك. وحكى عياض عن بعضهم عكسه وغلطه لثبوته بالخاء في القمر في القرآن.. وقيل: يقال بهما في كل منهما وبه جاءت الأحاديث»(٤).

قال النووي: «وجمهور أهل العلم وغيرهم على أن الخسوف والكسوف يكون

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ١٦٤). البخاري (٢/ ٦٨٠/ ١٠٤٧)، مسلم (٢/ ٦١٨/ ٩٠١). أبو داود (١/ ٧٠٣/ ١١٩١) مختصرا. الترمذي (٢/ ٤٤٩/ ٥٦١). النسائي (٣/ ١٤٨-١٤٩/ ١٤٧١). ابن ماجه (١/ ٤٠١/ ١٢٦٣).
(٢) شرح البخاري (٣/ ٣٦).
(٣) الإكمال (٣/ ٣٢٩).
(٤) الفتح (٢/ ٦٨٠-٦٨١).

لذهاب ضوئهما كله ويكون لذهاب بعضه»[١].

قال الحافظ: «ولا شك أن مدلول الكسوف لغة غير مدلول الخسوف؛ لأن الكسوف التغير إلى سواد، والخسوف النقصان أو الذل، فإذا قيل في الشمس كسفت أو خسفت لأنها تتغير ويلحقها النقص ساغ، وكذلك القمر، ولا يلزم من ذلك أن الكسوف والخسوف مترادفان»[٢].

قال القرطبي: «وقوله: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه تعالى**» أي: دليلان على وجود الحق سبحانه، وقهره، وكمال الإلهية، وقد خصهما بالذكر لما وقع للناس من أنهما يخسفان لموت عظيم، وهذا إنما صدر عمن لا علم عنده ممن ضعف عقله، واختل فهمه، فرد النبي ﷺ عليهم جهالتهم. وتضمن ذلك الرد على من قال بتأثيرات النجوم، ثم أخبر بالمعنى الذي لأجله يكسفان، وهو: أن اللَّه تعالى يخوف بهما عباده. فإن قيل: فأي تخويف في ذلك، والكسوف أمر عادي بحسب تقابل هذه النيرات وحجب بعضها لبعض، وذلك يجري مجرى حجب الجسم الكثيف نور الشمس، عما يقابله من الأرض، وذلك لا يحصل به تخويف؟ قلنا: لا نسلم أن سبب الكسوف ما ادعوه، ومن أين عرفوا ذلك؛ بالعقل أم بالنقل وكل واحد منهما إما بواسطة نظر، أو بغير واسطة، ودعوى شيء من ذلك ممنوعة، وغايتهم أن يقولوا: ذلك مبني على أمور هندسية ورصدية تفضي بسالكها إلى القطع، ونحن نمنع أيضا ما ذكروه إلى القطع، وهو أول المسألة، ولئن سلمنا ذلك جدلا؛ لكنا نقول: يحصل بهما تخويف العقلاء من وجوه متعددة: أوضحها أن ذلك مذكر بالكسوفات التي تكون بين يدي الساعة، ويمكن أن يكون ذلك الكسوف منها، ولذلك قام ﷺ فزعا يخشى أن تقوم الساعة، وكيف لا؟ وقد قال اللَّه ﷻ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾. قال أهل التفسير: جمع بينهما في إذهاب نورهما، وقيل غير ذلك.

وأيضا: فإن كل ما في هذا العالم علويه وسفليه دليل على نفوذ قدرة اللَّه، وتمام قهره واستغنائه، وعدم مبالاته، وذلك كله يوجب عند العلماء باللَّه خوفه وخشيته،

---

(١) شرح مسلم (٦/ ١٧٦).

(٢) الفتح (٢/ ٦٨١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاؤُا﴾[١] وخص هنا خسوفهما بالتخويف، لأنهما أمران علويان نادران، طارئان، عظيمان. والنادر العظيم مخوف موجع بخلاف ما يكثر وقوعه؛ فإنه لا يحصل منه ذلك غالبا، وأيضا فلما وقع فيهما من الغلط الكثير للأمم التي كانت تعبدهما. ولما وقع للجهال من اعتقاد تأثيرهما»[٢].

قال ابن بطال: «وقال القاضي أبو الطيب: إن قال قائل: أليس رؤية الأهلة، وحدوث الحر والبرد، وكل ما قد أجرى اللَّه العادة بحدوثه على وتيرة واحدة آيات، فما معنى قوله ﷺ: «إنهما آيتان من آيات الله» وأمر بالصلاة والذكر، ولم يقل إن طلوع الشمس والقمر وحدوث الحر والبرد آية من آيات الله؟

فالجواب: أن كل هذه الحوادث آيات لله -تعالى- ودلالة على وجوده وقدمه، غير أن النبي -ﷺ- إنما خص كسوفهما بأنهما آيتان لإخباره لهم عن ربه أن القيامة تقوم وهما منكسفان وذاهبا النور، فلما أعلمهم ذلك أمرهم عند رؤية الكسوف بالصلاة والتوبة والإقلاع والشروع في صالح الأعمال؛ خوفا من أن يكون الكسوف لقيام الساعة، ليعدوا لها، فهذا تأويل كونهما آيتان»[٣].

قال الحافظ: «ومن حكمة وقوع الكسوف تبيين أنموذج ما سيقع في القيامة، وصورة عقاب من لم يذنب، والتنبيه على سلوك طريق الخوف مع الرجاء لوقوع الكسوف بالكوكب ثم كشف ذلك عنه ليكون المؤمن من ربه على خوف ورجاء. وفي الكسوف إشارة إلى تقبيح رأي من يعبد الشمس أو القمر، وحمل بعضهم الأمر في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾[٤] على صلاة الكسوف لأنه الوقت الذي يناسب الإعراض عن عبادتهما لما يظهر فيهما من التغيير والنقص المنزه عنه المعبود -جل وعلا- ﷻ»[٥].

وفيه مشروعية صلاة الكسوف وهو أمر متفق عليه بين أهل العلم. أفاده الحافظ في الفتح[٦]

---

(١) فاطر: الآية (٢٨).
(٢) المفهم (٢/ ٥٥٢-٥٥٣).
(٣) شرح البخاري (٣/ ٣٥).
(٤) فصلت: الآية (٣٧).
(٥) الفتح (٢/ ٦٧٧).
(٦) (٢/ ٦٦٩).

حكمها:

قال النووي: «أجمع العلماء على أنها سنة»(١).

قال الحافظ: «اختلف في الحكم وفي الصفة، فالجمهور على أنها سنة مؤكدة، وصرح أبو عوانة في صحيحه بوجوبها، ولم أره لغيره إلا ما حكي عن مالك أنه أجراها مجرى الجمعة. ونقل الزين بن المنير عن أبي حنيفة أنه أوجبها، وكذا نقل بعض مصنفي الحنفية أنها واجبة»(٢).

وقتها:

قال الحافظ: «استدل به على أنه لا وقت لصلاة الكسوف معين، لأن الصلاة علقت برؤيته، وهي ممكنة في كل وقت من النهار، وبهذا قال الشافعي ومن تبعه، واستثنى الحنفية أوقات الكراهة وهو مشهور مذهب أحمد، وعن المالكية وقتها من وقت حل النافلة إلى الزوال، وفي رواية إلى صلاة العصر، ورجح الأول بأن المقصود إيقاع هذه العبادة قبل الانجلاء. وقد اتفقوا على أنها لا تقضى بعد الانجلاء، فلو انحصرت في وقت لأمكن الانجلاء قبله فيفوت المقصود، ولم أقف في شيء من الطرق مع كثرتها على أنه ﷺ صلاها الأضحى لكن ذلك وقع اتفاقا ولا يدل على منع ما عداه، واتفقت الطرق على أنه بادر إليها»(٣).

قال شيخ الإسلام: «وأما سائر ذوات الأسباب: مثل تحية المسجد، وسجود التلاوة، وصلاة الكسوف، ومثل ركعتي الطواف في الأوقات الثلاثة، ومثل الصلاة على الجنازة في الأوقات الثلاثة. فاختلف كلامه [أي: الإمام أحمد] فيها، والمشهور عنه النهي، وهو اختيار كثير من أصحابه: كالخرقي، والقاضي، وغيرهما وهو مذهب مالك، وأبي حنيفة. لكن أبا حنيفة يجوز السجود بعد الفجر والعصر، لا واجب عنده.

والرواية الثانية: جواز جميع ذوات الأسباب، وهي اختيار أبي الخطاب، وهذا مذهب الشافعي، وهو الراجح في هذا الباب»(٤).

---

(١) شرح مسلم (٦/ ١٧٦).

(٢) الفتح (٢/ ٦٦٩).

(٣) الفتح (٢/ ٦٧١).

(٤) الفتاوى (٢٣/ ١٩١).

صفتها:

قال شيخ الإسلام: «وقد روي في صفة صلاة الكسوف أنواع: لكن الذي استفاض عند أهل العلم بسنة رسول اللَّه ﷺ، ورواه البخاري ومسلم من غير وجه، وهو الذي استحبه أكثر أهل العلم: كمالك، والشافعي، وأحمد: أنه صلى بهم ركعتين، في كل ركعة ركوعان، يقرأ قراءة طويلة، ثم يركع ركوعا طويلا دون القراءة، ثم يقوم فيقرأ قراءة طويلة دون القراءة الأولى، ثم يركع ركوعا دون الركوع الأول، ثم يسجد سجدتين طويلتين»[١].

قال القرطبي: «ذهب الجمهور: إلى أن صلاة كسوف الشمس ركعتان، في كل ركعة ركوعان على ما في حديث عائشة -رضي الله عنها- وما في معناه. قال أبو عمر: وهذا أصح ما في هذا الباب، وغيره من الروايات التي خالفته معلولة ضعيفة»[٢].

قال الحافظ أبو عمر: «الأحاديث في هذا الوجه في بعضها اضطراب تركت ذلك لشهرته عند أهل الحديث، ولكراهة التطويل، والمصير إلى حديث ابن عباس، وعائشة من رواية مالك أولى، لأنهما أصح ما روي في هذا الباب من جهة الإسناد، ولأن فيها زيادة في كيفية الصلاة يجب قبولها، واستعمال فائدتها، ولأنهما قد وصفا صلاة الكسوف وصفا يرتفع معه الإشكال والوهم.

فإن قيل: إن طاوسا روى عن ابن عباس أنه صلى في صلاة الكسوف ركعتين في كل ركعة ثلاث ركعات ثم سجد، وأن عبيد بن عمير روى عن عائشة مثل ذلك، وأن عطاء روى عن جابر، عن النبي ﷺ في صلاة الكسوف ست ركعات في أربع سجدات، وأن أبا العالية روى عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ عشر ركعات في ركعتي الكسوف وأربع سجدات، فلم يكن المصير عندك إلى زيادة هؤلاء أولى، قيل له: إنما تقبل الزيادة من الحافظ إذا ثبتت عنه، وكان أحفظ وأتقن ممن قصر، أو مثله في الحفظ، لأنه كأنه حديث آخر مستأنف.

وأما إذا كانت الزيادة من غير حافظ، ولا متقن فإنها لا يلتفت إليها، وحديث طاوس هذا مضطرب ضعيف رواه وكيع عن الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن

---

(١) الفتاوى (٢٤/ ٢٥٩-٢٦٠).

(٢) المفهم (٢/ ٥٥١).

طاوس، عن النبي ﷺ مرسلا، ورواه غير الثوري عن حبيب بن أبي ثابت، عن ابن عباس لم يذكر طاوسا، ووقفه ابن عيينة عن سليمان الأحول عن طاوس، عن ابن عباس فعله ولم يرفعه، وهذا الاضطراب يوجب طرحه. واختلف أيضا في متنه فقوم يقولون أربع ركعات في ركعة، وقوم يقولون ثلاث ركعات في ركعة، ولا يقوم بهذا الاختلاف حجة»[1].

قال ابن بطال: «سنة صلاة الكسوف أن تصلى ركعتين في جماعة، هذا قول جمهور العلماء، إلا أن في حديث عائشة وغيرها: في كل ركعة ركوعان، وهي زيادة يجب قبولها. وخالف ذلك الكوفيون وقالوا إنها ركعتان كصلاة الصبح»[2].

وقال: «واحتج الطحاوي لأصحابه فقال: رأينا سائر الصلوات من التطوع والمكتوبات مع كل ركعة سجدتان فالنظر على ذلك أن تكون هذه الصلاة كذلك.

قال ابن القصار: فالجواب أن الصلوات قد خصت بهيئات وصفات تفارق سائرها، كصلاة الخوف والعيدين والجنازة، فصلاة الخوف يجوز فيها زيادة الأفعال من الذهاب والمجيء واستدبار القبلة والقتال وصلاة العيدين زيد فيها التكبير، وصلاة الجنازة حذف منها الركوع والسجود، ولم يكن هذا إلا لورود الشرع به، فكذلك صلاة الكسوف زيد في كل ركعة ركوع آخر؛ لورود الشرع به، ولا مدخل للنظر في ذلك»[3].

وقال الحافظ: «وأجاب بعض الحنفية عن زيادة الركوع بحمله على رفع الرأس لرؤية الشمس هل انجلت أم لا، فإذا لم يرها انجلت رجع إلى ركوعه ففعل ذلك مرة أو مرارا فظن بعض من رآه يفعل ذلك ركوعا زائدا. وتعقب بالأحاديث الصحيحة الصريحة في أنه أطال القيام بين الركوعين، ولو كان الرفع لرؤية الشمس فقط لم يحتج إلى تطويل، ولا سيما الأخبار الصريحة بأنه ذكر ذلك الاعتدال ثم شرع في القراءة فكل ذلك يرد هذا الحمل، ولو كان كما زعم هذا القائل لكان فيه إخراج لفعل الرسول عن العبادة المشروعة، أو لزم منه إثبات هيئة في الصلاة لا عهد بها وهو ما فر منه»[4].

---

(١) فتح البر (٥/ ٣٨٦-٣٨٧).

(٢) شرح البخاري (٣/ ٣١).

(٣) شرح البخاري (٣/ ٤١-٤٢).

(٤) الفتح (٢/ ٦٧٦).

السنة تطويلها:

قال ابن بطال: «وفيه أنه ينبغي أن تطول صلاة الكسوف إلى أن تنجلي الشمس»[(١)].

قال النووي: «واتفقوا على أن القيام الثاني والركوع الثاني من الركعة الأولى أقصر من القيام الأول والركوع، وكذا القيام الثاني والركوع الثاني من الركعة الثانية أقصر من الأول منهما من الثانية، واختلفوا في القيام الأول والركوع الأول من الثانية هل هما أقصر من القيام الثاني والركوع الثاني من الركعة الأولى، ويكون هذا معنى قوله في الحديث: «وهو دون القيام الأول» و«دون الركوع الأول» أم يكونان سواء. ويكون قوله: «دون القيام والركوع الأول» أي: أول قيام وأول ركوع»[(٢)].

قال ابن بطال: «قال قوم: بل يرجع إلى القيام والركوع الثاني من الركعة الأولى. وهذا قول مالك في المدونة: أن كل ركعة من الأربع أطول من التي تليها»[(٣)].

قال الحافظ: «ويرجحه أيضا أنه لو كان المراد من قوله: (القيام الأول) أول قيام من الأولى فقط لكان القيام الثاني والثالث مسكوتا عن مقدارهما، فالأول أكثر فائدة. والله أعلم»[(٤)].

قال النووي: «واتفقوا على استحباب إطالة.. الركوع فيهما كما جاءت الأحاديث»[(٥)].

وقال أيضا: «واختلفوا في استحباب إطالة السجود فقال جمهور أصحابنا: لا يطوله بل يقتصر على قدره في سائر الصلوات. وقال المحققون منهم: يستحب إطالته نحو الركوع الذي قبله. وهذا المنصوص للشافعي في البويطي وهو الصحيح للأحاديث الصحيحة الصريحة في ذلك»[(٦)].

الجهر فيها بالقراءة:

قال ابن الملقن: «يسن الجهر في كسوف القمر، وفي كسوف الشمس مذاهب. أحدها: كذلك وهو مذهب أبي يوسف ومحمد بن الحسن وأحمد وإسحاق. وقال

---

(١) شرح البخاري (٣/ ٣١).
(٢) شرح مسلم (٦/ ١٧٧).
(٣) شرح البخاري (٣/ ٥٠).
(٤) الفتح (٢/ ٦٩٨).
(٥) شرح مسلم (٦/ ١٧٧).
(٦) شرح مسلم (٦/ ١٧٧).

ابن بزيزة: ورواه ابن معين وغيره عن مالك. وثانيها: الإسرار وهو قول الشافعي وأبي حنيفة والليث وأصحاب الرأي، وهو المشهور عن مالك، وقول جمهور العلماء. ثالثها: أنه يخير بينهما، قاله الطبري وغيره من فحول العلماء جمعا بين الأحاديث، ومنهم من أول أحاديث الجهر على كسوف القمر»[١].

قال شيخ الإسلام: «والجهر أصح»[٢].

قال ابن العربي: «والجهر عندي أولى لأنها صلاة جماعة ينادى لها كما ينادى للصبح. الصلاة جامعة، وعند بعض العلماء كانت قراءتها كالعيد والاستسقاء»[٣].

تصلى في المسجد جماعة:

قال النووي: «ومذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء أنه يسن فعلها جماعة، وقال العراقيون: فرادى، وحجة الجمهور الأحاديث الصحيحة في مسلم وغيره»[٤].

قال ابن الملقن: «فيه أن السنة فعلها في المسجد وهو المشهور من مذاهب العلماء. قال أصحابنا: وإنما لم يخرج إلى المصلى خوفا من فواتها بالانجلاء، فإن السنة المبادرة إليها، وخير بعض أصحاب مالك بين المسجد والصحراء، وهو خلاف الصواب، والمشهور انتهاء فعل الصلاة بالانجلاء وهو مقتضى لأن يعتني بمعرفته ومراقبته حال الشمس، فلولا أن المسجد أرجح لكانت الصحراء أولى، لأنها أقرب إلى إدراك حال الشمس في الانجلاء وعدمه، وأيضا فإنه يخاف من اجتماع الناس في المصلى فوات إقامتها كما ذكر أصحابنا»[٥].

قال النووي: «وفيه استحبابها جماعة وتجوز فرادى، وتشرع للمرأة والعبد والمسافر وسائر من تصح صلاته»[٦].

وقوله: **«فافزعوا إلى الصلاة» قال ابن الملقن:** «فالنساء مدرجات فيه، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟﴾[٧] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾[٨] وغير

(١) الإعلام (٤/ ٣١٥-٣١٦).
(٢) الفتاوى (٢٤/ ٢٦١).
(٣) عارضة الأحوذي (٣/ ٤٢).
(٤) شرح مسلم (٦/ ١٧٦).
(٥) الإعلام (٤/ ٣١٢-٣١٣).
(٦) شرح مسلم (٦/ ١٧٩).
(٧) المائدة: الآية (٦).
(٨) البقرة: الآية (١٨٣).

ذلك من خطاب التعبد العام، فإنهن داخلات فيها باتفاق، وكونها مشروعة للنساء وغيرهن هو مذهب الشافعي، ومشهور مذهب مالك، وروي عن مالك أيضا أن المخاطب بها من يخاطب بالجمعة، فيخرج النساء والمسافرون ونحوهم.

وذهب الكوفيون: إلى أنهن يصلين أفرادا لا جماعة، وقد صح حضورهن لها معه ﷺ، وذلك يدل على أنهن مخاطبات بها في جماعة»[١].

مشروعية الخطبة بعدها:

قال الحافظ: «فيه مشروعية الخطبة للكسوف، والعجب أن مالكا روى حديث هشام هذا وفيه التصريح بالخطبة ولم يقل به أصحابه»[٢].

وقال أيضا: «اختلف في الخطبة فيه، فاستحبها الشافعي وإسحق وأكثر أصحاب الحديث، قال ابن قدامة: لم يبلغنا عن أحمد ذلك. وقال صاحب الهداية من الحنفية: ليس في الكسوف خطبة لأنه لم ينقل. وتعقب بأن الأحاديث ثبتت فيه وهي ذات كثرة.

والمشهور عند المالكية أن لا خطبة لها، مع أن مالكا روى الحديث، وفيه ذكر الخطبة. وأجاب بعضهم بأنه ﷺ لم يقصد لها خطبة بخصوصها، وإنما أراد أن يبين لهم الرد على من يعتقد أن الكسوف لموت بعض الناس. وتعقب بما في الأحاديث الصحيحة من التصريح بالخطبة وحكاية شرائطها من الحمد والثناء والموعظة وغير ذلك مما تضمنته الأحاديث، فلم يقتصر على الإعلام بسبب الكسوف، والأصل مشروعية الاتباع، والخصائص لا تثبت إلا بدليل، وقد استضعف ابن دقيق العيد التأويل المذكور»[٣].

قال ابن دقيق العيد: «وإنما استضعفناه لأن الخطبة لا تنحصر مقاصدها في شيء معين بعد الاتيان بما هو المطلوب منها من الحمد والثناء والموعظة، وقد يكون بعض هذه الأمور داخلا في مقاصدها مثل ذكر الجنة والنار، وكونهما من آيات اللّه بل هو كذلك جزما»[٤].

---

(١) الإعلام (٤/ ٣١٤).

(٢) الفتح (٢/ ٦٧٤).

(٣) الفتح (٢/ ٦٧٨-٦٧٩).

(٤) إحكام الأحكام (٢/ ١٤١).

قال الحافظ: «نعم نازع ابن قدامة في كون خطبة الكسوف كخطبتي الجمعة والعيدين، إذ ليس في الأحاديث المذكورة ما يقتضي ذلك، وإلى ذلك نحا ابن المنير في حاشيته، ورد على من أنكر أصل الخطبة لثبوت ذلك صريحا في الأحاديث، وذكر أن بعض أصحابهم احتج على ترك الخطبة بأنه لم ينقل في الحديث أنه صعد المنبر، ثم زيفه بأن المنبر ليس شرطا، ثم لا يلزم من أنه لم يذكر أنه لم يقع»[١].

خسوف القمر ككسوف الشمس في الأحكام المتقدمة:

قال أبو عمر رَحِمَهُ اللَّهُ: «واحتج الشافعي ومن قال بقوله في أن القمر يصلى لكسوفه، كما يصلى في كسوف الشمس، سواء في جماعة وعلى هيئتها بقوله ﷺ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته؛ فإذا رأيتم ذلك فصلوا**»؛ فندب رسول اللَّه ﷺ إلى الصلاة عند خسوفهما، ولم يخص إحداهما دون الأخرى بشيء، وصلى عند كسوف الشمس، فكان القمر في حكم ذلك عند كسوفه، إذ لم ينقل عنه خلاف ذلك ﷺ في القمر.

وقال مالك وأبو حنيفة: يصلي الناس عند كسوف القمر وحدانا ركعتين ركعتين ركعتين، ولا يصلون جماعة، وكذلك القول عند أبي حنيفة في كسوف الشمس في هيئة الصلاة.

وقال الليث وعبد العزيز بن أبي سلمة: لا يجمع فيها، ولكن يصلونها منفردين على هيئة الصلاة في كسوف الشمس.

وقال الشافعي وأصحابه والطبري: الصلاة في خسوف الشمس والقمر سواء على هيئة واحدة ركعتان، في كل ركعة ركوعان جماعة. وروي ذلك عن عثمان بن عفان، وابن عباس رضي الله عنهم»[٢].

وقوله: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة**» قال النووي: «فيه دليل للشافعي وجميع فقهاء أصحاب الحديث في استحباب الصلاة لكسوف القمر على هيئة صلاة

---

(١) الفتح (٢/ ٦٧٩).
(٢) فتح البر (٥/ ٤٠٣).

كسوف الشمس وروي عن جماعة من الصحابة وغيرهم»(١).

قال الحافظ: «فيه المبادرة بالصلاة وسائر ما ذكر عند الكسوف»(٢).

قال ابن بطال: «فيه أن الإمام يلزمه عند الآيات موعظته للناس، ويأمرهم بأعمال البر، وينهاهم عن المعاصي، ويذكرهم نقمات الله»(٣).

قال ابن بطال: «قال المهلب: مصداق هذا الحديث في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾(٤) يدل ذلك أن الآيات تحذير للعباد، فينبغي عند نزولها مبادرة الصلاة والخشوع والإخلاص لله، واستشعار التوبة والإقلاع عن المعاصي، ألا ترى أنه ﷺ عرض عليه في مقامه الجنة والنار؛ ليتوعد بالنار أهل المعاصي، ويشوق بالجنة أهل الطاعة، وأخبرهم أن الكسوف ليس كما زعم الجهال أنه من أجل موت ابنه إبراهيم، وإنما هو تخويف وتحذير»(٥).

وقال أيضا: «السنة عند نزول الآيات: الاستغفار والذكر والفزع إلى اللَّه تعالى بالدعاء وإخلاص النيات بالتوبة والإقلاع، وبذلك يكشف اللَّه تعالى ظاهر العذاب قال اللَّه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾(٦)»(٧).

* * *

(١) شرح مسلم (٦/ ١٩٣).

(٢) الفتح (٢/ ٦٧٦).

(٣) شرح البخاري (٣/ ٣٣).

(٤) الإسراء: الآية (٥٩).

(٥) شرح البخاري (٣/ ٣٦-٣٧).

(٦) الأنعام: الآية (٤٣).

(٧) شرح البخاري (٣/ ٤٧).

قوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾

غريب الآية:

لا وزر: الوزر: الملجأ. قال الشاعر:

تَعَزَّ فلا شيء على الأرض باقيا ... ولا وزر مما قضى اللَّه واقيا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «أي: جمع بينها في ذهاب ضوئهما، فلا ضوء للشمس كما لا ضوء للقمر بعد خسوفه، قاله الفراء والزجاج. قال الفراء: ولم يقل جمعت، لأن المعنى جمع بينهما. وقال أبو عبيدة: هو على تغليب المذكر. وقال الكسائي: هو محمول على المعنى، كأنه قال الضوءان. المبرد: التأنيث غير حقيقي.

وقال ابن عباس وابن مسعود: جمع بينهما أي: قرن بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين مكورين مظلمين مقرنين كأنهما ثوران عقيران.. وقد يجمعان في نار جهنم، لأنهما قد عبدا من دون اللَّه، ولا تكون النار عذابا لهما لأنهما جماد، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة في تبكيت الكافرين وحسرتهم.

وفي مسند أبي داود الطيالسي، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك يرفعه إلى النبي ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن الشمس والقمر ثوران عقيران في النار**»[1] وقيل: هذا الجمع أنهما يجتمعان ولا يفترقان، ويقربان من الناس، فيلحقهم العرق لشدة الحر، فكأن المعنى يجمع حرهما عليهم. وقيل: يجمع الشمس والقمر، فلا يكون ثم تعاقب ليل ولا نهار»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي (١/ ٢٨١/ ٢١٠٣)، وأبو يعلى في مسنده (٧/ ١٤٨/ ٤١١٦)، والطحاوي في شرح المشكل (١/ ١٧١-١٧٢/ ١٨٤)، وإسناده ضعيف لضعف دُرُسْت بن زياد الرقاشي إلا أن له شاهدا من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٢٦٥/ ٣٢٠٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٦٣-٦٤).

قال ابن القيم: «يجمعهما [أي: الشمس والقمر] الذي يجمع عظام الإنسان بعدما فرقها البلى ومزقها، ويجمع للإنسان يومئذ جميع عمله الذي قدمه وأخره من خير أو شر، ويجمع ذلك من جمع القرآن في صدر رسوله، ويجمع المؤمنين في دار الكرامة، فيكرم وجوههم بالنظر إليه، ويجمع المكذبين في دار الهوان، وهو قادر على ذلك كله، كما جمع خلق الإنسان من نطفة من مني يمنى، ثم جعله علقة مجتمعة الأجزاء بعدما كانت نطفة متفرقة في جميع بدن الإنسان، وكما يجمع بين الإنسان وملك الموت، ويجمع بين الساق والساق، إما ساق الميت أو ساق من يجهز بدنه من البشر، ومن يجهز روحه من الملائكة، أو يجمع عليه شدائد الدنيا والآخرة، فكيف أنكر هذا الإنسان أن يجمع بينه وبين عمله وجزائه، وأن يجمع مع بني جنسه ليوم الجمع، وأن يجمع عليه بين أمر اللَّه ونهيه وعبوديته، فلا يترك سدى مهملا معطلا لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب فلا يجمع عليه ذلك. فما أجمع هذه السورة لمعان الجمع والضم، وقد افتتحت بالقسم بيوم القيامة الذي يجمع اللَّه فيه بين الأولين والآخرين، وبالنفس اللوامة التي اجتمع فيها همومها وغمومها، وإرادتها واعتقاداتها، وتضمنت ذكر المبدأ والمعاد والقيامة الصغرى والكبرى وأحوال الناس في المعاد»[1].

وقوله: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾ **قال ابن كثير**: «أي: إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة حينئذ يريد أن يفر ويقول: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ هل من ملجأ أو موئل»[2].

قال الماوردي: ويحتمل وجهين:

أحدهما: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ من اللَّه استحياء منه.

الثاني: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ من جهنم حذرا منها. ويحتمل هذا القول من الانسان وجهين:

أحدهما: أن يكون من الكافر خاصة في عرصة القيامة دون المؤمن، لثقة المؤمن ببشرى ربه.

الثاني: أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ما شاهدوا

---

(١) التبيان (ص: ٩٤-٩٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٠٢).

منها»[1].

وقوله: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾ **يقول ابن عطية**: «وكلا زجر يقال للإنسان يومئذ ثم يعلن أنه ﴿لَا وَزَرَ﴾ له أي: ملجأ، وعبر المفسرون عن الوزر بالجبل، قال مطرف بن الشخير وغيره، وهو كان وزر فرار العرب في بلادهم، فلذلك استعمل، والحقيقة أنه الملجأ كان جبلًا أو حصنًا أو سلاحًا أو رجلًا أو غيره»[2].

وقال ابن عاشور: «يجوز أن يكون ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾ كلامًا مستأنفًا من جانب اللَّه تعالى جوابًا لمقالة الإنسان، أي لا وزر لكَ، فينبغي الوقفُ على ﴿ٱلْمَفَرُّ﴾. ويجوز أن يكون من تمام مقالة الإنسان، أي: يقول: أين المفر؟ ويجيب نفسه بإبطال طمعه فيقول: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾ أي لا وزر لي، وذلك بأن نظر في جهاته فلم يجد إلاّ النار كما ورد في الحديث، فيحسن أن يُوصل ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ بجملة ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾»[3].

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾ **قال الرازي**: «فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون المستقر بمعنى الاستقرار، بمعنى أنهم لا يقدرون أن يستقروا إلى غيره، وينصبوا إلى غيره، كما قال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾[4] ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[5] ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[6] ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾[7].

الثاني: أن يكون المعنى: إلى ربك مستقرهم، أي موضع قرارهم من جنة أو نار، أي مفوض ذلك إلى مشيئته من شاء أدخله الجنة، ومن شاء أدخله النار»[8].

* * *

---

(١) النكت والعيون (٦/ ١٥٣).

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٤٠٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٤٦).

(٤) العلق: الآية (٨).

(٥) النور: الآية (٤٢).

(٦) الشورى: الآية (٥٣).

(٧) النجم: الآية (٤٢).

(٨) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٢٢).

قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[(١)]»[(٢)].

وقال القرطبي: «أي: يخبر ابن آدم برا كان أو فاجرا ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي: بما أسلف من عمل سيئ أو صالح، أو أخر من سنة سيئة أو صالحة يعمل بها بعده، قاله ابن عباس وابن مسعود. وروى منصور عن مجاهد قال: ينبأ بأول عمله وآخره. وقاله النخعي. وقال ابن عباس أيضا: أي بما قدم من المعصية، وأخر من الطاعة. وهو قول قتادة. وقال ابن زيد: ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ من أمواله لنفسه ﴿وَأَخَّرَ﴾: خلف للورثة. وقال الضحاك: ينبأ بما قدم من فرض، وأخر من فرض. قال القشيري: وهذا الانباء يكون في القيامة عند وزن الأعمال. ويجوز أن يكون عند الموت. قلت: والأول أظهر»[(٣)].

قال ابن جرير بعد ذكره الأقوال الواردة في الآية: «والصواب من القول في ذلك عندنا، أن ذلك خبر من اللَّه أن الإنسان ينبأ بكلّ ما قدّم أمامه مما عمل من خير أو شرّ في حياته، وأخَّر بعده من سنة حسنة أو سيئة مما قدّم وأخَّر، كذلك ما قدّم من عمل عمله من خير أو شرّ، وأخَّر بعده من عمل كان عليه فضيَّعه، فلم يعمله مما قدّم وأخَّر، ولم يخصص اللَّه من ذلك بعضا دون بعض، فكلّ ذلك مما ينبأ به الإنسان يوم القيامة»[(٤)].

قال ابن عاشور: «وينبغي أن يكون المراد بـ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الكافر جريًا على سياق الآيات السابقة؛ لأنه المقصود بالكلام وإن كان كل إنسان ينبأ يومئذٍ بما قدم وأخر

(١) الكهف: الآية (٤٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٠٢).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٦٤-٦٥).
(٤) جامع البيان (٢٩/ ١٨٤).

من أهل الخير ومن أهل الشر، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾[1] الآية. واختلاف مقامات الكلام يمنع من حمل ما يقع فيها من الألفاظ على محمل واحد، فإن في القرآن فنونًا من التذكير لا تلزم طريقة واحدة. وهذا مما يغفل عن مراعاته بعض المفسرين في حملهم معاني الآيات المتقاربة المغزى على محامل متماثلة.

وتنبئةُ الإنسان بما قدّم وأخرّ كناية عن مجازاته على ما فعله: إن خيرًا فخيرٌ وإن سُوءًا فسوءٌ، إذ يقال له: هذا جزاء الفعلة الفلانية فيعلم من ذلك فعلَته ويلقَى جزاءها، فكانَ الإنباء من لوازم الجزاء قال تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾[2] ويحصل في ذلك الإنباء تقريع وفضح لحاله»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن هذا الإنباء يكون يوم القيامة

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علمًا علمه ونشره، وولدا صالحًا تركه، ومصحفًا ورثه، أو مسجدا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته، يلحقه من بعد موته**»[4].

* عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**سبع يجري أجرها للعبد بعد موته وهو في قبره: من علم علمًا، أو أجرى نهرًا، أو حفر بئرًا، أو غرس نخلًا، أو بنى مسجدًا، أو ورث مصحفًا، أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موته**»[5].

---

(١) آل عمران: الآية (٣٠).

(٢) التغابن: الآية (٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٤٦-٣٤٧).

(٤) أخرجه ابن ماجه (١/ ٨٨-٨٩/ ٢٤٢)، واللفظ له، والبيهقي في الشعب (٣/ ٢٤٧/ ٣٤٤٨)، وصححه ابن خزيمة (٤/ ١٢١/ ٢٤٩٠)، وانظر الإرواء (٦/ ٢٨-٢٩)، وصحيح الترغيب رقم (٧٧).

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٤٤٣-٤٤٤)، والبيهقي في الشعب (٣/ ٢٤٨/ ٣٤٤٩)، قال أبو نعيم: «هذا الحديث غريب من حديث قتادة تفرد به أبو نعيم العزرمي، وقال البيهقي: محمد بن عبد اللَّه العزرمي ضعيف قلت: ويشهد لهذا الحدث ما قبله، ولهذا رمز له الشيخ الألباني بأنه حسن لغيره في صحيح الترغيب رقم (٧٤).

★ **فوائد الحديثين:**

استدل بهذين الحديثين على أن الإنباء المذكور إنما يكون يوم القيامة عندما توزن أعمال العباد خلافا لمن ذهب إلى أنه يكون عند الموت قال القرطبي: «قوله: «بعد موته» وهو في قبره نص على أن ذلك لا يكون عند الموت، وإنما يخبر بجميع ذلك عند وزن عمله، وإن كان يبشر بذلك في قبره.

ودل على هذا أيضا قوله الحق: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[2] وهذا لا يكون إلا في الآخرة بعد وزن الأعمال. والله أعلم»[3].

* * *

(١) العنكبوت: الآية (١٣).

(٢) النحل: الآية (٢٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٦٥).

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾

★ **غريب الآية:**

معاذيره: أعذاره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما قال: ينبؤ الإنسان يومئذ بأعماله، قال: بل لا يحتاج إلى أن ينبئه غير غيره، وذلك لأن نفسه شاهدة بكونه فاعلًا لتلك الأفعال، مقدمًا عليها، ثم في قوله: ﴿بَصِيرَةٌ﴾ وجهان:

الأول: قال الأخفش: جعله في نفسه بصيرة كما يقال: فلان جود وكرم، فهاهنا أيضًا كذلك، لأن الإنسان بضرورة عقله يعلم أن ما يقربه إلى اللَّه ويشغله بطاعته وخدمته فهو السعادة، وما يبعده عن طاعة اللَّه ويشغله بالدنيا ولذاتها فهو الشقاوة، فهب أنه بلسانه يروج ويزور ويرى الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق، لكنه بعقله السليم يعلم أن الذي هو عليه في ظاهره جيد أو رديء.

والثاني: أن المراد جوارحه تشهد عليه بما عمل فهو شاهد على نفسه بشهادة جوارحه، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير ومقاتل وهو كقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾[(١)] وقوله: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾[(٢)] وقوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾[(٣)] فأما تأنيث البصيرة، فيجوز أن يكون لأن المراد بالإنسان هاهنا الجوارح كأنه قيل: بل جوارح الإنسان، على نفس الإنسان بصيرة، وقال أبو عبيدة هذه الهاء لأجل المبالغة كقوله: رجل راوية وطاغية وعلامة»[(٤)].

---

(١) النور: الآية (٢٤).
(٢) يس: الآية (٦٥).
(٣) فصلت: الآية (٢٠).
(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٢٢-٢٢٣).

وقوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾:

قال الشوكاني: «أي: ولو اعتذر وجادل عن نفسه لم ينفعه ذلك. يقال: معذرة ومعاذير. قال الفرّاء: أي: وإن اعتذر فعليه من يكذب عذره. وقال الزجاج: المعاذير الستور، والواحد معذار، أي: وإن أرخى الستور يريد أن يخفي نفسه فنفسه شاهدة عليه، كذا قال الضحاك، والسديّ. والستر بلغة اليمن يقال له: معذار، كذا قال المبرد، ومنه قول الشاعر:

ولكنها ضنت بمنزل ساعة ... علينا وأطت يومها بالمعاذر

والأوّل أولى، وبه قال مجاهد، وقتادة، وسعيد بن جبير، وابن زيد، وأبو العالية، ومقاتل، ومثله قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾[1]. وقوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦﴾[2]. وقول الشاعر:

فما أحسن أن يعذر المرء نفسه ... وليس له من سائر الناس عاذر»[3].

قال السعدي: «فالعبد وإن أنكر، أو اعتذر عما عمله، فإنكاره واعتذاره لا يفيدانه شيئا، لأنه يشهد عليه سمعه وبصره، وجميع جوارحه بما كان يعمل، ولأن استعتابه قد ذهب وقته وزال نفعه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧﴾[4]»[5].

قال ابن العربي: «فيها دليل على قبول إقرار المرء على نفسه؛ لأنها شهادة منه عليها قال اللَّه سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[6]. ولا خلاف فيه؛ لأنه إخبار على وجه تنتفي التهمة عنه؛ لأن العاقل لا يكذب على نفسه، وقد قال اللَّه سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ

---

(١) غافر: الآية (٥٢).

(٢) المرسلات: الآية (٣٦).

(٣) فتح القدير (٥/ ٤٨٠-٤٨١).

(٤) الروم: الآية (٥٧).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٢٤).

(٦) النور: الآية (٢٤).

وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[2] وهو في الآثار كثير قال النبي ﷺ: «**واغد يا أنيس على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها**»[3]»[4].

* * *

(١) آل عمران: الآية (٨١).

(٢) التوبة: الآية (١٠٢).

(٣) أحمد (٤/ ١١٥-١١٦)، البخاري (٤/ ٦١٩/ ٢٣١٤-٢٣١٥)، مسلم (٣/ ١٣٢٤/ ١٦٩٧-١٦٩٨[٢٥])، أبو داود (٤/ ٥٩١/ ٤٤٤٥)، الترمذي (٤/ ٣٠-٣١/ ١٤٣٣)، النسائي (٨/ ٦٣٢/ ٥٤٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أحكام القرآن (٤/ ١٨٩٠).

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي، وشرع في تلاوته عليه، بادره النبي ﷺ من الحرص قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إياه، فنهاه اللّه عن هذا، وقال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾[(١)]، وقال هنا: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ ثم ضمن له تعالى أنه لا بد أن يحفظه ويقرأه، ويجمعه اللّه في صدره، فقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ فالحرص الذي في خاطرك، إنما الداعي له حذر الفوات والنسيان، فإذا ضمنه اللّه لك فلا موجب لذلك.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ أي: إذا كمل جبريل قراءة ما أوحى اللّه إليك، فحينئذ اتبع ما قرأه وأقرأه.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ أي: بيان معانيه، فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه، وهذا أعلى ما يكون، فامتثل ﷺ لأدب ربه، فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا، أنصت له، فإذا فرغ قرأه»[(٢)].

قال ابن العربي: «هذا يعضد ما تقدم في سورة المزمل من قوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[(٣)] حسبما تقدم بيانه في ذلك الموضع. وهذا المعنى صحيح، وذلك أن المتلقن من حكمه الأوكد أن يصغي إلى الملقن بقلبه، ولا يستعين بلسانه، فيشترك الفهم بين القلب واللسان، فيذهب روح التحصيل بينهما، ويخزل اللسان بتجرد القلب للفهم؛ فيتيسر التحصيل؛ وتحريك اللسان يجرد القلب عن الفهم، فيتعسر التحصيل بعادة اللّه التي يسرها؛ وذلك معلوم عادة»[(٤)].

---

(١) طه: الآية (١١٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٢٤-٥٢٥).

(٣) المزمل: الآية (٤).

(٤) أحكام القرآن (٤/ ١٨٩٤).

قال ابن القيم وهو يعدد أسرار هذه السورة: «ومن أسرارها أنها تضمنت التأني والتثبت في تلقي العلم، وأن لا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه؛ بل من آداب الرب التي أدب بها نبيه ﷺ أمره بترك الاستعجال على تلقي الوحي؛ بل يصبر إلى أن يفرغ جبريل من قراءته، ثم يقرأه بعد فراغه عليه، فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضي كلامه، ثم يعيده عليه أو يسأل عما أشكل عليه منه، ولا يبادره قبل فراغه.

وقد ذكر اللَّه تعالى هذا المعنى في ثلاثة مواضع من كتابه هذا أحدها، والثاني قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾[1] والثالث قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾[2] فضمن لرسوله أن لا ينسى ما أقرأه إياه، وهذا يتناول القراءة وما بعدها»[3].

قال السعدي: «وكذلك إذا كان في أول الكلام أي: كلام المعلم ما يوجب الرد أو الاستحسان، أن لا يبادر برده أو قبوله، حتى يفرغ من ذلك الكلام، ليتبين ما فيه من حق أو باطل، وليفهمه فهما يتمكن به من الكلام عليه على وجه الصواب»[4].

قال عطية محمد سالم: «إن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ فيه إشارة إلى أنه نزل مفرقًا، وإشارة إلى أن جمعه على هذا النحو الموجود برعاية وعناية من اللَّه تعالى وتحقيقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ ويشهد لذلك أن هذا الجمع الموجود من وسائل حفظه، كما تعهد تعالى بذلك، واللَّه تعالى أعلم»[5].

قال ابن العربي: «انتهى النظر في هذه الآية بقوم من الرفعاء منهم قتادة إلى أن يقولوا في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ أي: تفصيل أحكامه، وتمييز حلاله من حرامه، حتى قال حين سئل عن ذلك: إن منه وجوب الزكاة في مائتي درهم، وهذا وإن لم يشهد له مساق الآية فلا ينفيه عمومها، ونحن لا نرى تخصيص العموم بالسبب ولا بالأولى من الآية والحديث، ولا بالمساق»[6].

---

(١) طه: الآيتان (١١٣-١١٤).

(٢) الأعلى: الآيتان (٦-٧).

(٣) التبيان (ص: ٩٨-٩٩).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٥٢٥).

(٥) تتمة الأضواء (٨/ ٦٤٠).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٨٩٦).

قال السعدي: وفيها أن النبي ﷺ كما بين للأمة ألفاظ الوحي فإنه قد بين لهم معانيه»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ قال: كان رسول اللّه ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك شفتيه، فقال ابن عباس: فأنا أحركهما لكم كما كان رسول اللّه ﷺ يحركهما، وقال سعيد: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما -فحرك شفتيه- فأنزل اللّه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ قال: جمعه لك في صدرك وتقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ قال: فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ ثم إن علينا أن تقرأه، فكان رسول اللّه ﷺ بعد ذلك إذ أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه(٢).

★ غريب الحديث:

يعالج: «أي: يحاول من تنزيل القرآن عليه شدة، ومنه معالجة المريض، وهي ملاطفته بالدواء حتى يقبل عليه، والمعالجة الملاطفة في المراودة بالقول والفعل، ويقال: محاولة الشيء بمشقة. وإنما حصلت المعالجة الشديدة لعظم ما يلاقيه من الملك والقول الثقيل»(٣).

استمع له وأنصت: الاستماع: الإصغاء له، والإنصات السكوت، فقد يستمع ولا ينصت، ولهذا جمع بينهما كما قال اللّه تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾(٤) قال الأزهري: يقال: أنصت وانتصت ثلاث لغات أفصحهن أنصت وبها جاء القرآن الكريم. ولهذا فالمستمع هو المصغي القاصد للسماع، وقال الفقهاء تسن سجدة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٢٥).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٤٣)، البخاري (١/ ٣٨-٣٩/ ٥) واللفظ له، مسلم (١/ ٣٣٠/ ٤٤٨)، الترمذي (٥/ ٤٠١/ ٣٣٢٩)، النسائي (٢/ ٤٨٧/ ٩٣٤).

(٣) شرح الكرماني (١/ ٤٦) وعمدة القاري (١/ ١١٩).

(٤) الأعراف: الآية (٢٠٤).

التلاوة للمستمع لا للسامع[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله قيل له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ فقال بعضهم: قيل له ذلك، لأنه كان إذا نزل عليه منه شيء عجل به، يريد حفظه من حبه إياه، فقيل له: لا تعجل به فإنَّا سَنحفظُه عليك.. وقال آخرون: بل السبب الذي من أجله قيل له ذلك، أنه كان يُكثر تلاوة القرآن مخافة نسيانه، فقيل له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ إن علينا أن نجمعه لك، ونقرئكه فلا تنسى.. وأشبه القولين بما دلّ عليه ظاهر التنزيل، القول الذي ذُكر عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، وذلك أن قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ ينبئ أنه إنما نهي عن تحريك اللسان به متعجلا فيه قبل جمعه، ومعلوم أن دراسته للتذكر إنما كانت تكون من النبيّ ﷺ من بعد جمع اللَّه له ما يدرس من ذلك»[٢].

قال الكرماني: «فإن قلت: القرآن يدل على تحريك رسول اللَّه ﷺ لسانه لا شفتيه فلا تطابق بين الوارد والمورود فيه. قلت: التطابق حاصل لأن التحريكين متلازمان غالبا، أو لأنه كان يحرك الفم المشتمل على اللسان والشفتين، فيصدق كل واحد منهما، واللَّه أعلم»[٣].

وقال أيضا: «وفيه أنه يستحب للمعلم أن يمثل للمتعلم بالفعل، ويريه الصورة بفعله إذا كان فيه زيادة على بيان الوصف بالقول»[٤].

قال العيني: «وفيه أن أحدا لا يحفظ القرآن إلا بعون اللَّه تعالى ومنه وفضله قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[٥]»[٦].

* * *

---

(١) النووي (٤/ ١٣٩) وشرح الكرماني (١/ ٤٨).
(٢) جامع البيان (٢٩/ ١٨٧-١٨٨).
(٣) شرح الكرماني (١/ ٤٧).
(٤) شرح الكرماني (١/ ٤٧).
(٥) القمر: الآية (١٧).
(٦) عمدة القاري (١/ ١٢٣).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ۝٢١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: هذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ اللَّه وتذكيره أنكم ﴿تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ وتسعون فيما يحصلها، وفي لذاتها وشهواتها، وتؤثرونها على الآخرة، فتذرون العمل لها؛ لأن الدنيا نعيمها ولذاتها عاجلة، والإنسان مولع بحب العاجل، والآخرة متأخر ما فيها من النعيم المقيم، فلذلك غفلتم عنها وتركتموها، كأنكم لم تخلقوا لها، وكأن هذه الدار هي دار القرار، التي تبذل فيها نفائس الأعمار، ويسعى لها آناء الليل والنهار، وبهذا انقلبت عليكم الحقيقة، وحصل من الخسار ما حصل. فلو آثرتم الآخرة على الدنيا، ونظرتم للعواقب نظر البصير العاقل لأنجحتم، وربحتم ربحا لا خسار معه، وفزتم فوزا لا شقاء يصحبه»(١).

قال ابن القيم: «وقد ذم اللَّه سبحانه في هذه السورة من يؤثر العاجلة على الآجلة، وهذا لاستعجاله بالتمتع بما يفنى، وإيثاره ما يبقى، ورتب كل ذم ووعيد في هذه السورة على هذا الاستعجال ومحبة العاجلة، فإرادته أن يفجر أمامه هو من استعجاله، وحب العاجلة وتكذيبه بيوم القيامة من فرط حب العاجلة، وإيثاره لها واستعجاله بنصيبه وتمتعه به قبل أوانه، ولولا حب العاجلة وطلب الاستعجال لتمتع به في الآجلة أكمل ما يكون، وكذلك تكذيبه وتوليه وترك الصلاة هو من استعجاله ومحبته العاجلة، والرب سبحانه وصف نفسه بضد ذلك، فلم يعجل على عبده؛ بل أمهله إلى أن بلغت الروح التراقي وأيقن بالموت، وهو إلى هذه الحال مستمر على التكذيب والتولي، والرب تعالى لا يعاجله بل يمهله، ويحدث له الذكر شيئا بعد شيء، ويصرف له الآيات، ويضرب له الأمثال، وينبهه على مبدئه: من كونه نطفة من مني يمني، ثم علقة ثم خلقا سويا، فلم يعجل عليه بالخلق وهلة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٢٦).

واحدة، ولا بالعقوبة إذ كذب خبره، وعصى أمره؛ بل كان خلقه وأمره وجزاؤه بعد تمهيل وتدريج وأناة، ولهذا ذم الإنسان بالعجلة بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[١] وقال: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾[٢]»[٣].

* * *

(١) الإسراء: الآية (١١).

(٢) الأنبياء: الآية (٣٧).

(٣) التبيان (ص: ٩٩).

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ناضرة: أي: مسرورة حسنة، والنضرة والنَّضَارَةُ: الحُسْنُ والبهجة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: أي: حسنة بهية، لها رونق ونور، مما هم فيه من نعيم القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: تنظر إلى ربها على حسب مراتبهم: منهم من ينظره كل يوم بكرة وعشيا، ومنهم من ينظره كل جمعة مرة واحدة، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وجماله الباهر، الذي ليس كمثله شيء، فإذا رأوه نسوا ما هم فيه من النعيم، وحصل لهم من اللذة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه، ونضرت وجوههم فازدادوا جمالا إلى جمالهم، فنسأل اللَّه الكريم أن يجعلنا معهم»[١].

قال ابن كثير: «ومن تأول ذلك بأن المراد بـ ﴿إِلَىٰ﴾ مفرد الآلاء، وهي النعم، كما قال الثوري، عن منصور عن مجاهد: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ فقال تنتظر الثواب من ربها. رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد. وكذا قال أبو صالح أيضا فقد أبعد هذا القائل النجعة، وأبطل فيما ذهب إليه. وأين هو من قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾[٢]؟، قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: ما حَجَب الفجار إلا وقد عَلم أن الأبرار يرونه ﷻ. ثم قد تواترت الأخبار عن رسول اللَّه ﷺ بما دل عليه سياق الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ قال ابن جرير: حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا آدم، حدثنا المبارك عن الحسن: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ قال: حسنة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ قال تنظر إلى الخالق، وحُقّ لها أن تَنضُر وهي تنظر إلى الخالق»[٣].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٢٦-٤٢٧).

(٢) المطففين: الآية (١٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٠٥-٣٠٦).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يعدد أسرار هذه السورة الكريمة: «ومن أسرار هذه السورة أنه سبحانه جمع فيها لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن: فزين وجوههم بالنضرة، وبواطنهم بالنظر إليه، فلا أجمل لبواطنهم ولا أنعم ولا أحلى من النظر إليه، ولا أجمل لظواهرهم من نضرة الوجه، وهي إشراقه وتحسينه وبهجته، وهذا كما قال في موضع آخر: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[١] ونظيره قوله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ فهذا جمال الظاهر وزينته ثم قال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[٢]، ونظيره قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾[٣] فهذا جمال ظاهرها ثم قال: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾[٤] فهذا جمال باطنها، ونظيره قوله عن امرأة العزيز بعد أن قالت ليوسف: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾[٥] فذكرها لهذا هو من تمام وصفها لمحاسنه، وأنه في غاية المحاسن ظاهرا وباطنا، وينظر إلى هذا المعنى ويناسبه قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩﴾[٦] فقابل بين الجوع والعرى، لأن الجوع ذل الباطن، والعرى ذل الظاهر، وقابل بين الظمأ وبين حر الباطن، والضحى وهو حر الظاهر بالبروز للشمس، وقريب من هذا قوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[٧] في ذكر الزاد الظاهر الحسي والزاد الباطن المعنوي، فهذا زاد سفر الدنيا، وهذا زاد سفر الآخرة، ويلم به قول هود: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[٨] فالأول القوة الظاهرة المنفصلة عنهم، والثاني الباطنة المتصلة بهم، ويشبهه قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾[٩] فنفى عنهم الدافعين: الدافع من أنفسهم والدافع من خارج وهو الناصر»[١٠].

(١) الإنسان: الآية (١١).
(٢) الأعراف: الآية (٢٦).
(٣) الصافات: الآية (٦).
(٤) الصافات: الآية (٧).
(٥) يوسف: الآيتان (٣١-٣٢).
(٦) طه: الآيتان (١١٨-١١٩).
(٧) البقرة: الآية (١٩٧).
(٨) هود: الآية (٥٢).
(٩) الطارق: الآية (١٠).
(١٠) التبيان (ص: ٩٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة

* عن جرير قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا**»(١).

* عن جرير بن عبد اللَّه قال: قال النبي ﷺ: «**إنكم سترون ربكم عيانا**»(٢).

* عن أبي هريرة قال: قال أناس: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «**هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟**» قالوا: لا، يا رسول الله! قال: «**هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟**» قالوا: لا يا رسول الله!، قال: «**فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك، يجمع اللَّه الناس فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم اللَّه في غير الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ باللَّه منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه، فيأتيهم اللَّه في الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه. . الحديث**»(٣)

* عن أبي سعيد الخدري قال: قلنا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «**هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحوا**»؟ قلنا: لا، قال: «**فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارون في رؤيتهما**، ثم قال:

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٦٠). البخاري (١٣/ ٥١٥/ ٧٤٣٤). مسلم (١/ ٤٣٩/ ٦٣٣). أبو داود (٥/ ٩٧-٩٨/ ٤٧٢٩)، والترمذي (٤/ ٥٩٣/ ٢٥٥١)، وابن ماجه (١/ ٦٣/ ١٧٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٠٧/ ١١٣٣٠).

(٢) أخرجه: البخاري (١٣/ ٥١٦/ ٧٤٣٥) من طريق أبي شهاب. قال الطبراني: في معجمه الكبير (٢/ ٢٩٦) في هذا الحديث زيادة لفظة قوله (عيانا) تفرد به أبو شهاب وهو حافظ متقن من ثقات المسلمين.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٧٥-٢٧٦)، البخاري (١٣/ ٥١٦/ ٧٤٣٧)، مسلم (١/ ١٦٣-١٦٦/ ١٨٢) مطولا، أبو داود (٥/ ٩٨-٩٩/ ٤٧٣٠)، النسائي (٢/ ٥٧٨-٥٧٩/ ١١٣٩) مختصرا دون موطن الشاهد وفي الكبرى (٦/ ٥٠٤/ ١١٦٣٧). وفي الباب حديث أبي سعيد الخدري.

ينادي مناد ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم، حتى يبقى من كان يعبد اللَّه من بر أو فاجر وغبرات من أهل الكتاب، ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيرا ابن اللَّه، فيقال: كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا فيقال: اشربوا فيتساقطون في جهنم، ثم يقال للنصارى ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن اللَّه، فيقال: كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا فيتساقطون حتى يبقى من كان يعبد اللَّه من بر أو فاجر فيقال لهم: ما يحبسكم وقد ذهب الناس، فيقولون: فارقناهم ونحن أحوج منا إليه اليوم، وإنا سمعنا مناديا ينادي: ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون وإنما ننتظر ربنا. قال: فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم فيقولون أنت ربنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟ فيقولون الساق. فيكشف عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمعة فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقا واحدا»»[1].

⋆ غريب الأحاديث:

لا تضامون: معناه لا تجتمعون لرؤيته، ولا يضم بعضكم إلى بعض، ومعناه بفتح التاء كذلك والأصل لا تتضامون في رؤيته باجتماع في جهة، وبالتخفيف من الضيم، ومعناه: لا تظلمون فيه برؤية بعضكم دون بعض[2].

هل تضارون: بفتح التاء المثناة من فوق وضمها وتشديد الراء وتخفيفها، فالتشديد بمعنى: لا تتخالفون ولا تجادلون في صحة النظر إليه لوضوحه وظهوره، يقال: ضاره يضاره مثل ضره يضره، وقال الجوهري: يقال أضرني فلان إذا دنا مني دنوا شديدا، فأراد بالمضارة الاجتماع والازدحام عند النظر إليه، وأما التخفيف فهو من الضير، لغة في الضر، والمعنى فيه كالأول[3].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٦-١٧). البخاري (١٣/ ٥١٧-٥١٩/ ٧٤٣٩). مسلم (١/ ١٦٧-١٧١/ ١٨٣). ابن ماجه (١/ ٦٣-٦٤/ ١٧٩) مختصرا.

(٢) الفتح (١٣/ ٥٢٥).

(٣) عمدة القاري (١٦/ ٦٣٤).

★ **فوائد الأحاديث:**

قال شيخ الإسلام: «هذه الأحاديث وغيرها في الصحاح؛ وقد تلقاها السلف والأئمة بالقبول؛ واتفق عليها أهل السنة والجماعة، وإنما يكذب بها أو يحرفها (الجهمية) ومن تبعهم من المعتزلة والرافضة ونحوهم: الذين يكذبون بصفات اللّه تعالى وبرؤيته وغير ذلك، وهم المعطلة شرار الخلق والخليقة»[(١)].

قال النووي: «أي: ترونه رؤية محققة لا شك فيها ولا مشقة كما ترون هذا القمر رؤية محققة بلا مشقة، فهو تشبيه للرؤية بالرؤية، لا المرئي بالمرئي، والرؤية مختصة بالمؤمنين»[(٢)].

قال ابن رجب: «هذا الحديث نص في ثبوت رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، ومفهوم قوله في حق الكفار ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾[(٣)] قال الشافعي، وغيره: لما حجب أعداءه في السخط دل على أن أولياءه يرونه في الرضا. والأحاديث في ذلك كثيرة جدا، وقد ذكر البخاري بعضها في أواخر الصحيح في كتاب (التوحيد).

وقد أجمع على ذلك السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من الأئمة وأتباعهم، وإنما خالف فيه طوائف أهل البدع من الجهمية والمعتزلة، ونحوهم ممن يرد النصوص الصحيحة لخيالات فاسدة، وشبهات باطلة، يخيلها لهم الشيطان فيسرعون إلى قبولها منه، ويوهمهم أن هذه النصوص الصحيحة تستلزم باطلا وتسميه تشبيها أو تجسيما فينفرون منه، كما خيل إلى المشركين قبلهم أن عبادة الأوثان ونحوها تعظيم لجناب الرب، وأنه لا يتوصل إليه من غير وسائط تعبد فتقرب إليه زلفا، وأن ذلك أبلغ في التعظيم والاحترام، وقاسه لهم على ملوك بني آدم، فاستجابوا لذلك وقبلوه منه.

وإنما بعث اللّه الرسل، وأنزل الكتب لإبطال ذلك كله، فمن اتبع ما جاءوا به فقد اهتدى، ومن أعرض عنه، أو عن شيء منه واعترض فقد ضل»[(٤)].

---

(١) الفتاوى (٣/ ٣٩١).

(٢) شرح مسلم (٥/ ١١٤-١١٥).

(٣) المطففين: الآية (١٥).

(٤) فتح الباري (٤/ ٣١٩-٣٢٠).

قال القاري: «وقد روى أحاديث الرؤية أكثر من عشرين صحابيا، وقال أبو القاسم: روى رؤية المؤمنين لربهم ﷻ في القيامة: أبو بكر، وعلي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وابن مسعود، وأبو موسى، وابن عباس، وابن عمر، وحذيفة، وأبو أمامة، وأبو هريرة، وجابر، وأنس، وعمار بن ياسر، وزيد بن ثابت، وعبادة ابن الصامت، وبريدة بن حصيب، وجنادة بن أبي أمية، وفضالة بن عبيد، ورجل له صحبة بالنبي -عليه الصلاة والسلام-، ثم ذكر أحاديثهم بأسانيد غالبها جيد، وذكر أبو نعيم الحافظ في كتاب (تثبيت النظر) أبا سعيد الخدري وعمارة بن رؤيبة وأبا رزين العقيلي وأبا برزة. وزاد الآجري في كتاب (الشريعة) وأبو محمد عبد اللَّه بن محمد المعروف بأبي الشيخ في كتاب (السنة الواضحة) تأليفهما: عدي بن حاتم الطائي بسند جيد»[1].

قال شيخ الإسلام: «وإنما المهم الذي يجب على كل مسلم اعتقاده: أن المؤمنين يرون ربهم في الدار الآخرة في عرصة القيامة وبعد ما يدخلون الجنة، على ما تواترت به الأحاديث عن النبي ﷺ عند العلماء بالحديث؛ فإنه أخبر ﷺ «إنا نرى ربنا كما نرى القمر ليلة البدر والشمس عند الظهيرة، لا يضام في رؤيته». »[2]

هذا الحكم شامل للنساء أيضًا:

قال شيخ الإسلام: «الدليل على أنهن يرينه أن النصوص المخبرة بالرؤية في الآخرة للمؤمنين تشمل النساء لفظا ومعنى، ولم يعارض هذا العموم ما يقتضي إخراجهن من ذلك، فيجب القول بالدليل السالم عن المعارض المقاوم»[3].

وقال بعد أن ساق حديثي أبي هريرة وأبي سعيد: «هذان الحديثان من أصح الأحاديث، فلما قال النبي ﷺ: «**فإنكم ترونه كذلك؛ يحشر الناس فيقول من كان يعبد شيئا فليتبعه**». **أليس قد علم بالضرورة أن هذا خطاب لأهل الموقف من الرجال والنساء؟ لأن لفظ الناس يعم الصنفين، ولأن الحشر مشترك بين الصنفين.**

وهذا العموم لا يجوز تخصيصه وإن جاز جاز على ضعف؛ لأن النساء أكثر من

---

(١) عمدة القاري (٤/ ٦٠).

(٢) الفتاوى (٦/ ٤٨٥).

(٣) الفتاوى (٦/ ٤٣٠).

الرجال، إذ قد صح أنهن أكثر أهل النار، وقد صح لكل رجل من أهل الجنة زوجتان من الإنسيات سوى الحور العين، وذلك لأن من في الجنة من النساء أكثر من الرجال، وكذلك في النار، فيكون الخلق منهم أكثر، واللفظ العام لا يجوز أن يحمل على القليل من الصور دون الكثير بلا قرينة متصلة؛ لأن ذلك تلبيس وعي ينزه عنه كلام الشارع»[١].

وقال أيضًا: «ثم الاستدلال بالآية دليل آخر؛ لأن اللَّه سبحانه قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[٢] ومعلوم أن النساء من الذين أحسنوا، ثم قوله فيما بعد: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾[٣] يقتضي حصر أصحاب الجنة في أولئك، والنساء من أصحاب الجنة، فيجب أن يكون من أولئك، وأولئك إشارة إلى الذين لهم الحسنى وزيادة؛ فوجب دخول النساء في الذين لهم الحسنى وزيادة، واقتضى أن كل من كان من أصحاب الجنة فإنه موعود بالزيادة على الحسنى التي هي النظر إلى اللَّه سبحانه؛ ولا يستثنى من ذلك أحد إلا بدليل؛ وهذه (الرؤية العامة) لم توقت بوقت بل قد تكون عقب الدخول قبل استقرارهم في المنازل، واللَّه أعلم أي وقت يكون ذلك.

وكذلك ما دل من الكتاب على (الرؤية) كقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾[٤] هو تقسيم لجنس الإنسان المذكور في قوله: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾[٥]، وظاهر انقسام الوجوه إلى هذين النوعين، كما أن قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾[٦] أيضًا إلى هذين النوعين، فمن لم يكن من الوجوه الباسرة كان من الوجوه الناضرة الناظرة؛ كيف وقد ثبت في الحديث أن النساء يزددن حسنا وجمالا كما يزداد الرجال في مواقيت النظر؟

وكذلك قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[٧]

---

(١) الفتاوى (٦/ ٤٣٢).
(٢) يونس: الآية (٢٦).
(٣) يونس: الآية (٢٦).
(٤) القيامة: الآيات (٢٢-٢٥).
(٥) القيامة: الآيتان (١٣-١٤).
(٦) عبس: الآيات (٣٨-٤١).
(٧) السجدة: الآية (١٧).

قد فسر بالرؤية، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[(١)] فإن هذا كله يعم الرجال والنساء»[(٢)].

وقال أيضًا: «ورؤيته سبحانه هي أعلى مراتب نعيم الجنة، وغاية مطلوب الذين عبدوا الله مخلصين له الدين؛ وإن كانوا في الرؤية على درجات على حسب قربهم من الله ومعرفتهم به»[(٣)].

هل يراه الكفار؟

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الكفار فلا يرونه ﷻ، وقيل: يراه منافقوا هذه الأمة، وهذا ضعيف، والصحيح الذي عليه جمهور أهل السنة أن المنافقين لا يرونه كما لا يراه باقي الكفار باتفاق العلماء»[(٤)].

قال الحافظ: «وزعمت طائفة من المتكلمين كالسالمية من أهل البصرة أن في الخبر دليلا على أن الكفار يرون الله في القيامة من عموم اللقاء والخطاب، وقال بعضهم: يراه بعض دون بعض، واحتجوا بحديث أبي سعيد حيث جاء فيه أن الكفار يتساقطون في النار إذا قيل لهم ألا تردون، ويبقى المؤمنون، وفيهم المنافقون فيرونه لما ينصب الجسر ويتبعونه، ويعطى كل إنسان منهم نوره ثم يطفأ نور المنافقين، وأجابوا عن قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[(٥)] أنه بعد دخول الجنة، وهو احتجاج مردود، فإن بعد هذه الآية: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾[(٦)] فدل على أن الحجب وقع قبل ذلك، وأجاب بعضهم بأن الحجب يقع عند إطفاء النور، ولا يلزم من كونه يتجلى للمؤمنين ومن معهم ممن أدخل نفسه فيهم أن تعمهم الرؤية لأنه أعلم بهم، فينعم على المؤمنين برؤيته دون المنافقين كما يمنعهم من السجود، والعلم عند الله تعالى»[(٧)].

قال شيخ الإسلام: «والأقوال ثلاثة في (رؤية الكفار):

أحدها: أن الكفار لا يرون ربهم بحال، لا المظهر للكفر ولا المسر له، وهذا قول أكثر العلماء المتأخرين وعليه يدل عموم كلام المتقدمين، وعليه جمهور

---

(١) المطففين: الآيتان (٢٢-٢٣).
(٢) الفتاوى (٦/ ٤٣٦-٤٣٧).
(٣) الفتاوى (٦/ ٤٨٥).
(٤) شرح مسلم (٥/ ١١٥).
(٥) المطففين: الآية (١٥).
(٦) المطففين: الآية (١٦).
(٧) الفتح (١٣/ ٥٢٢-٥٢٣).

أصحاب الإمام أحمد وغيرهم.

الثاني: أنه يراه من أظهر التوحيد من مؤمني هذه الأمة ومنافقيها وغبرات من أهل الكتاب، وذلك في عرصة القيامة، ثم يحتجب عن المنافقين فلا يرونه بعد ذلك، وهذا قول أبي بكر بن خزيمة من أئمة أهل السنة، وقد ذكر القاضي أبو يعلى نحوه في حديث إتيانه ﷻ لهم في الموقف الحديث المشهور.

الثالث: أن الكفار يرونه رؤية تعريف وتعذيب -كاللص إذا رأى السلطان- ثم يحتجب عنهم ليعظم عذابهم، وهذا قول أبي الحسن بن سالم وأصحابه وقول غيرهم؛ وهم في الأصول منتسبون إلى الإمام أحمد بن حنبل، وأبي سهل بن عبد اللَّه التستري»[١].

وقال أيضا: «والعمدة قوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾، فإنه يعم حجبهم عن ربهم في جميع ذلك اليوم، وذلك اليوم ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾[٢] وهو يوم القيامة، فلو قيل: إنه يحجبهم في حال دون حال لكان تخصيصا للفظ بغير موجب، ولكان فيه تسوية بينهم وبين المؤمنين؛ فإن (الرؤية) لا تكون دائمة للمؤمنين، والكلام خرج مخرج بيان عقوبتهم بالحجب وجزائهم به؛ فلا يجوز أن يساويهم المؤمنون في عقاب ولا جزاء سواه؛ فعلم أن الكافر محجوب على الإطلاق بخلاف المؤمن، وإذا كانوا في عرصة القيامة محجوبين فمعلوم أنهم في النار أعظم حجبا، وقد قال ﷻ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾[٣]، وقال: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[٤] وإطلاق وصفهم بالعمى ينافي (الرؤية) التي هي أفضل أنواع الرؤية»[٥].

الرد على منكري الرؤية:

قال القرطبي: «منع ذلك [أي: رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة] فرق من المبتدعة، منهم: المعتزلة، والخوارج، وبعض المرجئة، بناء منهم على أن الرؤية يلزمها شروط اعتقدوها عقلية، كاشتراط البنية المخصوصة، والمقابلة، واتصال

(١) الفتاوى (٦/ ٤٨٧-٤٨٨).
(٢) المطففين: الآية (٦).
(٣) الإسراء: الآية (٧٢).
(٤) طه: الآية (١٢٤).
(٥) الفتاوى (٦/ ٥٠١-٥٠٢).

الأشعة، وزوال الموانع من القرب المفرط، والبعد المفرط، والحجب الحائلة، في خبط لهم وتحكم، وأهل الحق لا يشترطون شيئا من ذلك عقلا سوى وجود المرئي، وأن الرؤية إدراك يخلقه اللَّه تعالى للرائي فيرى المرئي»[١].

قال ابن القيم: «والمنحرفون في باب رؤية الرب -تبارك وتعالى- نوعان: أحدهما: من يزعم أنه يرى في الدنيا ويحاضر ويسامر. والثاني: من يزعم أنه لا يرى في الآخرة ألبتة، ولا يكلم عباده. وما أخبر اللَّه به ورسوله وأجمع عليه الصحابة والأئمة يكذب الفريقين، وباللَّه التوفيق»[٢].

قال ابن بطال: «وزعموا [أي: منكروا الرؤية] أن قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ بمعنى منتظرة. فيقال لهم: هذا جهل بموضع اللغة؛ لأن النظر في كلام العرب ينقسم أربعة أقسام: يكون بمعنى الانتظار، ويكون بمعنى التفكر والاعتبار، ويكون بمعنى التعطف والرحمة، ويكون بمعنى الرؤية للأبصار؛ فخطأ كونه في الآية بمعنى الانتظار من وجهين:

أحدهما: أنه قد عدي إلى مفعوله (بإلى) وهو إذا كان بمعنى الانتظار لا يتعدى بها، وإنما يتعدى بنفسه قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾[٣] فعداه بنفسه لما كان بمعنى ينتظرون. قال الشاعر:

فإنكما إن تنظراني ساعة ... من الدهر تنفعني أرى أم جندب

بمعنى: تنتظراني.

والوجه الثاني: أن حمله على معنى الانتظار لا يخلو إما أن يراد به منتظرة ربها أو منتظرة ثوابه، وعلى أي الوجهين حمل فهو خطأ؛ لأن المنتظر لما ينتظره في تنغيص وتكدير، واللَّه -تعالى- قد وصف أهل الجنة بغير ذلك، وأن لهم فيها ما يشاءون. فبطل كون النظر في الآية بمعنى الاعتبار والتفكر؛ لأن الآخرة ليست بدار اعتبار وتفكر؛ إذ ليست بدار محنة وعبادة؛ ولأن ذاته -تعالى- ليست مما يعتبر بها؛ فبطل قولهم. ويبطل كون النظر في الآية بمعنى التعطف والرحمة؛ لأن ذاته -

(١) المفهم (١/ ٤١٤).
(٢) حادي الأرواح (ص:٣٠٣).
(٣) محمد: الآية (١٨).

تعالى- ليست مما يتعطف عليها وترحم.

فإذا بطلت هذه الأقسام الثلاثة؛ صح القسم الرابع وهو النظر إلى ربها بمعنى الرؤية بالأبصار له تعالى، وهو ما ذهب إليه جمهور المسلمين قبل حدوث القائلين بهذه الضلالة، وشهدت له السنن الثابتة من الطرق المختلفة. وما احتج به من نفي الرؤية من أنها توجب كون المرئي محدثا فهو فاسد؛ لقيام الدلائل على أن اللَّه - تعالى- موجود، وأن الرؤية منزلتها في تعلقها بالمرئي منزلة العلم في تعلقه بالمعلوم، فكما أن العلم المتعلق بالموجود لا يختص بموجود دون موجود، ولا توجب تعلقه به حدثه كذلك الرؤية في تعلقها بالمرئي لا يوجب حدثه.

واحتج نفاة الرؤية بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1]، وبقوله تعالى لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾[2] في جواب سؤاله الرؤية، وهذا لا تعلق لهم فيه؛ لأن قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ لفظ عام، وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ خاص، والخاص يقضي على العام ويبينه، فمعنى الآية لا تدركه الأبصار في الدنيا؛ لأنه تعالى قد أشار إلى أن المراد بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ الآخرة؛ لقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، وكذلك يكون معنى قوله لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ في الدنيا، ولأنه قد ثبت أن نفي الشيء لا يقتضي إحالته؛ بل قد يتناول المستحيل وجوده والجائز وجوده، فلا تعلق لهم بالآيتين مع ما يشهد لصحة الرؤية لله تعالى من الأحاديث الثابتة التي تلقاها المسلمون بالقبول من عصر الصحابة والتابعين ﷺ أجمعين إلى حدوث المارقين المنكرين للرؤية»[3].

قال الدارمي بعد سرده لأحاديث الباب وما في معناها في إثبات الرؤية: «فهذه الأحاديث كلها وأكثر منها قد رويت في الرؤية على تصديقها والإيمان بها، أدركنا أهل الفقه والبصر من مشايخنا، ولم يزل المسلمون قديما وحديثا يروونها ويؤمنون بها، لا يستنكرونها ولا ينكرونها، ومن أنكرها من أهل الزيغ نسبوه إلى الضلال، بل كان من أكبر رجائهم وأجزل ثواب اللَّه في أنفسهم النظر إلى وجه خالقهم، حتى ما يعدلون به شيئا من نعيم الجنة.

---

(١) الأنعام: الآية (١٠٣).

(٢) الأعراف: الآية (١٤٣).

(٣) شرح البخاري (١٠/ ٤٦٠-٤٦٢).

وقد كلمت بعض أولئك المعطلة، وحدثته ببعض هذه الأحاديث، وكان ممن يتزين بالحديث في الظاهر، ويدعي معرفتها، فأنكر بعضها، ورد ردا عنيفا. قلت: قد صحت الآثار عن رسول اللَّه ﷺ فمن بعده من أهل العلم، وكتاب اللَّه الناطق به، فإذا اجتمع الكتاب وقول الرسول وإجماع الأمة، لم يبق لمتأول عندها تأول، إلا لمكابر أو جاحد. أما الكتاب، فقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ ولم يقل للكفار: «محجوبون» إلا وأن المؤمنين لا يحجبون عنه، فإن كان المؤمنون عندكم محجوبين عن اللَّه كالكفار، فأي توبيخ للكفار في هذه الآية إذا كانوا هم والمؤمنون جميعا عن اللَّه يومئذ محجوبين.

وأما قول الرسول ﷺ فقوله: «لا تضامون في رؤيته كما لا تضامون في رؤية الشمس والقمر في الصحو». ثم ما روينا عن هذه الجماعة من أصحاب محمد ﷺ والتابعين، فهل عندكم ما رد ذلك من كتاب أو سنة أو إجماع من الأمة؟ فاحتج بحديث أبي ذر عن النبي ﷺ: «**نور أنى أراه؟**»[1] فقلت: هذا في الدنيا، وكلاهما قد قاله رسول اللَّه ﷺ، وتفسيرهما بين عند المحدثين جميعا. فقالت عائشة ﵂: من زعم أن محمدا رأى ربه ﷿ فقد أعظم على اللَّه الفرية، وتلت: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾[2]. حدثناه عمرو بن عون، عن هشيم، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق عن عائشة[3].

قال أبو سعيد: وأنتم وجميع الأمة تقولون به: إنه لم ير ولا يرى في الدنيا، فأما في الآخرة فما أكبر نعيم أهل الجنة إلا النظر إلى وجهه، والخيبة لمن حرمه، وما تعجبون من أن كان اللَّه ولا شيء من خلقه، ثم خلق الخلق، ثم استوى على عرشه فوق سمواته، واحتجب من خلقه بحجب النار والظلمة، كما جاءت به الآثار، ثم أرسل إليهم رسله يعرفهم نفسه بصفاته المقدسة، ليبلو بذلك إيمانهم أيهم يؤمن به

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٧و١٧١و١٧٥)، ومسلم (١/ ١٦١/ ١٧٨)، والترمذي (٥/ ٣٦٩/ ٣٢٨٢).

(٢) الأنعام: الآية (١٠٣).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٤٩-٥٠)، والبخاري (٨/ ٧٨٠/ ٤٨٥٥)، ومسلم (١/ ١٥٩/ ١٧٧)، والترمذي (٥/ ٢٤٥-٢٤٦/ ٣٠٦٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٥-٣٣٦/ ١١١٤٧).

ويعرفه بالغيب ولم يره. وإنما يجزى العباد على إيمانهم بالله بالغيب؛ لأن الله ﷻ لو تبدى لخلقه وتجلى لهم في الدنيا لم يكن لإيمان الغيب هناك معنى، كما أنه لم يكفر به عندها كافر، ولا عصاه عاص، ولكنه احتجب عنهم في الدنيا، ودعاهم إلى الإيمان به بالغيب، وإلى معرفته والإقرار بربوبيته، ليؤمن به من قد سبقت له منه السعادة، ويحق القول على الكافرين. ولو قد تجلى لهم لآمن به من في الأرض كلهم جميعا بغير رسل ولا كتب ولا دعاة، ولم يعصوه طرفة عين. فإذا كان يوم القيامة تجلى لمن آمن به وصدق رسله وكتبه، وآمن برؤيته، وأقر بصفاته التي وصف بها نفسه، حتى يروه عيانا، مثوبة منه لهم وإكراما، ليزدادوا بالنظر إلى من عبدوه بالغيب نعيما، وبرؤيته فرحا واغتباطا، ولم يحرموا رؤيته في الدنيا والآخرة جميعا، وحجب عنه الكفار يومئذ إذ حرموا رؤيته، كما حرموها في الدنيا، ليزدادوا حسرة وثبورا..

وقال بعضهم: إنا لا نقبل هذه الآثار، ولا نحتج بها. قلت: أجل، ولا كتاب الله تقبلون، أرأيتم إن لم تقبلوها، أتشكون أنها مروية عن السلف، مأثورة عنهم، مستفيضة فيهم، يتوارثونها عن أعلام الناس وفقهائهم قرنا بعد قرن؟ قالوا: نعم. قلنا: فحسبنا إقراركم بها عليكم حجة لدعوانا أنها مشهورة مروية، تداولتها العلماء والفقهاء، فهاتوا عنهم مثلها حجة لدعواكم التي كذبتها الآثار كلها، فلا تقدرون أن تأتوا فيها بخبر ولا أثر، وقد علمتم -إن شاء الله- أنه لا يستدرك سنن رسول الله ﷺ وأصحابه وأحكامهم وقضاياهم إلا بهذه الآثار والأسانيد على ما فيها من الاختلاف، وهي السبب إلى ذلك، والنهج الذي درج عليه المسلمون، وكانت إمامهم في دينهم بعد كتاب الله ﷻ، منها يقتبسون العلم، وبها يقضون، وبها يقيمون، وعليها يعتمدون، وبها يتزينون، يورثها الأول منهم الآخر، ويبلغها الشاهد منهم الغائب، احتجاجا بها، واحتسابا في أدائها إلى من لم يسمعها، يسمونها السنن والآثار والفقه والعلم، ويضربون في طلبها شرق الأرض وغربها، يحلون بها حلال الله، ويحرمون بها حرامه، ويميزون بها بين الحق والباطل، والسنن والبدع، ويستدلون بها على تفسير القرآن ومعانيه وأحكامه، ويعرفون بها ضلالة من ضل عن الهدى، فمن رغب عنها فإنما يرغب عن آثار السلف وهديهم، ويريد مخالفتهم ليتخذ دينه هواه، وليتأول كتاب الله برأيه خلاف ما عنى الله به.

فإن كنتم من المؤمنين، وعلى منهاج أسلافهم، فاقتبسوا العلم من آثارهم، واقتبسوا الهدى في سبيله، وارضوا بهذه الآثار إماما، كما رضي بها القوم لأنفسهم إماما. فلعمري ما أنتم أعلم بكتاب اللَّه منهم ولا مثلهم، ولا يمكن الاقتداء بهم إلا باتباع هذه الآثار على ما تروى. فمن لم يقبلها فإنه يريد أن يتبع غير سبيل المؤمنين وقال اللَّه تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[1].

فقال قائل منهم: لا بل نقول بالمعقول. قلنا: ها هنا ضللتم عن سواء السبيل، ووقعتم في تيه لا مخرج لكم منه، لأن المعقول ليس لشيء واحد موصوف بحدوده عند جميع الناس فيقتصر عليه. ولو كان كذلك كان راحة للناس، ولقلنا به ولم نعد، ولم يكن اللَّه -تبارك وتعالى- قال: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[2] فوجدنا المعقول عند كل حزب ما هم عليه، والمجهول عندهم ما خالفهم، فوجدنا فرقكم معشر الجهمية في المعقول مختلفين، كل فرقة منكم تدعي أن المعقول عندها ما تدعو إليه، والمجهول ما خالفها. فحين رأينا المعقول اختلف منا ومنكم ومن جميع أهل الأهواء، ولم نقف له على حد بين في كل شيء، رأينا أرشد الوجوه وأهداها أن نرد المعقولات كلها إلى أمر رسول اللَّه ﷺ؛ وإلى المعقول عند أصحابه المستفيض بين أظهرهم؛ لأن الوحي كان ينزل بين أظهرهم، فكانوا أعلم بتأويله منا ومنكم، وكانوا مؤتلفين في أصول الدين لم يفترقوا فيه، ولم تظهر فيهم البدع والأهواء الحائدة عن الطريق. فالمعقول عندنا ما وافق هديهم، والمجهول ما خالفهم، ولا سبيل إلى معرفة هديهم وطريقتهم إلا هذه الآثار، وقد انسلختم منها وانتفيتم منها بزعمكم، فأنى تهتدون؟.

واحتج أحد منهم بقول مجاهد: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ قال: تنتظر ثواب ربها؟ قلنا: نعم تنتظر ثواب ربها، ولا ثواب أعظم من النظر إلى وجهه -تبارك وتعالى-. فإن أبيتم إلا تعلقا بحديث مجاهد هذا، واحتجاجا به دون ما سواه من الآثار، فهذا آية شذوذكم عن الحق، واتباعكم الباطل، لأن دعواكم هذه لو صحت عن مجاهد على المعنى الذي تذهبون إليه، كان مدحوضا القول إليه، مع

(١) النساء: الآية (١١٥).

(٢) المؤمنون: الآية (٥٣).

هذه الآثار التي قد صحت فيه عن رسول اللَّه ﷺ وأصحابه وجماعة التابعين، أو لستم قد زعمتم أنكم لا تقبلون هذه الآثار، ولا تحتجون بها، فكيف تحتجون بالأثر عن مجاهد إذ وجدتم سبيلا إلى التعلق به لباطلكم على غير بيان؟ وتركتم آثار رسول اللَّه ﷺ وأصحابه والتابعين إذ خالفت مذهبكم! فأما إذ أقررتم بقبول الأثر عن مجاهد، فقد حكمتم على أنفسكم بقبول آثار رسول اللَّه ﷺ وأصحابه والتابعين بعدهم، لأنكم لم تسمعوا هذا عن مجاهد، بل تأثرونه عنه بإسناد وتأثرون بأسانيد مثلها أو أجود منها عن رسول اللَّه ﷺ وعن أصحابه والتابعين بعدهم ما هو خلافه عندكم. فكيف ألزمتم أنفسكم اتباع المشتبه من آثار مجاهد وحده؟! وتركتم الصحيح المنصوص من آثار رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، ونظراء مجاهد من التابعين، إلا من ريبة وشذوذ عن الحق، إن الذي يريد الشذوذ عن الحق يتبع الشاذ من قول العلماء، ويتعلق بزلاتهم، والذي يؤم الحق في نفسه، يتبع المشهور من قول جماعتهم، وينقلب مع جمهورهم، فهما آيتان بينتان يستدل بهما على اتباع الرجل وعلى ابتداعه»[1].

حكم من أنكر الرؤية:

قال شيخ الإسلام: «وقال وكيع بن الجراح: من كذب بحديث إسماعيل عن قيس عن جرير عن النبي ﷺ يعني قوله: «إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر» فهو جهمي فاحذروه»[2].

وقال أيضا: «والذي عليه جمهور السلف أن من جحد رؤية اللَّه في الدار الآخرة فهو كافر؛ فإن كان ممن لم يبلغه العلم في ذلك عرف ذلك، كما يعرف من لم تبلغه شرائع الإسلام، فإن أصر على الجحود بعد بلوغ العلم له فهو كافر»[3].

وقال أيضا: «قال أبو عبد الله: أحاديث الرؤية. نؤمن بها ونعلم أنها حق، ونؤمن بأننا نرى ربنا يوم القيامة لا نشك فيه ولا نرتاب. قال[4]: وسمعت أبا عبد اللَّه يقول: من زعم أن اللَّه لا يرى في الآخرة فقد كفر وكذب بالقرآن ورد

(١) الرد على الجهمية (ص: ٦٣-٦٨).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٨٤).

(٣) الفتاوى (٦/ ٤٨٦).

(٤) القائل هو حنبل بن إسحاق.

على اللَّه تعالى أمره، يستتاب فإن تاب وإلا قتل»[١].

وجه اقتران تلكم الصلاتين بالرؤية:

قال الحافظ: «قال العلماء: ووجه مناسبة ذكر هاتين الصلاتين عند ذكر الرؤية أن الصلاة أفضل الطاعات، وقد ثبت لهاتين الصلاتين من الفضل على غيرهما ما ذكر من اجتماع الملائكة فيهما، ورفع الأعمال وغير ذلك، فهما أفضل الصلوات، فناسب أن يجازى المحافظ عليهما بأفضل العطايا وهو النظر إلى اللَّه تعالى. وقيل: لما حقق رؤية اللَّه تعالى برؤية القمر والشمس -وهما آيتان عظيمتان شرعت لخسوفهما الصلاة والذكر- ناسب من يحب رؤية اللَّه تعالى أن يحافظ على الصلاة عند غروبها اهـ. ولا يخفى بعده وتكلفه. واللَّه أعلم»[٢].

قال شيخ الإسلام: «فقوله ﷺ: «**إنكم سترون ربكم، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاتين**» إلى: «**فافعلوا**»، يقتضي أن المحافظة عليها هنا لأجل ابتغاء هذه الرؤية، ويقتضي أن المحافظة سبب لهذه الرؤية، ولا يمنع أن تكون المحافظة توجب ثوابا آخر ويؤمر بها لأجله، وأن المحافظة عليها سبب لذلك الثواب وأن للرؤية سببا آخر؛ لأن تعليل الحكم الواحد بعلل واقتضاء العلة الواحدة لأحكام جائز»[٣].

تشبيه رؤية اللَّه برؤية القمر:

قال العيني: «فإن قلت: الكاف في: «كما ترون»، للتشبيه، ولابد أن تكون مناسبة بين الرائي والمرئي؟ قلت: معنى التشبيه فيه أنكم ترونه رؤية محققة لا شك فيها ولا مشقة ولا خفاء، كما ترون القمر كذلك، فهو تشبيه للرؤية لا المرئي بالمرئي»[٤].

قال ابن رجب: «وإنما شبه الرؤية برؤية البدر لمعنيين:

أحدهما: أن رؤية القمر ليلة البدر لايشك فيه ولا يمترى.

والثاني: يستوي فيه جميع الناس من غير مشقة. وقد ظن المريسي ونحوه ممن

(١) الفتاوى (٦/ ٤٩٩-٥٠٠).
(٢) الفتح (٢/ ٤٣).
(٣) الفتاوى (٦/ ٤٢٣).
(٤) عمدة القاري (٤/ ٦١).

ضل وافترى على اللَّه أن هذا الحديث يرد لما يتضمن من التشبيه فضل وأضل، واتفق السلف الصالح على تلقي هذا الحديث بالقبول والتصديق»[١].

* عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد اللَّه يسأل عن الورود فقال: «**نجيء نحن يوم القيامة عن كذا وكذا انظر أي ذلك فوق الناس. قال: فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد. الأول فالأول؟، ثم يأتينا ربنا بعد ذلك فيقول: من تنظرون؟ فيقولون ننظر ربنا، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: حتى ننظر إليك، فيتجلى لهم يضحك، قال: فينطلق بهم ويتبعونه، ويعطى كل إنسان منهم، منافق أو مؤمن نورا، ثم يتبعونه، وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك، تأخذ من شاء اللَّه، ثم يطفأ نور المنافقين، ثم ينجوا المؤمنون، فتنجو أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر، سبعون ألفا لا يحاسبون، ثم الذين يلونهم كأضوإ نجم في السماء، ثم كذلك، ثم تحل الشفاعة، ويشفعون حتى يخرج من النار من قال: لا إله إلا اللَّه، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، فيجعلون بفناء الجنة، ويجعل أهل الجنة يرشون عليهم الماء حتى ينبتوا نبات الشيء في السيل، ويذهب حراقه، ثم يسأل حتى تجعل له الدنيا وعشرة أمثالها معها**»[٢].

⋆ **غريب الحديث:**

فيتجلى لهم يضحك: التجلي في لسان العرب الظهور، فيكون المعنى ههنا يظهر لهم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾[٣] معناه ظهر.

⋆ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث دليل على أن المؤمنين يرون ربهم ﷻ في العرصات، وفي روضات الجنات»[٤].

* صلى عمار بن ياسر بالقوم صلاة أخفها، فكأنهم أنكروها فقال: ألم أتم

---

(١) فتح الباري (٤/ ٣٢٠-٣٢١).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٨٣-٣٨٤)، مسلم (١/ ١٧٧-١٧٨/ ١٩١).

(٣) الأعراف: الآية (١٤٣).

(٤) أفاده ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٠٥).

الركوع والسجود؟ قالوا: بلى، قال: أما إني دعوت فيها بدعاء كان النبي ﷺ يدعو به: **«اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة الإخلاص في الرضا والغضب، وأسألك نعيما لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضاء بالقضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، وأعوذ بك من ضراء مضرة، وفتنة مضلة. اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»**[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فجمع في هذا الدعاء العظيم القدر بين أطيب شيء في الدنيا، وهو الشوق إلى لقائه سبحانه، وأطيب شيء في الآخرة، وهو النظر إلى وجهه سبحانه. ولما كان كمال ذلك وتمامه موقوفا على عدم ما يضر في الدنيا ويفتن في الدين قال: «في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة»»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «النعيم في الدار الآخرة أيضا مثل النظر إليه لا كما يزعم طائفة من أهل الكلام ونحوهم، أنه لا نعيم ولا لذة إلا بالمخلوق: من المأكول والمشروب والمنكوح ونحو ذلك، بل اللذة والنعيم التام في حظهم من الخالق ﷻ، كما في الدعاء المأثور: **«اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة»**. رواه النسائي وغيره، وفي صحيح مسلم وغيره عن صهيب عن النبي ﷺ قال: **«إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادٍ يا أهل الجنة؛ إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه. فيقولون: ماهو؟! ألم يبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟! قال: فيكشف الحجاب؛ فينظرون إليه سبحانه. فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه، وهو الزيادة»**[٣].

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٦٤)، النسائي (٣/ ٦٢-٦٣/ ١٣٠٥) واللفظ له، وصححه الحاكم (١/ ٥٢٤-٥٢٥) ووافقه الذهبي، وصححه أيضا ابن حبان (الإحسان (٥/ ٣٠٤-٣٠٥/ ١٩٧١).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٤٥).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٢-٣٣٣)، ومسلم (١/ ١٦٣/ ١٨١)، والترمذي (٤/ ٥٩٣/ ٢٥٥٢)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٢٠/ ٧٧٦٦)، وابن ماجه (١/ ٦٧/ ١٨٧) من حديث صهيب بن سنان رضي الله عنه.

فبين النبي ﷺ: أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم اللَّه في الجنة لم يعطهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه؛ وإنما يكون أحب إليهم لأن تنعمهم وتلذذهم به أعظم من التنعم والتلذذ بغيره. فإن اللذة تتبع الشعور بالمحبوب، فكلما كان الشيء أحب إلى الانسان كان حصوله ألذ له، وتنعمه به أعظم.

وروي أن يوم الجمعة يوم المزيد، وهو يوم الجمعة من أيام الآخرة، وفي الأحاديث والآثار ما يصدق هذا، قال اللَّه تعالى في حق الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾. فعذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب. ولذة النظر إلى وجهه أعلى اللذات؛ ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم منه تعالى»[1].

وقال أيضًا: «والمقصود هنا أن مثبتة الرؤية منهم من أنكر أن يكون المؤمن ينعم بنفس رؤيته ربه، قالوا: لأنه لا مناسبة بين المحدث والقديم كما ذكر ذلك الاستاذ أبو المعالي الجويني في (الرسالة النظامية)، وكما ذكره أبو الوفاء بن عقيل في بعض كتبه، ونقلوا عن ابن عقيل أنه سمع رجلا يقول: أسألك لذة النظر إلى وجهك. فقال: يا هذا هب أن له وجها، أله وجه يتلذذ بالنظر إليه؟! وذكر أبو المعالي: أن اللَّه يخلق لهم نعيما ببعض المخلوقات مقارنا للرؤية، فأما النعيم بنفس الرؤية فأنكره وجعل هذا من أسرار التوحيد. وأكثر مثبتي الرؤية يثبتون تنعم المؤمنين برؤية ربهم، وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها، ومشائخ الطريق، كما في الحديث. .

وكلما كان الشيء أحب كانت اللذة بنيله أعظم، وهذا متفق عليه بين السلف والأئمة ومشائخ الطريق، كما روي عن الحسن البصري أنه قال: لو علم العابدون بأنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت نفوسهم في الدنيا شوقا إليه، وكلامهم في ذلك كثير»[2].

* * *

(١) الفتاوى (١/ ٢٦-٢٧).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٦٩٥-٦٩٧).

قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

باسرة: البَسْرُ: تقطيب الوجه وعبوسَتُه من الكراهة.

فاقرة: الفاقرة: الداهية والآبدة. يقال: فَقَرَتْهُ المصيبة، أي: كَسَرَتْ فَقَارَ ظَهْرِهِ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «المعنى: أنها عابسة كالحة قد أظلمت ألوانها، وعدمت آثار السرور والنعمة منها، لما أدركها من الشقاء واليأس من رحمة الله، ولما سودها الله حين ميز الله أهل الجنة والنار.. وإنما كانت بهذه الصفة؛ لأنها قد أيقنت أن العذاب نازل، وهو قوله: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ والظن هاهنا بمعنى اليقين، هكذا قاله المفسرون، وعندي أن الظن إنما ذكر هاهنا على سبيل التهكم، كأنه قيل: إذا شاهدوا تلك الأحوال، حصل فيهم ظن أن القيامة حق، وأما الفاقرة، فقال أبو عبيدة: الفاقرة الداهية، وهو اسم للوسم الذي يفقر به على الأنف، قال الأصمعي: الفقر أن يحز أنف البعير حتى يخلص إلى العظم، أو قريب منه، ثم يجعل فيه خشبة يجر البعير بها، ومنه قيل: عملت به الفاقرة، قال المبرد: الفاقرة داهية تكسر الظهر، وأصلها من الفقرة والفقارة كأن الفاقرة داهية تكسر فقار الظهر، وقال ابن قتيبة: يقال فقرت الرجل، كما يقال رأسته وبطنته فهو مفقور، واعلم أن من المفسرين من فسر الفاقرة بأنواع العذاب في النار، وفسرها الكلبي فقال: الفاقرة هي أن تحجب عن رؤية ربها ولا تنظر إليه»[١].

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٩/ ٢٣٠-٢٣١).

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

التراقي: جمع الترقوة، وهي مقدم الحلق من أعلى الصدر. قال ذو الرمة:

ورب عظيمة دافعت عنها وقد بلغت نفوسهم التراقي

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال -ثبتنا اللَّه هنالك بالقول الثابت- فقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾ إن جعلنا ﴿كَلَّآ﴾ رداعة فمعناها: لست يا ابن آدم تكذب هناك بما أخبرت به، بل صار ذلك عندك عيانا. وإن جعلناها بمعنى (حقا) فظاهر، أي: حقا إذا بلغت التراقي، أي: انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك، والتراقي: جمع ترقوة، وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق، كقوله: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾[1]. وهكذا قال هاهنا: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾»[2].

وقوله: ﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾﴾ يقول القرطبي: «اختلف فيه: فقيل هو من الرقية، عن ابن عباس وعكرمة وغيرهما. روى سماك عن عكرمة قال: من راق يرقي: أي يشفي. وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس: أي هل من طبيب يشفيه، وقاله أبو قلابة وقتادة، وقال الشاعر:

هل للفتى من بنات الدهر من واق أم هل له من حمام الموت من راق

وكان هذا على وجه الاستبعاد واليأس، أي: من يقدر أن يرقي من الموت.

---

(١) الواقعة: الآيات (٨٣-٨٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٠٦-٣٠٧).

وعن ابن عباس أيضا وأبي الجوزاء أنه من رقي يرقى: إذا صعد، والمعنى: من يرقى بروحه إلى السماء؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ وقيل: إن ملك الموت يقول من راق؟ أي من يرقى بهذه النفس، وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها، فيقول ملك الموت: يا فلان اصعد بها»[١].

قال ابن القيم: «والقول الأول أظهر لوجوه:

أحدها: أنه ليس كل ميت يقول حاضروه من يرقى بروحه، وهذا إنما يقوله من يؤمن برقي الملائكة بروح الميت، وأنهم ملائكة رحمة وملائكة عذاب، بخلاف التماس الرقية وهي الدعاء فإنه قل ما يخلو منه المحتضر.

الثاني: أن الروح إنما يرقى بها الملك بعد مفارقتها، وحينئذ يقال: من يرقى بها؟ وأما قبل المفارقة فطلب الرقية للمريض من الحاضرين أنسب من طلب علم من يرقى بها إلى اللَّه.

الثالث: أن فاعل الرقية يمكن العلم به، فيحسن السؤال عنه، ويفيد السامع، وأما الراقي إلى اللَّه فلا يمكن العلم بتعيينه حتى يسأل عنه، و(من) إنما يسأل بها عن تعيين ما يمكن السائل أن يصل إلى العلم بتعيينه.

الرابع: أن مثل هذا السؤال إنما يراد به تحضيض وإثارة اهتمام إلى فعل يقع بعد من نحو قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[٢] أو يراد به إنكار فعل ما يذكر بعدها كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[٣] وفعل الراقي إلى اللَّه لا يحسن فيه واحد من الأمرين هنا، بخلاف فاعل الرقية فإنه يحسن فيه الأول.

الخامس: أن هذا خرج على عادة العرب وغيرهم في طلب الرقية لمن وصل إلى مثل تلك الحال، فحكى اللَّه سبحانه ما جرت عادتهم بقوله، وحذف فاعل القول لأنه ليس الغرض متعلقا بالقائل؛ بل بالقول، ولم تجر عادة المخاطبين بأن يقولوا من يرقى بروحه، فكان حمل الكلام على ما ألف، وجرت العادة بقوله أولى، إذ هو تذكير لهم بما يشاهدونه ويسمعونه.

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٧٢-٧٣).
(٢) الحديد: الآية (١١).
(٣) البقرة: الآية (٢٥٥).

السادس: أنه لو أريد هذا المعنى لكان وجه الكلام أن يقال: من هو الراقي ومن الراقي، ولا وجه للكلام غير ذلك، كما يقال: من هو القائل منكما كذا وكذا وفي الحديث: «من القائل كلمة كذا»[(١)].

السابع: إن كلمة (من) إنما يسأل بها عن التعيين كما يقول: من الذي فعل كذا ومن ذا الذي قاله، فيعلم أن فاعلا وقائلا فعل وقال، ولا يعلم تعيينه فيسأل عن تعيينه بمن تارة، وبأي تارة، وهم لم يسألوا عن تعيين الملك الراقي بالروح إلى اللَّه. فإن قيل: بل علموا أن ملك الرحمة والعذاب صاعد بروحه، ولم يعلموا تعيينه، فيسأل عن تعيين أحدهما، قيل: هم يعلمون أن تعيينه غير ممكن فكيف يسألون عن تعيين ما لا سبيل للسامع إلى تعيينه، ولا إلى العلم به.

الثامن: أن الآية إنما سيقت لبيان يأسه من نفسه ويأس الحاضرين معه، وتحقق أسباب الموت، وأنه قد حضر ولم يبق شيء ينجع فيه، ولا مخلص منه؛ بل هو قد ظن أنه مفارق لا محالة، فالحاضرون قد علموا أنه لم يبق لأسباب الحياة المعتادة تأثير في بقائه، فطلبوا أسبابا خارجة عن المقدور تستجلب بالرقى والدعوات فقالوا: ﴿مَنْۜ رَاقٍ﴾؟ أي: من يرقي هذا العليل من أسباب الهلاك، والرقية عندهم كانت مستعملة حيث لا يجدي الدواء.

التاسع: أن مثل هذا إنما يراد به النفي والاستبعاد: وهو أحد التقديرين في الآية، أي: لا أحد يرقي من هذه العلة بعدما وصل صاحبها إلى هذه الحال، فهو استبعاد لنفع الرقية لا طلب لوجود الراقي، كقوله: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[(٢)] أي: لا أحد يحييها وقد صارت إلى هذه الحال، فإن أريد بها هذا المعنى استحال أن يكون من الرقي، وإن أريد بها الطلب استحال أيضا أن يكون منه، وقد بينا أنها في مثل هذا إنما تستعمل للطلب أو للإنكار، وحينئذ فنقول في الوجه العاشر: إما أن يراد بها طلب أو الاستبعاد، والطلب إما أن يراد به طلب الفعل أو طلب التعيين، ولا سبيل إلى حمل واحد من هذه المعاني على الرقي لما بيناه، واللَّه أعلم»[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٤)، ومسلم (١/ ٤٢٠/ ٦٠١)، والترمذي (٥/ ٥٣٧/ ٣٥٩٢) والنسائي (٢/ ٤٦٢/ ٨٨٥)، من حديث ابن عمر ﵄.

(٢) يس: الآية (٧٨).

(٣) التبيان (ص: ٩٥-٩٧).

وقوله: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨﴾ قال الشوكاني: «أي: أيقن الذي بلغت روحه التراقي أنه الفراق من الدنيا ومن الأهل والمال والولد»[١].

قال الرازي: «ولعله إنما سمي اليقين هاهنا بالظن؛ لأن الإنسان ما دام يبقى روحه متعلقًا ببدنه، فإنه يطمع في الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة على ما قال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠﴾[٢] ولا ينقطع رجاؤه عنها فلا يحصل له يقين الموت، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة، أو لعله سماه بالظن على سبيل التهكم»[٣].

وقوله: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩﴾ قال القرطبي: «أي: فاتصلت الشدة بالشدة، شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة، قاله ابن عباس والحسن وغيرهما. وقال الشعبي وغيره: المعنى: التفت ساقا الانسان عند الموت من شدة الكرب. وقال قتادة: أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجليه على الأخرى. وقال سعيد بن المسيب والحسن أيضا: هما ساقا الانسان إذا التفتا في الكفن. وقال زيد بن أسلم: التفت ساق الكفن بساق الميت. وقال الحسن أيضا: ماتت رجلاه ويبست ساقاه فلم تحملاه، ولقد كان عليهما جوالا. قال النحاس: القول الأول أحسنها.

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩﴾ قال: آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحمه الله، أي شدة كرب الموت بشدة هول المطلع، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾ وقال. مجاهد: بلاء ببلاء. يقول: تتابعت عليه الشدائد. وقال الضحاك وابن زيد: اجتمع عليه أمران شديدان: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه، والعرب لا تذكر الساق إلا في المحن والشدائد العظام، ومنه قولهم: قامت الدنيا على ساق، وقامت الحرب على ساق»[٤].

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾ قال الشوكاني: «أي: إلى خالقك يوم القيامة المرجع، وذلك جمع العباد إلى الله يساقون إليه»[٥].

قال ابن كثير: «وذلك أن الروح ترفع إلى السماوات، فيقول الله ﷻ: ردوا

---

(١) فتح القدير (٥/ ٤٨٥).
(٢) القيامة: الآية (٢٠).
(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٣٢).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٧٣).
(٥) فتح القدير (٥/ ٤٨٦).

عبدي إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى. كما ورد في حديث البراء الطويل. وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾[1]»[2].

قال السعدي: «فهذا الزجر الذي ذكره اللَّه يشوق القلوب إلى ما فيه نجاتها، ويزجرها عما فيه هلاكها، ولكن المعاند لا تنفع فيه الآيات، لا يزال مستمرا على غيه وكفره وعناده»[3].

* * *

(١) الأنعام: الآيتان (٦١-٦٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٠٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٢٨).

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يتمطى: يتبختر في مشيته.

أولى لك: كلمة وعيد. قالت الخنساء:

هممت بنفسي كل الهموم ... فأولى بنفسي أولى لها

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا إخبار عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذبا للحق بقلبه، متوليا عن العمل بقالبه، فلا خير فيه باطنا ولا ظاهرا، ولهذا قال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ أي: جذلا. أشرا بَطرا كسلانا، لا همة له ولا عمل، كما قال: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾[1]. وقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: يرجع ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾[2]. وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ أي: يختال. وقال قتادة، وزيد بن أسلم: يتبختر.

قال اللّٰه تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد منه تعالى للكافر به المتبختر في مشيته، أي: يحق لك أن تمشي هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك، كما يقال في مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد، كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾[3]»[4].

قال القاسمي: «قال القفال: هذا يحتمل وجوهًا:

أحدها: أنه وعيد مبتدأ من اللّٰه للكافر.

---

(١) المطففين: الآية (٣١).

(٢) الانشقاق: الآيات (١٣-١٥).

(٣) الدخان: الآية (٤٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٠٨-٣٠٨).

والثاني: أنه شيء قاله النبي ﷺ لعدوه -يعني أبا جهل- فاستنكره عدو اللّه لعزته عند نفسه، فأنزل اللّه تعالى مثل ذلك.

والثالث: أن يكون ذلك أمرا من اللّه لنبيه بأن يقولها لعدو اللّه، فيكون المعنى: ثم ذهب إلى أهله يتمطى، فقل له يا محمد: أولى لك فأولى، أي: احذر، فقد قرب منك ما لا قبل لك به من المكروه. انتهى والأظهر هو الأول»[1].

قال ابن عطية: «قال جمهور المتأولين: هذه الآية كلها نزلت في أبي جهل بن هشام، قال القاضي أبو محمد: ثم كادت هذه الآية أن تصرح به في قوله تعالى: ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ فإنها كانت مشية بني مخزوم، وكان أبو جهل يكثر منها»[2].

قال ابن عاشور: «وأحسب أن المراد: كل إنسان كافر كما يقتضيه أول الكلام من قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ إلى قوله: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤﴾[3]، وما أبو جهل إلا من أولهم، وأن النبي ﷺ توعده باللفظ الذي أنزله اللّه تهديدا لأمثاله»[4].

قال البقاعي: «وقد أفهمت الآية أن من أصلح قوتي علمه وعمله بأن صدق باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأقبل وأقام الصلاة فتبعتها جميع الأعمال التي هي عمادها، فنشأ عن ذلك خلق حسن وهو الوجل مع الطاعة، فهنالك يقال له: بشرى لك فبشرى ثم بشرى لك فبشرى»[5].

قال أبو السعود: «وفيه دلالة على أن الكفار مخاطبون في الفروع في حق المؤاخذة»[6].

قال الرازي: «واعلم أن الآية دالة على أن الكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة كما يستحقها بترك الإيمان»[7].

---

(١) محاسن التأويل (١٦/ ٣٦٠).
(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٤٠٦).
(٣) القيامة: الآيات (٣-١٤).
(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٦٤).
(٥) نظم الدرر (٢١/ ١١٤).
(٦) تفسير أبي السعود (٩/ ٦٨).
(٧) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٣٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤﴾ أشيء قاله رسول الله ﷺ أو شيء أنزله الله؟ قال: قاله رسول الله ﷺ ثم أنزله الله[1].

* * *

(١) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٥٠٤/ ١١٦٣٨)، الحاكم (٢/ ٥١٠) واللفظ له وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي. الطبراني (١١/ ٤٥٨/ ١٢٢٥٨). وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٣٢) وقال: «رواه الطبراني ورجاله ثقات».

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سدىً: مهملًا بلا أمر ولا نهي.

علقة: العلقة: القطعة من الدم الغليظ المنعقد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ قال السدي: يعني: لا يبعث. وقال مجاهد، والشافعي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني لا يؤمر ولا ينهى. والظاهر أن الآية تعم الحالين، أي: ليس يترك في هذه الدنيا مهملا لا يؤمر ولا ينهى، ولا يترك في قبره سدى لا يبعث؛ بل هو مأمور منهي في الدنيا، محشور إلى اللَّه في الدار الآخرة. والمقصود هنا إثبات المعاد، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد، ولهذا قال مستدلا على الإعادة بالبداءة فقال. ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾؟ أي: أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين، يمنى يراق من الأصلاب في الأرحام. ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي: فصار علقة، ثم مضغة، ثم شُكّل ونفخ فيه الروح، فصار خلقا آخر سَويًا سليم الأعضاء، ذكرا أو أنثى بإذن اللَّه وتقديره؛ ولهذا قال: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾.

ثم قال: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ أي: أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه؟ وتناولُ القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداءة، وإما مساوية على القولين في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[1]. والأول أشهر»[2].

---

(١) الروم: الآية (٢٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٠٨-٣٠٩).

قال ابن القيم: «فاحتج سبحانه على أنه لا يترك الإنسان مهملا معطلا عن الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وأن حكمته وقدرته تأبى ذلك، فإن من نقله من نطفة مني إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم خلقه وشق سمعه وبصره، وركب فيه الحواس والقوى والعظام والمنافع، والأعصاب والرباطات التي هي أسره وأتقن خلقه، وأحكمه غاية الإحكام، وأخرجه على هذا الشكل والصورة التي هي أتم الصور وأحسن الأشكال، كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة ثانية، أم كيف تقتضي حكمته وعنايته به أن يتركه سدى، فلا يليق ذلك بحكمته، ولا تعجز عنه قدرته، فانظر إلى هذا الحجاج العجيب بالقول الوجيز، الذي لا يكون أوجز منه، والبيان الجليل الذي لا يتوهم أوضح منه، ومأخذه القريب الذي لا تقع الظنون على أقرب منه»[1].

وقال أيضا وهو يعدد أسرار السورة: «ومن أسرارها أن إثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل، وهذا أحد القولين لأصحابنا وغيرهم، فإن اللّٰه سبحانه أنكر على من حسب أنه يترك سدى، فلا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب، ولم ينف سبحانه ذلك بطريق الخبر المجرد؛ بل نفاه نفي مالا يليق نسبته إليه ونفي منكر على من حكم به وظنه، ثم استدل سبحانه على فساد ذلك، وبين أن خلقه الإنسان في هذه الأطوار وتنقله فيها طورا بعد طور حتى بلغ نهايته، يأبى أن يتركه سدى، فإنه ينزه عن ذلك كما ينزه عن العبث والعيب والنقص.

وهذه طريقة القرآن في غير موضع كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾[2] فجعل كمال ملكه، وكونه سبحانه الحق، وكونه لا إله إلا هو، وكونه رب العرش المستلزم لربوبيته لكل مادونه، مبطلا لذلك الظن الباطل، والحكم الكاذب، وإنكار هذا الحسبان عليهم مثل إنكاره عليهم حسبانهم أنه لا يسمع سرهم ونجواهم، وحسبان أنه لا يراهم ولا يقدر عليهم، وحسبان أن يسوي بين أوليائه وبين أعدائه في محياهم ومماتهم، وغير ذلك مما هو منزه عنه تنزيهه عن سائر العيوب والنقائص، وأن نسبة ذلك كنسبة ما يتعالى عنه مما لا يليق: من اتخاذ الولد والشريك ونحو ذلك مما ينكره سبحانه على من حسبه أشد الإنكار، فدل على أن ذلك قبيح ممتنع نسبته إليه كما يمتنع أن ينسب إليه سائر ما ينافي كماله المقدس. ولو

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٨٠-٤٨١).

(٢) المؤمنون: الآيتان (١١٥-١١٦).

كان نفي تركه سدى إنما يعلم بالسمع المجرد لم يقل بعد ذلك: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾ إلى آخره، ومما يدل أن تعطيل أسمائه وصفاته ممتنع، وكذلك تعطيل موجبها ومقتضاها، فإن ملكه الحق يستلزم أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وكذلك يستلزم إرسال رسله، وإنزال كتبه، وبعث المعاد ليوم يجزى فيه المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فمن أنكر ذلك فقد أنكر حقيقة ملكه، ولم يثبت له الملك الحق، ولذلك كان منكر ذلك كافرا بربه، وإن زعم أنه يقر بصانع العالم فلم يؤمن بالملك الحق الموصوف بصفات الجلال، والمستحق لنعوت الكمال، كما أن المعطل لكلامه وعلوه على خلقه لم يؤمن به سبحانه فإنه آمن برب لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى، ولا يصعد إليه قول ولا عمل، ولا ينزل من عنده ملك ولا أمر، ولا نهي ولا ترفع إليه الأيدي، ومعلوم أن هذا النافي آمن برب مقدر في ذهنه، ليس هو رب العالمين وإله المرسلين.

وكذلك إذا اعتبرت اسمه الحي وجدته مقتضيا لصفات كماله، من علمه وسمعه وبصره وقدرته وإرادته ورحمته وفعله ما يشاء، واسمه القيوم مقتض لتدبير أمر العالم العلوي والسفلي، وقيامه بمصالحه وحفظه له، فمن أنكر صفات كماله لم يؤمن بأنه الحي القيوم، وإن أقر بذلك ألحد في أسمائه وعطل حقائقها حيث لم يمكنه تعطيل ألفاظها. وبالله التوفيق»[(١)].

قلت: سورة من السور الفريدة المحبوبة لدى القراء والأئمة؛ لما اشتملت عليه من مواعظ وتذكير بأحوال أهل الكفر والعناد، وبينت صفاتهم وأحوالهم وواقعهم المشين وإعراضهم عن أصول الإيمان، وإقبالهم على الكفر والشرك بالله. وفي السورة ذكر صفة من أعظم صفات الله تعالى، وهي رؤيته -تبارك وتعالى- يوم القيامة. فهذه السورة تميزت بإبراز هذه الصفة وتوضيحها، فمن أضاف إلى ذلك بقية الآيات ونصوص السنة المتواترة؛ صرح بالقطع الذي لا مرية فيه بهذه الصفة؛ وهو ما يبعثه على الاجتهاد في الخيرات والدعوة إليها إلى أن يلقى الله -تبارك وتعالى- فيفرح بعمله الصالح، ويفوز برؤية خالقه الذي رؤيته من أعظم النعم وألذ اللذات. فلا حرمنا الله من ذلك وإخواننا وأبناءنا وأزواجنا وآباءنا الذين ماتوا على التوحيد.

---

(١) التبيان (ص: ٩٩-١٠٠).



سورة الإنسان

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءة الرسول ﷺ بسورة الإنسان

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان النبي ﷺ يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر: ألم تنزيل السجدة وهل أتى على الإنسان)(١).

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «فيه دليل على استحباب قراءة هاتين السورتين في هذه الصلاة من هذا اليوم لما تشعر الصيغة به من مواظبته ﷺ على ذلك وإكثاره منه»(٢).

وقال أيضا: «قيل: إن الحكمة في هاتين السورتين الإشارة إلى ما فيهما من ذكر خلق آدم وأحوال يوم القيامة؛ لأن ذلك كان وسيقع يوم الجمعة، ذكره ابن دحية في العلم المشهور وقرره تقريرا حسنا»(٣).

وقال ابن القيم: «وهكذا كانت قراءته ﷺ في المجامع الكبار، كالأعياد ونحوها، بالسورة المشتملة على التوحيد والمبدإ والمعاد، وقصص الأنبياء مع أممهم، وما عامل اللَّه به من كذبهم وكفر بهم من الهلاك والشقاء، ومن آمن منهم وصدقهم من النجاة والعافية»(٤).

* عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قرأ رسول اللَّه ﷺ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ حتى ختمها، ثم قال: «**إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون،**

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٧٠٢/ ١٠٦٨)، مسلم (٢/ ٥٩٩/ ٨٨٠). النسائي (٢/ ٤٩٧/ ٩٥٤). ابن ماجه (١/ ٢٦٩/ ٨٢٣).

(٢) الفتح (٢/ ٤٨٠).

(٣) الفتح (٢/ ٤٨٢).

(٤) الزاد (١/ ٤٢٢).

أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع قدر أربع أصابع إلا ملك واضع جبهته ساجدا لله، واللَّه لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى اللَّه تعالى، واللَّه لوددت أني شجرة تعضد»[1].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٧٣)، والترمذي (٤/ ٤٨١-٤٨٢/ ٢٣١٢) وقال: «حديث حسن غريب»، وقال: في الباب عن أبي هريرة وعائشة وابن عباس وأنس. ابن ماجه (٢/ ١٤٠٢/ ٤١٩٠)، وأخرجه: الحاكم (٢/ ٥١٠) واللفظ له: وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وسكت عنه الذهبي. وإبراهيم بن مهاجر قال عنه الحافظ في التقريب: «صدوق لين الحفظ».

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾

★ غريب الآية:

نطفة: أصل النطفة: الماء القليل، وقد يراد بها الكثير. قال الشاعر:

وما النفس إلا نطفة بقرارة إذا لم تكدر كان صفوًا غديرها

أمشاج: واحدها: مشيج، ومعناها: أخلاط. يقال: مشجت هذا بهذا، أي: خلطته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ قد أتى على الإنسان، وهل في هذا الموضع خبر لا جحد، وذلك كقول القائل لآخر يقرّره: هل أكرمتك؟ وقد أكرمه؛ أو هل زرتك؟ وقد زاره، وقد تكون جحدا في غير هذا الموضع، وذلك كقول القائل لآخر: هل يفعل مثل هذا أحد؟ بمعنى: أنه لا يفعل ذلك أحد. والإنسان الذي قال -جل ثناؤه- في هذا الموضع: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ هو آدم ﷺ..

وقوله: ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ اختلف أهل التأويل في قدر هذا الحين الذي ذكره اللَّه في هذا الموضع، فقال بعضهم: هو أربعون سنة، وقالوا: مكثت طينة آدم مصوّرة لا تنفخ فيها الرّوح أربعين عامًا، فذلك قدر الحين الذي ذكره اللَّه في هذا الموضع، قالوا: ولذلك قيل: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ لأنه أتى عليه وهو جسم مصوّر لم تنفخ فيه الروح أربعون عاما، فكان شيئا، غير أنه لم يكن شيئا مذكورا، قالوا: ومعنى قوله: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ لم يكن شيئا له نباهة ولا رفعة ولا شرف، إنما كان طينا لازبًا، وحمأ مسنونا.

وقال آخرون: لا حدّ للحين في هذا الموضع؛ وقد يدخل هذا القول من أن اللَّه

أخبر أنه أتى على الإنسان حين من الدهر، وغير مفهوم في الكلام أن يقال: أتى على الإنسان حين قبل أن يوجد، وقبل أن يكون شيئا، وإذا أُريد ذلك قيل: أتى حين قبل أن يُخلق، ولم يقل أتى عليه. وأما الدهر في هذا الموضع، فلا حدّ له يوقف عليه»[١].

وفي الآية قول آخر وهو أن المراد بالإنسان الجنس وحينٌ مطلق الزمن قال ابن عطية: «والإنسان اسم جنس أي: إذا تأمل كل إنسان نفسه علم بأنه قد مر ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ عظيم ﴿لَمۡ يَكُن﴾ هو فيه ﴿شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾، أي لم يكن موجودًا، وقد يسمى الموجود ﴿شَيۡـٔٗا﴾ فهو مذكور بهذا الوجه، والحين هنا: المدة من الزمن غير محدودة تقع للقليل والكثير.. والقوي في هذا أن الإنسان اسم جنس وأن الآية جعلت عبرة لكل أحد من الناس؛ ليعلم أن الصانع له قادر على إعادته»[٢].

قال الرازي: «واعلم أن الغرض من هذا التنبيه على أن الإنسان محدث، ومتى كان كذلك فلابد له من محدث قادر»[٣].

وفي هذه الآية دليل على أن الروح محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة، وفي هذا رد على من ادعى أنها قديمة يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلو كانت روحه قديمة لكان الإنسان لم يزل شيئا مذكورا، فإنه إنما هو إنسان بروحه لا ببدنه فقط، كما قيل:

ياخادم الجسم كم تشقى بخدمته فأنت بالروح لا بالجسم إنسان»[٤].

وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إنا خلقنا ذرّية آدم من نطفة، يعني: من ماء الرجل وماء المرأة، والنطفة: كلّ ماء قليل في وعاء كان ذلك ركية أو قربة، أو غير ذلك، كما قال عبد الله بن رواحة:

هَلْ أَنْتِ إلا نُطْفَةٌ في شَنَّه

وقوله: ﴿أَمۡشَاجٖ﴾ يعني: أخلاط، واحدها: مشج ومشيج.. واختلف أهل التأويل في معنى الأمشاج الذي عني بها في هذا الموضع، فقال بعضهم: هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة.. وقال آخرون: إنما عني بذلك: إنا خلقنا الإنسان

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٢٠٢).
(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٤٠٨).
(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٣٧).
(٤) الروح (ص: ١٤٧).

من نطفة ألوان ينتقل إليها ليكون نطفة، ثم يصير علقة، ثم مضغة، ثم عظما، ثم كسي العظم لحما.. وقال آخرون: عني بذلك اختلاف ألوان النطفة.. وقال آخرون: بل هي العروق التي تكون في النطفة.. وأشبه هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معنى ذلك ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ نطفة الرجل ونطفة المرأة، لأن الله وصف النطفة بأنها أمشاج، وهي إذا انتقلت فصارت علقة، فقد استحالت عن معنى النطفة فكيف تكون نطفة أمشاجا وهي علقة؟ وأما الذين قالوا: إن نطفة الرجل بيضاء وحمراء، فإن المعروف من نطفة الرجل أنها سحراء على لون واحد، وهي بيضاء تضرب إلى الحمرة، وإذا كانت لونا واحدا لم تكن ألوانا مختلفة، وأحسب أن الذين قالوا: هي العروق التي في النطفة قصدوا هذا المعنى..

وقوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ نختبره. وكان بعض أهل العربية يقول: المعنى: جعلناه سميعًا بصيرا لنبتليه، فهي مقدّمة معناها التأخير، إنما المعنى خلقناه وجعلناه سميعًا بصيرا لنبتليه، ولا وجه عندي لما قال يصحّ، وذلك أن الابتلاء إنما هو بصحة الآلات وسلامة العقل من الآفات، وإن عدم السمع والبصر، وأما إخباره إيانا أنه جعل لنا أسماعا وأبصارا في هذه الآية، فتذكير منه لنا بنعمه، وتنبيه على موضع الشكر؛ فأما الابتلاء فبالخلق مع صحة الفطرة، وسلامة العقل من الآفة، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[(1)]»[(2)].

قال القرطبي: «وفيما يختبر به وجهان: أحدهما: نختبره بالخير والشر، قاله الكلبي. الثاني: نختبر شكره في السراء وصبره في الضراء، قاله الحسن. وقيل: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ نكلفه. وفيه أيضا وجهان: أحدهما: بالعمل بعد الخلق، قاله مقاتل. الثاني: بالدين ليكون مأمورا بالطاعة ومنهيا عن المعاصي. وروي عن ابن عباس: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾: نصرفه خلقا بعد خلق، لنبتليه بالخير والشر»[(3)].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: فجعلناه ذا سمع يسمع به، وذا بصر يبصر به، إنعاما من الله على عباده بذلك، ورأفة منه لهم، وحجة له عليهم»[(4)].

---

(١) الذاريات: الآية (٥٦).
(٢) جامع البيان (٢٩/ ٢٠٣-٢٠٥).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٧٩).
(٤) جامع البيان (٢٩/ ٢٠٥).

قال صديق حسن خان: «والمراد بالسمع والبصر الحاستان المعروفتان، خصهما بالذكر لأنهما أعظم الحواس وأشرفها، قال الخطيب أي: جعلناه عظيم السمع والبصر والبصيرة ليتمكن من مشاهدة الدلائل ببصره، وسماع الآيات بسمعه، ومعرفة الحجج ببصيرته، فيصح تكليفه وابتلاؤه، وقدم السمع لأنه أنفع في المخاطبات، ولأن الآيات المسموعة أبين من الآيات المرئية، وقيل: المراد بالسميع المطيع كقولهم سمعا وطاعة، وبالبصير العالم يقال: فلان بصر في هذا الأمر أي: علم، والأول أولى»[1].

وفي هذه الآية علاج لكل مصاب بداء العجب والكبر وبيان ذلك -يقول الغزالي-: أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى، ويكفيه ذلك في إزالة الكبر، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل، وأقل من كل قليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة، وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله، أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول.. وأما معرفته نفسه فهو أيضًا يطول، ولكن نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله، فإن في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته، وقد قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾[2] فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه، فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية، أما أول الإنسان، فهو أنه لم يكن شيئًا مذكورًا، وقد كان في حيز العدم دهورًا؛ بل لم يكن لعدمه أول، وأي شيء أخس وأقل من المحو والعدم؟ وقد كان كذلك في القدم، ثم خلقه الله من أرذل الأشياء، ثم من أقذرها إذ قد خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جعله عظمًا، ثم كسا العظم لحمًا، فقد كان هذا بداية وجوده حيث كانت شيئًا مذكورًا، فما صار شيئًا مذكورًا إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت! إذ لم يخلق في ابتدائه كاملًا؛ بل خلقه جمادًا ميتًا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم، فبدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبجهله قبل علمه، وبعماه قبل

---

(١) فتح البيان (١٤/ ٤٥٨).

(٢) عبس: الآيات (١٧-٢٢).

بصره، وبصممه قبل سمعه، وببكمه قبل نطقه، وبضلالته قبل هداه، وبفقره قبل غناه، وبعجزه قبل قدرته. فهذا معنى قوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝١٩﴾ ومعنى قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ كذلك خلقه أولًا ثم أمتن عليه فقال: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝٢٠﴾ وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدة حياته إلى الموت. وكذلك قال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1] ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جمادًا ميتًا ترابًا أولًا ونطفة ثانيًا، وأسمعه بعد ما كان أصم، وبصره بعدما كان فاقدًا للبصر، وقواه بعد الضعف، وعلمه بعد الجهل، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها، وأغناه بعد الفقر، وأشبعه بعد الجوع، وكساه بعد العري، وهداه بعد الضلال. فانظر كيف دبره وصوره وإلى السبيل كيف يسره، وإلى طغيان الإنسان ما أكفره، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره؟ فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[2] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾[3] فانظر إلى نعمة اللَّه عليه كيف نقله من تلك الذلة والقلة والخسة والقذارة إلى هذه الرفعة والكرامة، فصار موجودًا بعد العدم، وحيًا بعد الموت، وناطقًا بعد البكم، وبصيرًا بعد العمى، وقويًا بعد الضعف، وعالمًا بعد الجهل، ومهديًا بعد الضلال، وقادرًا بعد العجز، وغنيًا بعد الفقر؟ فكان في ذاته لا شيء، وأي شيء أخس من لا شيء؟ وأي قلة أقل من العدم المحض؟ ثم صار باللَّه شيئًا.

وإنما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام، والنطفة القذرة بعد العدم المحض، أيضًا ليعرفه خسة ذاته، فيعرف به نفسه، وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمته وجلاله، وأنه لا يليق الكبرياء إلا به -جل وعلا-. ولذلك امتن عليه فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾[4] وعرف خسته أولًا فقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾[5] ثم ذكر منته عليه فقال: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾[6] ليدوم وجوده بالتناسل كما

(١) الإنسان: الآيتان (٢-٣).
(٢) يس: الآية (٧٧).
(٣) الروم: الآية (٢٠).
(٤) البلد: الآيات (٨-١٠).
(٥) القيامة: الآيتان (٣٧-٣٨).
(٦) القيامة: الآية (٣٨-٣٩).

حصل وجوده أولًا بالاختراع. فمن كان هذا بدؤه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق أخس الأخساء، وأضعف الضعفاء؟ ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم، وذلك لدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

وفيها أيضا دليل على بديع صنع اللَّه في الإنسان يقول الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والعجب كل العجب ممن يرى خطا حسنا أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه، فيصرف جميع همه إلى التفكر في النقاش والخطاط، وأنه كيف نقشه وخطه، وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه في نفسه، ويقول: ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته، ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفى غيره، ثم يغفل عن صانعه ومصوره، فلا تدهشه عظمته، ولا يحيره جلاله وحكمته، فهذه نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها، فهو أقرب مجال لفكرك، وأجلى شاهد على عظمة خالقك، وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك، ولا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل، وتشبع فتنام، وتشتهى فتجامع، وتغضب فتقاتل، والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك، وإنما خاصية الإنسان التي حجبت البهائم عنها، معرفة اللَّه تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض، وعجائب الآفاق والأنفس، إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقربين، ويحشر في زمرة النبيين والصديقين، مقربًا من رب العالمين، وليست هذه المنزلة للبهائم، ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم، فإنه شر من البهائم بكثير، إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك، وأما هو فقد خلق اللَّه له القدرة، ثم عطلها وكفر نعمة اللَّه فيها فأولئك كالأنعام؛ بل هم أضل سبيلا»[2].

* * *

---

(١) الإحياء (٣/ ٣٥٨-٣٥٩).

(٢) الإحياء (٤/ ٤٣٩-٤٤٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «أي: بينا له وعرفناه طريق الهدى والضلال، والخير والشر ببعث الرسل، فآمن أو كفر، كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾[1]. وقال مجاهد: أي بينا له السبيل إلى الشقاء والسعادة. وقال الضحاك وأبو صالح والسدي: السبيل هنا خروجه من الرحم. وقيل: منافعه ومضاره التي يهتدي إليها بطبعه وكمال عقله.

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي: أيهما فعل فقد بينا له. قال الكوفيون: إن هاهنا تكون جزاء وما زائدة، أي: بينا له الطريق إن شكر أو كفر. واختاره الفراء ولم يجزه البصريون، إذ لا تدخل إن للجزاء على الأسماء إلا أن يضمر بعدها فعل. وقيل: أي: هديناه الرشد، أي: بينا له سبيل التوحيد بنصب الأدلة عليه، ثم إن خلقنا له الهداية اهتدى وآمن، وإن خذلناه كفر. وهو كما تقول: قد نصحت لك، إن شئت فاقبل، وإن شئت فاترك، أي: فإن شئت، فتحذف الفاء. وكذا ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ والله أعلم. ويقال: هديته السبيل وللسبيل وإلى السبيل..

وجمع بين الشاكر والكفور، ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما في معنى المبالغة، نفيا للمبالغة في الشكر وإثباتا لها في الكفر؛ لأن شكر الله تعالى لا يؤدى، فانتفت عنه المبالغة، ولم تنتف عن الكفر المبالغة، فقل شكره لكثرة النعم عليه، وكثر كفره وإن قل مع الإحسان إليه. حكاه الماوردي»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ثواب من سلك طريق الهداية وعقوبة من تنكبها

* عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان،**

---

(١) البلد: الآية (١٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٨٠).

والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان اللَّه والحمد تملآن (أو تملأ) ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان. والصبر ضياء. والقرآن حجة لك أو عليك. كل الناس يغدو، فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها»[1].

⋆ غريب الحديث:

الطهور: الطهور والطهارة مصدران بمعنى النظافة.

شطر: الشطر النصف.

يغدو: بمعنى يبكر يقال: غدا إذا خرج صباحا في مصالحه.

موبقها: أي: مهلكها.

* عن جابر بن عبد اللَّه ﵄ أن النبي ﷺ قال لكعب بن عجرة: «**أعاذك اللَّه يا كعب بن عجرة من إمارة السفهاء**». قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: «**أمراء يكونون بعدي لا يهدون بهديي ولا يستنون بسنتي، فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم، ولا يردون علي حوضي، ومن لم يصدقهم على كذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم وسيردون علي حوضي، يا كعب بن عجرة! الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، والصلاة قربان** -أو قال: **برهان**-، **يا كعب بن عجرة! إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت أبدا النار أولى به، يا كعب بن عجرة الناس غاديان فمبتاع نفسه فمعتقها أو بائعها فموبقها**»[2].

⋆ فوائد الحديثين:

قال القرطبي: «ومعنى ذلك: أن كل إنسان يصبح ساعيا في أموره، متصرفا في أغراضه، ثم إما أن تكون تصرفاته بحسب دواعي الشرع والحق، فهو الذي يبيع نفسه من اللَّه، وهو بيع آيل إلى عتق وحرية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٢)، مسلم (١/ ٢٠٣/ ٢٢٣)، الترمذي (٥/ ٥٠١/ ٣٥١٧) وأخرجه: النسائي في الكبرى (٥/ ٨/ ٢٤٣٦)، ابن ماجه (١/ ١٠٢-١٠٣/ ٢٨٠).

(٢) أخرجه: عبد الرزاق (١١/ ٣٤٥-٣٤٦/ ٢٠٧١٩) واللفظ له، أحمد (٣/ ٣٢١ و٣٩٩)، والبزار (٢/ ٢٤١/ ١٦٠٩)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٠/ ٣٧٢-٣٧٣/ ٤٥١٤) والحاكم (٤/ ٤٢٢) ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٤٧) وقال: «رواه أحمد والبزار.. ورجالهما رجال الصحيح».

ﭐلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[١]، وإما أن تكون تصرفاته بحسب دواعي الهوى والشيطان، فهو الذي باع نفسه من الشيطان فأوبقها؛ أي: أهلكها، ومنه: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾[٢] ومنه قول ابن مسعود: الناس غاديان، فبائع نفسه فموبقها، أو مفاديها فمعتقها»[٣].

وقال ابن رجب: «ودل الحديث على أن كل إنسان إما ساع في هلاك نفسه أو في فكاكها، فمن سعى في طاعة اللَّه فقد باع نفسه لله وأعتقها من عذابه، ومن سعى في معصية اللَّه تعالى فقد باع نفسه بالهوان وأوبقها بالآثام الموجبة لغضب اللَّه وعقابه، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾[٤] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[٥]»[٦].

قال المناوي: «وقال القرنوي في هذا أسرار شريفة منها أن المصطفى ﷺ نبه على سر هو كالتفسير لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[٧] لأنه قال: «كل الناس يغدو» وصدق؛ لأن الاطلاع المحقق أفاد أنه ليس في الموجودات لأحد وقفة؛ بل كل إنسان سائر إلى المرتبة التي قدر الحق أنها غاية من مراتب النقص والشقاء ومراتب السعادة»[٨].

* * *

(١) التوبة: الآية (١١١).
(٢) الشورى: الآية (٣٤).
(٣) المفهم (١/ ٤٧٨).
(٤) البقرة: الآية (٢٠٧).
(٥) الزمر: الآية (١٥).
(٦) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٨).
(٧) البقرة: الآية (١٤٨).
(٨) الفيض (٤/ ٢٩٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الأبرار: جمع بار. والبرور: ضد العقوق.

كأس: الكأس: الإناء إذا فيه الشراب. قال عمرو بن كلثوم:

صددت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: إنا هيأنا وأرصدنا لمن كفر بالله، وكذب رسله، وتجرأ على المعاصي ﴿سَلَٰسِلَا۟﴾ في نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾[1]. ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ تغل بها أيديهم إلى أعناقهم ويوثقون بها. ﴿وَسَعِيرًا﴾ أي: نارا تستعر بها أجسامهم، وتحرق بها أبدانهم، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾[2] وهذا العذاب دائم لهم أبدا، مخلدون فيه سرمدا.

وأما ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾ وهم الذين برت قلوبهم بما فيها من محبة الله ومعرفته، والأخلاق الجميلة، فبرت جوارحهم، واستعملوها بأعمال البر أخبر أنهم ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ أي: شراب لذيذ من خمر قد مزج بكافور أي: خلط به ليبرده ويكسر حدته، وهذا الكافور في غاية اللذة قد سلم من كل مكدر ومنغص موجود في كافور الدنيا، فإن الآفة الموجودة في الدنيا تعدم من الأسماء التي ذكرها الله في الجنة. كما قال تعالى: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾[3] ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾[4]

(١) الحاقة: الآية (٣٢).
(٢) النساء: الآية (٥٦).
(٣) الواقعة: الآيتان (٢٨-٢٩).
(٤) آل عمران: الآية (١٥).

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[(١)] ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[(٢)].

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ أي: ذلك الكأس اللذيذ الذي يشربون به لا يخافون نفاده؛ بل له مادة لا تنقطع، وهي عين دائمة الفيضان والجريان، يفجرها عباد الله تفجيرا، أنى شاءوا، وكيف أرادوا، فإن شاءوا صرفوها إلى البساتين الزاهرات، أو إلى الرياض الناضرات، أو بين جوانب القصور والمساكن المزخرفات، أو إلى أي جهة يرونها من الجهات المونقات»[(٣)].

قال ابن القيم: «وقد اختلف في قوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، فقال الكوفيون: الباء بمعنى من، أي: يشرب منها، وقال آخرون: بل الفعل مضمن، ومعنى يشرب بها، أي: يروى بها، فلما ضمنه معناه عداه تعديته، وهذا أصح وألطف وأبلغ، وقال طائفة: الباء للظرفية، والعين اسم للمكان كما تقول: كنا بمكان كذا وكذا، ونظير هذا التضمين قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾[(٤)] ضمن معنى يهم فعدى تعديته، وقال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨﴾[(٥)] فأخبر سبحانه عن العين التي يشرب بها المقربون صرفا، أن شراب الأبرار يمزج منها؛ لأن أولئك أخلصوا الأعمال كلها لله، فأخلص شرابهم، وهؤلاء مزجوا فمزج شرابهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾[(٦)] فأخبر سبحانه عن مزاج شرابهم بشيئين: بالكافور في أول السورة، والزنجبيل في آخرها، فإن في الكافور من البرد وطيب الرائحة، وفي الزنجبيل من الحرارة وطيب الرائحة ما يحدث لهم باجتماع الشرابين ومجيء أحدهما على إثر الآخر حالة أخرى أكمل وأطيب وألذ من كل منهما بانفراده، ويعدل كيفية كل منهما بكيفية الآخر، وما ألطف موقع ذكر الكافور في أول السورة، والزنجبيل في آخرها، فإن شرابهم مزج أولا بالكافور، وفيه من البرد ما يجيء الزنجبيل بعده فيعد له، والظاهر أن الكأس الثانية غير الأولى، وأنهما نوعان لذيذان من الشراب: أحدهما مزج بكافور.

---

(١) الأنعام: الآية (١٢٧).
(٢) الزخرف: الآية (٧١).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٣٢).
(٤) الحج: الآية (٢٥).
(٥) الإنسان: الآيتان (١٧-١٨).
(٦) المطففين: الآيات (٢٢-٢٨).

والثاني: مزج بزنجبيل، وأيضا: فإنه سبحانه أخبر عن مزج شرابهم بالكافور وبرده في مقابلة ما وصفهم به من حرارة الخوف والإيثار والصبر والوفاء بجميع الواجبات»[١].

* * *

(١) حادي الأرواح (ص: ١٢٦-١٢٧).

قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾[١]

⋆ **غريب الآية:**

النذر: ما يوجبه المرء على نفسه من صدقة أو فعل عبادة. قال عنترة:

الشاتمي عرضي ولم أشتمهما ... والناذرين إذا لم ألقهما دمي

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الأبرار الذين يشربون من كأس كان مزاجها كافورا بروا بوفائهم لله بالنذور التي كانوا ينذرونها في طاعة الله»[٢].

قال القرطبي: «أي: لا يخلفون إذا نذروا، وقال معمر عن قتادة: بما فرض اللَّه عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة وغيره من الواجبات. وقال مجاهد وعكرمة: يوفون إذا نذروا في حق اللَّه -جل ثناؤه-. وقال الفراء والجرجاني: وفي الكلام إضمار، أي كانوا يوفون بالنذر في الدنيا. والعرب قد تزيد مرة كان وتحذف أخرى. والنذر حقيقته ما أوجبه المكلف على نفسه من شيء يفعله. وإن شئت قلت في حده: النذر: هو إيجاب المكلف على نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يلزمه. وقال الكلبي: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ أي يتممون العهود، والمعنى واحد، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾[٣] أي: أعمال نسكهم التي ألزموها أنفسهم بإحرامهم بالحج. وهذا يقوي قول قتادة. وأن النذر يندرج فيه ما التزمه المرء بإيمانه من امتثال أمر اللَّه، قاله القشيري.

وروى أشهب عن مالك أنه قال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ هو نذر العتق والصيام والصلاة. وروى عنه أبو بكر بن عبد العزيز قال مالك. ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ قال: النذر: هو اليمين»[٤].

(١) الإنسان: الآية (٧)

(٢) جامع البيان (٢٩/ ٢٠٨).

(٣) الحج: الآية (٢٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٨٣).

قال الشوكاني: «والأولى حمل النذر هنا على ما أوجبه العبد على نفسه من غير تخصيص»[١].

قال السعدي: «وإذا كانوا يوفون بالنذر الذي هو غير واجب في الأصل عليهم إلا بإيجابهم على أنفسهم كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية من باب أولى وأحرى»[٢].

قال الرازي: «هذه الآية دالة على وجوب الوفاء بالنذر؛ لأنه تعالى عقبه بـ ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ وهذا يقتضي أنهم إنما وفوا بالنذر خوفًا من شر ذلك اليوم، والخوف من شر ذلك اليوم لا يتحقق إلا إذا كان الوفاء به واجبًا، وتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾[٣] وبقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ فيحتمل ليوفوا أعمال نسكهم التي ألزموها أنفسهم»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النذر

* عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله، فلا يعصه**»[٥].

★ فوائد الحديث:

تقدم شرحه مستوفى في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾[٦].

* * *

---

(١) فتح القدير (٥/ ٤٩٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٣٢).

(٣) النحل: الآية (٩١).

(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٤٣).

(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٦ و٤١)، البخاري (١١/ ٧١٢/ ٦٦٩٦)، أبو داود (٣/ ٥٩٣/ ٣٢٨٩)، الترمذي (٤/ ٨٨-٨٩/ ١٥٢٦) وقال: «حسن صحيح»، النسائي (٧/ ٢٣/ ٣٨١٥)، ابن ماجه (١/ ٦٨٧/ ٢١٢٦).

(٦) البقرة: الآية (٢٧٠).

قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾

★غريب الآية:

مستطيرًا: منتشرًا. يقال: استطار الشيء: انتشر. قال الأعشى:

فبانت وقد أسارت في الفؤاد صدعًا على نأيها مستطيرًا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويخافون عقاب اللَّه بتركهم الوفاء بما نذروا لله من بر في يوم كان شره مستطيرا ممتدا طويلا فاشيا»[(١)].

قال البقاعي: «والخوف أدل دليل على عمارة الباطن، قالوا: وما فارق الخوف قلبا إلا خرب، من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، فالخوف لاجتناب الشر، والوفاء لاجتلاب الخير»[(٢)].

قال الرازي: «واعلم أن تمام الطاعة لا يحصل إلا إذا كانت النية مقرونة بالعمل، فلما حكى عنهم العمل وهو قوله: ﴿يُوفُونَ﴾ حكى عنهم النية وهو قوله: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾ وتحقيقه قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»[(٣)] وبمجموع هذين الأمرين سماهم اللَّه تعالى بالأبرار»[(٤)].

وقال أيضا: «فإن قيل: كيف يمكن أن يقال: شر ذلك اليوم مستطير منتشر، مع أنه تعالى قال في صفة أوليائه: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾[(٥)]، قلنا: الجواب من وجهين: الأول: أن هول القيامة شديد، ألا ترى أن السموات تنشق وتنفطر وتصير

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٢٠٩).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٣٨).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٥) والبخاري (١/ ١١/ ١) ومسلم (٣/ ١٥١٥/ ١٩٠٧) وأبو داود (٢/ ٦٥١-٦٥٢/ ٢٢٠١) والترمذي (٤/ ١٥٤/ ١٦٤٧) والنسائي (١/ ٦٢-٦٣/ ٧٥) وابن ماجه (٢/ ١٤١٣/ ٤٢٢٧) من حديث عمر ﷺ.

(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٤٣).

(٥) الأنبياء: الآية (١٠٣).

كالمهل، وتتناثر الكواكب، وتتكور الشمس والقمر، وتفزع الملائكة، وتبدل الأرض غير الأرض، وتنسف الجبال، وتسجر البحار، وهذا الهول عام يصل إلى كل المكلفين على ما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾[1] وقال: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾[2] إلا أنه تعالى بفضله يؤمن أولياءه من ذلك الفزع.

والجواب الثاني: أن يكون المراد أن شر ذلك اليوم يكون مستطيرًا في العصاة والفجار. وأما المؤمنون فهم آمنون، كما قال: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[3] ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾[4] إلا أن أهل العقاب في غاية الكثرة بالنسبة إلى أهل الثواب، فأجرى الغالب مجرى الكل على سبيل المجاز»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من أهوال يوم القيامة

* عن أبي ذر قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى اللّه، لوددت أني كنت شجرة تعضد**»[6].

---

(١) الحج: الآية (٢).
(٢) المزمل: الآية (١٧).
(٣) الزخرف: الآية (٦٨).
(٤) فاطر: الآية (٣٤).
(٥) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٤٣-٢٤٤).
(٦) أخرجه: أحمد (٥/ ١٧٣)، الترمذي (٤/ ٤٨١-٤٨٢/ ٢٣١٢) واللفظ له وقال: «حديث حسن غريب»، وقال: في الباب عن أبي هريرة وعائشة وابن عباس وأنس، ابن ماجه (٢/ ١٤٠٢/ ٤١٩٠)، كلهم من طرق عن إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر، عن مورق العجلي عن أبي ذر. وأخرجه: الحاكم (٢/ ٥١٠) بلفظ: (قرأ رسول اللّه ﷺ: «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا» حتى ختمها ثم قال: .. فذكره وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وسكت عنه الذهبي. وإبراهيم بن مهاجر قال: عنه الحافظ في التقريب: «صدوق لين الحفظ».

★ **غريب الحديث:**

أطت: الأطيط صوت الاقتاب، وأطيط الإبل: أصواتها وحنينها، أي: أن من فيها من الملائكة أثقلها حتى أطت.

الصعدات: هي الطرق.

تجأرون: الجؤار رفع الصوت والاستغاثة.

تعضد: أي تقطع.

★ **فوائد الحديث:**

قال المباركفوري: «قوله: «لو تعلمون ما أعلم» أي من عقاب اللَّه للعصاة وشدة المناقشة يوم الحساب، «لضحكتم» جواب لو «ولبكيتم كثيرا» أي: بكاء كثيرا أو زمانا كثيرا من خشية اللَّه ترجيحا للخوف على الرجاء، وخوفا من سوء الخاتمة. قال الحافظ: والمراد بالعلم هنا ما يتعلق بعظمة اللَّه وانتقامه ممن يعصيه، والأهوال التي تقع عند النزاع والموت وفي القبر ويوم القيامة، ومناسبة كثرة البكاء وقلة الضحك في هذا المقام واضحة، والمراد به التخويف. وقد جاء لهذا الحديث سبب أخرجه سنيد في تفسيره بسند واه، والطبراني عن ابن عمر: خرج رسول اللَّه ﷺ إلى المسجد فإذا بقوم يتحدثون ويضحكون فقال: والذي نفسي بيده، فذكر هذا الحديث. وعن الحسن البصري: من علم أن الموت مورده، والقيامة موعده، والوقوف بين يدي اللَّه مشهده، فحقه أن يطول في الدنيا حزنه انتهى»[1].

قال الحافظ: «قوله: «**لو تعلمون ما أعلم**» أي: من عظيم قدرة اللَّه وانتقامه من أهل الإجرام، وقيل: معناه لو دام علمكم كما دام علمي، لأن علمه متواصل بخلاف غيره، وقيل: معناه لو علمتم من سعة رحمة اللَّه وحلمه وغير ذلك ما أعلم لبكيتم على ما فاتكم من ذلك. قوله: «**لضحكتم قليلا**» قيل: معنى القلة هنا العدم، والتقدير لتركتم الضحك ولم يقع منكم إلا نادرا لغلبة الخوف واستيلاء الحزن»[2].

فيه ما يدل -**يقول الشيخ العثيمين**-: «على عظم يوم القيامة وأن على المؤمن أن

---

(١) تحفة الأحوذي (٦/ ٤٩٦)، وانظر فتح الباري (١١/ ٣٨٨).

(٢) الفتح (٢/ ٦٧٥).

يخاف من هذا اليوم العظيم»[١].

وقال: «وليس بين الإنسان وبين هذا إلا أن ينتهي أجله في الدنيا، ثم ينتقل إلى دار الجزاء لأنه ينتهي العمل أحسن اللّٰه لنا وللمسلمين الخاتمة»[٢].

قوله: «لوددت أني كنت شجرة تعضد» قال القاري: «وهذا نشأ من كمال خوفه من عذاب ربه»[٣].

* * *

(١) شرح رياض الصالحين (٥/ ٣٥٠).

(٢) المصدر السابق (٥/ ٣٥١).

(٣) المرقاة (٩/ ٢٠٨).

قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كان هؤلاء الأبرار يطعمون الطعام على حبهم إياه وشهوتهم له.. وقوله: ﴿مِسْكِينًا﴾ يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿مِسْكِينًا﴾ ذوي الحاجة الذين قد أذلتهم الحاجة، ﴿وَيَتِيمًا﴾ وهو الطفل الذي قد مات أبوه ولا شيء له ﴿وَأَسِيرًا﴾: وهو الحربيّ من أهل دار الحرب يُؤخذ قهرا بالغلبة، أو من أهل القبلة يُؤخذ فيُحبس بحقّ، فأثنى اللّه على هؤلاء الأبرار بإطعامهم هؤلاء تقرّبا بذلك إلى اللّه وطلب رضاه، ورحمة منهم لهم»[1].

واختلف في عود الضمير في قوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ فقيل: يرجع إلى الطعام كما تقدم في قول ابن جرير، قال ابن عطية: «وهذا قول ابن عباس ومجاهد، ويحتمل أن يعود على اللّه تعالى أي: لوجهه وابتغاء مرضاته، قاله أبو سليمان الداراني. والأول أمدح لهم لأن فيه الإيثار على النفس. وعلى الاحتمال الثاني فقد يفعله الأغنياء أكثر، وقال الحسين بن الفضل: الضمير عائد على الإطعام، أي محبين في فعلهم ذلك لا رياء فيه ولا تكلف»[2].

قال ابن جرير: «واختلف أهل العلم في الأسير الذي ذكره اللّه في هذا الموضع، فقال بعضهم: بما حدثنا به بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ قال: لقد أمر اللّه بالأسراء أن يحسن إليهم، وإن أسراهم يومئذ لأهل الشرك.. وقال آخرون: عني بذلك المسجون من أهل القبلة.. والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن اللّه وصف هؤلاء الأبرار بأنهم كانوا في الدنيا يطعمون الأسير، والأسير الذي قد وصفت صفته؛ واسم الأسير قد يشتمل على الفريقين، وقد عمّ الخبر عنهم أنهم

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٢٠٩).

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٤١٠).

يطعمونهم، فالخبر على عمومه حتى يخصه ما يجب التسليم له. وأما قول من قال: لم يكن لهم أسير يومئذ إلا أهل الشرك، فإن ذلك وإن كان كذلك، فلم يخصص بالخبر الموفون بالنذر يومئذ، وإنما هو خبر من اللَّه عن كلّ من كانت هذه صفته يومئذ وبعده إلى يوم القيامة، وكذلك الأسير معنيّ به أسير المشركين والمسلمين يومئذ، وبعد ذلك إلى قيام الساعة»[١].

قال ابن العربي: «وفي إطعامه ثواب عظيم، وإن كان كافرا فإن اللَّه يرزقه. وقد تعين بالعهد إطعامه، ولكن من الفضل في الصدقة، لا من الأصل في الزكاة، ويدخل فيه المسجون من المسلمين، فإن الحق قد حبسه عن التصرف وأسره فيما وجب عليه، فقد صار له على الفقير المطلق حق زائد بما هو عليه من المنع عن التمحل في المعاش أو التصرف في الطلب، وهذا كله إذا خلصت فيه النية لله»[٢].

قال القرطبي: «وقيل: نسخ إطعام المسكين آية الصدقات، وإطعام الأسير آية السيف قاله سعيد بن جبير، وقال غيره: بل هو ثابت الحكم، وإطعام اليتيم والمسكين على التطوع وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلا أن يتخير فيه الإمام»[٣].

وفي هذه الآية تنبيه على المواساة، ومن أعظم المواساة وضعها في هؤلاء الثلاثة»[٤].

وفيها دلالة على أن هؤلاء المطعمين لا ركون لهم إلى الدنيا، ولا وثوق لهم بها، فقد جمعوا إلى كرم الطبع بالوفاء ورقة القلب شرف النفس بالنفقة والإطعام، واحتساب ذلك عند الله»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الإنفاق مع الاحتياج

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رسول اللَّه ﷺ رجل فقال: يا رسول الله! أي الصدقة أعظم أجرا؟ فقال: «**أن تصدق وأنت صحيح شحيح. تخشى الفقر وتأمل الغنى. ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا. ألا وقد**

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٢٠٩-٢١٠).
(٢) أحكام القرآن (٤/ ١٨٩٨).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٨٤).
(٤) أفاده ابن العربي في أحكام القرآن (٤/ ١٨٩٨).
(٥) أفاده البقاعي في نظم الدرر (٢١/ ١٣٨).

كان لفلان»[١].

★ **غريب الحديث:**

شحيح: الشح أبلغ في المنع من البخل وإنما الشح بمنزلة الجنس، والبخل بمنزلة النوع، وأكثر ما يقال البخل إنما هو في أفراد الأمور وخواص الأشياء، والشح عام، وهو كالوصف اللازم للإنسان من قبل الطبع والجبلة.

وتأمل الغنى: بضم الميم أي: يطمع في الغنى.

ولا تمهل: بفتح اللام من الإمهال وهو التأخير، تقديره وأن لا تمهل لأنه معطوف على قوله أن تصدق، ويروى بسكون اللام على صورة النهي.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «فيه أن أعمال البر كلما صعبت كان أجرها أعظم؛ لأن الصحيح الشحيح إذا خشي الفقر، وأمل الغنى صعبت عليه النفقة، وسول له الشيطان طول العمر، وحلول الفقر به، فمن تصدق في هذه الحال فهو مؤثر لثواب اللّٰه على هوى نفسه، وأما إذا تصدق عند خروج نفسه فيخشى عليه الضرار بميراثه والجور في فعله، ولذلك قال ميمون بن مهران حين قيل له: إن رقية امرأة هشام ماتت، وأعتقت كل مملوك لها، فقال ميمون: يعصون اللّٰه في أموالهم مرتين، يبخلون بها، وهي في أيديهم، فإذا صارت لغيرهم أسرفوا فيها»[٢].

قوله في أفضل الصدقة: **«أن تصدق وأنت صحيح شحيح» قال القاضي عياض**: «فإذا شح[٣] على هذه الحالة كان أصدق لنيته، وأعظم لأجره، بخلاف إذا أشرف على الموت وآيس من الحياة، ورأى مصير المال لغيره، تصدق حينئذ بما لا يشح عليه، وأعطى ما غيره أحق به منه، إلا ما أباحه له الشرع من التصرف في ثلثه، مع أنه قد يكون تركه حينئذ للورثة أفضل من الصدقة به»[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣١)، البخاري (٣/ ٣٦٣/ ١٤١٩)، مسلم (٢/ ٧١٦/ ١٠٣٢)، أبو داود (٣/ ٢٨٧-٢٨٨/ ٢٨٦٥)، النسائي (٦/ ٥٤٧/ ٣٦١٣)، ابن ماجه (٢/ ٩٠٣/ ٢٧٠٦).

(٢) شرح البخاري (٣/ ٤١٧-٤١٨).

(٣) كذا في الإكمال شح وهو تصحيف واللّٰه أعلم. وصوابه (تصدق) بدليل السياق.

(٤) الإكمال (٣/ ٥٦٥).

وقال الحافظ: «ولما كانت مجاهدة النفس على إخراج المال مع قيام مانع الشح دالا على صحة القصد وقوة الرغبة في القربة، كان ذلك أفضل من غيره، وليس المراد أن نفس الشح هو السبب في هذه الأفضلية والله أعلم»[١].

* * *

(١) الفتح (٣/ ٣٦٤).

قوله: تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾

★ غريب الآية:

قمطريرًا: القمطرير: الشديد في الشر. ويوم قمطرير وقماطر: كأن شره التف بعضه على بعض. قال الشاعر:

بني عمنا هل تذكرون بلاءنا ... عليكم إذا ما كان يوم قماطر

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «أي: يقولون بألسنتهم للمسكين واليتيم والأسير ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾ في اللّه -جل ثناؤه- فزعا من عذابه وطمعا في ثوابه. ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾ أي مكافأة. ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ أي ولا أن تثنوا علينا بذلك، قال ابن عباس: كذلك كانت نياتهم في الدنيا حين أطعموا. وعن سالم عن مجاهد قال: أما إنهم ما تكلموا به ولكن علمه اللّه -جل ثناؤه- منهم فأثنى به عليهم، ليرغب في ذلك راغب. وقاله سعيد بن جبير حكاه عنه القشيري. وقيل: إن هذه الآية نزلت في مطعم بن ورقاء الأنصاري نذر نذرا فوفى به.

وقيل: نزلت فيمن تكفل بأسرى بدر وهم سبعة من المهاجرين: أبو بكر وعمر وعلي والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد وأبو عبيدة ﷺ، ذكره الماوردي. وقال مقاتل: نزلت في رجل من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكينا ويتيما وأسيرا..

وقال أهل التفسير: في علي وفاطمة ﷺ وجارية لهما اسمها فضة قلت: والصحيح أنها نزلت في جميع الأبرار، ومن فعل فعلا حسنا فهي عامة

وقد ذكر النقاش والثعلبي والقشيري وغير واحد من المفسرين في قصة علي وفاطمة وجاريتهما حديثا لا يصح ولا يثبت رواه ليث عن مجاهد عن ابن عباس في قوله ﷻ: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾

الآية، ثم ساق الحديث بطوله ثم قال: قال الترمذي الحكيم أبو عبد اللَّه في نوادر الأصول: فهذا حديث مزوق مزيف، قد تطرف فيه صاحبه حتى تشبه على المستمعين، فالجاهل بهذا الحديث يعض شفتيه تلهفا ألا يكون بهذه الصفة، ولا يعلم أن صاحب هذا الفعل مذموم، وقد قال اللَّه تعالى في تنزيله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[1] وهو الفضل الذي يفضل عن نفسك وعيالك، وجرت الأخبار عن رسول اللَّه ﷺ متواترة بأن: «**خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بنفسك ثم بمن تعول**»[2] وافترض اللَّه على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم. وقال رسول اللَّه ﷺ: «**كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت**»[3] أفيحسب عاقل أن عليا جهل هذا الأمر حتى أجهد صبيانا صغارا من أبناء خمس أو ست على جوع ثلاثة أيام ولياليهن؟ حتى تضوروا من الجوع، وغارت العيون منهم، لخلاء أجوافهم، حتى أبكى رسول اللَّه ﷺ ما بهم من الجهد.

هب أنه آثر على نفسه هذا السائل، فهل كان يجوز له أن يحمل أهله على ذلك؟! وهب أن أهله سمحت بذلك لعلي فهل جاز له أن يحمل أطفاله على جوع ثلاثة أيام بلياليهن؟! ما يروج مثل هذا إلا على حمقى جهال، أبى اللَّه لقلوب متنبهة أن تظن بعلي مثل هذا.

وليت شعري من حفظ هذه الأبيات كل ليلة عن علي وفاطمة، وإجابة كل واحد منهما صاحبه، حتى أداه إلى هؤلاء الرواة؟

فهذا وأشباهه من أحاديث أهل السجون فيما أرى. بلغني أن قوما يخلدون في السجون فيبقون بلا حيلة، فيكتبون أحاديث في السمر وأشباهه، ومثل هذه الأحاديث مفتعلة، فإذا صارت إلى الجهابذة رموا بها وزيفوها، وما من شيء إلا له آفة ومكيدة، وآفة الدين وكيده أكثر»[4].

---

(١) البقرة: الآية (٢١٩).

(٢) أحمد (٢/ ٤٠٢). البخاري (٣/ ٣٧٥-٣٧٦/ ١٤٢٦). أبو داود (٢/ ٣١٢/ ١٦٧٦). النسائي (٥/ ٧٣/ ٢٥٤٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٠)، مسلم (٢/ ٦٢٩/ ٩٩٦)، وأبو داود (٢/ ٣٢١/ ١٦٩٢)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٧٤/ ٩١٧٧) من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٨٧-٨٨).

قال الرازي: اعلم أن الإحسان من الغير تارة يكون لأجل اللَّه تعالى، وتارة يكون لغير اللَّه تعالى، إما طلبًا لمكافأة، أو طلبًا لحمد وثناء، وتارة يكون لهما، وهذا هو الشرك، والأول هو المقبول عند اللَّه تعالى، وأما القسمان الباقيان فمردودان قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾[1] وقال: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾[2] ولا شك أن التماس الشكر من جنس المن والأذى. إذا عرفت هذا فنقول: القوم لما قالوا: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ بقي فيه احتمال أنه أطعمه لوجه اللَّه ولسائر الأغراض على سبيل التشريك، فلا جرم نفى هذا الاحتمال بقوله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾»[3].

وقوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ **قال ابن جرير**: «يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم أنهم يقولون لمن أطعموه من أهل الفاقة والحاجة: ما نطعمكم طعاما نطلب منكم عوضا على إطعامناكم جزاء ولا شكورا، ولكنا نطعمكم رجاء منا أن يؤمننا ربنا من عقوبته في يوم شديد هوله، عظيم أمره، تعبس فيه الوجوه من شدّة مكارهه، ويطول بلاء أهله ويشتدّ. والقمطرير: هو الشديد، يقال: هو يوم قمطرير، أو يوم قماطر، ويوم عصيب. وعصبصب، وقد اقمطرّ اليوم يقمطرّ اقمطرارا، وذلك أشدّ الأيام وأطوله في البلاء والشدّة»[4].

* * *

(١) البقرة: الآية (٢٦٤).
(٢) الروم: الآية (٣٩).
(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٤٧).
(٤) جامع البيان (٢٩/ ٢١١).

قوله تعالى : ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الأرائك : جمع أريكة ، وهي السرير .

زمهريرًا : أي : بردًا شديدًا .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني : «أي : دفع عنهم شرّه بسبب خوفهم منه وإطعامهم لوجهه ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي : أعطاهم بدل العبوس في الكفار نضرة في الوجود وسرورًا في القلوب . قال الضحاك : والنضرة البياض والنقاء في وجوههم . وقال سعيد بن جبير : الحسن والبهاء . وقيل : النضرة أثر النعمة . ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي : بسبب صبرهم على التكاليف . وقيل : على الفقر . وقيل : على الجوع . وقيل : على الصوم . والأولى حمل الآية على الصبر على كل شيء يكون الصبر عليه طاعة لله سبحانه ، و(ما) مصدرية ، والتقدير : بصبرهم ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي : أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير ، وهو لباس أهل الجنة عوضًا عن تركه في الدنيا امتثالًا لما ورد في الشرع من تحريمه ، وظاهر هذه الآيات العموم في كلّ من خاف من يوم القيامة ، وأطعم لوجه اللّه وخاف من عذابه»[١] .

قال الرازي : وهذا يدل على أن المراد من قوله : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾ ليس هو الإطعام فقط ؛ بل هو جميع أنواع المواساة من الطعام والكسوة»[٢] .

وقوله : ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ **يقول السعدي :** الاتكاء : التمكن من الجلوس

---

(١) فتح القدير (٥/ ٤٩٦) .

(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٤٨) .

في حال الرفاهية والطمأنينة والراحة، والأرائك هي السرر التي عليها اللباس المزين، ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿شَمْسًا﴾ يضرهم حرها ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي: بردا شديدا؛ بل جميع أوقاتهم في ظل ظليل، لا حر ولا برد، بحيث تلتذ به الأجساد، ولا تتألم من حر ولا برد»[١].

قال ابن القيم: «وأما الأرائك فهي جمع أريكة قال مجاهد عن ابن عباس: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ قال: لا تكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة، فإذا كان سريرا بغير حجلة لا يكون أريكة، وإن كانت حجلة بغير سرير لم تكن أريكة، ولا تكون أريكة إلا والسرير في الحجلة، فإذا اجتمعا كانت أريكة. وقال مجاهد: هي الأسرة في الحجال. قال الليث: الأريكة سرير حجلة. فالحجلة والسرير أريكة وجمعها أرائك. وقال أبو إسحاق: الأرائك: الفرش في الحجال. قلت هاهنا ثلاثة أشياء: أحدها: السرير. والثانية: الحجلة. وهي البشخانة التي تعلق فوقه. والثالث: الفراش الذي على السرير، ولا يسمى السرير أريكة حتى يجمع ذلك كله»[٢].

قال البقاعي: «فالآية من الاحتباك دل بنفي الشمس أولًا على نفي القمر، لأن ظهوره بها لأن نوره اكتساب من نور الشمس، ودل بنفي الزمهرير الذي هو سبب البرد ثانيًا على نفي الحر الذي سببه الشمس، فأفاد هذا أن الجنة غنية عن النيرين، لأنها نيرة بذاتها وأهلها غير محتاجين إلى معرفة زمان لأنه لا تكليف فيها بوجه، وأنها ظليلة ومعتدلة دائمًا لأن سبب الحر الآن قرب الشمس من مسامتة الرؤوس، وسبب البرد بعدها عن ذلك»[٣].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٣٤).
(٢) حادي الأرواح (ص: ١٤٦).
(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٤٣).

قوله تعالى : ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ذللت : سُخِّرَتْ ويُسِّرَتْ .

قواريرًا : جمع قارورة ، وهي الزجاجة .

زنجبيلًا : الزنجبيل : ضرب من القرفة طيب الطعم . قال الشاعر :

كأن القرنفل والزنجبيل ... باتا بفيها واريًا مشورا

سلسبيلا : أي : شرابًا سهلا لذيذا .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني : «المعنى : أن ظلال الأشجار قريبة منهم مظللة عليهم زيادة في نعيمهم ، وإن كان لا شمس هناك ، قال مقاتل : يعني شجرها قريب»[(١)] .

وقوله : ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ قال الشوكاني : «المعنى : أنها سخرت ثمارها لمتناوليها تسخيرًا كثيرًا بحيث يتناولها القائم والقاعد والمضطجع لا يردّ أيديهم عنها بعد ولا شوك . قال النحاس : المذلل القريب المتناول ، ومنه قولهم حائط ذليل ، أي : قصير . قال ابن قتيبة : ذللت أدنيت ، من قولهم حائط ذليل أي : كان قصير السمك . وقيل : ذللت ، أي : جعلت منقادة لا تمتنع على قطافها كيف شاءوا»[(٢)] .

وقوله : ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ :

---

(١) فتح القدير (٥/ ٤٩٨).

(٢) فتح القدير (٥/ ٤٩٨).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يطاف على هؤلاء الأبرار بآنية من الأواني التي يشربون فيها شرابهم هي من فضة كانت قواريرا، فجعلها فضة وهي في صفاء القوارير، فلها بياض الفضة وصفاء الزجاج.. وقوله: ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ يقول: ويطاف مع الأواني بجرار ضخام فيها الشراب، وكل جرة ضخمة لا عروة لها فهي كوب.. وقوله: ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ يقول: كانت هذه الأواني والأكواب قواريرًا، فحوّلها اللَّه فضة. وقيل: إنما قيل: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾، ليدلّ بذلك على أن أرض الجنة فضة، لأن كل آنية تُتَّخذ، فإنما تُتَّخذ من تُرْبة الأرض التي فيها، فدلّ -جل ثناؤه- بوصفه الآنية متى يطاف بها على أهل الجنة أنها من فضة، ليعلم عباده أن تربة أرض الجنة فضة»[1].

قال ابن القيم: «فأخبر ﷻ عن مادة تلك الآنية أنها من الفضة، وأنها بصفاء الزجاج وشفافيته، وهذا من أحسن الأشياء وأعجبها، وقطع سبحانه توهم كون تلك القوارير من زجاج فقال: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ قال مجاهد وقتادة ومقاتل والكلبي والشعبي: قوارير الجنة من الفضة، فاجتمع لها بياض الفضة، وصفاء القوارير، قال ابن قتيبة: كل ما في الجنة من الأنهار وسررها وفرشها وأكوابها مخالف لما في الدنيا، من صنعة العباد كما قال ابن عباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء، والأكواب في الدنيا قد تكون من فضة وتكون من قوارير، فأعلمنا اللَّه أن هناك أكوابا لها بياض الفضة وصفاء القوارير، قال وهذا على التشبيه أراد قوارير كأنها من فضة، وهذا كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾[2] أي: لهن ألوان المرجان في صفاء الياقوت، وهذا مردود عليه، فإن الآية صريحة أنها من فضة، ومن هاهنا لبيان الجنس، كما تقول: خاتم من فضة ولا يراد بذلك أنه يشبه الفضة، بل جنسه ومادته الفضة، ولعله أشكل عليه كونها من فضة وهي قوارير وهو الزجاج، وليس في ذلك إشكال لما ذكرناه»[3].

قال ابن عاشور: «ووصفت هنا بأنها من فضة، أي: تأتيهم آنيتهم من فضة في بعض الأوقات ومن ذهب في أوقات أخرى كما دلّ عليه قوله في سورة الزخرف

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٢١٥-٢١٦).
(٢) الرحمن: الآية (٥٨).
(٣) حادي الأرواح (ص: ١٣٣).

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾[(١)] لأن للذهب حسنًا، وللفضة حسنًا، فجعلت آنيتهم من المعدنين النفيسين لئلا يفوتهم ما في كل من الحسن والجمال، أو يطاف عليهم بآنية من فضة وآنية من ذهب متنوعة متزاوجة؛ لأن ذلك أبهج منظرًا مثل ما قال مرة ﴿وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾[(٢)]، ومرة ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾[(٣)]، وذلك لإدخال المسرَّة على أنفسهم بحسن المناظر، فإنهم كانوا يتمنونها في الدنيا لِعزة وجودها، أو وجود الكثير منها، وأوثر ذكر آنية الفضة هنا لمناسبة تشبيهها بالقوارير في البياض»[(٤)].

وقوله: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾:

قال ابن القيم: «التقدير جعل الشيء بقدر مخصوص، فقدرت الصناع هذه الآنية على قدر ريهم لا يزيد عليه ولا ينقص منه، وهذا أبلغ من لذة الشارب، فلو نقص عن ريه لنقص التذاذه، ولو زاد حتى يشمئز منه حصل له ملالة وسآمة من الباقي، هذا قول جماعة من المفسرين، قال الفراء: قدروا الكأس على قدر ري أحدهم، لا فضل فيه ولا عجز عن ريه، وهو ألذ الشراب. وقال الزجاج: جعلوا الإناء على قدر ما يحتاجون إليه ويريدونه. وقال أبو عبيد: يكون التقدير الذين يسقون يقدرونها ثم يسقون، يعني أن الضمير في قدروا للملائكة والخدم قدروا الكأس على قدر الري، فلا يزيد عليه فيثقل الكف، ولا ينقص منه فطلبت النفس الزيادة كما تقدم. وقالت طائفة: الضمير يعود على الشاربين، أي: قدروا في أنهم شيئا فجاءهم الأمر بحسب ما قدروه وأرادوه، وقول الجمهور أحسن وأبلغ وهو مستلزم لهذا القول والله أعلم»[(٥)].

وقوله: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾:

قال ابن كثير: «أي: ويسقون يعني: الأبرار أيضا: في هذه الأكواب ﴿كَأْسًا﴾ أي: خمرًا، ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ فتارة يُمزَج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار، ليعتدل الأمر، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة. وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صِرْفًا، كما قاله قتادة وغير واحد. وقد

---

(١) الزخرف: الآية (٧١).
(٢) الإنسان: الآية (٢١).
(٣) الكهف: الآية (٣١).
(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٩٢).
(٥) حادي الأرواح (ص: ١٣٣-١٣٤).

تقدم قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾[1] وقال هاهنا: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ۝١٨﴾ أي: الزنجبيل عين في الجنة تسمى سلسبيلا. قال عكرمة: اسم عين في الجنة. وقال مجاهد: سميت بذلك لسلاسة سيلها وحِدّة جَريها. وقال قتادة: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ۝١٨﴾ عين سَلِسَة مُستَقِيد ماؤها. وحكى ابنُ جرير عن بعضهم أنها سميت بذلك لسلاستها في الحَلْق. واختار هو أنها تَعُمّ ذلك كلَّه، وهو كما قال»[2].

قال صديق حسن خان: «والمعنى: أن أهل الجنة يسقون في الجنة كأسا من الخمر ممزوجة بالزنجبيل، وقد كانت العرب تستلذ مزيج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته، وقال مجاهد وقتادة: الزنجبيل اسم للعين التي يشرب بها المقربون، وقال مقاتل: هو زنجبيل لا يشبه الدنيا. أي: يلدغ الحلق فتصعب إساغته.

قلت: وكذلك ما في الجنان من الأشجار والثمار والقصور والنساء والحور والمأكولات والمشروبات والملبوسات، لا يشبه ما في الدنيا إلا في مجرد الاسم، لكن اللَّه ﷻ يرغب الناس ويطمعهم بأن يذكر لهم أحسن شيء وألذه وأطيبه مما يعرفونه في الدنيا لأجل أن يرغبوا ويسعوا فيما يوصلهم إلى هذا النعيم المقيم»[3].

قال ابن عاشور: «ومعنى ﴿تُسَمَّى﴾ على هذا الوجه، أنها توصف بهذا الوصف حتى صار كالعلم لها كما قال تعالى: ﴿لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى﴾[4] أي يصفونهم بأنهم إناث، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[5] أي: لا مثيل له. فليس المراد أنه علَم. ومن المفسرين من جعل التسمية على ظاهرها وجعل ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ علمًا على هذه العين، وهو أنسب بقوله تعالى: ﴿تُسَمَّى﴾»[6].

قال ابن القيم: «قالت فرقة: سلسبيلا جملة مركبة من فعل وفاعل، وسبيلا منصوب على المفعول، أي: سل سبيلا إليها، وليس هذا بشيء، وإنما السلسبيل كلمة مفردة، وهي اسم للعين نفسها باعتبار صفتها، ولقد شفى قتادة ومجاهد في اشتقاق اللفظة فقال قتادة: سلسة فهم يصرفونها حيث شاءوا، وهذا من الاشتقاق الأكبر، وقال مجاهد سلسة السيل، حديدة الجرية، وقال أبو العالية والمقابلان، تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم، وهذا من سلاستها وحدة

---

(١) الإنسان: الآية (٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣١٧).
(٣) فتح البيان (١٤/ ٤٧١).
(٤) النجم: الآية (٢٧).
(٥) مريم: الآية (٦٥).
(٦) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٩٦).

جريتها، وقال آخرون: معناها طيبة الطعم والمذاق، وقال أبو إسحاق: سلسبيل صفة لما كان في غاية السلاسة فسميت العين بذلك، وقال ابن الأنباري: الصواب في سلسبيل أنه صفة للماء وليس باسم للعين، واحتج على ذلك بحجتين:

إحداهما: أن سلسبيلا مصروف، ولو كان اسما للعين لم يصرف للتأنيث والعلمية. الثانية أن ابن عباس قال: معناه: أنها تنسل في حلوقهم انسلالا. قلت: ولا حجة له في واحدة منهما. أما الصرف فلاقتضاء رؤوس الآي له كنظائره، وأما قول ابن عباس فإنما يدل على أن العين سميت بذلك باعتبار صفة السلاسة والسهولة»[1].

* * *

(١) حادي الأرواح (ص: ١٣١).

قوله تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

★ غريب الآية:

ولدان: غلمان، جمع وليد.

سندس: ديباج رقيق فاخر الحُسْنِ.

إستبرق: ديباج غليظ له بريق.

أَسَاوِر: جمع سوار، وهو ما تجعله المرأة في معصمها من الحلي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «قال أبو عبيدة والفراء: مخلدون لا يهرمون ولا يتغيرون، قال: والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط إنه لمخلد، وإذا لم تذهب أسنانه من الكبر قيل هو مخلد، وقال آخرون: مخلدون مقرطون مسورون، أي: في آذانهم القرطة، وفي أيديهم الأساور، وهذا اختيار ابن الأعرابي، قال مخلدون مقرطون بالخلدة، وجمعها خلد، وهي القرطة، وروى عمرو عن أبيه خلد جاريته إذا حلاها بالخلد وهي القرطة، وخلد إذا أسن ولم يشب، وكذلك قال سعيد بن جبير: مقرطون، واحتج هؤلاء بحجتين:

إحداهما: أن الخلود عام لكل من دخل الجنة، فلا بد أن تكون الولدان موصوفين بتخليد مختص بهم، وذلك هو القرطة.

الحجة الثانية: قول الشاعر:

ومخلدات باللجين كأنما ... أعجازهن رواكد الكثبان

وقال الأولون: الخلد هو البقاء، قال ابن عباس: غلمان لا يموتون، وقول ترجمان القرآن في هذا كاف، وهو قول مجاهد والكلبي ومقاتل، قالوا: لا يكبرون ولا يهرمون ولا يتغيرون، وجمعت طائفة بين القولين وقالوا: هم ولدان لا يعرض لهم الكبر والهرم، وفي آذانهم القراطة، فمن قال: مقرطون أراد هذا المعنى أن كونهم ولدان أمر لازم لهم، وشبههم سبحانه باللؤلؤ المنثور لما فيه من البياض وحسن الخلقة، وفي كونه منثورا فائدتان: إحداهما الدلالة على أنهم غير معطلين؛ بل مبثوثون في خدمتهم وحوائجهم. والثاني: أن اللؤلؤ إذا كان منثورا ولا سيما على بساط من ذهب أو حرير كان أحسن لمنظره وأبهى من كونه مجموعا في مكان واحد»(١).

وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾:

قال الشوكاني: «أي: إذا رميت ببصرك هناك يعني: في الجنة رأيت نعيما لا يوصف، وملكا كبيرا لا يقادر قدره.. والمعنى: إذا رأيت ببصرك ثم، ويعني بثمّ: الجنة. قال السديّ: النعيم ما يتنعم به، والملك الكبير: استئذان الملائكة عليهم، وكذا قال مقاتل والكلبي. وقيل: إن رأيت ليس له مفعول ملفوظ، ولا مقدّر ولا منويّ، بل معناه: أن بصرك أينما وقع في الجنة رأيت نعيمًا وملكًا كبيرًا»(٢).

قال السعدي: «فتجد الواحد منهم عنده من القصور والمساكن والغرف المزينة المزخرفة، ما لا يدركه الوصف، ولديه من البساتين الزاهرة، والثمار الدانية، والفواكه اللذيذة، والأنهار الجارية، والرياض المعجبة، والطيور المطربة المشجية ما يأخذ بالقلوب، ويفرح النفوس. وعنده من الزوجات، اللاتي هن في غاية الحسن والإحسان، الجامعات لجمال الظاهر والباطن، الخيرات الحسان، ما يملأ القلب سرورا، ولذة وحبورا، وحوله من الولدان المخلدين، والخدم المؤبدين، ما به تحصل الراحة والطمأنينة، وتتم لذة العيش، وتكمل الغبطة.

ثم علاوة ذلك ومعظمه الفوز برؤية الرب الرحيم، وسماع خطابه، ولذة قربه، والابتهاج برضاه، والخلود الدائم، وتزايد ما هم فيه من النعيم كل وقت وحين،

---

(١) حادي الأرواح (ص١٤٧).

(٢) فتح القدير (٥/ ٥٠٠).

فسبحان الملك المالك، الحق المبين، الذي لا تنفد خزائنه، ولا يقل خيره، فكما لا نهاية لأوصافه فلا نهاية لبره وإحسانه»[(١)].

وقوله: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ﴾:

قال ابن كثير: «أي: لباس أهل الجنة فيها الحرير ومنه السندس وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر كما هو المعهود في اللباس»[(٢)].

قال ابن القيم: «وتأمل ما دلت عليه لفظة عاليهم من كون ذلك اللباس ظاهرا بارزا يجمل ظواهرهم ليس بمنزلة الشعار الباطن؛ بل الذي يلبس فوق الثياب للزينة والجمال، وقد اختلف القراء السبعة في نصب عاليهم ورفعه على قراءتين، واختلف النحاة في وجه نصبه هل هو على الظرف أو على الحال على قولين، واختلف المفسرون هل ذلك للولدان الذين يطوفون عليهم، فيطوفون وعليهم ثياب السندس والإستبرق، أو للسادات الذين يطوفون عليهم الولدان، فيطوفون على ساداتهم وعلى السادات هذه الثياب، وليس الحال هاهنا بالبين، ولا تحته ذلك المعنى البديع الرائع، فالصواب أنه منصوب على الظرف، فإن عاليا لما كان بمعنى فوق أجري مجراه، قال أبو علي: وهذا الوجه أبين، وهو أن عاليا صفة، فجعل ظرفا كما كان قوله: ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾[(٣)] كذلك، وكما قالوا هو ناحية من الدار، وأما من رفع عاليهم فعلى الابتداء، وثياب سندس خبره، ولا يمنع من هذا إفراد عال وجمع الثياب؛ لأن فاعلا قد يراد به الكثرة كما قال:

ألا إن جيراني العشية رائح ... دعتهم دواع من هوى ومناوح

وقال تعالى: ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ٦٧﴾[(٤)] ومن رفع خضرا أجراه صفة للثياب، وهو الأقيس من وجوه:

أحدها: المطابقة بينهما في الجمع.

الثاني: موافقته لقوله تعالى: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا﴾[(٥)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٣٦-٥٣٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣١٨).

(٣) الأنفال: الآية (٤٢).

(٤) المؤمنون: الآية (٦٧).

(٥) الكهف: الآية (٣١).

الثالث: تخلصه من وصف المفرد بالجمع. ومن جر أجراه صفة للسندس على إرادة الجنس، كما يقال: أهلك الناس الدينار الصفر، والدرهم البيض، وتترجح القراءة الأولى بوجه رابع أيضا وهو أن العرب تجيء بالجمع الذي هو في لفظ الواحد فيجرونه مجرى الواحد. كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾(١) وكقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾(٢) فإذا كانوا قد أفردوا صفات هذا النوع من الجمع، فإفراد صفة الواحد وإن كان في معنى الجمع أولى.

وفي ﴿إِسْتَبْرَقٌ﴾ قراءتان: الرفع عطفا على ثياب، والجر عطفا على سندس، وتأمل كيف جمع لهم بين نوعي الزينة الظاهرة من اللباس والحلي، كما جمع لهم بين الظاهرة والباطنة كما تقدم قريبا، فجمل البواطن بالشراب الطهور، والسواعد بالأساور، والأبدان بثياب الحرير»(٣).

وقوله: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾:

قال السعدي: «أي: حلوا في أيديهم أساور ذكورهم وإناثهم، وهذا وعد وعدهم اللّه وكان وعده مفعولا، لأنه لا أصدق منه قيلا ولا حديثا»(٤).

قال الرازي: «قال تعالى في سورة الكهف: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾(٥) فكيف جعل تلك الأساور هاهنا من فضة؟ والجواب من ثلاثة أوجه: أحدها: أنه لا منافاة بين الأمرين، فلعلهم يسورون بالجنسين إما على المعاقبة أو على الجمع كما تفعل النساء في الدنيا. وثانيها: أن الطباع مختلفة، فرب إنسان يكون استحسانه لبياض الفضة فوق استحسانه لصفرة الذهب، فاللّه تعالى يعطي كل أحد ما تكون رغبته فيه أتم، وميله إليه أشد. وثالثها: أن هذه الأسورة من الفضة إنما تكون للولدان الذين هم الخدم، وأسورة الذهب للناس»(٦).

وقد استشكل كون أهل الجنة الذكور يحلون بأسورة الذهب والفضة مع العلم بأنها من لباس النساء والصبيان، وأجيب -يقول الألوسي- بأن ذلك مما يختلف

(١) يس: الآية (٨٠).
(٢) القمر: الآية (٢٠).
(٣) حادي الأرواح (ص: ١٣٦).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٣٧).
(٥) الكهف: الآية (٣١).
(٦) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٥٤-٢٥٥).

باختلاف العادات والطبائع، ونشأة الآخرة غير هذه النشأة، ومن المشاهد في الدنيا أن بعض ملوكها يتحلون بأعضادهم وعلى تيجانهم وعلى صدورهم ببعض أنواع الحلي مما هو عند بعض الطباع أولى بالنساء والصبيان، ولا يرون ذلك بدعًا ولا نقصًا، كل ذلك لمكان الإلف والعادة، فلا يبعد أن يكون من طباع أهل الجنة في الجنة الميل إلى الحلي مطلقًا، لا سيما وهم جرد مرد أبناء ثلاثين، وقيل: إن الأساور إنما تكون لنساء أهل الجنة والصبيان فقط، لكن غلب في اللفظ جانب التذكير، وهو خلاف الظاهر كما لا يخفى»[1].

وقوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ قال الألوسي: «هو نوع آخر يفوق النوعين السابقين، وهما ما مزج بالكافور وما مزج بالزنجبيل، كما يرشد إليه إسناد سقيه إلى رب العالمين، ووصفه بالطهورية، قال أبو قلابة: يؤتون بالطعام والشراب، فإذا كان آخر ذلك أتوا بالشراب الطهور فيطهر بذلك قلوبهم وبطونهم، ويفيض عرقًا من جلودهم، مثل ريح المسك، وعن مقاتل: هو ماء عين على باب الجنة من ساق شجرة من شرب منه نزع اللَّه تعالى ما كان في قلبه من غش وغل وحسد، وما كان في جوفه من قذر وأذى، أي: إن كان فالطهور عليهما بمعنى المطهر. . وقال غير واحد: أريد أنه في غاية الطهارة لأنه ليس برجس كخمر الدنيا التي هي في الشرع رجس؛ لأن الدار ليست دار تكليف، أو لأنه لم يعصر فتمسه الأيدي الوضرة، وتدوسه الأقدام الدنسة، ولم يجعل في الدنان والأباريق التي لم يعن بتنظيفها، أو لأنه لا يؤول إلى النجاسة لأنه يرشح عرقًا من أبدانهم له ريح كريح المسك»[2].

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ قال القرطبي: «أي: يقال لهم: إنما هذا جزاء لكم أي ثواب. ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾ أي عملكم ﴿مَّشْكُورًا﴾ أي: من قبل اللَّه، وشكره للعبد قبول طاعته وثناؤه عليه، وإثابته إياه. وروى سعيد عن قتادة قال: غفر لهم الذنب وشكر لهم الحسنى. وقال مجاهد: ﴿مَّشْكُورًا﴾ أي: مقبولا، والمعنى متقارب، فإنه سبحانه إذا قبل العمل شكره، فإذا شكره أثاب عليه بالجزيل، إذ هو سبحانه ذو الفضل العظيم»[3].

---

(١) روح المعاني(٢٩/ ١٦٣-١٦٤).

(٢) روح المعاني (٢٩/ ١٦٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٩٦).

قال الرازي: «اعلم أن في الآية وجهين:

الأول: قال ابن عباس: المعنى: أنه يقال لأهل الجنة بعد دخولهم فيها ومشاهدتهم لنعيمها: إن هذا كان لكم جزاء قد أعده اللَّه تعالى لكم إلى هذا الوقت، فهو كله لكم بأعمالكم على قلة أعمالكم، كما قال حاكيًا عن الملائكة: إنهم يقولون لأهل الجنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾[1] وقال: ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾[2] والغرض من ذكر هذا الكلام أن يزداد سرورهم، فإنه يقال للمعاقب: هذا بعملك الرديء فيزداد غمه وألم قلبه، ويقال للمثاب: هذا بطاعتك، فيكون ذلك تهنئة له وزيادة في سروره، والقائل بهذا التفسير جعل القول مضمرًا، أي ويقال لهم هذا الكلام.

الوجه الثاني: أن يكون ذلك إخبارًا من اللَّه تعالى لعباده في الدنيا، فكأنه تعالى شرح جواب أهل الجنة، أن هذا كان في علمي وحكمي جزاء لكم يا معاشر عبادي، لكم خلقتها، ولأجلكم أعددتها»[3].

* * *

(١) الرعد: الآية (٢٤).

(٢) الحاقة: الآية (٢٤).

(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٥٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۝٢٣ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ۝٢٤ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٢٥ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۝٢٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «إن السورة من أولها إلى هذا الموضع في بيان أحوال الآخرة، ثم إنه تعالى شرع بعد ذلك في أحوال الدنيا، وقدم شرح أحوال المطيعين على شرح أحوال المتمردين. أما المطيعون فهم الرسول وأمته، والرسول هو الرأس والرئيس، فلهذا خص الرسول بالخطاب. وأعلم أن الخطاب إما النهي وإما الأمر، ثم إنه تعالى قبل الخوض فيما يتعلق بالرسول من النهي والأمر، قدم مقدمة في تقوية قلب الرسول ﷺ، وإزالة الغم والوحشة عن خاطره، وإنما فعل ذلك لأن الاشتغال بالطاعة والقيام بعهدة التكليف لا يتم إلا مع فراغ القلب، ثم بعد هذه المقدمة ذكر نهيه عن بعض الأشياء، ثم بعد الفراغ عن النهي، ذكر أمره ببعض الأشياء، وإنما قدم النهي على الأمر، لأن دفع الضرر أهم من جلب النفع، وإزالة ما لا ينبغي مقدم على تحصيل ما ينبغي، ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك أحوال المتمردين والكفار على ما سيأتي تفصيل بيانه، ومن تأمل فيما ذكرناه علم أن هذه السورة، وقعت على أحسن وجوه الترتيب والنظام، فالحمد لله الذي نور عقل هذا المسكين الضعيف بهذه الأنوار، وله الشكر عليه أبد الآباد.

ولنرجع إلى التفسير، فنقول: أما تلك المقدمة فهي، قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ واعلم أن المقصود من هذه الآية تثبيت الرسول ﷺ، وشرح صدره فيما نسبوه إليه من كهانة وسحر، فذكر اللّه تعالى أن ذلك وحي من اللّه، فلا جرم بالغ وكرر الضمير بعد إيقاعه اسمًا، لأن تأكيدًا على تأكيد أبلغ، كأنه تعالى يقول: إن كان هؤلاء الكفار يقولون: إن ذلك كهانة، فأنا اللّه الملك الحق أقول على سبيل التأكيد والمبالغة: إن ذلك وحي حق وتنزيل صدق من عندي، وهذا فيه فائدتان:

إحداهما: إزالة الوحشة المتقدمة الحاصلة بسبب طعن أولئك الكفار، فإن بعض الجهال وإن طعنوا فيه إلا أن جبار السموات عظمه وصدقه.

والثانية: تقويته على تحمل التكليف المستقبل، وذلك لأن الكفار كانوا يبالغون في إيذائه، وهو كان يريد مقاتلتهم، فلما أمره اللَّه تعالى بالصبر على ذلك الإيذاء وترك المقاتلة، وكان ذلك شاقًا عليه، فقال له: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ فكأنه قال له: إني ما نزلت عليك هذا القرآن مفرقًا منجمًا إلا لحكمة بالغة تقتضي تخصيص كل شيء بوقت معين، ولقد اقتضت تلك الحكمة تأخير الإذن في القتال، فاصبر لحكم ربك الصادر عن الحكمة المحضة المبرأ عن العيب والعبث والباطل.

ثم إنه تعالى لما قدم هذه المقدمة ذكر النهي فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ فإما أن يكون المعنى: فاصبر لحكم ربك في تأخير الإذن في القتال، ونظيره ﴿فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[1]، أو يكون المعنى عامًا في جميع التكاليف، أي: فاصبر في كل ما حكم به ربك سواء كان ذلك تكليفًا خاصًا بك من العبادات والطاعات أو متعلقًا بالغير، وهو التبليغ وأداء الرسالة، وتحمل المشاق الناشئة من ذلك»[2].

وقوله: ﴿تَنزِيلًا﴾ **قال البقاعي**: «أي: على التدريج بالحكمة جوابًا للسائل ورفقًا بالعباد، فدرجهم في وظائف الدين تدريجًا موافقًا للحكمة، ولم يدع لهم شبهة إلا أجاب عنها، وعلمهم جميع الأحكام التي فيها رضانا، وأتاهم من المواعظ والآداب والمعارف بما ملأ الخافقين وخصصناك به شكرًا على سيرتك الحسنى التي كانت قبل النبوة، وتجنبك كل ما يدنس، فلما كان بتنزيلنا كان جامعًا للهدى لما لنا من إحاطة العلم والقدرة، فلا عجب في كونه جامعًا لهدى الخلق كلهم، لم يدع لهم في شيء من الأشياء لبسًا، وهي ناظرة إلى قوله في القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾[3] الملتفتة إلى ما في المدثر من أن هذه تذكرة، الناظرة إلى ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾[4] المشيرة إلى ما في سورة الجن من أمر القرآن، فالحاصل أن أكثر القرآن في تقرير عظمة القرآن، فإنه المقصود بالذات؛ لأنه الآية

---

(١) الأعراف: الآية (٨٧).
(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٥٨-٢٥٩).
(٣) القيامة: الآية (١٦).
(٤) المزمل: الآية (٥).

الكبرى التي إذا ثبتت تبعها جميع المراد من الشريعة، وتفريق تقرير شأنه أتقن ما يكون في إحكام أمره، وذلك أن الحكيم إذا اهتم بشيء افتتح الكلام به، فإذا رأى من ينكره انتقل إلى غيره على قانون الحكمة، ثم يصير يرمي به في خلال ذلك، رميًا كأنه غير قاصد له، ولا يزال يفعل ذلك حتى يتقرر أمره غاية التقرير ويثبت في النفس من حيث لا يشعر»[١].

وقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ **يقول ابن عاشور**: «والمقصود من هذا النهي تأييسهم من استجابته لهم حين يقرأ عليهم هذه الآية؛ لأنهم يحسبون أن ما عرضوه عليه سيكون صارفًا له عما هو قائم به من الدعوة؛ إذْ هم بُعَداء عن إدراك ماهية الرسالة ونزاهة الرسول ﷺ.

والطاعة: امتثال الطلب بفعل المطلوب وبالكف عن المنهي عنه فقد كان المشركون يعمدون إلى الطلب من النبي ﷺ أن يفعل ما يرغبون، مثل طرد ضعفاء المؤمنين من المجلس، والإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله بما يشايع أحوالهم، وأن يكف عما لا يريدون وقوعه من تحقير آلهتهم، والجهرِ بصلاته، فحذره اللَّه من الاستماع لقولهم وإياسهم من حصول مرغوبهم. ومقتضى الظاهر أن يقول: ولا تطعهم، أو ولا تطع منهم أحدًا، فعدل عنه إلى: ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ للإشارة بالوصفين إلى أن طاعتهم تفضي إلى ارتكاب إثم أو كفر، لأنهم في ذلك يأمرونه وينهونه غالبًا، فهم لا يأمرون إلاّ بما يلائم صفاتهم.

فالمراد بالآثم والكفور: الصنفان من الموصوفين، وتعليق الطاعة المنهي عنها بهذين النوعين مُشعر بأن الوصفين علة في النهى. والآثِم والكفُور مُتَلازِمَانِ فكان ذكر أحد الوصفين مغنيًا عن الآخر، ولكن جُمع بينهما لتشويه حال المتصف بهما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[٢]»[٣].

فإن قيل: فما الفرق بين الآثم والكفور؟ قال الرازي: «الآثم هو المقدم على المعاصي أي معصية كانت، والكفور هو الجاحد للنعمة، فكل كفور آثم، أما كل آثم ليس كفورًا، وإنما قلنا: إن الآثم عام في المعاصي كلها؛ لأنه تعالى قال:

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٥٢-١٥٣).

(٢) البقرة: الآية (٢٧٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٠٣-٤٠٤).

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[(١)] فسمى الشرك إثمًا، وقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾[(٢)] وقال: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾[(٣)] وقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾[(٤)] فدلت هذه الآيات على أن هذا الإثم شامل لكل المعاصي.

واعلم أن كل من عبد غير اللَّه فقد اجتمع في حقه هذان الوصفان، لأنه لما عبد غيره فقد عصاه وجحد إنعامه، إذا عرفت هذا فنقول: في الآية قولان: الأول: أن المراد شخص معين، ثم منهم من قال: الآثم والكفور هو شخص واحد وهو أبو جهل، ومنهم من قال: الآثم هو الوليد والكفور هو عتبة، قال القفال: ويدل عليه أنه تعالى سمى الوليد أثيمًا في قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾[(٥)] وروى صاحب الكشاف أن الآثم هو عتبة. والكفور هو الوليد؛ لأن عتبة كان ركابًا للمآثم متعاطيًا لأنواع الفسوق، والوليد كان غاليًا في الكفر، والقول الأول أولى؛ لأنه متأيد بالقرآن. . القول الثاني: أن الآثم والكفور مطلقان غير مختصين بشخص معين، وهذا هو الأقرب إلى الظاهر، ثم قال الحسن: الآثم هو المنافق، والكفور مشركوا العرب، وهذا ضعيف بل الحق ما ذكرناه من أن الآثم عام والكفور خاص»[(٦)].

وقوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ قال ابن عاشور: «أي: أَقْبِلْ على شأنك من الدعوة إلى اللَّه وذِكر اللَّه بأنواع الذكر. وهذا إرشاد إلى ما فيه عون له على الصبر على ما يقولون.

والمراد بالبُكرة والأصيل استغراق أوقات النهار، أي لا يصدك إعراضهم عن معاودة الدعوة وتكريرها طرفي النهار. ويدخل في ذكر اللَّه الصلوات مثل قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾[(٧)]. وكذلك النوافل التي هي من خصائص النبي ﷺ بين مفروض منها وغير مفروض. فالأمر في قوله: ﴿وَٱذْكُرِ﴾

(١) النساء: الآية (٤٨).
(٢) البقرة: الآية (٢٨٣).
(٣) الأنعام: الآية (١٢٠).
(٤) البقرة: الآية (٢١٩).
(٥) القلم: الآيات (١٠-١٢).
(٦) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٥٩).
(٧) هود: الآيتان (١١٤-١١٥).

مستعمل في مطلق الطلب من وجوب ونفل. وذِكر اسم الرب يشمل تبليغ الدعوة، ويشمل عبادة اللَّه في الصلوات المفروضة والنوافل، ويشمل الموعظة بتخويف عقابه ورجاء ثوابه.

وقوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ يشمل أوقاتَ النهار كلها المحدودَ منها كأوقات الصلوات وغيرَ المحدود كأوقات النوافل والدعاء والاستغفارِ. و﴿بُكْرَةً﴾ هي أول النهار، ﴿وَأَصِيلًا﴾ عشيًا.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ إشارة إلى أن الليل وقت تفرغ من بث الدعوة كما تقدم في قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[1] وهذا خاص بصلاة الليل فرضًا ونفلًا. وقوله: ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ جملة معطوفة على جملة ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ فتعين أن التسبيح التنفل. والتسبيح: التنزيه بالقول وبالاعتقاد، ويشمل الصلوات والأقوال الطيبة والتدبر في دلائل صفات اللَّه وكمالاته، وغلب إطلاق مادة التسبيح على الصلاة النافلة، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾[2]، أي من الليل. وعن عبد الملك بن حبيب: ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ هنا صلاة التطوع في الليل، وقوله ﴿طَوِيلًا﴾ صفة ﴿لَيْلًا﴾ وحيث وصف الليل بالطول بعد الأمر بالتسبيح فيه، عُلم أن ﴿لَيْلًا﴾ أريد به أزمان الليل؛ لأنه مجموعُ الوقت المقابل للنهار؛ لأنه لو أريد ذلك المقدارُ كلُّه لم يكن في وصفه بالطول جدوى، فتعين أن وصف الطول تقييد للأمر بالتسبيح، أي: سبحه أكثرَ الليل، فهو في معنى قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ إلى ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾[3] أو يتنازعه كل من: (اسجد) و﴿وَسَبِّحْهُ﴾..

وعن ابن عباس وابن زيد: أن هاتين الآيتين إشارة إلى الصلوات الخمس وأوقاتها بناء على أن الأصيل يطلق على وقت الظهر فيكون قوله: ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ إشارة إلى قيام الليل. وهذه الآية جاءت على وفق قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ

---

(١) المزمل: الآيات (٢-٢٠).
(٢) الطور: الآية (٤٨).
(٣) المزمل: الآيات (٢-٤).
(٤) الحجر: الآيتان (٩٧-٩٨).

ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

قال البقاعي: «ولعله سماه تسبيحًا؛ لأن مكابدة القيام فيه وغلبة النوم تذكر بما لله من العظمة بالتنزه عن كل نقيصة، ولأنه لا يترك محبوبه من الراحة بالنوم إلا من كان اللَّه عنده في غاية النزاهة، وكان له في غاية المحبة»[(٣)].

ومن لطائف الآية: أن من أطال الوقوف بين يدي اللَّه تعالى في الصلاة خفف عنه الوقوف يوم القيامة يقول ابن القيم: «إن طال وقوفه في الصلاة ليلا ونهارا لله وتحمل لأجله المشاق في مرضاته وطاعته، خف عليه الوقوف في ذلك اليوم، وسهل عليه، وإن آثر الراحة هنا والدعة والبطالة والنعمة طال عليه الوقوف هناك، واشتدت مشقته عليه، وقد أشار اللَّه تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾[(٤)] فمن سبح اللَّه ليلا طويلا، لم يكن ذلك اليوم ثقيلا عليه؛ بل كان أخف شيء عليه»[(٥)].

قال صديق حسن خان: «وفيه دليل على عدم صحة ما قاله بعض أهل علم المعاني والبيان أن الجمع بين الحاء والهاء مثلا يخرج الكلمة عن فصاحتها، وجعلوا من ذلك قول أبي تمام:

كريم متى أمدحه أمدحه والورى ... معي وإذا ما لمته لمته وحدي

ويمكن أن يفرق بين ما أنشدوه، وبين الآية الكريمة بأن التكرار في البيت هو المخرج له عن الفصاحة؛ بخلاف الآية فإنه لا تكرار فيها ذكره السمين»[(٦)].

* * *

---

(١) المزمل: الآيات (٨-١٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٥٠٥-٥٠٦).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٥٧).

(٤) الإنسان: الآيات (٢٣-٢٧).

(٥) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: ٧٨).

(٦) فتح البيان (١٤/ ٤٧٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ۝٢٧ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ۝٢٨﴾

★ غريب الآية:

أَسْرَهُمْ: أصل الأَسْرِ: الشَّدُّ، ومنه سمي الأسيرُ لشده بالوثاق، ثم أطلق على الخلق. والمعنى: أحكمنا خلقهم. قال الأخطل:

من كل مجتنب شديد أسره سلس القياد تخاله مختالا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ توبيخ وتقريع، والمراد أهل مكة. والعاجلة الدنيا ﴿وَيَذَرُونَ﴾ أي: ويدعون ﴿وَرَآءَهُمۡ﴾ أي بين أيديهم ﴿يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ أي عسيرا شديدا كما قال: ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1]. أي: يتركون الإيمان بيوم القيامة. وقيل: ﴿وَرَآءَهُمۡ﴾ أي: خلفهم، أي: ويذرون الآخرة خلف ظهورهم، فلا يعملون لها. وقيل: نزلت في اليهود فيما كتموه من صفة الرسول ﷺ وصحة نبوته. وحبهم العاجلة: أخذهم الرشا على ما كتموه. وقيل: أراد المنافقين، لاستبطانهم الكفر وطلب الدنيا. والآية تعم. واليوم الثقيل يوم القيامة. وإنما سمي ثقيلا لشدائده وأهواله. وقيل: للقضاء فيه بين عباده»[2].

قال ابن عاشور: «وفي إيثار ذكر الدنيا بوصف العاجلة توطئة للمقصود من الذم؛ لأن وصف العاجلة يؤذن بأنهم آثروها لأنها عاجلة. وفي ذلك تعريض بتحميقهم إذ رضُوا بالدون لأنه عاجل، وليس ذلك من شيم أهل التبصر، فقوله: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ واقع موقع التكميل لمناط ذمهم وتحميقهم؛ لأنهم لوْ أحبُّوا الدنيا مع الاستعداد للآخرة لما كانوا مذمومين قال تعالى حكاية لقول الناصحين لقارون: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ

---

(١) الأعراف: الآية (١٨٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٩٨).

ٱلدُّنْيَا﴾[(١)]. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾[(٢)] إذ كان مناط الذم فيه هو أن قصروا أنفسهم على علم أمور الدنيا مع الإعراض عن العلم بالآخرة.

ومُثلوا بحال من يترك شيئًا وراءه فهو لا يسعى إليه وإنما يسعى إلى ما بين يديه. وإنما أعرضوا عنه لأنهم لا يؤمنون بحلوله فكيف يسعون إليه. وصيغة المضارع في ﴿وَيَذَرُونَ﴾ تقتضي أنهم مستمرون على ذلك، وأن ذلك متجدد فيهم ومتكرر لا يتخلفون عن ذلك الترك لأنهم لا يؤمنون بحلول ذلك اليوم، فالمسلمون لا يذرون وراءهم هذا اليوم لأنهم لا يَخلُون من عمل له على تفاوت بينهم في التقوى»[(٣)].

قال الرازي: «إن حبهم للعاجلة يوجب عليهم طاعة اللَّه من حيث الرغبة ومن حيث الرهبة، أما من حيث الرغبة فلأنه هو الذي خلقهم وأعطاهم الأعضاء السليمة التي بها يمكن الانتفاع باللذات العاجلة، وخلق جميع ما يمكن الانتفاع به، فإذا أحبوا اللذات العاجلة، وتلك اللذات لا تحصل إلا عند حصول المنتفع وحصول المنتفع به، وهذان لا يحصلان إلا بتكوين اللَّه وإيجاده، فهذا مما يوجب عليهم الانقياد لله ولتكاليفه وترك التمرد والإعراض، وأما من حيث الرهبة فلأنه قادر على أن يميتهم، وعلى أن يسلب النعمة عنهم، وعلى أن يلقيهم في كل محنة وبلية، فلأجل الخوف من فوات هذه اللذات العاجلة يجب عليهم أن ينقادوا لله، وأن يتركوا هذا التمرد، وحاصل الكلام كأنه قيل لهم: هب أن حبكم لهذه اللذات العاجلة طريقة مستحسنة، إلا أن ذلك يوجب عليكم الإيمان باللَّه والانقياد له.. لكنكم قد تمردتم، وهذا ترتيب حسن في السؤال والجواب وطريقة لطيفة»[(٤)].

وقوله: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾:

قال ابن عاشور: «لما كان الإخبار عنهم بأنهم ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ يتضمن أنهم ينكرون وقوع ذلك اليوم كما قدمناه، وكان الباعث لهم على إنكاره شبهةُ استحالة إعادة الأجسادِ بعد بِلاها وفنائها، وكان الكلام السابق مسوقًا مساق الذم لهم والإنكار عليهم، جيء هنا بما هو دليل للإنكار عليهم، وإبطال لشبهتهم، ببيان إمكان إعادة خلقهم يُعيده الذي خلقهم أول مرّة، كما قال تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ

---

(١) القصص: الآية (٧٧).
(٢) الروم: الآية (٧).
(٣) التحرير والتنوير (٢٩/٤٠٨).
(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٦١-٢٦٢).

من ﴿يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[١] وغيرِ ذلك من الآيات الحائمة حول هذا المعنى»[٢].

قال الشوكاني: «أي: ابتدأنا خلقهم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة إلى أن كمل خلقهم، ولم يكن لغيرنا في ذلك عمل ولا سعي لا اشتراكًا ولا استقلالًا ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ الأسر: شدّة الخلق، يقال شدّ اللَّه أسر فلان، أي: قوّى خلقه. قال مجاهد، وقتادة، ومقاتل، وغيرهم: شددنا خلقهم. قال الحسن: شددنا أوصالهم بعضًا إلى بعض بالعروق والعصب»[٣].

قال البقاعي: «وأصل الأسر القد يشد به الأقتاب أو الربط والتوثيق، ولا شك أن من قدر على إنشاء شخص من نطفة قادر على أن يعيده كما كان؛ لأن جسده الذي أنشأه إن كان محفوظًا فالأمر فيه واضح، وإن كان قد صار ترابًا فإبداعه منه مثل إبداعه من النطفة، وأكثر ما فيه أن يكون كأبيه آدم ﷺ؛ بل هو أولى، فإن ترابه له أصل في الحياة بما كان حيًا، وتراب آدم ﷺ لم يكن له أصل قط في الحياة، والإعادة أهون في مجاري عادات الخلق من الابتداء»[٤].

وقوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ **قال الألوسي**: «أي: أهلكناهم وبدلنا أمثالهم في شدة الخلق ﴿تَبْدِيلًا﴾ بديعًا لا ريب فيه، يعني البعث والنشأة الأخرى، فالتبديل في الصفات لأن المعاد هو المبتدأ، ولكون الأمر محققًا كائنًا جيء بإذا، وذكر المشيئة لإبهام وقته، ومثله شائع كما يقول العظيم لمن يسأله الإنعام إذا شئت أحسنت إليه، ويجوز أن يكون المعنى: وإذا شئنا أهلكناهم وبدلنا غيرهم ممن يطيع، فالتبديل في الذوات، وإذا لتحققت قدرته تعالى عليه، وتحقق ما يقتضيه من كفرهم المقتضي لاستئصالهم، فجعل ذلك المقدور المهدد به كالمحقق، وعبر عنه بما يعبر به عنه، ولعله الذي أراده الزمخشري بما نقل عنه من قوله: إنما جاز ذلك لأنه وعيد جيء به على سبيل المبالغة كان له وقتًا معينًا، ولا يعترض عليه بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾[٥] لأن النكات لا يلزم إطرادها فافهم، والوجه الأول أوفق بسياق النظم الجليل»[٦].

---

(١) الإسراء: الآية (٥١).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٠٩).
(٣) فتح القدير (٥/ ٥٠٣).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٥٩).
(٥) محمد: الآية (٣٨).
(٦) روح المعاني (٢٩/ ١٦٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال صديق حسن خان: «يعني: أن هذه السورة تذكير وموعظة للخلق لأن في تصفحها تنبيهات للغافلين، وفي تدبرها وتذكرها فوائد جمة للطالبين السالكين ممن ألقى سمعه وأحضر قلبه، وكانت نفسه مقبلة على ما ألقى إليه سمعه ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: طريقا يتوصل به إليه، وذلك بالإيمان والطاعة والمراد إلى ثوابه أو إلى جنته، لأنا بينا الأمور غاية البيان وكشفنا اللبس، وأزلنا جميع موانع الفهم، فلم يبق مانع من استطراق الطريق غير مشيئة العبد»[١].

وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما تشاؤون اتخاذ السبيل إلى ربكم أيها الناس ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ذلك لكم لأن الأمر إليه لا إليكم، وهو في قراءة عبد اللّه فيما ذُكر وما تشاؤون إلا ما شاء اللّه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فلن يعدو منكم أحد ما سبق له في علمه بتدبيركم. وقوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ يقول: يدخل ربكم من يشاء منكم في رحمته، فيتوب عليه حتى يموت تائبا من ضلالته، فيغفر له ذنوبه، ويُدخله جنته ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ يقول: الذين ظلموا أنفسهم، فماتوا على شركهم، أعدّ لهم في الآخرة عذابا مؤلما موجعا، وهو عذاب جهنم»[٢].

قال شيخ الإسلام: «أصل هذه المسألة: أن يعلم الإنسان أن مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب وغيره ما دل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون

(١) فتح البيان (١٤/ ٤٨٠).
(٢) جامع البيان (٢٩/ ٢٢٧).

الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان: وهو أن اللَّه.. سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته، لا يمتنع عليه شيء شاءه؛ بل هو قادر على كل شيء، ولا يشاء شيئا إلا وهو قادر عليه»[(١)].

«وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى عن أقوام يقولون: المشيئة مشيئة اللَّه في الماضي والمستقبل، وأقوام يقولون: المشيئة في المستقبل لا في الماضي. ما الصواب؟

فأجاب: الماضي مضى بمشيئة اللَّه، والمستقبل لا يكون إلا أن يشاء اللَّه، فمن قال في الماضي: إن اللَّه خلق السموات إن شاء اللَّه، وأرسل محمدا إن شاء اللَّه فقد أخطأ، ومن قال: خلق اللَّه السموات بمشيئة اللَّه، وأرسل محمدا بمشيئته ونحو ذلك فقد أصاب. ومن قال: أنه يكون في الوجود شيء بدون مشيئة اللَّه فقد أخطأ. ومن قال: ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن فقد أصاب، وكلما تقدم فقد كان بمشيئة اللَّه قطعا؛ فاللَّه خلق السموات بمشيئته قطعا، وأرسل محمدا بمشيئته قطعا، والإنسان الموجود خلقه اللَّه بمشيئته قطعا، وإن شاء اللَّه أن يغير المخلوق من حال إلى حال فهو قادر على ذلك، فما خلقه فقد كان بمشيئته قطعا، وإن شاء اللَّه أن يغيره غيره بمشيئته قطعا. واللَّه أعلم»[(٢)].

وهذا لا يعني أنه ليس للعبد مشيئة، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، مع إيمانهم بالقضاء والقدر وأن اللَّه خالق كل شيء وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء أن العباد لهم مشيئة وقدرة يفعلون بمشيئتهم وقدرتهم ما أقدرهم اللَّه عليه، مع قولهم: إن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء اللَّه، كما قال اللَّه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[(٣)] الآية. وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[(٤)].

---

(١) الفتاوى (٨/ ٤٤٩).

(٢) الفتاوى (٨/ ٦٢).

(٣) المدثر: الآيات (٥٤-٥٦).

(٤) التكوير: الآيات (٢٧-٢٩).

والقرآن قد أخبر بأن العباد يؤمنون ويكفرون ويفعلون ويعملون ويكسبون ويطيعون ويعصون ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويحجون ويعتمرون ويقتلون ويزنون ويسرقون ويصدقون ويكذبون ويأكلون ويشربون ويقاتلون ويحاربون، فلم يكن من السلف والأئمة من يقول: أن العبد ليس بفاعل ولا مختار، ولا مريد ولا قادر، ولا قال أحد منهم: إنه فاعل مجازا بل من تكلم منهم بلفظ الحقيقة والمجاز متفقون على أن العبد فاعل حقيقة والله تعالى خالق ذاته وصفاته وأفعاله»[١].

وقال أيضا: «وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ لا يدل على أن العبد ليس بفاعل لفعله الاختياري، ولا أنه ليس بقادر عليه، ولا أنه ليس بمريد، بل يدل على أنه لا يشاءه إلا أن يشاء الله، وهذه الآية رد على الطائفتين: المجبرة الجهمية، والمعتزلة القدرية، فإنه تعالى قال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ فأثبت للعبد مشيئة وفعلا، ثم قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فبين أن مشيئة العبد معلقة بمشيئة الله. والأولى رده على الجبرية، وهذه رد على القدرية، الذين يقولون: قد يشاء العبد ما لا يشاءه الله كما يقولون: إن الله يشاء ما لا يشاؤون.

وإذا قالوا: المراد بالمشيئة هنا الأمر على أصلهم، والمعنى وما يشاؤون فعل ما أمر الله به إن لم يأمر الله به. قيل: سياق الآية يبين أنه ليس المراد هذا؛ بل المراد وما تشاؤون بعد أن أمرتم بالفعل أن تفعلوه إلا أن يشاء الله، فإنه تعالى ذكر الأمر والنهي والوعد والوعيد ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ نفي لمشيئتهم في المستقبل. وكذلك قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليق لها بمشيئة الرب في المستقبل، فإن حرف (أن) تخلص الفعل المضارع للاستقبال، فالمعنى: إلا أن يشاء بعد ذلك، والأمر متقدم على ذلك، وهذا كقول الإنسان: لا أفعل هذا إلا أن يشاء الله.

وقد اتفق السلف والفقهاء على أن من حلف فقال: لأصلين غدا إن شاء الله، أو لأقضين ديني غدا إن شاء الله، ومضى الغد ولم يقضه أنه لا يحنث، ولو كانت

---

(١) الفتاوى (٨/ ٤٥٩-٤٦٠).

المشيئة هي الأمر لحنث؛ لأن اللَّه أمره بذلك، وهذا مما احتج به على القدرية، وليس لهم عنه جواب، ولهذا خرق بعضهم الإجماع القديم وقال: إنه يحنث.

وأيضا فقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ سيق لبيان مدح الرب والثناء عليه ببيان قدرته، وبيان حاجة العباد إليه، ولو كان المراد لا تفعلون إلا أن يأمركم لكان كل أمر بهذه المثابة، فلم يكن ذلك من خصائص الرب التي يمدح بها، وإن أريد أنهم لا يفعلون إلا بأمره كان هذا مدحا لهم لا له»[1].

وقال أيضا: «وأول من ظهر عنه إنكار ذلك -أي: مشيئة العبد- هو الجهم بن صفوان واتباعه.. وكان ظهور جهم ومقالته في تعطيل الصفات، وفي الجبر والإرجاء في أواخر دولة بني أمية بعد حدوث القدرية والمعتزلة وغيرهم، فإن القدرية حدثوا قبل ذلك في أواخر عصر الصحابة، فلما حدثت مقالته المقابلة لمقالة القدرية أنكرها السلف والأئمة كما أنكروا قول القدرية من المعتزلة وغيرهم، وبدعوا الطائفتين، حتى في لفظ (الجبر) أنكروا على من قال: جبر، وعلى من قال: لم يجبر.

والآثار بذلك معروفة عن الأوزاعي، وسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن مهدي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم من سلف الأمة وأئمتها، كما ذكر طرفا من ذلك أبو بكر الخلال في (كتاب السنة) هو وغيره ممن يجمع أقوال السلف»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات المشيئة لله تعالى

* عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا دعوتم اللَّه فاعزموا في الدعاء، ولا يقولن أحدكم إن شئت فأعطني، فإن اللَّه لا مستكره له**»[3].

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت، ارحمني إن شئت، ارزقني إن شئت، وليعزم مسألته، إنه يفعل ما يشاء لا مكره له**»[4].

---

(١) الفتاوى (٨/ ٤٨٨-٤٨٩). (٢) الفتاوى (٨/ ٤٦٠-٤٦١).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠١). البخاري (١٣/ ٥٤٦/ ٧٤٦٤)، مسلم (٤/ ٢٠٦٣/ ٢٦٧٨). النسائي في عمل اليوم والليلة (٥٨٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٣). البخاري (١٣/ ٥٤٩/ ٧٤٧٧)، مسلم (٤/ ٢٠٦٣/ ٢٦٧٩). أبو داود (٢/ ١٦٣/ ١٤٨٣). الترمذي (٥/ ٤٩١/ ٣٤٩٧). ابن ماجه (٢/ ١٢٦٧/ ٣٨٥٤). النسائي في عمل اليوم والليلة (٥٨٣).

★ **فوائد الحديثين:**

قال القرطبي: «إنما نهى الرسول ﷺ عن هذا القول؛ لأنه يدل على فتور الرغبة، وقلة التهمم بالمطلوب. وكأن هذا القول يتضمن: أن هذا المطلوب إن حصل، وإلا استغنى عنه، ومن كان هذا حاله لم يتحقق من حاله الافتقار والاضطرار الذي هو روح عبادة الدعاء، وكان ذلك دليلا على قلة اكتراثه بذنوبه وبرحمة ربه، وأيضا فإنه لا يكون موقنا بالإجابة.. ثم إن النبي ﷺ لم يكتف بالنهي عن ذلك حتى أمر بنقيضه فقال: «ليعزم في الدعاء» أي: ليجزم في طلبته، وليحقق رغبته ويتيقن الإجابة؛ فإنه إذا فعل ذلك: دل على علمه بعظيم قدر ما يطلب من المغفرة والرحمة، وعلى أنه مفتقر لما يطلب مضطر إليه، وقد وعد اللّٰه المضطر بالإجابة بقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[(١)](٢)».

وقوله: «**فإن اللّٰه لا مستكره له**»:

قال القرطبي: «إظهار لعدم فائدة تقييد الاستغفار والرحمة بالمشيئة؛ لأن اللّٰه تعالى لا يضطره إلى فعل شيء دعاء ولا غيره، بل يفعل ما يريد ويحكم ما يشاء، ولذلك قيد اللّٰه تعالى الإجابة بالمشيئة في قوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾(٣) فلا معنى لاشتراط مشيئته فيما هذا سبيله»(٤).

قال القاضي عياض: «إن مشيئة اللّٰه ثابتة معلومة وأنه لا يفعل من ذلك إلا ما شاء، وإنما يتحقق استعمال المشيئة في حق من يتوجه عليه الإكراه، واللّٰه منزه عن ذلك كما جاء في آخر الحديث»(٥).

قال الحافظ: «ولأن التعليق يوهم إمكان إعطائه على غير المشيئة، وليس بعد المشيئة إلا الإكراه واللّٰه لا مكره له»(٦).

قال القاري: «لا يقدر أحد أن يكرهه على فعل أراد تركه، بل يفعل ما يشاء، فلا معنى لقوله: «إن شئت»، لأنه أمر معلوم من الدين بالضرورة، فلا حاجة إلى التقييد به، مع أنه موهم لعدم الاعتناء بوقوع ذلك الفعل، أو لاستعظامه على الفاعل

(١) النمل: الآية (٦٢).
(٢) المفهم (٧/ ٢٩).
(٣) الأنعام: الآية (٤١).
(٤) المفهم (٧/ ٢٩-٣٠).
(٥) الإكمال (٨/ ١٧٨).
(٦) الفتح (١٣/ ٥٥٣).

على المتعارف بين الناس والله أعلم»[١].

قال المناوي: «وفيه أن الرب لا يفعل إلا ما يشاء، لا يكرهه أحد على ما يختاره»[٢].

* عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة فقال لهم: «**ألا تصلون**»، قال علي: فقلت يا رسول الله! إنما أنفسنا بيد الله إذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئا، ثم سمعته وهو مدبر يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[٣][٤].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مثل المؤمن كمثل خامة الزرع يفيء ورقه من حيث أتتها الريح تكفئها، فإذا سكنت اعتدلت، وكذلك المؤمن يكفأ بالبلاء، ومثل الكافر كمثل الأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء**»[٥].

* عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو قائم على المنبر يقول: «**إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أعطي أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا، ثم أعطي أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا، ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى غروب الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين، قال أهل التوراة: ربنا هؤلاء أقل عملا وأكثر أجرا، قال: هل ظلمتكم من أجركم من شيء؟ قالوا: لا، فقال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء**»[٦].

* عن عبادة بن الصامت قال: بايعت رسول الله ﷺ في رهط فقال: «**أبايعكم على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا**

---

(١) المرقاة (٥/ ٨). (٢) الفيض (١/ ٣٤٣).

(٣) الكهف: الآية (٥٤).

(٤) أحمد (١/ ٧٧). البخاري (١٣/ ٥٤٦-٥٤٧/ ٧٤٦٥)، مسلم (١/ ٥٣٧/ ٧٧٥). النسائي (٣/ ٢٢٧/ ١٦١٠).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٢٣). البخاري (١٣/ ٥٤٧/ ٧٤٦٦)، مسلم (٤/ ٢١٦٣/ ٢٨٠٩). الترمذي (٥/ ١٣٨-١٣٩/ ٢٨٦٦).

(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ١٢١). البخاري (١٣/ ٥٤٧/ ٧٤٦٧)، والترمذي (٥/ ١٤١/ ٢٨٧١).

ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على اللَّه، ومن أصاب من ذلك شيئا فأخذ به في الدنيا فهو له كفارة وطهور، ومن ستره اللَّه فذلك إلى اللَّه إن شاء عذبه وإن شاء غفر له»[1].

* عن أبي هريرة أن نبي اللَّه سليمان -عليه الصلاة والسلام- كان له ستون امرأة، فقال: لأطوفن الليلة على نسائي فلتحملن كل امرأة ولتلدن فارسا يقاتل في سبيل اللَّه، فطاف على نسائه فما ولدت منهن إلا امرأة ولدت شق غلام. قال نبي اللَّه ﷺ: **«لو كان سليمان استثنى لحملت كل امرأة منهن فولدت فارسا يقاتل في سبيل الله»**[2].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ دخل على أعرابي يعوده، فقال: **«لا بأس عليك طهور إن شاء الله»**، قال: قال الأعرابي: طهور؟ بل هو حمى تفور على شيخ كبير تزيره القبور، قال النبي ﷺ: **«فنعم إذًا»**[3].

⋆ فوائد الأحاديث:

تقدمت فوائد هذه الأحاديث في سورة آل عمران عند قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦﴾[4].

* عن عبد اللَّه بن أبي قتادة عن أبيه حين ناموا عن الصلاة قال النبي ﷺ: **«إن اللَّه قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء»، فقضوا حوائجهم وتوضؤوا إلى أن طلعت الشمس وابيضت فقام فصلى**[5].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٢٠). البخاري (١٣/ ٥٤٧/ ٧٤٦٨)، مسلم (٣/ ١٣٣٣/ ١٧٠٩). الترمذي (٤/ ٣٦/ ١٤٣٩). النسائي (٧/ ١٨١/ ٤٢٢١).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٩)، البخاري (١٣/ ٥٤٧-٥٤٨/ ٧٤٦٩)، مسلم (٣/ ١٢٥٧/ ١٦٥٤). الترمذي بأثر حديث (٤/ ٩٢/ ١٥٣٢). النسائي (٧/ ٣٢/ ٣٨٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٣/ ٥٤٨/ ٧٤٧٠). النسائي في الكبرى (٦/ ٢٥٧-٢٥٨/ ١٠٨٧٨).

(٤) آل عمران: الآية (٢٦).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٣٠٧). البخاري (١٣/ ٥٤٨/ ٧٤٧١). أبو داود (١/ ٣٠٧/ ٤٣٩). النسائي (٢/ ٤٤١/ ٨٤٥).

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «وفيه الرد على منكري القدر وأنه لا واقع في الكون إلا بقدر»(١).

قال الغنيمان: «إن اللَّه تعالى له ملك كل شيء، فروح الإنسان التي بها حياته وتصرفه، هي بيد اللَّه إذا شاء قبضها من بدنها، وأصبح الإنسان ميتا لا يستطيع أي عمل، وإذا شاء ردها إلى بدنها فاستطاع العمل والتصرف، وكذلك الإنسان لا يستطيع أن ينام متى شاء، ويستيقظ متى شاء إلا بمشيئة اللَّه تعالى، قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾(٢)»(٣).

قال ابن بطال: «فيه إثبات المشيئة لله تعالى»(٤).

* عن أبي هريرة قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمدا على العالمين في قسم يقسم به، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك، فلطم اليهودي فذهب اليهودي إلى رسول اللَّه ﷺ فأخبره بالذي كان من أمره وأمر المسلم، فقال النبي ﷺ: «**لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله**»(٥).

★ **فوائد الحديث:**

قال الغنيمان: «قوله: «**أو كان ممن استثنى الله**» أي: في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾(٦) ففي هذه الآية أن الخلق لا ينجو أحد منهم من صعق نفخة الصور، إلا من يشاء اللَّه، فدل على أن مشيئة اللَّه عامة شاملة لكل شيء، فلا يخرج عنها ما يعم الخلق كنفخ الصور، ولا ما يخص

(١) الفتح (٢/ ٨٦).
(٢) الزمر: الآية (٤٢).
(٣) شرح كتاب التوحيد (٢/ ١٦٧).
(٤) شرح البخاري (١٠/ ٤٨٥).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٤). البخاري (١٣/ ٥٤٨/ ٧٤٧٢)، مسلم (٤/ ١٨٤٣-١٨٤٤/ ٢٣٧٣). أبو داود (٥/ ٥٣/ ٤٦٧١). النسائي في الكبرى (٤/ ٤١٨/ ٧٧٥٨).
(٦) الزمر: الآية (٦٨).

بعضهم، ومن أجل ذلك -والله أعلم- جاء قوله في أهل الجنة وأهل النار: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾[1] فما شاء الله كان كما يشاء، وما لم يشأ لم يكن»[2].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المدينة يأتيها الدجال فيجد الملائكة يحرسونها فلا يقربها الدجال ولا الطاعون إن شاء الله**»[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال الغنيمان: «والشاهد قوله إن شاء الله: يعني أن ذلك معلق بمشيئة الله فلو شاء لم يحصل المنع»[4].

قال ابن بطال: «واستثناء النبي ﷺ في دخول الدجال والطاعون المدينة، هو من باب التأدب لا على الشك الذي لا يجوز على الله تعالى»[5].

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل نبي دعوة فأريد إن شاء الله أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة**»[6].

★ **فوائد الحديث:**

قال الغنيمان: «وقال -أي: النووي-: في قوله: «إن شاء الله تعالى» هو على جهة التبرك والامتثال لقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[7] قلت: ليس كما قال -رحمه الله- إن التعليق للتبرك وامتثال الأمر، ولكنه تعليق حقيقة، إذ لو شاء الله لم يقع ذلك، غير أنه تعالى شاء وقوعه فأخبر به على لسان رسوله ﷺ وخبره حق، والمقصود أن كل شيء بمشيئة الله»[8].

---

(١) هود: الآية (١٠٧).
(٢) شرح كتاب التوحيد (٢/ ١٧٠-١٧١).
(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٢٣). البخاري (١٣/ ٥٤٨/ ٧٤٧٣)، مسلم (٤/ ٢٢٦٥/ ٢٩٤٣). الترمذي (٤/ ٤٤٦/ ٢٢٤٢).
(٤) شرح كتاب التوحيد (٢/ ١٧٥).
(٥) شرح البخاري (١٠/ ٤٨٥).
(٦) أحمد (٢/ ٣١٣). البخاري (١٣/ ٥٤٨/ ٧٤٧٤)، مسلم (١/ ١٨٨/ ١٩٨). الترمذي (٥/ ٥٤١-٥٤٢/ ٣٦٠٢). ابن ماجه (٢/ ١٤٤٠/ ٤٣٠٧).
(٧) الكهف: الآيتان (٢٣-٢٤).
(٨) شرح كتاب التوحيد (٢/ ١٧٨)، وانظر شرح مسلم للنووي (٧/ ٣٥).

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**بينا أنا نائم رأيتني على قليب فنزعت ما شاء اللَّه أن أنزع، ثم أخذها ابن أبي قحافة نزع ذنوبا أو ذنوبين وفي نزعه ضعف واللَّه يغفر له، ثم أخذها عمر فاستحالت غربا فلم أر عبقريا من الناس يفري فريه حتى ضرب الناس حوله بطعن**»[١].

★ فوائد الحديث:

قال الغنيمان: «قوله: «**فنزعت ما شاء اللَّه أن أنزع**» النزع هو استخراج الماء من البئر بالدلو، وهذا محل الشاهد من الحديث حيث أسند كمية النزع إلى مشيئة اللَّه تعالى، وقد سبق أن مشيئة اللَّه عامة لا يخرج عنها شيء، والإنسان وإن كان له مشيئة، فهي داخلة تحت مشيئة اللَّه تعالى كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[٢]»[٣].

قال ابن بطال: «فهذا استثناء صحيح، وأن حركات العباد لا تكون إلا عن مشيئة اللَّه وإرادته»[٤].

* عن أبي موسى قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه السائل، وربما قال: جاءه السائل أو صاحب الحاجة قال: «**اشفعوا فلتؤجروا ويقضي اللَّه على لسان رسوله ما شاء**»[٥].

★ فوائد الحديث:

قال الغنيمان: «والشاهد فيه أن مشيئة اللَّه تعالى لا تؤثر فيها شفاعة ولا غيرها؛ بل ما شاء فعله فعله، وما شاء تركه تركه، لا راد لما أراد، ولا يمنع ذلك فعل الأسباب، ولا كون المسببات مرتبة على أسبابها، فكلها بمشيئة الله»[٦].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٧٧). البخاري (١٣/ ٥٤٩/ ٧٤٧٥)، مسلم (٤/ ١٨٦٠/ ٢٣٩٢). الترمذي (٤/ ٤٦٨-٤٦٩/ ٢٢٨٩). النسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٦/ ٨٦٣٦).

(٢) الإنسان: الآية (٣٠). (٣) شرح كتاب التوحيد (٢/ ١٧٩).

(٤) شرح البخاري (١٠/ ٤٨٥).

(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ٤١٣). البخاري (١٣/ ٥٤٩/ ٧٤٧٦)، مسلم (٤/ ٢٠٢٦/ ٢٦٢٧). أبو داود (٥/ ٣٤٧/ ٥١٣١). الترمذي (٥/ ٤١/ ٢٦٧٢). النسائي (٥/ ٨١/ ٢٥٥٥).

(٦) شرح كتاب التوحيد (٢/ ١٨٤).

قال الطيبي: «أي يجري على لساني ما شاء اللَّه، إن قضيت حاجة من شفاعتكم له، فهو بتقدير اللَّه، وإن لم أقض فهو أيضا بتقدير الله»[١].

قال ابن بطال: «قوله: «ويقضي اللَّه على لسان رسوله ما شاء» أي: أن الإنسان لا يتكلم إلا بمشيئة اللَّه المحرك للسانه، والمقلب لقلبه»[٢].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى أهو خضر، فمر بهما أبي بن كعب الأنصاري فدعاه ابن عباس فقال: إني تماديت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه هل سمعت رسول اللَّه ﷺ يذكر شأنه؟ قال: نعم، إني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«بينا موسى في ملإ بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال: هل تعلم أحدا أعلم منك؟ فقال موسى: لا، فأوحي إلى موسى بلى عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إلى لقيه فجعل اللَّه له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر، فقال فتى موسى لموسى: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، قال موسى: ذلك ما كنا نبغي، فارتدا على آثارهما قصصا، فوجدا خضرا وكان من شأنهما ما قص الله»**[٣].

⋆ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «والمراد منه قوله فيه حكاية عن موسى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾[٤] وفيه إشارة إلى أن قول ذلك يرجى فيه النجح ووقوع المطلوب غالبا، وقد يتخلف ذلك إذا لم يقدر اللَّه وقوعه»[٥].

قال الغنيمان: «فمهما كان عند المخلوق من القوة والعزم فإنه لا يستطيع فعل

---

(١) شرح الطيبي (١٠/ ٣١٧٧).
(٢) شرح البخاري (١٠/ ٤٨٦).
(٣) أحمد (٥/ ١١٧-١١٨) والبخاري (١٣/ ٥٤٩/ ٧٤٧٨). وأخرجه بنحوه مسلم (٤/ ١٨٤٧-١٨٥٠/ ٢٣٨٠) مطولا. وأخرجه أبو داود (٥/ ٨١/ ٤٧٠٧) مختصرا دون موطن الشاهد. وأخرجه الترمذي (٥/ ٢٨٩-٢٩٢/ ٣١٤٩) وقال: «حسن صحيح». النسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٩-٣٩٠/ ١١٣٠٨) مطولا.
(٤) الكهف: الآية (٦٩).
(٥) الفتح (١٣/ ٥٥٤).

شيء إلا أن يشاء اللَّه تعالى»[١].

* عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ننزل غدا إن شاء اللَّه بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر، يريد المحصب**»[٢].

★ فوائد الحديث:

قال الغنيمان: «والمقصود من الحديث قوله: «ننزل غدا إن شاء الله» حيث علق ما هو عازم على فعله، وقد توافرت أسباب ذلك لديه على مشيئة اللَّه تعالى، فإنه لو شاء لجعل الممكن الميسور عسيرا ممتنعا، وليس قول ذلك لمجرد التبرك؛ بل لأن حصول ذلك مشروط بمشيئة اللَّه تعالى»[٣].

* عن ابن عباس عن عبد اللَّه بن عمر قال: حاصر النبي ﷺ أهل الطائف فلم يفتحها فقال: «**إنا قافلون إن شاء الله**»، فقال المسلمون: نقفل ولم نفتح، قال: «فاغدوا على القتال» فغدوا فأصابتهم جراحات قال النبي ﷺ: «**إنا قافلون غدا إن شاء اللَّه**، فكأن ذلك أعجبهم فتبسم رسول اللَّه ﷺ»[٤].

---

(١) شرح كتاب التوحيد (٢/ ١٩٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٥٣). البخاري (١٣/ ٥٤٩-٥٥٠/ ٧٤٧٩)، مسلم (٢/ ٩٥٢/ ١٣١٤). أبو داود (٢/ ٥١٥/ ٢٠١١). النسائي في الكبرى (٢/ ٤٦٧/ ٤٢٠٢).

(٣) شرح كتاب التوحيد (٢/ ١٩٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ١١). البخاري (١٣/ ٥٥٠/ ٧٤٨٠)، مسلم (٣/ ١٤٠٢-١٤٠٣/ ١٧٧٨). النسائي في الكبرى (٥/ ٢٧٥/ ٨٨٧٢).

وفي صحيح مسلم عن أبي العباس الأعمى عن عبد اللَّه بن عمرو؛ والصواب ابن عمر ففي رواية أحمد المتقدم الإشارة إليها، قيل لسفيان: ابن عمرو؟ قال: لا ابن عمر. قال الشيخ أحمد شاكر: «فاختلف الحافظان: ابن كثير وابن حجر في الثابت في صحيح مسلم، والذي فيه، في طبعة بولاق وطبعة الإستانة ونسختين مخطوطتين صحيحتين عندي: عبد اللَّه بن عمرو. وهي التي تحدث عنها النووي في شرحه (١٢/ ١٢٣)، ونقل أنه هو هكذا في نسخ صحيح مسلم. ونقل عن القاضي عياض: «كذا هو في رواية الجلودي وأكثر أهل الأصول عن ابن ماهان». ومن البين الواضح أنهم كلهم لم ينبهوا إلى رواية الإمام أحمد هنا، وهو من أحفظ أصحاب ابن عيينة إن لم يكن أحفظهم، وإثباته بالقول الصريح الواضح أن ابن عيينة سئل: (ابن عمرو؟) يعني ابن العاص، فقال: «لا، ابن عمر، يعني ابن الخطاب، فهذا يرفع عن سفيان بن عيينة، أم كان ممن بعدهم، أم كان من أصحاب نسخ الصحيحين». المسند (٦/ ٢٦٩).

★ **فوائد الحديث:**

قال الغنيمان: «والمقصود منه قوله: «إن شاء الله» فقد أخبر أولا بأنهم قافلون معلقا ذلك بمشيئة اللَّه، فلم يحصل لأن اللَّه لم يشأ ذلك. وفي المرة الثانية شاءه فحصل بإيجاد اللَّه له الأسباب التي جعلتهم يفرحون بذلك، وهكذا كل ما لا يريد اللَّه -تعالى- حصوله لابد أن يوجد له من الأسباب ما يمنع وجوده وبالعكس»(١).

قال ابن بطال: «قوله: «إنا قافلون غدا إن شاء الله» فاستثنى فيما يستقبل من الأفعال كما أمره اللَّه برد الحول والقوة إليه في قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾»(٢).

قلت: هذه السورة الكريمة امتازت بعرضها لأحوال القيامة، وفصلت القول في الجنة، وبينت أصناف نعيمها وكأن القارئ لها لوضوح آياتها كأنه في الجنة يتقلب. وكما يقال: «**لا عطر بعد عروس**» فإذا تكلم اللَّه تعالى بشيء فلا معقب لحكمه ولا مزيد على فضله وإحسانه، والجنة دار الأبرار والأخيار تحتاج إلى عزم وحزم، وتحتاج إلى عمل دؤوب مستمر، وإخلاص العبادة وتصحيح المعتقد شرط في ذلك. ومن أخل بذلك فقد نكس الطريق، ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾(٣)، فكم من أناس بذلوا وما وصلوا؛ لوجود المانع وفقدان الشرط. فنرجو اللَّه أن يجعلنا ممن أخلص له وصحح معتقده.

فالسورة مبدؤها في خلق الإنسان وبيان ضعفه وهوانه، وهذا تذكير من اللَّه لعبده حتى يعرف مبدأ تاريخه، وأنه كان في العدم، فتفضل اللَّه عليه بالوجود والخلق، وهذه نعمة كبرى تبعث على التوحيد والعبودية؛ فالإنسان ملك للَّه وحده، فمن شاركه فيه فقد أخذ حقه وهو ظالم له، والقرآن مليء بهذه الذكرى لأهميتها، وربط الخالق بالمخلوق. فالمخلوق دائمًا يرتبط بخالقه ولا يعدوه، فلو رجع إلى فطرته وعقله الذي خلق به لوجد أن التوحيد هو طريقه الوحيد، وهو صراطه المستقيم، وذرة من الشرك توقعه في هوة جهنم، وتفسد عليه حياته الدنيوية، فيعيش

(١) شرح كتاب التوحيد (٢/ ١٩٣).
(٢) شرح البخاري (١٠/ ٤٨٦).
(٣) الغاشية: الآيات (١-٤).

في كدر ونغص، وإن حصل له فرح فممزوج بضنك الشرك، ويستحيل أن تصفو له الحياة، وشاهد ذلك واقع الكفار والمشركين؛ فإن حياتهم مهما ادعي فيها من البهرجة والضوضاء فهي كما قال اللَّه تعالى: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾[1].

فنرجو اللَّه أن يجعلنا من أهل التوحيد والإخلاص في العبادة والقول والفعل.

* * *

(١) النور: الآية (٣٩).



سورة المرسلات

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تاريخ نزول سورة المرسلات

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: (بينا نحن مع رسول اللَّه ﷺ في غار إذ نزلت عليه ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾، فتلقيناها من فيه، وإن فاه لرطب بها إذ خرجت حية، فقال رسول اللَّه ﷺ: «عليكم، اقتلوها». قال: فابتدرناها فسبقتنا. قال: فقال: «**وقيت شركم كما وقيتم شرها**»[1].

⋆ غريب الحديث:

رطبة: أي مستطابة سهلة، كالثمرة الرطبة السهلة الجني.

⋆ فوائد الحديث:

في هذا الحديث دليل لمن قال بأن سورة المرسلات مكية -**يقول ابن عاشور**-: «وهي مكية عند جمهور المفسرين من السلف، وذلك ظاهر حديث ابن مسعود المذكور آنفا، وهو يقتضي أنها من أوائل سور القرآن نزولا؛ لأنها نزلت والنبي ﷺ مختف في غار بمنى مع بعض أصحابه.

وعن ابن عباس وقتادة أن آية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾[2] مدنية نزلت في المنافقين، ومحمل ذلك أنه تأويل ممن رواه عنه نظرا إلى أن الكفار الصرحاء لا يؤمرون بالصلاة، وليس في ذلك حجة لكون الآية مدنية فإن الضمير في قوله:

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٢٢ و٤٢٨)، البخاري (٨/ ٨٨٧/ ٤٩٣١)، مسلم (٤/ ١٧٥٥/ ٢٢٣٤)، النسائي في الكبرى (٦/ ٥٠٥/ ١١٦٤٢).

(٢) المرسلات: الآية (٤٨).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ وارد على طريقة الضمائر قبله، وكلها عائدة إلى الكفار وهم المشركون، ومعنى ﴿قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟﴾ كناية عن أن يقال لهم أسلموا، ونظيره قوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾[١] فهي في المشركين وقوله: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾[٢] وعن مقاتل نزلت ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ في شأن وفد ثقيف حين أسلموا بعد غزوة هوازن، وأتوا المدينة فأمرهم النبي ﷺ بالصلاة فقالوا: لا نجبي فإنها مسبة علينا، فقال لهم: «لا خير في دين ليس فيه ركوع وسجود»[٣]، وهذا أيضا أضعف، إذا صح ذلك إنما أراد مقاتل أن النبي ﷺ قرأ عليهم الآية»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءة النبي ﷺ بسورة المرسلات

* عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أم الفضل سمعته وهو يقرأ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ فقالت: والله يا بني لقد ذكرتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب[٥].

⋆ فوائد الحديث:

قال أبو عمر رحمه الله: «وليس في هذا الحديث أكثر من أن القراءة في الصلاة ليس فيها توقيت، وأن القراءة بالمرسلات ومثلها جائز في صلاة المغرب»[٦].

* * *

---

(١) القلم: الآية (٤٣).

(٢) المدثر: الآيات (٤٣-٤٦).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢١٨)، وأبو داود (٣/ ٤٢٠-٤٢١/ ٣٠٢٦)، وضعفه الألباني في الضعيفة.

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤١٨-٤١٩).

(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٤٠)، البخاري (٢/ ٣١٣/ ٧٦٣)، مسلم (١/ ٣٣٨/ ٤٦٢)، أبو داود (١/ ٥٠٨/ ٨١٠)، الترمذي (٢/ ١١٢/ ٣٠٨)، النسائي (٢/ ٥٠٨/ ٩٨٥)، ابن ماجه (١/ ٢٧٢/ ٨٣١).

(٦) فتح البر (٤/ ٦٨٥).

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «فسرت المرسلات بالملائكة، وهو قول أبي هريرة وابن عباس في رواية مقاتل وجماعة، وفسرت بالرياح، وهو قول ابن مسعود وإحدى الروايتين عن ابن عباس وقول قتادة، وفسرت بالسحاب، وهو قول الحسن، وفسرت بالأنبياء وهو رواية عطاء عن ابن عباس.

قلت: اللَّه سبحانه يرسل الملائكة ويرسل الأنبياء ويرسل الرياح ويرسل السحاب فيسوقه حيث يشاء، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، فإرساله واقع على ذلك كله، وهو نوعان: إرسال دين يحبه ويرضاه كإرسال رسله وأنبيائه، وإرسال كون وهو نوعان: نوع يحبه ويرضاه كإرسال ملائكته في تدبير أمر خلقه، ونوع لا يحبه؛ بل يسخطه ويبغضه، كإرسال الشيطان على الكفار.

فالإرسال المقسم به هاهنا مقيد بالعرف، فإما أن يكون ضد المنكر، فهو إرسال رسله من الملائكة، ولا يدخل في ذلك إرسال الرياح ولا الصواعق ولا الشياطين، وأما إرسال الأنبياء فلو أريد لقال: (والمرسلين). وليس بالفصيح تسمية الأنبياء مرسلات، وتكلف الجماعات المرسلات خلاف المعهود من استعمال اللفظ، فلم يطلق في القرآن جمع ذلك إلا جمع تذكير لا جمع تأنيث، وأيضا فاقتران اللفظة بما بعدها من الإقسام لا يناسب تفسيرها بالأنبياء، وأيضا فإن الرسل مقسم عليهم في القرآن لا مقسم بهم، كقوله: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾[1] وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2] وقوله: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾[3]

---

(١) النحل: الآية (٦٣).
(٢) البقرة: الآية (٢٥٢).
(٣) يس: الآيات (١-٣).

وإن كان العرف من التابع كعرف الفرس وعرف الديك والناس إلى فلان عرف واحد، أي: سابقون في قصده والتوجيه إليه - جاز أن تكون المرسلات الرياح، ويؤيده عطف العاصفات عليه والناشرات، وجاز أن تكون الملائكة، وجاز أن يعم النوعين لوقوع الإرسال عرفا عليهما، ويؤيده أن الرياح موكل بها ملائكة تسوقها وتصرفها، ويؤيد كونها الرياح عطف العاصفات عليها بفاء التعقيب والتسبب، فكأنها أرسلت فعصفت، ومن جعل المرسلات الملائكة قال: هي تعصف في مضيها مسرعة كما تعصف الرياح والأكثرون على أنها الرياح. وفيها قول ثالث أنها تعصف بروح الكافر، يقال عصف بالشيء إذا أباده وأهلكه، قال الأعشى:

تعصف بالدارع والحاسر

حكاه أبو اسحق: وهو قول متكلف، فإن المقسم به لا بد أن يكون آية ظاهرة تدل على الربوبية، وأما الأمور الغائبة التي يؤمن بها يقسم عليه، وإنما يقسم سبحانه بملائكته وكتابه لظهور شأنهما، ولقيام الأدلة والأعلام الظاهره الدالة على ثبوتهما.

وأما ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣﴾ فهو استئناف قسم آخر، ولهذا أتى به بالواو وما قبله معطوف على القسم الأول بالفاء، قال ابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة: هي الرياح تأتي بالمطر، ويدل على صحة قولهم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾[1]. يعني أنها تنشر السحاب نشرا، وهو ضد الطي، وقال مقاتل: هي الملائكة تنشر كتب بني آدم وصحائف أعمالهم، وقاله مسروق وعطاء عن ابن عباس.

وقالت طائفة: هي الملائكة تنشر أجنحتها في الجو عند صعودها ونزولها. وقيل: تنشر أوامر اللّٰه في الأرض والسماء. وقيل: تنشر النفوس فتحييها بالإيمان. وقال أبو صالح: هي الأمطار تنشر الأرض أي: تحييها.

قلت: ويجوز أن تكون الناشرات لازما لا مفعول له، ولا يكون المراد أنهن نشرن كذا، فإنه يقال: نشر الميت: حيى، وأنشره اللّٰه إذا أحياه، فيكون المراد بها الأنفس التي حييت بالعرف الذي أرسلت به المرسلات أو الأشباح والأرواح،

---

(١) الأعراف: الآية (٥٧).

والبقاع التي حييت بالرياح المرسلات، فإن الرياح سبب لنشور الأبدان والنبات، والوحي سبب لنشور الأرواح وحياتها، لكن هنا أمرا ينبغي التفطن له، وهو أنه سبحانه جعل الإقسام في هذه السورة نوعين: وفصل أحدهما من الآخر، وجعل العاصفات معطوفا على المرسلات بفاء التعقيب، فصارا كأنهما نوع واحد، ثم جعل الناشرات كأنه قسم مبتدأ، فأتى فيه بالواو، ثم عطف عليه الفارقات والملقيات بالفاء، فأوهم هذا أن الفارقات والملقيات مرتبط بالناشرات، وأن العاصفات مرتبط بالمرسلات، وقد اختلف في الفارقات والأكثرون على أنها الملائكة، ويدل عليه عطف الملقيات ذكرا عليها بالفاء، وهي الملائكة بالاتفاق، وعلى هذا فيكون القسم بالملائكة التي تنشر أجنحتها عند النزول ففرقت بين الحق والباطل، فألقت الذكر على الرسل إعذارا وإنذارا، ومن جعل الناشرات الرياح جعل الفارقات صفة لها، وقال: هي تفرق السحاب هاهنا وهاهنا، ولكن يأبى ذلك عطف الملقيات بالفاء عليها، ومن قال: الفارقات أي: القرآن يفرق بين الحق والباطل، فقوله يلتئم مع كون الناشرات الملائكة أكثر من التئامه إذا قيل: إنها الرياح، ومن قال: هي جماعات الرسل فإن أراد الرسل من الملائكة فظاهر، وإن أراد الرسل من البشر فقد تقدم بيان ضعف هذا القول.

ويظهر -واللَّه أعلم بما أراد من كلامه- أن القسم في هذه الآية وقع على النوعين: الرياح والملائكة، ووجه المناسبة أن حياة الأرض والنبات، وأبدان الحيوان بالرياح، فإنها من روح اللَّه، وقد جعلها اللَّه تعالى نشورا، وحياة القلوب والأرواح بالملائكة، فبهذين النوعين يحصل نوعا الحياة، ولهذا -واللَّه أعلم- فصل أحد النوعين من الآخر بالواو، وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بالفاء»[1].

قال الرازي: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ جواب القسم، والمعنى: إن الذي توعدون به من مجيء يوم القيامة لكائن نازل، وقال الكلبي: المراد أن كل ما توعدون به من الخير والشر لواقع، واحتج القائلون بالتفسير الأول بأنه تعالى ذكر عقيب هذه الآيات علامات يوم القيامة، فدل على أن المراد من هذه الآية هو القيامة فقط»[2].

---

(١) التبيان (ص: ٨٩-٩١).

(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٦٩-٢٧٠).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾

★ **غريب الآية:**

طُمِسَتْ: الطَّمْسُ: إزالة أثر الشيء. والمعنى: مُحِيَ نُورُهَا وأُزِيلَ ضَوْؤُهَا.

فُرِجَتْ: فُتِحَتْ وشُقَّتْ. يقال: فَرَجْتُ الشيءَ: إذا شققته.

نُسفت: قُلِعَتْ ودُكَّتْ. من نَسَفَتِ الرِّيحُ الشيءَ: إذا قَلَعَتْهُ وأزالته من مكانه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «لما أفاد وقوع البعث وكان المخاطبون ينكرونه ويتعللون بعدم التعجيل بوقوعه، بُيّن لهم ما يحصل قبله زيادة في تهويله عليهم. والإنذار بأنه مؤخّر إلى أن تحصل تلك الأحداث العظيمة، وفيه كناية رمزية على تحقيق وقوعه؛ لأن الأخبار عن أمارات حلول ما يوعدون يستلزم التحذير من التهاون به، ولذلك ختمت هذه الأخبار بقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾»[(١)].

قال ابن كثير: «ثم قال: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾ أي: ذهب ضوؤها، كقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾[(٢)] وكقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾[(٣)]. ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾ أي: انفطرت وانشقت، وتدلت أرجاؤها، وَوَهَت أطرافها. ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠﴾ أي: ذُهِب بها، فلا يبقى لها عين ولا أثر، كقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾[(٤)] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٢٣-٤٢٤).
(٢) التكوير: الآية (٢).
(٣) الانفطار: الآية (٢).
(٤) طه: الآيات (١٠٥-١٠٧).

أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾[(١)]»[(٢)].

قال القرطبي: «﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾﴾ أي: جمعت لوقتها ليوم القيامة، والوقت: الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر إليه، فالمعنى: جعل لها وقت وأجل للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾[(٣)]. وقيل: هذا في الدنيا أي: جمعت الرسل لميقاتها الذي ضرب لها في إنزال العذاب بمن كذبهم بأن الكفار ممهلون. وإنما تزول الشكوك يوم القيامة. والأول أحسن؛ لأن التوقيت معناه شئ يقع يوم القيامة، كالطمس ونسف الجبال وتشقيق السماء، ولا يليق به التأقيت قبل يوم القيامة. قال أبو علي: أي: جعل يوم الدين والفصل لها وقتا. وقيل: أقتت وعدت وأجلت. وقيل: ﴿أُقِّتَتۡ﴾ أي أرسلت لأوقات معلومة على ما علمه اللَّه وأراد»[(٤)].

وقوله: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مُعَجِّبًا عباده من هول ذلك اليوم وشدّته: لأيِّ يوم أجِّلت الرسل ووقِّتت، ما أعظمه وأهوله؛ ثم بين ذلك: وأيّ يوم هو؟ فقال: أجلت ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾﴾ يقول: ليوم يفصل اللَّه فيه بين خلقه القضاء، فيأخذ للمظلوم من الظالم، ويجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته»[(٥)].

قال الألوسي: «والاستفهام للتعظيم والتعجيب من هول ذلك اليوم، أي: إذا كان كذا وكذا يقال لأي يوم أخرت الأمور المتعلقة بالرسل من تعذيب الكفرة وإهانتهم، وتنعيم المؤمنين ورعايتهم، وظهور ما كانت الرسل عليهم السلام تذكره من الآخرة وأحوالها، وفظاعة أمورها وأهوالها، وجوز أن يكون الضمير للأمور المشار إليها فيما قبل من طمس النجوم، وفرج السماء، ونسف الجبال، وتأقيت الرسل، وأن يكون للرسل إلا أن المعنى على نحو ما تقدم»[(٦)].

وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾:

قال القرطبي: «أتبع التعظيم تعظيما، أي: وما أعلمك ما يوم الفصل؟ ﴿وَيۡلٞ

---

(١) الكهف: الآية (٤٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٢١-٣٢٢).
(٣) المائدة: الآية (١٠٩).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٠٢).
(٥) جامع البيان (٢٩/ ٢٣٤).
(٦) روح المعاني (٢٩/ ١٧٣).

يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أي: عذاب وخزي لمن كذب بالله وبرسله وكتبه وبيوم الفصل فهو وعيد. وكرره في هذه السورة عند كل آية لمن كذب؛ لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم، فإن لكل مكذب بشيء عذابا سوى تكذيبه بشيء آخر، ورب شيء كذب به هو أعظم جرما من تكذيبه بغيره؛ لأنه أقبح في تكذيبه، وأعظم في الرد على الله، فإنما يقسم له من الويل على قدر ذلك، وعلى قدر وفاقه وهو قوله: ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾[1]»[2].

* * *

(١) النبأ: الآية (٢٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٠٣).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ألم نهلك الأمم الماضين الذين كذّبوا رسلي، وجحدوا آياتي من قوم نوح وعاد وثمود، ثم نتبعهم الآخرين بعدهم، ممن سلك سبيلهم في الكفر بي وبرسولي، كقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين، فنهلكهم كما أهلكنا الأوّلين قبلهم، ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يقول كما أهلكنا هؤلاء بكفرهم بي، وتكذيبهم برسلي، كذلك سنتي في أمثالهم من الأمم الكافرة، فنهلك المجرمين بإجرامهم إذا طغوا وبغوا ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ بأخبار اللَّه التي ذكرناها في هذه الآية، الجاحدين قُدرته على ما يشاء»[١].

قال الرازي: «اعلم أن المقصود من هذه السورة تخويف الكفار وتحذيرهم عن الكفر. فالنوع الأول من التخويف أنه أقسم على أن اليوم الذي يوعدون به، وهو يوم الفصل واقع، ثم هول فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾ ثم زاد في التهويل فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

والنوع الثاني من التخويف: ما ذكر في هذه الآية، وهو أنه أهلك الكفرة المتقدمين بسبب كفرهم. فإذا كان الكفر حاصلًا في هؤلاء المتأخرين، فلا بد وأن يهلكهم أيضًا، ثم قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ كأنه يقول: أما الدنيا فحاصلهم الهلاك، وأما الآخرة فالعذاب الشديد، وإليه الإشارة بقوله: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[٢]»[٣].

* * *

(١) جامع البيان (٢٩/ ٢٣٥).

(٢) الحج: الآية (١١).

(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٧٢).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

★ غريب الآية:

قرار: مُسْتَقَر يصلح للمكث فيه.

مكين: مُتَمَكِّن.

قدر معلوم: القَدَرُ: وَقْتُ الشيءِ المُقَدَّرُ له والمكان المقدر له.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ثم قال ممتنا على خلقه ومحتجا على الإعادة بالبَدَاءة: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾؟ أي: ضعيف حقير بالنسبة إلى قُدرَة البارئ ﷻ، كما تقدم في سورة يس في حديث بُسْر بن جِحَاش: «ابنَ آدم، أَنَّى تُعجزُني وقد خلقتك من مثل هذه؟». ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾ يعني: جمعناه في الرّحِم، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة، والرحم معد لذلك، حافظ لما أودع فيه من الماء.

وقوله: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ يعني: إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر؛ ولهذا قال: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾»[(١)].

قال الغزالي بعد ذكره الآية وما في معناها: «تكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر في معناه، فانظر الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت، كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب، وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٢٢-٣٢٣).

وجمعه في الرحم، ثم كيف خلق المولود من النطفة، وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر. . إلى أن قال: أعجب من هذا كله وشرحه يطول فللفكر مجال في آحاد هذه الأجزاء، ثم في جملة البدن فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن، وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم، فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه، وإلى بدنه وصفاته، فترى به من العجائب والصنعة ما يقضى به العجب، وكل ذلك صنع اللَّه في قطرة ماء قذرة، فترى من هذا صنعه في قطرة ماء، فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها، وما حكمته في أوضاعها وأشكالها، ومقاديرها وأعدادها، واجتماع بعضها وتفرق بعضها، واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها، فلا تظنن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم؛ بل هي أحكم خلقا وأتقن صنعا، وأجمع للعجائب من بدن الإنسان؛ بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات، ولذلك قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾[1]. فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا، وما صارت إليه ثانيا، وتأمل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعا أو بصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا، أو يخلقوا فيها عظما أو عرقا أو عصبا أو جلدا أو شعرا هل يقدرون على ذلك؟؛ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق اللَّه تعالى ذلك لعجزوا عنه، فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصور على حائط تأنق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان، وقال الناظر إليها: كأنه إنسان، عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته، وعظم في قلبك محله مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد، وبالقدرة وبالعلم وبالإرادة، وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه؛ بل هو من خلق غيره، وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه. وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها في الأصلاب والترائب، ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها، وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها»[2].

---

(١) النازعات: الآيات (٢٧-٢٩).

(٢) الإحياء (٤/ ٤٣٦-٤٣٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فكون الشيء معلوما من مادة وعنصر أبلغ في العبودية من كونه خلق لا من شيء، وأبعد عن مشابهة الربوبية، فإن الرب هو أحد صمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، فليس له أصل وجد منه، ولا فرع يحصل عنه، فإذا كان المخلوق له أصل وجد منه كان بمنزلة الولد له، وإذا خلق له شيء آخر كان بمنزلة الوالد، وإذا كان والدا ومولودا كان أبعد عن مشابهة الربوبية والصمدية، فانه خرج من غيره ويخرج منه غيره، لا سيما إذا كانت المادة التي خلق منها مهينة كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾ وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾[1] وفي المسند عن بسر بن جحاش قال: بصق رسول الله ﷺ في كفه، فوضع عليها إصبعه ثم قال: «**يقول الله تعالى: ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين، وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي، قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة**»[2]، وكذلك إذا خلق في محل مظلم وضيق كما خلق الإنسان في ظلمات ثلاث، كان أبلغ في قدرة القادر، وأدل على عبودية الإنسان، وذله لربه وحاجته إليه، وقد يقول المعير للرجل مالك أصل ولا فصل، ولكن الإنسان أصله التراب، وفصله الماء المهين»[3].

قال ابن عاشور: «وقد جاء هنا التقرير على ثبوت الإيجاد بعد العدم إيجادًا متقنًا دالًا على كمال الحكمة والقدرة ليفضي بذلك التقرير إلى التوبيخ على إنكار البعث والإعادة، وإلى إثبات البعث بإمكانه بإعادة الخلق كما بُدئ أول مرة، وكفى بذلك مرجحًا لوقوع هذا الممكن؛ لأن القدرة تجري على وفق الإرادة بترجيح جانب إيجاد الممكن على عدمه»[4].

قال ابن القيم: «وتأمل كيف وقع القسم في هذه السورة على المعاد والحياة الدائمة الباقية، وحال السعداء والأشقياء فيها، وقررها بالحياة الأولى في قوله:

---

(١) الطارق: الآيات (٥-١٠).

(٢) أحمد (٤/ ٢١٠)، وابن ماجه (٢/ ٩٠٣/ ٢٧٠٧)، وقال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح»، والحاكم (٢/ ٥٠٢) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٣) النبوات (١/ ٣٢٥-٣٢٦).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٣٠).

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ فذكر فيها المبدأ والمعاد، وأخلص السورة لذلك، فحسن الأقسام بما يحصل به نوعا الحياة المشاهدة، وهو الرياح والملائكة، فكان في القسم بذلك أبين دليل وأظهر آية على صحة ما أقسم عليه وتضمنته السورة، ولهذا كان المكذب بعد ذلك في غاية الجحود والعناد والكفر، فاستحق الويل بعد الويل، فتضاعف عليه الويل كما تضاعف منه الكفر والتكذيب. فلا أحسن من هذا التكرار في هذا الموضع، ولا أعظم منه موقعا، فإنه تكرر عشر مرات، ولم يذكر إلا في إثر دليل أو مدلول عليه عقيب ما يوجب التصديق وما يوجب التصديق به فتأمله»[1].

وفي هذه الآية -**يقول الرازي**- تخويف الكفار، ووجه التخويف فيه من وجهين:

الأول: أنه تعالى ذكَّرهم عظيم إنعامه عليهم، وكلما كانت نعمة اللّٰه عليهم أكثر كانت جنايتهم في حقه أقبح وأفحش، وكلما كان كذلك كان العقاب أعظم، فلهذا قال عقيب ذكر هذا الإنعام: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

الوجه الثاني: أنه تعالى ذكَّرهم كونه قادرًا على الابتداء، وظاهر في العقل أن القادر على الابتداء قادر على الإعادة، فلما أنكروا هذه الدلالة الظاهرة، لا جرم في حقهم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾»[2].

* * *

---

(١) التبيان (ص: ٩٢).

(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ٣٧٣).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَـٰمِخَـٰتٍ وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

كفاتًا: يقال: كَفَتَ الشيءَ يَكْفِتُهُ: إذا ضَمَّهُ وجَمَعَهُ. قال الشاعر:

فأنت اليومَ فوق الأرض حَيٌّ وأنت غدًا تَضُمُّكَ في كفات

رواسي: جبال ثوابت، مأخوذ من الرسو، وهو الثبوت.

شامخات: عاليات، ومنه: شَمَخَ بِأَنْفِهِ: إذا رفعه كبرًا.

فراتًا: أي: عذبًا زُلالًا. قال الشاعر:

فلا واللَّه ما أنْفَكُّ أَبْكِي إلَى أَنْ نَلْتَقِي شُعْثًا عُرَاتا

أَأُلْحَى أَنْ نَزَحْتُ أُجَاجَ عَيْنِي عَلَى جَدَثٍ حَوَى الماءَ الفُرَاتا؟

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: أما مننا عليكم وأنعمنا بتسخير الأرض لمصالحكم، فجعلناها ﴿كِفَاتًا﴾ لكم. ﴿أَحْيَآءً﴾ في الدور، ﴿وَأَمْوَٰتًا﴾ في القبور، فكما أن الدور والقصور من نعم اللَّه على عباده ومنته، فكذلك القبور، رحمة في حقهم، وسترا لهم، عن كون أجسادهم بادية للسباع وغيرها. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالا ترسي الأرض، لئلا تميد بأهلها، فثبتها اللَّه بالجبال الراسيات الشامخات أي: الطوال العراض، ﴿وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ أي: عذبا زلالا قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾[(١)]. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ مع ما أراهم اللَّه من النعم التي انفرد اللَّه بها، واختصهم بها، فقابلوها بالتكذيب»[(٢)].

---

(١) الواقعة: الآيات (٦٨-٧٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٤٤-٥٤٥).

قال ابن عاشور: «وفي الآية امتنان بجعل الأرض صالحة لدفن الأموات، وقد ألهم اللَّه لذلك ابنَ آدم حين قتَل أخاه كما تقدم ذكره في سورة المائدة، فيؤخذ من الآية وجوب الدفن في الأرض إلاّ إذا تعذر ذلك كالذي يموت في سفينة بعيدة عن مراسي الأرض أو لا تستطيع الإرساء، أو كان الإرساء يضر بالراكبين، أو يُخاف تعفن الجثة فإنها يُرمى بها في البحر، وتثقَّل بشيء لترسُب إلى غريق الماء. وعليه فلا يجوز إحراق الميت كما يفعل مَجُوس الهند، وكان يفعله بعض الرومان، ولا وضعُه لكواسر الطير كما كان يفعل مَجُوس الفرس، وكان أهل الجاهلية يتمدحون بالميت الذي تأكله السباع أو الضباع وهو الذي يموت قتيلًا في فلاة، قال تأبط:

لا تـدْفِـنُـونـي إنَّ دَفـنـي مُـحَـرَّم عـلـيكُـم ولـكـنْ خَـامـري أُمَّ عـامـر

وهذا من جهالة الجاهلية وكُفران النعمة»[1].

وفي هذه الآية دليل على بديع صنع اللَّه وعظيم قدرته يقول الغزالي: «وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك فتفكر في الأرض التي هي مقرك، ثم في أنهارها وجبالها ومعادنها، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات، أما الأرض فمن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا، وسلك فيها سبلا فجاجا، وجعلها ذلولا لتمشوا في مناكبها، وجعلها قارة لا تتحرك، وأرسى فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد، ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها، وإن طالت أعمارهم، وكثر تطوافهم، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨﴾[2] وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾[3] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾[4]، وقد أكثر في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها، فظهرها مقر للأحياء، وبطنها مرقد للأموات، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦﴾. فانظر إلى الأرض وهي ميتة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت، وأخضرت وأنبتت عجائب النبات، وخرجت منها أصناف الحيوانات، ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٣٣).
(٢) الذاريات: الآيتان (٤٧-٤٨).
(٣) الملك: الآية (١٥).
(٤) البقرة: الآية (٢٢).

الراسيات الشوامخ الصم الصلاب، وكيف أودع المياه تحتها، ففجر العيون وأسال الأنهار تجرى على وجهها، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا عذبا صافيا زلالا، وجعل به كل شيء حي، فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لا تحصى، مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات، والأراييح يفضل بعضها على بعض في الأكل، تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة»[١].

قال ابن العربي: «احتج علماؤنا بهذه الآية في قطع النباش؛ لأنه سرق من حرز مكفوت، وحمى مضموم، وقد مهدنا ذلك في مسائل الخلاف، وقررنا أن ينظر في دخوله في هذه الآية بأن نقول: هذا حرز كفات، لقول اللَّه تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ فجعل حال المرء فيها بعد الممات في كفتها له وضمها لحاله كحالة الحياة، وكما تحفظه وتحرز حاله حيا، كذلك يجب أن يكون ميتا، فهذا أصل ثبت بالقرآن، ثم ينظر في دخوله تحت قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾[٢] وذلك يثبت بطريق اللغة، فإن السارق فيها هو آخذ المال على طريق الخفية ومسارقة الأعين، وهذا فعله في القبر كفعله في الدار، ثم ينظر بعد ذلك في أن الذي سرق مال؛ لأن أبا حنيفة يقول: إن الكفن ليس بمال؛ لأنه معرض للإتلاف، وقلنا نحن: هو معرض للإتلاف في منفعة المالك، كالملبوس في الحياة، ثم ينظر في أنه مملوك لمالك، فإن الميت مالك.

والدليل عليه أنه لو نصب شبكة في حال حياته، فوقع فيها صيد بعد وفاته، فإنه يكون له، تقضى منه ديونه، وتنفذ فيه وصاياه. وحقيقة الملك موجودة في الكفن؛ لأنه مختص به ومحتاج إليه، فإذا ثبتت هذه الأركان من القرآن والمعنى ثبت القطع واللَّه أعلم»[٣].

* * *

---

(١) الإحياء (٤/ ٤٤٠).

(٢) المائدة: الآية (٣٨).

(٣) أحكام القرآن (٤/ ١٩٠١).

قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ۝٣١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «أي: يقال للكفار سيروا ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ من العذاب يعني النار، فقد شاهدتموها عيانا. ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ أي دخان ﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ يعني الدخان الذي يرتفع ثم يتشعب إلى ثلاث شعب. وكذلك شأن الدخان العظيم إذا ارتفع تشعب.

ثم وصف الظل فقال: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ أي: ليس كالظل الذي يقي حر الشمس ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي: لا يدفع من لهب جهنم شيئا. واللهب: ما يعلو على النار إذا اضطرمت من أحمر وأصفر وأخضر. وقيل: إن الشعب الثلاث هي الضريع والزقوم والغسلين، قاله الضحاك. وقيل: اللهب ثم الشرر ثم الدخان، لأنها ثلاثة أحوال، هي غاية أوصاف النار إذا اضطرمت واشتدت»[1].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٠٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾

★ غريب الآية:

بشرر: الشرر: ما تطاير من النار. واحدها: شَرَرَةٌ.

جمالاتٌ صفر: أي: إبل سود. والعرب تسميها صُفْرًا. قال الأعشى:

تِلْكَ خَيْلِي منه وتلك ركابي ... هُنَّ صُفْرٌ أولادها كالزبيب

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «و(القصر) في قول ابن عباس وجماعة من المفسرين اسم نوع القصور وهو الدور الكبار مشيدة، وقد شبهت العرب بها النوق، ومن المعنى قول الأخطل:

كأنها برج رومي يشيده ... لز بجص وآجر وجيار

وقال ابن عباس أيضا: (القصر): خشب كان في الجاهلية يقطع من جزل الحطب من النخل وغيره على قدر الذراع وفوقه ودونه يستعد به للشتاء يسمى (القصر)، واحده قصرة هو المراد في الآية، وإنما سمي القصار لأنه يخبط بالقصرة، وقال مجاهد: (القصر) حزم الحطب. وهذه قراءة الجمهور، وقرأ ابن عباس وابن جبير (القصر) جمع قصرة وهي أعناق النخل والإبل وكذلك أيضا هي في الناس، وقال ابن عباس: جذور النخل، وقرأ ابن جبير أيضا والحسن: كالقِصَر بكسر القاف وفتح الصاد، وهي جمع قصرة كحلقة وحلق من الحديد»[1].

قال البقاعي: «﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾ جمع جمالة، جمع جمل مثل الحجارة وحجر، للدلالة مع كبره على كثرته وتتابعه واختلاطه وسرعة حركته، ومن قرأ بضم

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٤٢٠).

الجيم فهو عنده جمع جمالة وهي الحبل الغليظ من حبال السفينة شبهه به في امتداده والتفافه، ولا تنافي فإن الشرر منه ما هو هكذا، ومنه ما هو كما تقدم»[١].

قال الشوكاني: «قال الواحدي: والصفر معناها السود في قول المفسرين. قال الفرّاء: الصفر سواد الإبل لا يرى أسود من الإبل إلاّ وهو مشرب صفرة، لذلك سمت العرب سود الإبل صفرًا. قيل: والشرر إذا تطاير وسقط، وفيه بقية من لون النار أشبه شيء بالإبل السود، ومنه قول الشاعر:

تِلْكَ خَيْلِي منه وتلك ركابي ... هُنَّ صُفْرٌ أولادها كالزبيب

أي: هنّ سود. قيل: وهذا القول محال في اللغة أن يكون شيء يشوبه شيء قليل، فينسب كله إلى ذلك الشائب، فالعجب لمن قال بهذا وقد قال تعالى: ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾. وأجيب بأن وجهه أن النار خلقت من النور، فهي مضيئة، فلما خلق اللّٰه جهنم، وهي موضع النار حشى ذلك الموضع بتلك النار، وبعث إليها سلطانه وغضبه، فاسودّت من سلطانه وازدادت سوادًا، وصارت أشدّ سوادًا من كل شيء، فيكون شررها أسود؛ لأنه من نار سوداء.

قلت: وهذا الجواب لا يدفع ما قاله القائل؛ لأن كلامه باعتبار ما وقع في الكتاب العزيز هنا من وصفها بكونها صفراء، فلو كان الأمر كما ذكره المجيب من اسوداد النار، واسوداد شررها، لقال الله: كأنها جمالات سود، ولكن إذا كانت العرب تسمي الأسود أصفر لم يبق إشكال؛ لأن القرآن نزل بلغتهم، وقد نقل الثقات عنهم ذلك، فكان ما في القرآن هنا واردًا على هذا الاستعمال العربي»[٢].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى شبه الشرر في العظم بالقصر، وفي اللون والكثرة والتتابع وسرعة الحركة بالجمالات الصفر، وقيل أيضا: إن ابتداء الشرر يعظم فيكون كالقصر ثم يفترق فتكون تلك القطع المتفرقة المتتابعة كالجمالات الصفر»[٣].

قال السعدي: «وهذا يدل على أن النار مظلمة، لهبها وجمرها وشررها وأنها

---

(١) نضم الدرر (٢١/ ١٧٩).

(٢) فتح القدير (٥/ ٥١١-٥١٢).

(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٧٨).

سوداء، كريهة المنظر، شديدة الحرارة. نسأل اللَّه العافية منها، ومن الأعمال المقربة منها»[١].

قال القرطبي: «في هذه الآية دليل على جواز ادخار الحطب والفحم وإن لم يكن من القوت، فإنه من مصالح المرء ومغاني مفاقره. وذلك مما يقتضي النظر أن يكتسبه في غير وقت حاجته؛ ليكون أرخص، وحالة وجوده أمكن، كما كان النبي ﷺ يدخر القوت في وقت عموم وجوده من كسبه وماله، وكل شيء محمول عليه. وقد بين ابن عباس هذا بقوله: (كنا نعمد إلى الخشبة فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه وندخره للشتاء وكنا نسميه القصر)[٢]. وهذا أصح ما قيل في ذلك واللَّه أعلم»[٣].

* * *

(١) تسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٤٦).
(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٨٩٠/ ٤٩٣٣).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٠٧-١٠٨).

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن هذا هو النوع السادس: من أنواع تخويف الكفار وتشديد الأمر عليهم، وذلك لأنه تعالى بين أنه ليس لهم عذر ولا حجة فيما أتوا به من القبائح، ولا قدرة لهم على دفع العذاب عن أنفسهم، فيجتمع في حقه في هذا المقام أنواع من العذاب. أحدها: عذاب الخجالة، فإنه يفتضح على رؤوس الأشهاد، ويظهر لكل قصوره وتقصيره، وكل من له عقل سليم، علم أن عذاب الخجالة أشد من القتل بالسيف والاحتراق بالنار. وثانيها: وقوف العبد الآبق على باب المولى ووقوعه في يده مع علمه بأنه الصادق الذي يستحيل الكذب عليه، على ما قال: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾[1]. وثالثها: أنه يرى في ذلك الموقف خصماءه الذين كان يستخف بهم ويستحقرهم فائزين بالثواب والتعظيم، ويرى نفسه فائزًا بالخزي والنكال.. فلما اجتمعت في حقه هذه الوجوه من العذاب؛ بل ما هو مما لا يصف كنهه إلا اللَّه، لا جرم قال تعالى في حقهم: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾»[2].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لهؤلاء المكذّبين بثواب اللَّه وعقابه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أهل التكذيب بثواب اللَّه وعقابه ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ مما اجترموا في الدنيا من الذنوب.

فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وقد علمت بخبر اللَّه عنهم أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾[3] وأنهم يقولون: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾[4] في نظائر ذلك مما أخبر اللَّه ورسوله عنهم أنهم يقولونه. قيل: إن ذلك

---

(١) ق: الآية (٢٩).

(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٨٠).

(٣) المؤمنون: الآية (١٠٧).

(٤) غافر: الآية (١١).

في بعض الأحوال دون بعض.

وقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ يخبر عنهم أنهم لا ينطقون في بعض أحوال ذلك اليوم، لا أنهم لا ينطقون ذلك اليوم كله.

فإن قال: فهل من بُرهان يعلم به حقيقة ذلك؟ قيل: نعم، وذلك إضافة يوم إلى قوله: ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ والعرب لا تُضيف اليوم إلى فعل يفعل، إلا إذا أرادت الساعة من اليوم والوقت منه، وذلك كقولهم: آتيك يومَ يقدمُ فلان، وأتيتك يوم زارك أخوك، فمعلوم أن معنى ذلك: أتيتك ساعة زارك، أو آتيك ساعة يقدُم، وأنه لم يكن إتيانه إياه اليوم كله، لأن ذلك لو كان أخذ اليوم كله لم يضف اليوم إلى فعل ويفعل، ولكن فعل ذلك إذ كان اليوم بمعنى إذ وإذا اللتين يطلبان الأفعال دون الأسماء»[(١)].

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة تدل على أن أهل النار لا ينطقون ولا يعتذرون، وقد جاءت آيات تدل على أنهم ينطقون ويعتذرون. كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[(٢)]. وقوله: ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾[(٣)]. وقوله: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾[(٤)]. وقوله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾[(٥)] وقوله: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾[(٦)] إلى غير ذلك من الآيات. والجواب عن هذا من أوجه: الأول: أن القيامة مواطن ففي بعضها ينطقون وفي بعضها لا ينطقون. الثاني: أنهم لا ينطقون بما لهم فيه فائدة، وما لا فائدة فيه كالعدم. الثالث: أنهم بعد أن يقول اللَّه لهم: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾[(٧)] ينقطع نطقهم ولم يبق إلا الزفير والشهيق. قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾[(٨)]. وهذا الوجه الثالث راجع للوجه الأول»[(٩)].

* * *

(١) جامع البيان (٢٩/ ٢٤٣).
(٢) الأنعام: الآية (٢٣).
(٣) النحل: الآية (٢٨).
(٤) غافر: الآية (٧٤).
(٥) الشعراء: الآيات (٩٧-٩٩).
(٦) الأعراف: الآية (٣٨).
(٧) المؤمنون: الآية (١٠٨).
(٨) النمل: الآية (٨٥).
(٩) دفع إيهام الاضطراب (ص: ٢٥٧).

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

كيد: الكيد: عمل الحيلة فيما يقصده المرء من جلب نفع أو دفع ضُرٍّ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لهؤلاء المكذّبين بالبعث يوم يبعثون: هذا يوم الفصل الذي يَفْصل اللَّه فيه بالحقّ بين عباده ﴿جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقول: جمعناكم فيه لموعدكم الذي كنا نعدكم في الدنيا، الجمع فيه بينكم وبين سائر من كان قبلكم من الأمم الهالكة. فقد وفَّينا لكم بذلك ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾ يقول: واللَّه منجز لكم ما وعدكم في الدنيا من العقاب على تكذيبكم إياه بأنكم مبعوثون لهذا اليوم إن كانت لكم حيلة تحتالونها في التخلص من عقابه اليوم فاحتالوا. وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ يقول: ويل يومئذ للمكذّبين بهذا الخبر»[1].

قال ابن عاشور: «والأمر للتعجيز والشرط للتوبيخ والتذكير بسوء صنيعهم في الدنيا، والتسجيل عليهم بالعجز عن الكيد يومئذٍ حيث مُكِّنوا من البحث عما عسى أن يكون لهم من الكيد، فإذا لم يستطيعوه بعد ذلك فقد سُجل عليهم العجز. وهذا من العذاب الذي يعذَّبونه إذ هو من نوع العذاب النفساني، وهو أوقع على العاقل من العذاب الجسماني»[2].

وفي هذه الآية -**يقول ابن كثير**- تهديد شديد ووعيد أكيد، أي: إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي، وتَنجُوا من حكمي فافعلوا، فإنكم لا تقدرون على ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

(١) جامع البيان (٢٩/ ٢٤٤).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٤٢).

﴿فَانفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾[1]، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾[2] وفي الحديث: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني»[3][4].

* * *

(١) الرحمن: الآية (٣٣).

(٢) هود: الآية (٥٧).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٤)، ومسلم (٤/ ١٩٩٤-١٩٩٥/ ٢٥٧٧)، والترمذي (٤/ ٥٦٦-٥٦٧/ ٢٤٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٢/ ٤٢٥٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٢٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن هذا هو النوع الثامن من أنواع تهديد الكفار وتعذيبهم، وذلك لأن الخصومة الشديدة والنفرة العظيمة كانت في الدنيا قائمة بين الكفار والمؤمنين، فصارت تلك النفرة بحيث أن الموت كان أسهل على الكافر من أن يرى للمؤمن دولة وقوة، فلما بين اللَّه تعالى في هذه السورة اجتماع أنواع العذاب والخزي والنكال على الكفار، بين في هذه الآية اجتماع أنواع السعادة والكرامة في حق المؤمن، حتى أن الكافر حال ما يرى نفسه في غاية الذل والهوان والخزي والخسران، ويرى خصمه في نهاية العز والكرامة والرفعة والمنقبة، تتضاعف حسرته وتتزايد غمومه وهمومه فلهذا قال في هذه الآية: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الذين اتقوا عقاب اللَّه بأداء فرائضه في الدنيا، واجتناب معاصيه ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ ظليلة، وكِنّ كَنين، لا يصيبهم أذى حرّ ولا قرّ، إذ كان الكافرون باللَّه في ظلّ ذي ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغني من اللهب ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار تجري خلال أشجار جناتهم ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾ يأكلون منها كلما اشتهوا لا يخافون ضرّها، ولا عاقبة مكروهها.

وقوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: يقال لهم: كلوا أيها القوم من هذه الفواكه، واشربوا من هذه العيون كلما اشتهيتم هنيئا: يقول: لا تكدير عليكم، ولا تنغيص فيما تأكلونه وتشربون منه، ولكنه لكم دائم لا يزول، ومريء لا يورثكم أذى في أبدانكم.

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٨٣).

وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقول -جل ثناؤه-: يقال لهم: هذا جزاء بما كنتم في الدنيا تعملون من طاعة اللَّه، وتجتهدون فيما يقرّبكم منه.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ يقول: إنا كما جزينا هؤلاء المتقين بما وصفنا من الجزاء على طاعتهم إيانا في الدنيا، كذلك نجزي ونثيب أهل الإحسان في طاعتهم إيانا، وعبادتهم لنا في الدنيا على إحسانهم لا نضيع في الآخرة أجرهم.

وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ يقول: ويل للذين يكذّبون خبر اللَّه عما أخبرهم به من تكريمه هؤلاء المتقين بما أكرمهم به يوم القيامة»[١].

قال الرازي: «اختلف العلماء في أن قوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ أمر أو إذن، قال أبو هاشم: هو أمر، وأراد اللَّه منهم الأكل والشرب؛ لأن سرورهم يعظم بذلك، وإذا علموا أن اللَّه أراده منهم جزاء على عملهم فكما يزيد إجلالهم وإعظامهم بذلك، فكذلك يريد نفس الأكل والشرب معهم، وقال أبو علي: ذلك ليس بأمر، وإنما يريد بقوله على وجه الإكرام؛ لأن الأمر والنهي إنما يحصلان في زمان التكليف، وليس هذا صفة الآخرة»[٢].

قال ابن عاشور: «والباء في ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للسببية، أي: لإفادة تسبب ما بعدها في وقوع متعلَّقه، أي: كلوا واشربوا بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا من الأعمال الصالحة، وذلك من إكرامهم بأنْ جعل ذلك الإنعام حقًا لهم.

وجملة ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ يجوز أن تكون مما يقال للمتقين بعد أن قيل لهم ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ الخ مسوقة إليهم مساق زيادة الكرامة بالثناء عليهم، أي: هذا النعيم الذي أنعمتُ به عليكم هو سُنتنا في جزاء المُحسنين، فإذْ قد كنتم من المحسنين فذلك جزاء لكم نِلتموه بأنكم من أصحاب الحق في مثله، ففي هذا هَزٌّ من أعطاف المنعم عليهم.

والمعنى عليه: أن هذه الجملة تقال لكل متّق منهم، أو لكل جماعة منهم مجتمعة على نعيم الجنة، وليعلموا أيضًا أن أمثالهم في الجنات الأخرى لهم من الجزاء مثل ما هم ينعمون به. ويجوز أن تكون الجملة موجهة إلى المكذبين

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٢٤٤).

(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٨٤).

الموجودين بعد أن وصف لهم ما ينعم به المتقون إثر قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ۝﴾ الخ، قصد منها التعريض بأنّ حرمانهم من مثل ذلك النعيم هم الذين قضوا به على أنفسهم، إذ أبوا أنْ يكونوا من المحسنين تكملة؛ لتنديمهم وتحسيرهم الذي بودئوا به من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ۝﴾ إلى آخره، أي: إنا كذلك نجزي المحسنين دون أمثالكم المسيئين»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٤٤).

قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن هذا هو النوع التاسع: من أنواع تخويف الكفار، كأنه تعالى يقول للكافر حال كونه في الدنيا إنك إنما عرضت نفسك لهذه الآفات التي وصفناها، ولهذه المحن التي شرحناها لأجل حبك للدنيا ورغبتك في طيباتها وشهواتها، إلا أن هذه الطيبات قليلة بالنسبة إلى تلك الآفات العظيمة، والمشتغل بتحصيلها يجري مجرى لقمة واحدة من الحلواء، وفيها السم المهلك، فإنه يقال لمن يريد أكلها ولا يتركها بسبب نصيحة الناصحين وتذكير المذكرين: كل هذا وويل لك منه بعد هذا فإنك من الهالكين بسببه، وهذا وإن كان في اللفظ أمرًا إلا أنه في المعنى نهي بليغ وزجر عظيم، ومنع في غاية المبالغة»[١].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ خطاب للمكذبين بيوم الدين، وأمَرَهم أمر تهديد ووعيد فقال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا﴾ أي: مدة قليلة قريبة قصيرة، ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ أي: ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾[٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾[٣]»[٤].

قال الألوسي: «وفيه دلالة على أن كل مجرم نهايته تمتع أيام قليلة ثم يبقى في عذاب وهلاك أبدا»[٥].

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٨٤).
(٢) لقمان: الآية (٢٤).
(٣) يونس: الآيتان (٦٩-٧٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٢٥).
(٥) روح المعاني (٢٩/ ١٧٨).

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ قال ابن كثير: «أي: إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه ولهذا قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾»[1].

قال ابن العربي: «هذه الآية حجة على وجوب الركوع وإنزاله ركنا في الصلاة، وقد انعقد الإجماع عليه، وظن قوم أن هذا إنما يكون في القيامة، وليست بدار تكليف، فيتوجه فيها أمر يكون عليه ويل وعقاب، وإنما يدعون إلى السجود كشفا لحال الناس في الدنيا، فمن كان يسجد لله تمكن من السجود، ومن كان يسجد رئاء لغيره صار ظهره طبقا واحدا»[2].

قال الرازي: «وهذا يدل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع، وأنهم حال كفرهم كما يستحقون الذم والعقاب بترك الإيمان، فكذلك يستحقون الذم والعقاب بترك الصلاة؛ لأن اللَّه تعالى ذمهم حال كفرهم على ترك الصلاة، وقال قوم آخرون: المراد بالركوع الخضوع والخشوع لله تعالى، وأن لا يعبد سواه»[3].

وقال أيضا: «القائلون بأن الأمر للوجوب استدلوا بهذه الآية، لأنه تعالى ذمهم بمجرد ترك المأمور به، وهذا يدل على أن مجرد الأمر للوجوب، فإن قيل: إنهم كفار فلكفرهم ذمهم؟ قلنا: إنه تعالى ذمهم على كفرهم من وجوه كثيرة، إلا أنه تعالى إنما ذمهم في هذه الآية لأنهم تركوا المأمور به، فعلمنا أن ترك المأمور به غير جائز»[4].

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فبأي حديث بعد هذا القرآن، أي: أنتم أيها القوم كذبتم به مع وضوح برهانه، وصحة دلائله، أنه حق من عند اللَّه تؤمنون: يقول: تصدّقون.

وإنما أعلمهم -تعالى ذكره- أنهم إن لم يصدّقوا بهذه الأخبار التي أخبرهم بها في هذا القرآن مع صحة حججه على حقيقته لم يمكنهم الإقرار بحقيقة شيء من الأخبار التي لم يشاهدوا المخبَر عنه، ولم يعاينوه، وأنهم إن صدّقوا بشيء مما غاب عنهم لدليل قام عليه لزمهم مثل ذلك في أخبار هذا القرآن، واللَّه أعلم»[5].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٢٥).
(٢) أحكام القرآن (٤/ ١٩٠٢).
(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٨٥).
(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٨٥).
(٥) جامع البيان (٢٩/ ٢٤٦).

قال القاسمي: «وفيه تنبيه على أنه لا حديث يساويه في الفضل ويدانيه، فضلا عن أن يفوقه ويعلوه، فلا حديث أحق بالإيمان منه»[(١)].

قال البقاعي: «أي: بعد هذا القرآن الذي هو شاهد لنفسه عنه بصحة النسبة إلى اللَّه تعالى من جهة ما حاز من البلاغة في تراكيبه بالنسبة إلى كل جملة، وبالنسبة إلى نظم الجمل بعضها مع بعض، وبالإخبار بالمغيبات، والحمل على المعالي والتنبيه على الحكم وغير ذلك من بحور العلم ورياض الفنون، فاللَّه باعتبار ذلك هو الشاهد بأنه كلامه ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يجددون الإيمان بسببه بكل ما أتى به النبي ﷺ إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث الذي اللَّه شاهد بأنه كلامه بما اشتمل عليه بعد إعجازه من الدلائل الواضحة، والمعاني الشريفة الصالحة، والنظوم الملائمة للطبع والرقائق المرققة لكل قلب، والبشائر المشوقة لكل سمع، فمن لم يؤمن به لم يؤمن بحديث غيره، فإنه لا شيء يقاربه ولا يدانيه، فكيف بأن يدعى شيء يباريه أو يراقيه، ومثل هذا إنما يقال عند مقاربة اليأس من الموعوظ، والعادة قاضية بحلول العذاب إذ ذاك وإنزال البأس، فهو من أعظم أنواع التهديد، فقد رجع آخرها على أولها في وعيد المكذبين، وانطبق أولها على آخرها في إخزاء المجرمين واللَّه الهادي للصواب»[(٢)].

قلت: هذه السورة الكريمة من السور التي ملئت مواعظ وعبر، وتميزت بفواصل عبارة عن قواعد للقلوب الواعية، وتبكيت للقلوب الواهية التي طبعت على الشر والإعراض. فلهذا كان النبي ﷺ يكرر قراءتها في صلاة المغرب، وهي شبيهة في فواصلها بسورة الرحمن؛ فتلك في تعداد النعم، وهذه في تعداد الأصول وبيان المكذبين لها. فسماعها يفيد ويؤكد المبدأ والمعاد، وأحوال الأشقياء المعرضين، وأحوال السعداء المقبلين المستجيبين. ومن لم يتعظ بكتاب اللَّه فلا واعظ له، ومن لم يهتد بهدي النبي ﷺ فلا هادي له. فسبحان من نزل هذا القرآن نورًا وشفاءً وموعظةً ورحمةً. فاللهم اشف أمراضنا الظاهرة والباطنة به، ولا تجعلنا ممن أعرض عنه، نسأل اللَّه السلامة والعافية.

* * *

---

(١) محاسن التأويل (١٧/ ٢٥).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٨٧-١٨٨).



سورة النبأ

أغراض السورة

قال البقاعي مبيّنًا أهداف السورة وأغراضها: «مقصودها الدلالة على أن يوم القيامة -الذي كانوا مجمعين على نفيه، وصاروا بعد بعث النبي ﷺ في خلاف فيه مع المؤمنين- ثابت ثباتًا لا يحتمل شكًّا ولا خلافًا بوجه؛ لأن خالق الخلق مع أنه حكيم قادر على ما يريد دبّرهم أحسن تدبير، بنى لهم مسكنًا وأتقنه، وجعلهم على وجه يبقى به نوعهم من أنفسهم بحيث لا يحتاجون إلى أمر خارج يرونه، فكان ذلك أشد لألفتهم وأعظم لأنس بعضهم ببعض، وجعل سقفهم وفراشهم كافلين لمنافعهم، والحكيم لا يترك عبيده -وهو تام القدرة كامل السلطان- يمرحون يبغي بعضهم على بعض ويأكلون خيره ويعبدون غيره بلا حساب، فكيف إذا كان حاكمًا؟ فكيف إذا كان أحكم الحاكمين؟ هذا ما لا يجوز في عقل ولا يخطر ببال أصلًا، فالعلم واقع به قطعًا، وكل من اسميها واضح في ذلك بتأمل آيته ومبدإ ذكره وغايته»[1].

قال ابن عاشور: «وفيها: إقامة الحجة على إمكان البعث بخلق المخلوقات التي هي أعظم من خلق الإنسان بعد موته، وبالخلق الأول للإنسان وأحواله.

ووصف الأهوال الحاصلة عند البعث من عذاب الطاغين مع مقابلة ذلك بوصف نعيم المؤمنين، وصفة يوم الحشر إنذارًا للذين جحدوا به والإيماء إلى أنهم

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٨٩).

يعاقبون بعذاب قريب قبل عذاب يوم البعث.

وأدمج في ذلك أن علم اللَّه تعالى محيط بكل شيء، ومن جملة الأشياء أعمال الناس»[١].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٦).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

★ غريب الآية:

النبأ: الخبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: عن أيّ شيء يتساءل هؤلاء المشركون باللَّه ورسوله من قريش يا محمد؟ وقيل ذلك له ﷺ، وذلك أن قريشًا جعلت فيما ذُكر عنها تختصم وتتجادل في الذي دعاهم إليه رسول اللَّه ﷺ من الإقرار بنبوّته، والتصديق بما جاء به من عند اللَّه، والإيمان بالبعث، فقال اللَّه لنبيه: فيم يتساءل هؤلاء القوم ويختصمون؟ و(في) و(عن) في هذا الموضع بمعنىً واحد..

ثم أخبر اللَّه نبيه ﷺ عن الذي يتساءلونه، فقال: يتساءلون عن النبأ العظيم، يعني: عن الخبر العظيم.

واختلف أهل التأويل في المعنيّ بالنبأ العظيم، فقال بعضهم: أريد به القرآن.. وقال آخرون: عُني به البعث»[١].

قال القرطبي: «الأظهر أن سؤالهم إنما كان عن البعث، قال بعض علمائنا: والذي يدل عليه قوله ﷻ: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾﴾[٢] يدل على أنهم كانوا يتساءلون عن البعث»[٣].

قال الرازي: «ويدل عليه وجوه:

أحدها: قوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾، والظاهر أن المراد منه أنهم سيعلمون هذا الذي

(١) جامع البيان (٣٠/ ١-٢).
(٢) النبأ: الآية (١٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١١١-١١٢).

يتساءلون عنه حين لا تنفعهم تلك المعرفة، ومعلوم أن ذلك هو القيامة.

وثانيها: أنه تعالى بين كونه قادرًا على جميع الممكنات بقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾[1]، وذلك يقتضي أنه تعالى إنما قدم هذه المقدمة لبيان كونه تعالى قادرًا على إقامة القيامة، ولما كان الذي أثبته اللَّه تعالى بالدليل العقلي في هذه السورة هو هذه المسألة ثبت أن النبأ العظيم الذي كانوا يتساءلون عنه هو يوم القيامة.

وثالثها: أن العظيم اسم لهذا اليوم بدليل قوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾[2]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾[3]، ولأن هذا اليوم أعظم الأشياء؛ لأن ذلك منتهى فزع الخلق وخوفهم منه، فكان تخصيص اسم العظيم به لائقًا»[4].

قال الشوكاني: «ومما يدلّ على أنه البعث أنه أكثر ما كان يستنكره المشركون وتأباه عقولهم السخيفة. وأيضًا، فطوائف الكفار قد وقع الاختلاف بينهم في البعث؛ فأثبت النصارى المعاد الروحاني، وأثبتت طائفة من اليهود المعاد الجسماني، وفي التوراة التصريح بلفظ (الجنة) باللغة العبرانية بلفظ (جنعيذا) بجيم مفتوحة ثم نون ساكنة ثم عين مكسورة مهملة ثم تحتية ساكنة ثم ذال معجمة بعدها ألف. وفي الإنجيل في مواضع كثيرة التصريح بالمعاد، وأنه يكون فيه النعيم للمطيعين، والعذاب للعاصين، وقد كان بعض طوائف كفار العرب ينكر المعاد كما حكى اللَّه عنهم بقوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[5]، وكانت طائفة منهم غير جازمة بنفيه بل شاكة فيه، كما حكى اللَّه عنهم بقوله: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[6]، وما حكاه عنهم بقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾[7]، فقد حصل الاختلاف بين طوائف الكفر على هذه الصفة»[8].

---

(١) النبأ: الآيات (٦-١٨).
(٢) المطففين: الآيات (٤-٦).
(٣) ص: الآيتان (٦٧و٦٨).
(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ٤-٥).
(٥) المؤمنون: الآية (٣٧).
(٦) الجاثية: الآية (٣٢).
(٧) فصلت: الآية (٥٠).
(٨) فتح القدير (٥/ ٥١٦-٥١٧).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿كَلَّا﴾ يقول -تعالى ذكره-: ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون الذين ينكرون بعث اللَّه إياهم أحياءً بعد مماتهم، وتوعدهم -جل ثناؤه- على هذا القول منهم، فقال: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ يقول: سيعلم هؤلاء الكفار المنكرون وعيد اللَّه أعداءه، ما اللَّه فاعلٍ بهم يوم القيامة، ثم أكد الوعيد بتكرير آخر، فقال: ما الأمر كما يزعمون من أن اللَّه غير محييهم بعد مماتهم، ولا معاقبتهم على كفرهم به، سيعلمون أن القول غير ما قالوا إذا لقوا اللَّه، وأفضوا إلى ما قدّموا من سيّئ أعمالهم»[1].

قال ابن عاشور: «والغالب في استعمال ﴿كَلَّا﴾ أن تعقَّب بكلام يبيّن ما أجملتْه من الردع والإبطال، فلذلك عقبت هنا بقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾، وهو زيادة في إبطال كلامهم بتحقيق أنهم سيوقنون بوقوعه ويعاقَبون على إنكاره، فهما علمان يحصلان لهم بعد الموت: علم بحق وقوع البعث، وعلمٌ في العقاب عليه. .

فتضمن هذا الإبطال وما بعده إعلامًا بأن يوم البعث واقع، وتضمن وعيدًا وقد وقع تأكيده بحرف الاستقبال الذي شأنه إفادة تقريب المستقبل.

ومن محاسن هذا الأسلوب في الوعيد أن فيه إيهامًا بأنهم سيعلمون جواب سؤالهم الذي أرادوا به الإحالة والتهكم، وصوره في صورة طلب الجواب، فهذا الجواب من باب قول الناس: الجوابُ ما ترى، لا ما تسمع»[2].

* * *

(١) جامع البيان (٣٠/ ٢-٣).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١١-١٢).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مهادًا: أي: وطاءً. ومهد الشيء تمهيدًا، أي: وطأه توطئة.

أوتادًا: واحدها: وَتِد، معروف. ويعبر به عن ثبات الشيء واستقراره. قال الشاعر:

والـمُـلْـك لا يـبـنـى إلا عـلـى عـمـد ولا عـمـاد إذا لـم تـرس أوتـادُ

سباتًا: أي راحة يقطع فيه العمل وتسكن الحركة. ومنه سمي السبت لأن اللَّه حرم على اليهود العمل فيه. والسبات أيضًا: السكون.

لباسًا: أي: ساترًا بظلامه. وكل شيء ستر شيئًا فهو لباس.

معاشًا: أي: محلًّا لطلب المعيشة.

سراجًا: السراج: كل ما يضيء. والمراد هنا: الشمس.

وهاجًا: أي: شديد الضوء؛ من وهجتِ النارُ: إذا اتقدت وأضاءت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم إنكار البعث والحشر، وأراد إقامة الدلالة على صحة الحشر قدم لذلك مقدمة في بيان كونه تعالى قادرًا . . عالمًا . . وذلك لأنه مهما ثبت هذان الأصلان ثبت القول بصحة البعث، وإنما أثبت هذين الأصلين بأن عدد أنواعًا من مخلوقاته الواقعة على وجه الإحكام والإتقان، فإن تلك الأشياء من جهة حدوثها تدل على القدرة، ومن جهة إحكامها وإتقانها تدل على العلم، ومتى ثبت هذان الأصلان وثبت أن الأجسام متساوية في قبول الصفات والأعراض، ثبت لا محالة كونه تعالى قادرًا على تخريب الدنيا بسمواتها وكواكبها

وأرضها، وعلى إيجاد عالم الآخرة»[١].

قال ابن عاشور: «والاستفهام في ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ تقريري، وهو تقرير على النفي كما هو غالب صيغ الاستفهام التقريري أن يكون بعده نفي، والأكثر كونه بحرف (لم)، وذلك النفي كالإعذار للمقرَّر إن كان يريد أن ينكر، وإنما المقصود التقرير بوقوع جعل الأرض مهادًا لا بنفيه، فحرف النفي لمجرد تأكيد معنى التقرير.

فالمعنى: أجعلنا الأرض مهادًا، ولذلك سيعطف عليه ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨﴾ وتقدم عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢] في سورة (البقرة)، ولا يسعهم إلا الإقرار به، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٣]، وحاصل الاستدلال بالخلق الأول لمخلوقات عظيمة أنه يدل على إمكان الخلق الثاني لمخلوقات هي دون المخلوقات الأولى قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: الثاني، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٤]»[٥].

قال ابن القيم: «تأمل خلق الأرض على ما هي عليه حين خُلقت واقفة ساكنة لتكون مهادًا، ومستقرًّا للحيوان والنبات والأمتعة، ويتمكن الحيوان والناس من السعي عليها في مآربهم والجلوس لراحاتهم والنوم لهدوئهم من أعمالهم، ولو كانت رجراجة منكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قرارًا ولا هدوءًا، ولا ثبت لهم عليها بناء، ولا أمكنهم عليها صناعة ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة، وكيف كانوا يتهنّون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم!

واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل -على قلة مكثها- كيف تصيّرهم إلى ترك منازلهم والهرب عنها، وقد نبّه اللَّه تعالى على ذلك بقوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾[٧]، وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾[٨]»[٩].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٦).
(٢) البقرة: الآية (٣٣).
(٣) لقمان: الآية (٢٥).
(٤) غافر: الآية (٥٧).
(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٣).
(٦) النحل: الآية (١٥).
(٧) غافر: الآية (٦٤).
(٨) طه: الآية (٥٣).
(٩) مفتاح دار السعادة (٢/ ٨١).

قال ابن عاشور: «وذلك دليل على إبداع الخلق والتيسير على الناس، فهو استدلال يتضمن امتنانًا، وفي ذلك الامتنان إشعار بحكمة اللَّه تعالى إذ جعل الأرض ملائمة للمخلوقات التي عليها فإن الذي صنع هذا الصنع لا يعجزه أن يخلق الأجسام مرة ثانية بعد بِلاها.

والغرض من الامتنان هنا تذكيرهم بفضل اللَّه لعلهم أن يرعَوُوا عن المكابرة ويقبلوا على النظر فيما يدعوهم إليه الرسول ﷺ تبليغًا عن اللَّه تعالى.

ومناسبة ابتداء الاستدلال على إمكان البعث بخلق الأرض أن البعث هو إخراج أهل الحشر من الأرض، فكانت الأرض أسبق شيء إلى ذهن السامع عند الخوض في أمر البعث، أي: بعث أهل القبور»[1].

قال الشوكاني: «وفي هذا دليل على أن التساؤل الكائن بينهم هو عن أمر البعث، لا عن القرآن، ولا عن نبوة محمد ﷺ كما قيل؛ لأن هذا الدليل إنما يصلح للاستدلال به على البعث»[2].

وقوله: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾: «وجعلُ الجبال أوتادًا لها إرساؤها بها كما يرسى البيت بالأوتاد»[3].

قال ابن القيم وهو يتكلم عن منافع الجبال: «ومن منافعها: ما ذكره اللَّه تعالى في كتابه أنه جعلها للأرض أوتادًا تثبّتها ورواسي بمنزلة مراسي السفن، وأعظِمْ بها منفعة وحكمة!

هذا وإذا تأملت خلقتها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها في غاية المطابقة للحكمة؛ فإنها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذّر الصعود عليها والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء فلم يتمكنوا من الانتفاع بها، ولو بُسِطت على وجه الأرض لضيقت عليهم المزارع والمساكن ولملأت السهل، ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصّن والمغارات والأكنان، ولما سترت عنهم الرياح، ولما حجبت السيول، ولو جُعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها، ولما حصل لهم بها الانتفاع التام، فكان أولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٤).

(٢) فتح القدير (٥/ ٥١٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ٨٦).

على وَفق المصلحة هذا الشكلُ الذي نُصبت عليه»[١].

وقوله: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾﴾: قال الرازي: «فيه قولان: الأول: المراد الذكر والأنثى كما قال: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾[٢]، والثاني: أن المراد منه كلّ زوجين وكلّ متقابلين من القبيح والحسن والطويل والقصير وجميع المتقابلات والأضداد، كما قال: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾[٣]، وهذا دليل ظاهر على كمال القدرة ونهاية الحكمة حتى يصح الابتلاء والامتحان، فيتعبد الفاضل بالشكر، والمفضول بالصبر، ويتعرف حقيقة كل شيء بضده، فالإنسان إنما يعرف قدر الشباب عند الشيب، وإنما يعرف قدر الأمن عند الخوف، فيكون ذلك أبلغ في تعريف النعم»[٤].

وقال ابن عاشور: «وفيه استدلال على عظيم قدرة اللَّه وحكمته، وامتنان على الناس بأنه خلقهم، وأنه خلقهم بحالة تجعل لكل واحد من الصنفين ما يصلح لأن يكون له زوجًا ليحصل التعاون والتشارك في الأنس والتنعم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[٥]، ولذلك صيغ هذا التقرير بتعليق فعل (خلقنا) بضمير الناس، وجُعل ﴿أَزْوَٰجًا﴾ حالًا منه ليحصل بذلك الاعتبار بكلا الأمرين دون أن يقال: وخلقنا لَكُم أزواجًا.

وفي ذلك حمل لهم على الشكر بالإقبال على النظر فيما بُلِّغ إليهم عن اللَّه الذي أسعفهم بهذه النعم على لسان رسول اللَّه ﷺ وتعريض بأن إعراضهم عن قبول الدعوة الإسلامية ومكابرتهم فيما بلغهم من ذلك كفران لنعمة واهب النعم»[٦].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾: قال ابن عاشور: «انتقل من الاستدلال بخلق الناس إلى الاستدلال بأحوالهم، وخص منها الحالة التي هي أقوى أحوالهم المعروفة شبهًا بالموت الذي يعقبه البعث، وهي حالة متكررة لا يَخلُون من الشعور بما فيها من العبرة؛ لأن تدبير نظام النوم وما يطرأ عليه من اليقظة أشبه حالٍ بحال الموت وما يعقبه من البعث»[٧].

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٨٦).

(٢) النجم: الآية (٤٥).

(٣) الذاريات: الآية (٤٩).

(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ٧).

(٥) الأعراف: الآية (١٨٩).

(٦) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٧-١٨).

(٧) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٨).

قال القاسمي: ﴿نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾، أي: راحة ودعة، يريح القوى من تعبها، ويعيد إليها ما فقد منها؛ إطلاقًا للملزوم وهو (السبات) بمعنى النوم، وإرادة للاّزم وهو (الاستراحة). وقيل: السبات هو النوم الممتد الطويل السكون. ولهذا يقال فيمن وصف بكثرة النوم: إنه مسبوت وبه سبات. ووجه الامتنان بذلك ظاهر، لما فيه من المنفعة والراحة؛ لأن التهويم والنوم الغرار لا يكسبان شيئًا من الراحة»[1].

قال ابن عاشور: «وفي هذا امتنان على الناس بخلق نظام النوم فيهم لتحصل لهم راحة من أتعاب العمل الذي يكدحون له في نهارهم؛ فاللَّه تعالى جعل النوم حاصلًا للإنسان بدون اختياره، فالنوم يلجئ الإنسان إلى قطع العمل لتحصل راحة لمجموعه العصبي الذي رُكنه في الدماغ، فبتلك الراحة يستجدّ العصب قواه التي أوهنها عمل الحواس وحركات الأعضاء وأعمالها، بحيث لو تعلقت رغبة أحد بالسهر لا بد له من أن يغلبه النوم، وذلك لطف بالإنسان بحيث يحصل له ما به منفعة مداركه قسْرًا عليه لئلا يتهاون به، ولذلك قيل: إن أقل الناس نومًا أقصرهم عمرًا، وكذلك الحيوان»[2].

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾: قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وجعلنا الليل لكم غشاءً يتغشاكم سواده، وتغطيكم ظلمته كما يغطي الثوب لابسه؛ لتسكنوا فيه عن التصرف لما كنتم تتصرفون له نهارًا»[3].

قال الرازي: «وأما وجه النعمة في ذلك، فهو أن ظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هربًا من عدو، أو بياتًا له، أو إخفاء ما لا يحب الإنسان إطلاع غيره عليه، قال المتنبي:

وكم لظلام الليل عندي من يد ... تخبر أن المانوية تكذب

وأيضًا فكما أن الإنسان بسبب اللباس يزداد جماله وتتكامل قوته ويندفع عنه أذى الحر والبرد؛ فكذا لباس الليل بسبب ما يحصل فيه من النوم يزيد في جمال الإنسان، وفي طراوة أعضائه وفي تكامل قواه الحسية والحركية، ويندفع عنه أذى

---

(١) محاسن التأويل (١٧/ ٢٩).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٩).

(٣) جامع البيان (٣٠/ ٣).

التعب الجسماني، وأذى الأفكار الموحشة النفسانية؛ فإن المريض إذا نام بالليل وجد الخفة العظيمة»[١].

قال ابن عاشور: «فلا جرم كان نظام الليل آية على انفراد اللَّه تعالى بالخلق وبديع تقديره. وكان دليلًا على أن إعادة الأجسام بعد الفناء غير متعذرة عليه تعالى، فلو تأمل المنكرون فيها لعلموا أن اللَّه قادر على البعث، فَلَمَا كذبوا خَبَر الرسول ﷺ به، وفي ذلك امتنان عليهم بهذا النظام الذي فيه اللطف بهم وراحة حياتهم لو قدَروه حق قدره لشكروا وما أشركوا، فكان تذكر حالة الليل سريع الخطور بالأذهان عند ذكر حالة النوم، فكان ذكر النوم مناسبة للانتقال إلى الاستدلال بحالة الليل على حسب أفهام السامعين»[٢].

قال ابن العربي: «ظن بعض الغافلين أن الرجل إذا صلى عريانًا ليلًا في بيت مظلم أن صلاته صحيحة؛ لأن الظلام يستر عورته؛ وهذا باطل قطعًا؛ فإن الناس بين قائلين: منهم من يقول: إن ستر العورة فرض إسلامي لا يختص وجوبه بالصلاة. ومنهم من قال: إنه شرط من شروط الصلاة، وكلاهما اتفقا على أن ستر العورة للصلاة في الظلمة كما هو في النور، إثباتًا بإثبات، ونفيًا بنفي، ولم يقل أحد: إنه يجب في النور ويسقط في الظلمة اجتزاءً بسترها عن ستر ثوب يلبسه المصلي، فلا وجه لهذا بحال عند أحد من المسلمين»[٣].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾: قال ابن عاشور: «لما ذكر خلق نظام الليل قوبل بذكر خلق نظام النهار، فالنهار: الزمان الذي يكون فيه ضوء الشمس منتشرًا على جزء كبير من الكُرة الأرضية. وفيه عبرة بدقة الصنع وإحكامه إذ جُعل نظامان مختلفان منشؤهما سطوع نور الشمس واحتجابُه فوق الأرض، وهما نعمتان للبشر مختلفتان في الأسباب والآثار؛ فنعمة الليل راجعة إلى الراحة والهدوء، ونعمة النهار راجعة إلى العمل والسعي؛ لأن النهار يعقب الليل فيكون الإنسان قد استجدّ راحته واستعاد نشاطه، ويتمكن من مختلف الأعمال بسبب إبصار الشخوص والطرق»[٤].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٩-٢٠).

(٣) أحكام القرآن (٤/ ١٩٠٤).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢١).

قال ابن جرير: «يقول: وجعلنا النهار لكم ضياءً لتنتشروا فيه لمعاشكم، وتتصرفوا فيه لمصالح دنياكم، وابتغاء فضل اللّه فيه، وجعل اللَّه -جل ثناؤه- النهار -إذ كان سببًا لتصرف عباده لطلب المعاش فيه- معاشًا»[١].

قال ابن القيم في معرض كلامه على نعمتي الليل والنهار: «فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية اللّه وحكمته، كيف جعل الليل سكنًا ولباسًا يغشى العالم فتسكن فيه الحركات، وتأوي الحيوانات إلى بيوتها، والطير إلى أوكارها، وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعي والتعب، حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها، وتطلّعت إلى معايشها وتصرفها، جاء فالق الإصباح ﷻ بالنهار يقدُمُ جيشَه بشيرُ الصباح فهزم تلك الظلمة ومزّقها كل ممزّق، وأزالها، وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون، فانتشر الحيوان وتصرّف في معاشه ومصالحه، وخرجت الطيور من أوكارها.

فيا له من معاد ونشأة دالّ على قدرة اللّه سبحانه على المعاد الأكبر، وتكرّره ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفًا منعها عن الاعتبار به والاستدلال به على النشأة الثانية وإحياء الخلق بعد موتهم، ولا ضعْفَ في قدرة القادر التام القدرة ولا قصور في حكمته ولا في علمه يوجب تخلُّف ذلك، ولكن اللّه يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

وهذا أيضًا من آياته الباهرة أن يعمى عن هذه الآيات الواضحات البيّنات من شاء من خلقه فلا يهتدي بها ولا يبصرها كمن هو واقف في الماء إلى حلقه وهو يستغيث من العطش وينكر وجود الماء!

وبهذا وأمثاله يُعرَف اللَّه ﷻ ويُشكر ويُحمد ويُتضرّع إليه ويُسأل»[٢].

وقوله: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾: قال أبو السعود: «أي: سبع سموات قوية الخلق، محكمة البناء، لا يؤثر فيها مر الدهور وكر العصور. والتعبير عن خلقها بالبناء مبني على تنزيلها منزلة القباب المضروبة على الخلق. وتقديم الظرف على المفعول ليس لمراعاة الفواصل فقط، بل للتشويق إليه؛ فإن ما حقه التقديم إذا

(١) جامع البيان (٣٠/ ٣).
(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٩-٤٠).

أخر تبقى النفس مترقبة له، فإذا ورد عليها تمكن عندها فضل تمكن»[١].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣﴾: **قال ابن عاشور**: «ذكر السموات يناسبه ذكر أعظم ما يشاهده الناس في فضائها، وذلك الشمس؛ ففي ذلك من العبرة بخلقها عبرة في كونها على تلك الصفة ومنّة على الناس باستفادتهم من نورها فوائد جمة»[٢].

قال الرازي: «بيّن اللَّه تعالى أن الشمس بالغة إلى أقصى الغايات في هذين الوصفين، وهو المراد بكونها وهّاجًا، وروى الكلبي عن ابن عباس أن الوهاج مبالغة في النور فقط، يقال للجوهر إذا تلألأ: توهج، وهذا يدل على أن الوهاج يفيد الكمال في النور، ومنه قول الشاعر يصف النور:

نوارها متباهج يتوهج

وفي كتاب الخليل: الوهج: حر النار والشمس. وهذا يقتضي أن الوهاج هو البالغ في الحر.

واعلم أن أي هذه الوجوه إذا ثبت فالمقصود حاصل»[٣].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦﴾[٤]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ۝٦١﴾[٥]، سواء قدرت ضمير ﴿فِيهَا﴾ عائدًا إلى السماء أو إلى البروج؛ لأن البروج هي بروج السماء»[٦].

* * *

---

(١) إرشاد العقل السليم (٩/ ٨٧).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ٩).

(٤) نوح: الآيتان (١٥و١٦).

(٥) الفرقان: الآية (٦١).

(٦) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

المعصرات: السحاب؛ لأنها تعتصر المطر وترسله. قال الشاعر:

فأنزلتَ ماءً من المعصراتِ فأنْبتَّ أَبّـًا وغُلْبَ الشجر

ثجاجًا: أي: شديد الانصباب. وثج الماء ثجًا: سَالَ بكثرة.

ألفافًا: أي: ملتفة ومتداخلة؛ لكثرة الأغصان والأوراق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «[هذا] استدلال بحالة أخرى من الأحوال التي أودعها اللَّه تعالى في نظام الموجودات وجعلها منشأً شبيهًا بحياة بعد شبيهٍ بموت أو اقتراب منه ومَنْشأ تَخلق موجودات من ذرات دقيقة. وتلك حالة إنزال ماء المطر من الأسحبة على الأرض فتنبت الأرض به سنابل حبّ وشجرًا، وكلأً، وتلك كلها فيها حياة قريبة من حياة الإنسان والحيوان، وهي حياة النماء، فيكون ذلك دليلًا للناس على تصور حالة البعث بعد الموت بدليل من التقريب الدال على إمكانه حتى تضمحل من نفوس المكابرين شُبَهُ إحالة البعث.

وهذا الذي أشير إليه هنا قد صرح به في مواضع من القرآن كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾[1]، ففي الآية استدلالان: استدلال بإنزال الماء من السحاب، واستدلال بالإنبات، وفي هذا أيضًا منّة على المُعْرِضِين عن النظر في دلائل صنع اللَّه التي هي دواع لشكر المنعم بها لما فيها من منافع للناس من رزقهم ورزق أنعامهم، ومن تنعمهم وجمال مَرَائيهم فإنهم لو شكروا

(١) ق: الآيات (٩-١١).

المنعم بها لكانوا عندما يَبلغهم عنه أنه يدعوهم إلى النظر في الأدلة مستعدين للنظر، بتوقع أن تكون الدعوة البالغة إليهم صَادقة العَزو إلى اللَّه فما خفيت عنهم الدلالة»(١).

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في المعني بـ(المعصرات)، فقال بعضهم: عُني بها الرياح التي تعصر في هبوبها.. وقال آخرون: بل هي السحاب التي تتحلب بالمطر ولما تمطر، كالمرأة المعصر التي قد دنا أوان حيضها ولم تحض.. وقال آخرون: بل هي السماء..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن اللَّه أخبر أنه أنزل من المعصرات، وهي التي قد تحلبت بالماء من السحاب ماءً، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب؛ لأن القول في ذلك على أحد الأقوال الثلاثة التي ذكرت، والرياح لا ماء فيها فينزل منها، وإنما ينزل بها، وكان يصح أن تكون الرياح لو كانت القراءة: (وأنزلنا بالمعصرات)، فلما كانت ﴿مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ علم أن المعني بذلك ما وصفت»(٢).

قال ابن عطية: «والثجاج: السريع الاندفاع كما يندفع الدم عن عروق الذبيحة»(٣).

قال ابن جرير: «قال ابن وهب: ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ قال: كثيرًا. ولا يعرف في كلام العرب من صفة الكثرة الثج، وإنما الثج الصب المتتابع، ومنه قول النبي ﷺ: «أفضل الحج العج والثج» يعني بالثج صب دماء الهدايا والبدن بذبحها، يقال منه: ثججت دمه فأنا أثجه ثجًا، وقد ثج الدم فهو يثج ثجوجًا»(٤).

قال ابن كثير بعد سوقه للحديثين الآتيين: «وهذا فيه دلالة على استعمال الثج في الصب المتتابع الكثير، واللَّه أعلم»(٥).

قال الرازي: «واعلم أن الثج قد يكون لازمًا، وهو بمعنى الانصباب كما ذكرنا، وقد يكون متعديًا بمعنى الصب وفي الحديث: «أفضل الحج العج الثج» أي: رفع الصوت بالتلبية، وصب دماء الهدي، وكان ابن عباس مثجًّا أي: يثجّ

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٥).
(٢) جامع البيان (٣٠/ ٤-٦).
(٣) المحرر الوجيز (٥/ ٤٢٤).
(٤) جامع البيان (٣٠/ ٦).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٢٨).

الكلام ثجًّا في خطبته، وقد فسروا الثجاج في هذه الآية على الوجهين، وقال الكلبي ومقاتل وقتادة: الثجاج ههنا المتدفق المنصب. وقال الزجاج: معناه: الصباب، كأنه يثج نفسه، أي: يصب. وبالجملة فالمراد تتابع القطر حتى يكثر الماء فيعظم النفع به»[١].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾ أي: لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارَك ﴿حَبًّا﴾ يدخر للأناسي والأنعام، ﴿وَنَبَاتًا﴾ أي: خضرًا يؤكل رطبًا، ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة، وألوان مختلفة، وطعوم وروائح متفاوتة، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعًا؛ ولهذا قال: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾ قال ابن عباس وغيره: ﴿أَلْفَافًا﴾ مجتمعة. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾[٢] الآية»[٣].

قال الرازي: «كل شيء نبت في الأرض فإما أن لا يكون له ساق وإما أن يكون، فإن لم يكن له ساق فإما أن يكون له أكمام وهو الحب، وإما أن لا يكون له أكمام وهو الحشيش، وهو المراد ههنا بقوله: ﴿وَنَبَاتًا﴾ وإلى هذين القسمين الإشارة بقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾[٤] وأما الذي له ساق فهو الشجر، فإذا اجتمع منها شيء كثير سميت جنة، فثبت بالدليل العقلي انحصار ما ينبت في الأرض في هذه الأقسام الثلاثة، وإنما قدم اللَّه تعالى الحب لأنه هو الأصل في الغذاء، وإنما ثنى بالنبات لاحتياج سائر الحيوانات إليه، وإنما أخر الجنات في الذكر لأن الحاجة إلى الفواكه ليست ضرورية»[٥].

قال أبو السعود: «واعلم أن فيما ذكر من أفعاله ﷻ دلالة على صحة البعث وحقّيته من وجوه ثلاثة:

الأول: باعتبار قدرته تعالى؛ فإنّ مَن قدرَ على إنشاء هذه الأفعال البديعة من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه كان على الإعادة أقدر وأقوى.

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٠).
(٢) الرعد: الآية (٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٢٨).
(٤) طه: الآية (٥٤).
(٥) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٠).

الثاني: باعتبار علمه وحكمته؛ فإنّ من أبدع هذه المصنوعات على نمط رائع مستتبع لغايات جليلة ومنافع جميلة عائدة إلى الخلق يستحيل أن يفنيَها بالكلية ولا يجعلَ لها عاقبةً باقيةً.

والثالث: باعتبار نفس الفعل؛ فإنّ اليقظة بعد النوم أنموذج للبعث بعد الموت يشاهدونها كل يوم، وكذا إخراج الحبّ والنبات من الأرض الميتة يعاينونه كل حين، كأنه قيل: ألم نفعل هذه الأفعال الآفاقية والأنفسية الدالة بفنون الدلالات على حقية البعث الموجبة للإيمان به؟ فما لكم تخوضون فيه إنكارًا وتتساءلون عنه استهزاءً؟»[1].

قال ابن عاشور: «وبهذا الاستدلال والامتنان ختمت الأدلة التي أقيمت لهم على انفراد اللَّه تعالى بالإلهية، وتضمنت الإيماء إلى إمكان البعث وما أدمج فيها من المنن عليهم عساهم أن يذكروا النعمة فيشعروا بواجب شكر المنعم، ولا يستفظعوا إبطال الشركاء في الإلهية، وينظروا فيما بلغهم عنه من الإخبار بالبعث والجزاء، فيصرفوا عقولهم للنظر في دلائل تصديق ذلك.

وقد ابتدئت هذه الدلائل بدلائل خلق الأرض وحالتها، وجالت بهم الذكرى على أهم ما على الأرض من الجماد والحيوان، ثم ما في الأفق من أعراض الليل والنهار، ثم تصاعد بهم التجوال بالنظر في خلق السموات وبخاصة الشمس، ثم نُزل بهم إلى دلائل السحاب والمطر، فنزلوا معه إلى ما يخرج من الأرض من بدائع الصنائع ومنتهى المنافع، فإذا هم ينظرون من حيث صَدروا وذلك من رد العجز على الصدر»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير (الثج)

* عن أبي بكر الصديق ﷺ أن النبي ﷺ سئل: أي الحج أفضل؟ قال: «**العج والثج**»[3].

* عن حمنة بنت جحش قالت: «كنت أستحاض حيضة كثيرة شديدة، فأتيت رسول اللَّه ﷺ أستفتيه وأخبره، فوجدته في بيت أختي زينب بنت جحش، فقلت:

---

(١) إرشاد العقل السليم (٩/ ٨٨). (٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٨).

(٣) أخرجه: الترمذي (٣/ ١٨٩/ ٨٢٧) وقال: «غريب»، وابن ماجه (٢/ ٩٧٥/ ٢٩٢٤)، وصححه ابن خزيمة (٤/ ١٧٥/ ٢٦٣١)، والحاكم (١/ ٤٥٠-٤٥١) ووافقه الذهبي.

يا رسول الله! إني امرأة أستحاض حيضة كثيرة شديدة، فما ترى فيها قد منعتني الصلاة والصوم؟ فقال: **أنعت لك الكرسف فإنه يذهب الدم**، قالت: هو أكثر من ذلك، قال: فاتخذي ثوبًا، فقالت: هو أكثر من ذلك، إنما أثج ثجًا، قال رسول اللَّه ﷺ: **سآمرك بأمرين أيهما فعلت أجزأ عنك من الآخر، وإن قويت عليهما فأنت أعلم**، قال لها: **إنما هذه ركضة من ركضات الشيطان فتحيضي ستة أيام أو سبعة أيام في علم اللَّه، ثم اغتسلي حتى إذا رأيت أنك قد طهرت واستنقأت فصلي ثلاثًا وعشرين ليلة أو أربعًا وعشرين ليلة وأيامها، وصومي فإن ذلك يجزيك، وكذلك فافعلي في كل شهر كما تحيض النساء وكما يطهرن، ميقات حيضهن وطهرهن، وإن قويت على أن تؤخري الظهر وتعجلي العصر، فتغتسلين وتجمعين بين الصلاتين: الظهر والعصر وتؤخرين المغرب وتعجلين العشاء ثم تغتسلين وتجمعين بين الصلاتين فافعلي، وتغتسلين مع الفجر فافعلي، وصومي إن قدرت على ذلك**، قال رسول اللَّه ﷺ: **وهذا أعجب الأمرين إلي**»[1].

★ فوائد الحديثين:

هذان الحديثان سيقا لبيان معنى كلمة ﴿ثَجَّاجًا﴾؛ وذلك أن هذه المادة تحتمل أن تكون لازمة أو متعدية؛ وهذان الحديثان شاهدان للمعنى الثاني الذي هو التعدية.

قال الشهاب بعد سوقه لحديث أبي بكر: «وهو حديث صحيح، معناه: أفضل أعمال الحج: التلبية والنحر، وهو شاهد على أنه متعدّ، بمعنى الصبّ»[2].

قال في «العون»: «والثج: جري الدم ظاهرًا جريًا شديدًا، لازم ومتعد، يقال: ثججت الماء والدم: إذا أسكبته، وعلى هذا فالمفعول محذوف، أي: أثج الدم ثجًّا، وعلى الأول إضافة الجري إلى نفسها للمبالغة على معنى أن النفس جعلت كأن كلها دم ثجاج، وهذا أبلغ في المعنى»[3].

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٨١-٣٨٢)، وأبو داود (١/ ١٩٩-٢٠١/ ٢٨٧) واللفظ له، والترمذي (١/ ٢٢١-٢٢٥/ ١٢٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ٢٠٣-٢٠٤/ ٦٢٢)، والحاكم (١/ ١٧٢-١٧٣).
قلت: وقد نقل الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ قول البخاري والإمام أحمد -رحمهما اللَّه جميعًا- أنهما قالا: «هو حديث حسن صحيح».

(٢) حاشية الشهاب (٨/ ٣٠٤).

(٣) عون المعبود (١/ ٤٧٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يوم الفصل: أي: يوم الحساب؛ سمي بذلك لأن اللَّه ﷻ يفصل الحكم بين الخلائق.

ميقاتًا: أي: موقوتًا محدودًا معلومًا في علمه تعالى، لا يتأخر ولا يتقدم.

سرابًا: السراب: ما يظنه الرائي ماءً وليس بماء عند اشتداد الحر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾ شروع في بيان سر تأخير ما يتساءلون عنه ويستعجلون به قائلين: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ ونوع تفصيل لكيفية وقوعه وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب حسبما جرى به الوعيد إجمالًا، أي: إن يوم فصل اللَّه ﷻ بين الخلائق كان في علمه وتقديره ميقاتًا وميعادًا لبعث الأولين والآخرين، وما يترتب عليه من الجزاء ثوابًا وعقابًا، لا يكاد يتخطاه بالتقدم والتأخر. وقيل: حدًّا توقت به الدنيا وتنتهي عنده، أو حدًّا للخلائق ينتهون فيه»[1].

وسُمّي يوم الفصل -يقول ابن عطية- لأن اللَّه تعالى يفصل فيه بين المؤمنين والكافرين وبين الحق والباطل[2].

وقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾: **قال ابن جرير**: «ترجم بـ(يوم ينفخ) عن (يوم الفصل)، فكأنه قيل: يوم الفصل كان أجلًا لما وعدنا هؤلاء القوم يوم ينفخ في الصُّور، وقد بينت معنى (الصُّور). وهو قرن ينفخ فيه عندنا»[3].

(١) إرشاد العقل السليم (٩/ ٨٨).
(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٤٢٥).
(٣) جامع البيان (٣٠/ ٨).

قال ابن عطية: «هذا قول الجمهور، ويحتمل هذا الموضع أن يكون (الصور) فيه جمع صورة، أي: يوم يرد اللَّه فيه الأرواح إلى الأبدان، هذا قول بعضهم في (الصور)، وجوزه أبو حاتم، والأول أشهر وبه تظاهرت الآثار، وهو ظاهر كتاب اللَّه تعالى في قوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾[1].. والأفواج: الجماعات يتلو بعضها بعضًا، واحدها: فوج»[2].

قال أبو السعود: ﴿أَفْوَاجًا﴾ أي: كل أمة مع إمامها كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾[3]، أو زمرًا وجماعات مختلفة الأحوال، متباينة الأوضاع حسب اختلاف أعمالهم وتباينها»[4].

وقوله: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾: **قال ابن جرير:** «يقول -تعالى ذكره-: وشققت السماء فصدّعت، فكانت طُرُقًا، وكانت من قبل شدادًا لا فُطور فيها ولا صدوع. وقيل: معنى ذلك: وفُتحت السماء فكانت قطعًا كقطع الخشب المشقّقة لأبواب الدور والمساكن، قالوا: ومعنى الكلام: وفُتحت السماء فكانت قطعًا كالأبواب، فلما أسقطت (الكاف) صارت الأبواب الخبر، كما يقال في الكلام: كان عبد اللَّه أسدًا، يعني: كالأسد»[5].

وقال الرازي: «قال القاضي: وهذا الفتح هو معنى قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾[6]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾[7]؛ إذ (الفتح) و(التشقق) و(التفطر) تتقارب، وأقول: هذا ليس بقوي؛ لأن المفهوم من فتح الباب غير المفهوم من التشقق والتفطر، فربما كانت السماء أبوابًا، ثم تفتح تلك الأبواب مع أنه لا يحصل في جرم السماء تشقق ولا تفطر، بل الدلائل السمعية دلت على أن عند حصول فتح هذه الأبواب يحصل التشقق والتفطر والفناء بالكلية»[8].

قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾: **قال ابن جرير:** «يقول: ونسفت الجبال فاجتثت من أصولها، فصيرت هباءً منبثًا لعين الناظر، كالسراب الذي يظن من يراه

---

(١) الزمر: الآية (٦٨).
(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٤٢٥).
(٣) الإسراء: الآية (٧١).
(٤) إرشاد العقل السليم (٩/ ٨٩).
(٥) جامع البيان (٣٠/ ٨).
(٦) الانشقاق: الآية (١).
(٧) الانفطار: الآية (١).
(٨) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٢).

من بعيد ماءً، وهو في الحقيقة هباء»[١].

وهو -**يقول ابن عطية**- عبارة عن تلاشيها وفنائها بعد كونها هباءً منبثًا، ولم يرد أن الجبال تعود تشبه الماء على بعد من الناظر إليها»[٢].

قال الرازي: «اعلم أن اللّه ذكر في مواضع من كتابه أحوال هذه الجبال على وجوه مختلفة، ويمكن الجمع بينها على الوجه الذي نقوله: وهو أن أول أحوالها الاندكاك، وهو قوله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾[٣].

والحالة الثانية لها: أن تصير ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[٤]، وذكر اللّه تعالى ذلك في قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[٥]، وقوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾[٦].

والحالة الثالثة: أن تصير كالهباء، وذلك أن تتقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن، وهو قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾[٧].

والحالة الرابعة: أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارة في مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتنسف عنها بإرسال الرياح عليها وهو المراد من قوله: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾[٨].

والحالة الخامسة: أن الرياح ترفعها عن وجه الأرض فتطيرها شعاعًا في الهواء كأنها غبار فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجسامًا جامدة وهي في الحقيقة مارة، إلا أن مرورها بسبب مرور الرياح بها صيرها مندكّة متفتتة، وهي قوله: ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[٩]، ثم بين أن تلك الحركة حصلت بقهره وتسخيره، فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾[١٠].

الحالة السادسة: أن تصير سرابًا، بمعنى لا شيء، فمن نظر إلى مواضعها لم

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٨).
(٢) المحرر الوجيز (١/ ٤٢٥).
(٣) الحاقة: الآية (١٤).
(٤) القارعة: الآية (٥).
(٥) القارعة: الآيتان (٤و٥).
(٦) المعارج: الآيتان (٨و٩).
(٧) الواقعة: الآيات (٤-٦).
(٨) طه: الآية (١٠٥).
(٩) النمل: الآية (٨٨).
(١٠) الكهف: الآية (٤٧).

يجد فيها شيئًا ، كما أن من يرى السراب من بعد إذا جاء الموضع الذي كان يراه فيه لم يجده شيئًا ، والله أعلم»[١] .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النفخ في الصُّور

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**ما بين النفختين أربعون**» ، قال : أربعون يومًا؟ قال : أبيت ، قال : أربعون شهرًا ، قال : أبيت قال : أربعون سنة؟ قال : أبيت ، قال : «**ثم ينزل الله من السماء ماءً ، فينبتون كما ينبت البقل ، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى ، إلا عظمًا واحدًا ، وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة**»[٢] .

★ غريب الحديث:

عجب الذنب : هو بفتح العين وإسكان الجيم ، أي : العظم اللطيف الذي في أسفل الصلب ، وهو رأس العصعص ، ويقال : عجم ، بالميم ، وهو أول ما أصحهما من الآدمي ، وهو الذي يبقى ليعاد تركيب الخلق عليه .[٣]

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ : «قوله : «أبيت» بموحدة ، أي : امتنعت عن القول بتعيين ذلك ؛ لأنه ليس عندي في ذلك توقيف» . وقال : «قال ابن التين : ويحتمل أيضًا أن يكون علم ذلك لكن سكت ليخبرهم في وقت أو اشتغل عن الإعلام حينئذ»[٤] .

قال النووي : «معناه : أبيت أن أجزم أن المراد أربعون يومًا أو سنة أو شهرًا ، بل الذي أجزم به أنها أربعون مجملة ، وقد جاءت مفسرة من رواية غيره في غير مسلم : «أربعون سنة»»[٥] .

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٢-١٣) .

(٢) أخرجه : البخاري (٨/ ٨٩٢/ ٤٩٣٥) ، ومسلم (٤/ ٢٢٧٠-٢٢٧١/ ٢٩٥٥) ، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٩/ ١١٤٥٩) .

(٣) شرح صحيح مسلم (١٨/ ٧٣) .

(٤) فتح الباري (٨/ ٧٠٩) .

(٥) شرح صحيح مسلم (١٨/ ٧٢) .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مرصادًا: مِفعال من الرَّصَد، والرصد: كل شيء كان أمامك. أو ذات أرصاد، أي: ترصد من يمرّ بها. والراصد الشيء: الراقب له، والترصّد: الترقّب. والمرصَدُ: موضع الرصد.

مآبًا: أي: مرجعًا ومأوى؛ من آب يؤوب: إذا رجع.

أحقابًا: جمع حُقَبٍ، وواحد الحُقَبِ: حِقْبَةٌ. وهي مدة من الزمان مبهمة. قال الشاعر:

وكنا كندمان جذيمة حقبة   من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: إن جهنم كانت رصدًا لأهلها الذين كانوا يكذّبون في الدنيا بها، وبالمعاد إلى الله في الآخرة، ولغيرهم من المصدّقين بها، ومعنى الكلام: إن جهنم كانت ذات ارتقاب، ترقب من يجتازها وترصدهم»[1].

قلت: وهذا الرصد إما أن يكون راجعًا إلى جهنم نفسها أو إلى خزنتها. يقول الشوكاني: «ومعنى الآية: أن جهنم كانت في حكم الله وقضائه موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها، أو هي في نفسها متطلعة لمن يأتي إليها من الكفار كما يتطلع الرصد لمن يمرّ به ويأتي إليهم. والمرصاد: مِفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمعمار، فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار»[2].

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٩).

(٢) فتح القدير (٥/ ٥٢٠).

قلت: وهذا المعنى الأخير أولى أن تفسر به الآية، وهو الذي يتماشى مع اللفظ الكريم، وهو الذي حكاه ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ مقتصرًا عليه.

قال الرازي: «دلّت الآية على أن جهنم كانت مخلوقة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١﴾ أي: معدّة، وإذا كانت كذلك كانت الجنة أيضًا كذلك؛ لأنه لا قائل بالفرق»[(١)].

قال ابن عاشور: «وفيه إيماء إلى سعة علم اللَّه تعالى حيث أعدّ في أزله عقابًا للطاغين»[(٢)].

وقوله: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢﴾: يقول ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن جهنم للذين طغوا في الدنيا فتجاوزوا حدود اللَّه استكبارًا على ربهم؛ كانت منزلًا ومرجعًا يرجعون إليه، ومصيرًا يصيرون إليه ويسكنونه»[(٣)].

قال ابن عاشور: «والطغيان: تجاوز الحد في عدم الاكتراث بحق الغير والكِبْرُ، والتعريفُ فيه للعهد، فالمراد به المشركون المخاطبون بقوله: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾[(٤)]، فهو إظهار في مقام الإضمار لقصد الإيماء إلى سبب جعل جهنم لهم؛ لأن الشرك أقصى الطغيان؛ إذ المشركون باللَّه أعرضوا عن عبادته ومتكبرون على رسوله ﷺ حيث أنِفوا من قبول دعوته وهم المقصود من معظم ما في هذه السورة كما يصرح به قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨﴾[(٥)]. هذا وأن المسلمين المستخفّين بحقوق اللَّه، أو المعتدين على الناس بغير حق، واحتقارًا لا لمجرد غلبة الشهوة؛ لهم حظ من هذا الوعيد بمقدار اقترابهم من حال أهل الكفر»[(٦)].

قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣﴾:

قال الرازي: «قال الفراء: أصل الحقب من الترادف والتتابع؛ يقال: أحقب: إذا أردف، ومنه الحقيبة ومنه كل من حمل وزرًا، فقد احتقب فيجوز على هذا المعنى ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣﴾ أي: دهورًا متتابعة يتبع بعضها بعضًا، ويدل عليه

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٤).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٦).
(٣) جامع البيان (٣٠/ ٩).
(٤) النبأ: الآية (١٨).
(٥) النبأ: الآيتان (٢٧و٢٨).
(٦) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٦).

قوله تعالى: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾(١) يحتمل سنين متتابعة إلى أن أبلغ أو آنس، واعلم أن الأحقاب واحدها حقب، وهو ثمانون سنة عند أهل اللغة، والحقب السنون، واحدتها حقبة، وهي زمان من الدهر لا وقت له، ثم نقل عن المفسرين فيه وجوه: أحدها: قال عطاء والكلبي ومقاتل عن ابن عباس في قوله: ﴿أَحۡقَابٗا﴾: «الحقب الواحد بضع وثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يومًا، واليوم ألف سنة من أيام الدنيا»، ونحو هذا روى ابن عمر مرفوعًا. وثانيهما: سأل هلال الهجري عليًا عليه السلام فقال: «الحقب مائة سنة، والسنة اثنتا عشر شهرًا، والشهر ثلاثون يومًا، واليوم ألف سنة». وثالثها: قال الحسن: الأحقاب لا يدري أحد ما هي، ولكن الحقب الواحد سبعون ألف سنة اليوم منها كألف سنة مما تعدون»(٢).

قال القرطبي: «هذه أقوال متعارضة، والتحديد في الآية للخلود يحتاج إلى توقيف يقطع العذر، وليس ذلك بثابت عن النبي ﷺ، وإنما المعنى -والله أعلم- . . : لابثين فيها أزمانًا ودهورًا كلما مضى زمن يعقبه زمن، ودهر يعقبه دهر، هكذا أبد الآبدين من غير انقطاع»(٣).

قال الرازي: «فإن قيل: قوله: ﴿أَحۡقَابٗا﴾ وإن طالت إلا أنها متناهية. وعذاب أهل النار غير متناه، بل لو قال: لابثين فيها الأحقاب، لم يكن هذا السؤال واردًا، ونظير هذا السؤال قوله في أهل القبلة: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾(٤)، قلنا: الجواب من وجوه: الأول: أن لفظ الأحقاب لا يدل على مضى حقب له نهاية، وإنما الحقب الواحد متناه. والمعنى أنهم يلبثون فيها أحقابًا كلما مضى حقب تبعه حقب آخر، وهكذا إلى الأبد. والثاني: قال الزجاج: المعنى أنهم يلبثون فيها أحقابًا لا يذوقون في الأحقاب بردًا ولا شرابًا، فهذه الأحقاب توقيت لنوع من العذاب، وهو أن لا يذوقوا بردًا ولا شرابًا إلا حميمًا وغساقًا، ثم يبدلون بعد الأحقاب عن الحميم والغساق من جنس آخر من العذاب. وثالثها: هب أن قوله: ﴿أَحۡقَابٗا﴾ يفيد التناهي، لكن دلالة هذا على الخروج دلالة المفهوم، والمنطوق دل على أنهم لا يخرجون. قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ

---

(١) الكهف: الآية (٦٠).
(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٤).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١١٧).
(٤) هود: الآية (١٠٧).

عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾[١] ولا شك أن المنطوق راجح»[٢].

وقد مال ابن جرير إلى الوجه الثاني فقال: «وقد يحتمل أن يكون معنى ذلك: لابثين فيها أحقابًا في هذا النوع من العذاب هو أنهم لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا إلا حميمًا وغساقًا، فإذا انقضت تلك الأحقاب صار لهم من العذاب أنواع غير ذلك؛ كما قال -جل ثناؤه- في كتابه: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾[٣]، وهذا القول عندي أشبه بمعنى الآية»[٤].

قلت: والوجه الأول هو الراجح، وعليه أكثر أئمة التفسير. يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمعنى في الآية: لابثين فيها أحقاب الآخرة التي لا نهاية لها؛ فحذف الآخرة لدلالة الكلام عليه؛ إذ في الكلام ذكر الآخرة، وهو كما يقال أيام الآخرة؛ أي: أيام بعد أيام إلى غير نهاية، وإنما كان يدل على التوقيت لو قال: خمسة أحقاب أو عشرة أحقاب ونحوه. وذكر الأحقاب لأن الحُقُب كان أبعد شيء عندهم، فتكلم بما تذهب إليه أوهامهم ويعرفونها، وهي كناية عن التأبيد، أي: يمكثون فيها أبدًا. وقيل: ذكر الأحقاب دون الأيام؛ لأن الأحقاب أهول في القلوب، وأدل على الخلود. والمعنى متقارب»[٥].

قال ابن عاشور: «ويبين هذا الآيات الأخرى الدالة على خلود المشركين، فجاءت هذه الآية على المعروف الشائع في الكلام كناية به عن الدوام دون انتهاء.

وليس فيه دلالة على أن لهذا اللبث نهاية حتى يحتاج إلى دعوى نسخ ذلك بآيات الخلود، وهو وهم؛ لأن الأخبار لا تنسخ، أو يحتاج إلى جعل الآية لعصاة المؤمنين؛ فإن ذلك ليس من شأن القرآن المكي الأول إذ قد كان المؤمنون أيامئذ صالحين مخلصين مجدين في أعمالهم»[٦].

* عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ قال: «الحقب ثمانون سنة»[٧].

---

(١) المائدة: الآية (٣٧).
(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٤-١٥).
(٣) ص: الآيات (٥٥-٥٨).
(٤) جامع البيان (٣٠/ ١٢).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١١٦).
(٦) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٧).
(٧) أخرجه: الحاكم (٢/ ٥١٢) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حميمًا: أي: ماء شديد الحرارة.

غساقًا: أي: صديدًا يسيل من أهل النار؛ من قولهم: غسقَتْ عَيْنُهُ: إذا سالت بالدمع.

وفاقًا: أي: موافقًا لما ارتكبوه من إجرام.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: لا يطعمون فيها بردًا يبرّد حر السعير عنهم إلا الغساق، ولا شرابًا يرويهم من شدة العطش الذي بهم إلا الحميم»[1].

قال الرازي: «في قوله: ﴿بَرْدًا﴾، وجهان: الأول: أنه البرد المعروف، والمراد أنهم لا يذوقون مع شدة الحر ما يكون فيه راحة من ريح باردة، أو ظل يمنع من نار، ولا يجدون شرابًا يسكن عطشهم، ويزيل الحرقة عن بواطنهم، والحاصل أنهم لا يجدون هواءً باردًا، ولا ماءً باردًا.

والثاني: البرد ههنا النوم، وهو قول الأخفش والكسائي والفراء وقطرب والعتبي، قال الفراء: وإنما سمي النوم بردًا؛ لأنه يبرد صاحبه، فإن العطشان ينام فيبرد بالنوم، وأنشد أبو عبيدة والمبرد في بيان أن المراد النوم قول الشاعر:

بردت مراشفها علي فصدّني ... عنها وعن رشفاتها البرد

يعني النوم، قال المبرد: ومن أمثال العرب: منع البرد البرد، أي: أصابني من البرد ما منعني من النوم، واعلم أن القول الأول أولى؛ لأنه إذا أمكن حمل اللفظ

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٢).

على الحقيقة المشهورة، فلا معنى لحمله على المجاز النادر الغريب»[١].

وقوله: ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾: **قال القرطبي**: «والحميم: الماء الحارّ، قاله أبو عبيدة.. وقال ابن زيد: الحميم: دموع أعينهم تجمع في حياض ثم يسقونه. وقال النحاس: أصل الحميم: الماء الحارّ. ومنه اشتق الحمام، ومنه الحمى، ومنه ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣﴾[٢]، إنما يراد به النهاية في الحر»[٣].

وقوله: ﴿وَغَسَّاقًا﴾: **قال ابن جرير**: «واختلف أهل التأويل في معنى الغساق، فقال بعضهم: هو ما سال من صديد أهل جهنم.. وقال آخرون: الغساق: الزمهرير.. وقال آخرون: هو المنتن، وهو بالطَّخارية»[٤].

قال الرازي مضيفًا قولًا آخر في معنى (الغساق): «إن الغساق هو المظلم، قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾[٥]، فيكون الغاسق شرابًا أسود مكروهًا يستوحش كما يستوحش الشيء المظلم»[٦].

قال ابن جرير: «والغساق عندي: هو الفعال، من قولهم: غَسَقَت عين فلان: إذا سالت دموعها، وغَسَق الجرح: إذا سال صديده، ومنه قول الله: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾، يعني بالغاسق: الليل إذا لَبِسَ الأشياء وغطاها، وإنما أريد بذلك هجومه على الأشياء، هجوم السيل السائل. فإذا كان الغسَّاق هو ما وصفت من الشيء السائل، فالواجب أن يقال: الذي وعد اللَّه هؤلاء القوم، وأخبر أنهم يذوقونه في الآخرة من الشراب هو السائل من الزمهرير في جهنم، الجامع مع شدّة برده النتن..

فإن قال قائل: فإنك قد قلت: إن الغساق: هو الزمهرير، والزمهرير: هو غاية البرد، فكيف يكون الزمهرير سائلًا؟ قيل: إن البرد الذي لا يُستطاع ولا يُطاق، يكون في صفة السائل من أجساد القوم من القيح والصديد»[٧].

قال الرازي: «إذا عرفت هذا فنقول: إن فسرنا بالغساق بالبارد كان التقدير: لا يذوقون فيها بردًا إلا غساقًا ولا شرابًا إلا حميمًا، إلا أنهما جمعا لأجل انتظام

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٥).
(٢) الواقعة: الآية (٤٣).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١١٨).
(٤) جامع البيان (٣٠/ ١٣-١٤).
(٥) الفلق: الآية (٣).
(٦) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٦).
(٧) جامع البيان (٣٠/ ١٥).

الآي، ومثله من الشعر قول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا لدى وكرها العناب والحشف البالي

والمعنى: كأن قلوب الطير رطبًا العناب ويابسًا الحشف البالي. أما إن فسرنا الغساق بالصديد أو بالنتن احتمل أن يكون الاستثناء بالحمي والغساق راجعًا إلى البرد والشراب معًا، وأن يكون مختصًا بالشراب فقط.

أما الاحتمال الأول: فهو أن يكون التقدير لا يذوقون فيها شرابًا إلا الحميم البالغ في الحميم والصديد المنتن.

وأما الاحتمال الثاني: فهو أن يكون التقدير: لا يذوقون فيها شرابًا إلا الحميم البالغ في السخونة أو الصديد المنتن، والله أعلم بمراده»[1].

وقوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾: **قال الشوكاني**: «أي: موافقًا لأعمالهم، و﴿جَزَآءً﴾ منتصب على المصدر، و﴿وِفَاقًا﴾ نعت له، قال الفراء والأخفش: جزيناهم جزاء وافق أعمالهم، قال الزجاج: جُوزوا جزاء وافق أعمالهم. قال الفرّاء: الوفاق جمع الوفق، والوفق والموافق واحد. قال مقاتل: وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أعظم من النار. وقال الحسن وعكرمة: كانت أعمالهم سيئة، فأتاهم الله بما يسوؤهم»[2].

وهذا العمل الذي جوزوا عليه بهذه العقوبة هو -**يقول ابن عاشور**- «التكذيب بالبعث، وتكذيب القرآن كما دل عليه التعليل بعده بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾[3].

فإن ذلك أصل إصرارهم على الكفر، وهما أصلان: أحدهما: عدميّ وهو إنكار البعث، والآخر وجوديّ وهو نسبتهم الرسول ﷺ والقرآن للكذب، فعوقبوا على الأصل العدمي بعقاب عدمي وهو حرمانهم من البرد والشراب، وعلى الأصل الوجودي بجزاء وجودي وهو الحميم يراق على أجسادهم، والغساق يمرّ على جراحهم»[4].

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٦).
(٢) فتح القدير (٥/ ٥٢١).
(٣) النبأ: الآيتان (٢٧و٢٨).
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن هؤلاء الكفار كانوا في الدنيا لا يخافون محاسبة اللَّه في الآخرة على نعمه عليهم، وإحسانه إليهم، وسوء شكرهم له على ذلك»[١].

قلت: وتفسير الرجاء بالخوف هنا كما فعل الإمام ابن جرير هو -يقول ابن عاشور- تفسير بحاصل المعنى، وليس تفسيرًا للفظ[٢]. ولذلك قال ابن عطية ناقلًا عن كلام العلماء قولهم: «الرجاء هنا على بابه، ولا رجاء إلا وهو مقترن بخوف، ولا خوف إلا وهو مقترن برجاء، فذكر أحد القسمين؛ لأن المقصد العبارة عن تكذيبهم كأنه قال: إنهم كانوا لا يصدقون بالحساب، فلذلك لا يرجونه ولا يخافونه»[٣].

قال ابن عاشور: «والرجاء اشتهر في ترقب الأمر المحبوب، والحساب ليس خيرًا لهم حتى يجعل نفي ترقبه من قبيل نفي الرجاء فكان الظاهر أن يعبر عن ترقبه بمادة التوقع الذي هو ترقب الأمر المكروه، فيَظهر أن وجه العدول عن التعبير بمادة التوقع إلى التعبير بمادة الرجاء أن اللَّه لما أخبر عن جزاء الطاغين وعذابهم تلقى المسلمون ذلك بالمسرة وعلموا أنهم ناجون مما سيلقاه الطاغون، فكانوا مترقبين يوم الحساب ترقب رجاء، فنفي رجاء يوم الحساب عن المشركين جامعٌ بصريحه معنى عدم إيمانهم بوقوعه، وبكنايته رجاء المؤمنين وقوعه بطريقة الكناية التعريضية

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٥).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٩).
(٣) المحرر الوجيز (٥/ ٤٢٧).

تعريضًا بالمسلمين، وهي أيضًا تلويحية لما في لازم مدلول الكلام من الخفاء»[١].

وقال أيضًا: «وجيء بفعل (يرجون) مضارعًا للدلالة على استمرار انتفاء ما عبر عنه بالرجاء، وذلك لأنهم كلما أعيد لهم ذكر يوم الحساب جدّدوا إنكاره، وكرّروا شبهاتهم على نفي إمكانه لأنهم قالوا: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[٢]»[٣].

قال الرازي: «إن رغبة الإنسان في فعل الخيرات، وفي ترك المحظورات، إنما تكون بسبب أن ينتفع به في الآخرة، فمن أنكر الآخرة، لم يقدم على شيء من المستحسنات، ولم يحجم عن شيء من المنكرات، فقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ تنبيه على أنهم فعلوا كل شر، وتركوا كل خير»[٤].

قال الواحدي: «والمعنى: كانوا لا يؤمنون بالبعث ولا بأنهم يحاسبون»[٥].

وقوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾: قال الرازي: «من قبائح أفعالهم قوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾؛ اعلم أن للنفس الناطقة الإنسانية قوتين نظرية وعملية، وكمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، ولذلك قال إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾[٦]، فـ﴿هَبْ لِي حُكْمًا﴾ إشارة إلى كمال القوة النظرية، ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ إشارة إلى كمال القوة العملية، فههنا بين اللّٰه تعالى رداءة حالهم في الأمرين، أما في القوة العملية فنبه على فسادها بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ أي: كانوا مقدمين على جميع القبائح والمنكرات، وغير راغبين في شيء من الطاعات والخيرات.

وأما في القوة النظرية فنبه على فسادها بقوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: كانوا منكرين بقلوبهم للحق، ومصرّين على الباطل. وإذا عرفت ما ذكرناه من التفسير ظهر أنه تعالى بين أنهم كانوا قد بلغوا في الرداءة والفساد إلى حيث يستحيل عقلًا وجود ما هو أزيد منه، فلما كانت أفعالهم كذلك كان اللائق بها هو العقوبة العظيمة. فثبت بهذا صحة ما قدمه في قوله: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾[٧]، فما أعظم لطائف القرآن مع أن الأدوار العظيمة قد استمرت، ولم ينتبه لها أحد»[٨].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٩).
(٢) الجاثية: الآية (٣٢).
(٣) المصدر السابق (٣٠/ ٤٠).
(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٨).
(٥) الوسيط (٤/ ٤١٥).
(٦) الشعراء: الآية (٨٣).
(٧) النبأ: الآية (٢٦).
(٨) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٨).

قال ابن عاشور: «والمعنى: كذبوا ما اشتملت عليه الآيات من إثبات الوحدانية ورسالة محمد ﷺ.

ولكون تكذيبهم بذلك قد استقر في نفوسهم، ولم يترددوا فيه، جيء في جانبه بالفعل الماضي؛ لأنهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾[1] »[2].

وقوله: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ٢٩﴾: قال ابن كثير: «أي: وقد علمنا أعمال العباد كلهم وكتبناها عليهم وسنجزيهم على ذلك إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ»[3].

قال المراغي: «فلا يمكنهم أن يجحدوا شيئًا مما كانوا يصنعون في الحياة الدنيا حين يرون ما أعد لهم من أنواع العقوبات؛ لأنا قد أحصينا ما فعلوه إحصاءً لا يزول منه شيء ولا يغيب، وإن غاب عن أذهانهم ونسوه، كما قال: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾[4]، وإنما قيل: ﴿كِتَٰبٗا﴾ دون أن يقال: (إحصاءً)؛ لأن الكتابة هي النهاية في قوة العلم بالشيء، فإن من يريد أن يحصي كلام متكلم حتى لا يغيب عنه شيء عمد إلى كتابته، فكأنه تعالى يقول: وكل شيء أحصيناه إحصاءً يساوي في ثباته وضبطه ما يكتب»[5].

قال عطية سالم: «وهذا كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾[6]، وقوله: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾[7]، وقوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾[8]، وقوله: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾.

واللفظ عام في كل شيء، ويشهد له قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾[10]، و﴿بِقَدَرٖ﴾ فيه معنى الإحصاء، وفي السنة: حديث القلم المشهور، وكقوله: ﴿وَكُلَّ

---

(١) فصلت: الآية (٥).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٣١).
(٤) المجادلة: الآية (٦).
(٥) تفسير المراغي (٣٠/ ١٤-١٥).
(٦) الكهف: الآية (٤٩).
(٧) ق: الآية (١٨).
(٨) الزلزلة: الآيتان (٧و٨).
(٩) القمر: الآية (٤٩).

شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾[١]، وتقدم في سورة (الجن) قوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدَۢا﴾[٢].

وهذه الآية أعظم الدلالات على قدرته تعالى وسعة علمه، وألا يفوته شيء قط، وأنه يعلم بالجزئيّات علمه بالكليّات.

وكما تقدم في سورة (المجادلة): ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٣]. وكذلك التفصيل في قوله: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾﴾[٤] »[٥].

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: يقال لهؤلاء الكفار في جهنم إذا شربوا الحميم والغَسّاق: ذوقوا أيها القوم من عذاب اللّٰه الذي كنتم به في الدنيا تكذّبون، فلن نزيدكم إلا عذابًا على العذاب الذي أنتم فيه لا تخفيفًا منه، ولا ترفّهًا»[٦].

قال ابن عاشور: «وفي هذا الأسلوب ابتداء مطمع بانتهاء مؤيس، وذلك أشد حزنًا وغمًّا بما يوهمهم أن ما ألقوا فيه هو منتهى التعذيب، حتى إذا ولج ذلك أسماعهم فحزنوا له أُتبع بأنهم ينتظرهم عذاب آخر أشدّ، فكان ذلك حزنًا فوق حزن، فهذا منوال هذا النظم، وهو مؤذن بشدة الغضب»[٧].

* * *

(١) يس: الآية (١٢).
(٢) الآية (٢٨).
(٣) الآية (٧).
(٤) الأنعام: الآية (٥٩).
(٥) تتمة أضواء البيان (٩/ ١٣-١٤).
(٦) جامع البيان (٣٠/ ١٧).
(٧) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٢).

قوله تعالى : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مفازًا: أي: موضع فوز وفلاح لطاعتهم وإخلاصهم. ولذلك قيل للفلاة إذا قلّ ماؤها: مفازة؛ تفاؤلًا بالخلاص منها.

حدائق: واحدها: حديقة، وهي الجنة المحوطة؛ من قولك: أحدق القوم بفلان: إذا أحاطوا به.

أعنابًا: جمع عنب، وهو ثمر الكرم قبل أن يجف، فإذا جف فهو زبيب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال المراغي: «بعد أن بين حال المكذبين، أردفه بما يفوز به المتقون من الجنات التي وصفها ووصف ما فيها، وذكر أنها عطاء من اللَّه تعالى، وفي هذا استنهاض لعوالي الهمم بدعوتهم إلى المثابرة إلى أعمال الخير، وازديادهم من القربات والطاعات، كما أن فيها إيلامًا لأنفس الضالين والمكذبين»[١].

قال ابن جرير: «إن للمتقين منجى من النار إلى الجنة، ومخلصًا منها لهم إليها، وظفرًا بما طلبوا»[٢].

وقوله: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾: يقول ابن جرير: «و(الحدائق) ترجمة وبيان عن المفاز، وجاز أن يترجم بها عنه؛ لأن المفاز مصدر من قول القائل: فاز فلان بهذا الشيء: إذا طلبه فظفر به، فكأنه قيل: إن للمتقين ظفرا بما طلبوا من حدائق وأعناب، والحدائق: جمع حديقة، وهي البساتين من النخل والأعناب والأشجار المُحَوَّط عليها الحيطان المحدقة بها، لإحداق الحيطان بها تسمى الحديقة حديقة، فإن لم تكن الحيطان بها محدقة، لم يقل لها حديقة، وإحداقها بها: اشتمالها عليها.

(١) تفسير المراغي (٣٠/ ١٦).
(٢) جامع البيان (٣٠/ ١٧).

وقوله: ﴿وَأَعۡنَٰبٗا﴾ يعني: وكرومَ أعناب، واستغنى بذكر الأعناب عن ذكر الكروم»[(١)].

قال الرازي: «والتنكير في قوله: ﴿وَأَعۡنَٰبٗا﴾ يدل على تعظيم حال تلك الأعناب»[(٢)].

قال البقاعي: «وخصّ أشجار العنب لطيبها وحسنها وشرفها وما فيها من لذة الذوق، وعبر عن أشجارها بثمرتها إعلامًا بأنها لا توجد إلا موقرة حملًا وأن ثمرتها هي جل منفعتها فقال: ﴿وَأَعۡنَٰبٗا﴾»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن تسمية العنب كرمًا

* عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا يقل أحدكم: الكرم، فإن الكرم الرجل المسلم، ولكن قولوا: حدائق الأعناب**»[(٤)].

★ غريب الحديث:

الكرم: بسكون الراء وفتحها، ويطلق على العنب وشجره وعلى الحائط من العنب.

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد:

التعريف بمواقع الألفاظ المشتركة وأن يقتصر في الوصف على ترك المبالغة والإغراق في الصفات إذا لم يستحق الموصوف ذلك[(٥)]. أو كان الوصف يوهم معنى فاسدًا[(٦)] يوقع فيما حظره اللَّه ورسوله ﷺ حسمًا لمادة الفتنة وقطعًا لدابرها وسدًّا لذريعة الوقوع في حبائلها.

---

(١) المصدر السابق (٣٠/ ١٧-١٨). (٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ٢١).
(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٠٩).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٩)، والبخاري (١٠/ ٦٩٣/ ٦١٨٣)، ومسلم (٤/ ١٧٦٣/ ٢٢٤٧[٧])، وأبو داود (٥/ ٢٥٥-٢٥٦/ ٤٩٧٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٠٦/ ١١٦٤٤). واللفظ لأبي داود والنسائي.
(٥) قاله المهلب نقلًا عن شرح ابن بطال (٩/ ٣٣٩).
(٦) مستفاد من كلام ابن جرير في «جامع البيان» (١/ ٤٧١).

وفيه النهي عن التشبه بالكافرين في مقالهم وأفعالهم[١]، خصوصًا ما كان من ذلك مفضيًا إلى الوقوع فيما حرم اللَّه تعالى ورسوله ﷺ. وإلى تزيين الشر وتحبيبه إلى القلوب وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يسمون شجرة العنب كرمًا؛ لأنه يتخذ منه الخمر وهي تحث على السخاء والكرم -عندهم- فاشتقوا لتلك الشجرة اسمًا من الكرم، فكره النبي ﷺ تسميته بشيء حرمه الشرع باسم مأخوذ من الكرم، وأشفق أن يدعوهم حسن الاسم إلى شرب الخمر المتخذة من ثمرها، فسلبها هذا الاسم تحقيرًا لشأنها وتأكيدًا لحرمتها.[٢]

إذا كان في تسليم هذا الاسم تقرير لدعواهم فيها، وتسويغ لما كانوا يتوهمونه من التكرم في سقيها وشربها، فأمر بأن لا تدعى كرمًا، وأن تسمى مواضعها وأشجارها حدائق الأعناب[٣] اتباعًا وموافقة كما تكلم به ﷻ في كتابه وحض على الالتزام به على لسان رسوله ﷺ وفق اللَّه لاتباع سنته ﷺ والتزام شريعته.

قال شيخ الإسلام: «ولفظ (الكرم) لفظ جامع للمحاسن والمحامد، لا يراد به مجرد الإعطاء، بل الإعطاء من تمام معناه؛ فإن الإحسان إلى الغير تمام المحاسن، والكرم كثرة الخير ويسرته. .

وهم سموا العنب (الكرم)؛ لأنه أنفع الفواكه، يؤكل رطبًا ويابسًا، ويعصر فيتخذ منه أنواع.

وهو أعم وجودًا من النخل، يوجد في عامة البلاد، والنخل لا يكون إلا في البلاد الحارة. ولهذا قال في رزق الإنسان: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾[٤]، فقدم العنب. وقال في صفة الجنة: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾، ومع هذا نهى النبي ﷺ عن تسميته بالكرم، وقال: «الكرم قلب المؤمن»؛ فإنه ليس في الدنيا أكثر ولا أعظم خيرًا من قلب المؤمن»[٥].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٢١٣).

(٢) قاله البغوي في شرح السنة (١٢/ ٣٥٦).

(٣) من كلام الخطابي في أعلام الحديث (٣/ ٢٢١٢).

(٤) عبس: الآيات (٢٤-٣٢).

(٥) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٩٣-٢٩٤).

فإن قيل: قد ثبت عن النبي ﷺ أنه سمى حدائق الأعناب كرمًا في قوله: «**لا صدقة في شيء من الزرع أو النخل أو الكرم حتى تكون خمسة أوسق**»[١]، فكيف يجوز لكم أن تقبلوا عنه أنه قد قال ما نهى أن يقال؟[٢]. فقد قال أبو جعفر الطحاوي: «جوابنا له بتوفيق اللَّه ﷻ وعونه: أنه قد يجوز أن يكون هذا القول كان من رسول اللَّه ﷺ من تسمية الحدائق الكرم كان قبل أن ينهى عما نهى عنه في الآثار الأخر. ثم نهى عما نهى عنه في الآثار الأخر، فعاد الحكم إلى ما في الآثار الأخر؛ لأن الأشياء ما لم ينه عنها كانت طلقًا من الأقوال ومن الأفعال. فإذا نهي عنها عادت إلى الحظر وإلى المنع من فعلها ومن قولها. وقد وجدنا كتاب اللَّه قد جاء بتسمية الأعناب بالاسم الذي في آثار النهي، وهي قوله جل وعز: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠﴾[٣]، واللَّه نسأله التوفيق»[٤].

* * *

(١) أخرجه: الطحاوي في شرح المشكل (٤/ ١٢٤-١٢٥/ ١٤٣٨)، والحاكم (١/ ٤٠١-٤٠٢) وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، ومن طريق الحاكم أخرجه البيهقي (٤/ ١٢٨).

(٢) من كلام الطحاوي في «شرح المشكل» (٤/ ١٢٥).

(٣) عبس: الآية (٣٠).

(٤) شرح مشكل الآثار (٤/ ١٢٥-١٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣﴾

★ **غريب الآية:**

كواعب: جمع كاعب، وهي الجارية التي نهد ثدياها. قال قيس بن عاصم:

وكم من حصانٍ قد حوينا كريمةٍ ومن كاعبٍ لم تدرِ ما البؤسُ معصِرُ

أترابًا: الأترابُ: الأقران في السنّ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الألوسي: ﴿وَكَوَاعِبَ﴾: جمع كاعب، وهي المرأة التي تكعّب ثدياها، واستدارا مع ارتفاع يسير، ويكون ذلك في سن البلوغ وأحسن التسوية»[(١)].

قال ابن القيم: «وأصل اللفظة من الاستدارة، والمراد أن ثديهن نواهد كالرمان، ليست متدلية إلى أسفل، ويسمّين نواهد وكواعب»[(٢)].

﴿أَتْرَابًا﴾: أي: ينشأن معًا تشبيهًا في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوع الصدر[(٣)]. ومن عادة الأتراب أن يكنّ متآلفات متعاشرات[(٤)].

قال ابن عاشور: «يجوز أن يكون هذا الوصف بالنسبة بينهن وبين أزواجهن؛ لأن ذلك أحب إلى الرجال في معتاد أهل الدنيا؛ لأنه أوفق بطرح التكلف بين الزوجين، وذلك أحلى المعاشرة»[(٥)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان سنّ نساء أهل الجنة

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة جردًا، مردًا**،

---

(١) روح المعاني (٣٠/ ١٨).

(٢) حادي الأرواح (ص: ١٥٧).

(٣) روح المعاني (٣٠/ ١٨).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٥٥).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٤-٤٥).

بيضًا، جِعادًا، مكحلين، أبناء ثلاث وثلاثين، على خلق آدم ستون ذراعًا»[١].

★ غريب الحديث:

جردًا: جمع أجرد، وهو من لا شعر على جسده.

مردًا: جمع أمرد، وهو من لا شعر على ذقنه.

جِعادًا: بكسر الجيم: جمع جَعْد، بفتح فسكون، والجعد في صفات الرجال يكون مدحًا ويكون ذمًّا؛ فالمدح أن يكون شديد الأسر والخلق، أو يكون جعد الشعر وهو ضد السبط؛ لأن السبوطة أكثرها في شعر العجم، والذم القصير المتردد الخلق، وقد يطلق على البخيل؛ يقال: هو جعد اليدين، ويجمع على جِعاد.[٢]

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث دليل على أن أهل الجنة جميعًا نساءً ورجالًا على تفاوت أسنانهم في الدنيا يكونون على هذه السن الواحدة التي هي وقت اكتمال الشباب وعنفوانه، وهي ثلاث وثلاثون سنة.

ومفهوم كون نساء الجنة على هذه السن أنهن ليس فيهن عجائز فات حسنهن، ولا ولائد لا يطقن الوطء.[٣]

قال ابن القيم: «وفي هذا الطول والسن من الحكمة ما لا يخفى؛ فأنه أبلغ وأكمل في استيفاء اللذات؛ لأنه أكمل سن القوة مع عظم آلات اللذة، وباجتماع الأمرين يكون كمال اللذة وقوتها»[٤].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٥)، والطبراني في الصغير (٢/ ١٧)، والبيهقي في البعث والنشور (رقم ٤٦٣)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٥/ ٣٤٠٠٦). وفيه علي بن زيد، وهو ضعيف، وله شاهد من حديث أنس، وآخر من حديث معاذ، فالحديث بهما حسن لغيره. وفيه زيادة لم أذكرها وهي: «في عرض سبعة أذرع»، ولم أذكرها لعدم وجود ما يشهد لها.

(٢) حاشية المسند (١٣/ ٣١٦).

(٣) أفاده هراس في شرح قصيدة ابن القيم (٢/ ٣٤٨و٣٩٩).

(٤) حادي الأرواح (ص: ١٠٤) بتصرف.

قوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «وفي الدهاق أقوال: الأول وهو قول أكثر أهل اللغة كأبي عبيدة والزجاج والكسائي والمبرد: ودهاقًا أي: ممتلئة، دعا ابن عباس غلامًا له فقال: اسقنا دهاقًا، فجاء الغلام بها ملأى، فقال ابن عباس: هذا هو الدهاق، قال عكرمة: ربما سمعت ابن عباس يقول: اسقنا وادهق لنا.

القول الثاني: ﴿دِهَاقًا﴾ أي: متتابعة، وهو قول أبي هريرة وسعيد بن جبير ومجاهد، قال الواحدي: وأصل هذا القول من قول العرب: أدهقت الحجارة إدهاقًا، وهو شدة تلازمها ودخول بعضها في بعض، ذكرها الليث، والمتتابع كالمتداخل.

القول الثالث: يروى عن عكرمة أنه قال: ﴿دِهَاقًا﴾ أي: صافية، والدهاق على هذا القول يجوز أن يكون جمع داهق، وهو خشبتان يعصر بهما، والمراد بالكأس الخمر، قال الضحاك: كل كأس في القرآن فهو خمر، التقدير: وخمرًا ذات دهاق، أي: عصرت وصفيت بالدهاق»[(١)].

وقد جمع ابن جرير بين القولين الأولين وأنهما داخلان في الآية فقال: «وقوله: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤﴾ يقول: وكأسًا ملأى متتابعة على شاربيها بكثرة وامتلاء، وأصله من الدهق: وهو متابعة الضغط على الإنسان بشدة وعنف، وكذلك الكأس الدهاق متابعتها على شاربيها بكثرة وامتلاء»[(٢)].

* عن ابن عباس في قوله ﷻ: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤﴾ قال: «هي المتتابعة الممتلئة». وربما سمعت العباس يقول: «اسقنا وادهق لنا»[(٣)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٢١). (٢) جامع البيان (٣٠/ ١٨).

(٣) أخرجه: ابن جرير (٣٠/ ٢٠)، والبيهقي في البعث (ص: ١٩٠، رقم الحديث: ٣٥٨)، والحاكم (٢/ ٥١٢) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبي: «قلت: على شرط البخاري».

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧﴾

★ **غريب الآية:**

عطاء حسابًا: أي: كثيرًا كافيًا. يقال: أَحْسَبْتُ فلانًا، أي: أعطيته ما يكفيه حتى قال: حسبي. قال الشاعر:

ونقفي وليد الحي إن كان جائعًا ... ونحسبه إن كان ليس بجائع

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «لما كانت مجالس الخمر في الدنيا ممتلئة بما ينغصها من اللغو والكذب إلا عند من لا مروءة له فلا ينغصه القبيح، قال نافيًا عنها ما يكدر لذة السمع: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: الجنة في وقت ما ﴿لَغْوًا﴾ أي: لغطًا يستحق أن يلغى؛ لأنه ليس له معنىً أعم من أن يكون مهملًا ليس له معنى أصلًا، أو مستعملًا ليس له معنىً موجود في الخارج وإن قل، أو له معنى ولكنه لا يترتب به كبير فائدة. ولما انتفى الكذب بهذه الطريقة، وكان التكذيب أذىً للمكذب، نفاه بقوله: ﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾؛ فإن هذه الصيغة تقال على التكذيب ومطلق الكذب، فصار المعنى: ولا أذىً بمعارضة في القول»[١].

وهذه الآية -يقول ابن كثير-: «كقوله تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾[٢] أي: ليس فيها كلام لاغٍ عارٍ عن الفائدة، ولا إثم كذب، بل هي دار السلام، وكل كلام فيها سالم من النقص»[٣].

قال ابن عاشور: «والمقصود منها أن خمر الجنة سليمة مما تسببه خمر الدنيا من

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢١٠).
(٢) الطور: الآية (٢٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٣٢).

آثار العربدة من هذيان، وكذب وسباب، واللغو والكذب من العيوب التي تعرض لمن تدب الخمر في رؤوسهم، أي: فأهل الجنة ينعمون بلذة السكر المعروفة في الدنيا قبل تحريم الخمر، ولا تأتي الخمر على كمالاتهم النفسية كما تأتي عليها خمر الدنيا.

وكان العرب يمدحون من يمسك نفسه عن اللغو ونحوه في شرب الخمر، قال عمارة بن الوليد:

ولسنا بشرب أم عمرو إذا انتشوا ثيابُ الندامى بينهم كالغنائم

ولكننا يا أم عمرو نديمُنا بمنزلة الريّان ليس بعائم

وكان قيس بن عاصم المنقري ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية وقال:

فإن الخمر تفضح شاربيها وتجنيهم بها الأمر العظيما

.. أي: لا يسمعون في الجنة الكلام السافل ولا الكذب. فلما أحاط بأهل جهنم أشدُّ الأذى بجميع حواسهم من جراء حرق النار وسقيهم الحميم والغساق لينال العذاب بواطنهم كما نال ظاهر أجسادهم، كذلك نفى عن أهل الجنة أقل الأذى وهو أذى سماع ما يكرهه الناس، فإن ذلك أقل الأذى.

وكني عن انتفاء اللغو والكِذّاب عن شاربي خمر الجنة بأنهم لا يسمعون اللغو والكذاب فيها؛ لأنه لو كان فيها لغو وكذب لسمعوه، وهذا من باب قول امرئ القيس:

على لاحبٍ لا يهتدى بمناره

أي: لا منار به فيهتدى به، وهو نوع من لطيف الكناية، والذي في الآية أحسن مما وقع في بيت امرئ القيس ونحوه؛ لأن فيه إيماءً إلى أن أهل الجنة منزهة أسماعهم عن سقط القول وسفل الكلام، كما في قوله في سورة (الواقعة): ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥﴾[1] »[2].

وقوله: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾: قال ابن كثير: «أي: هذا الذي ذكرناه

(١) الواقعة: الآية (٢٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٥-٤٧).

جازاهم اللَّه به وأعطاهموه، بفضله ومنّه وإحسانه ورحمته؛ ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي: كافيًا وافرًا شاملًا كثيرًا؛ تقول العرب: أعطاني فأحسبني، أي: كفاني. ومنه: حسبي اللَّه، أي: اللَّه كافيّ»[1].

قال عطية محمد سالم: «في حق الكفار قال: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾[2]، وفي حق المؤمنين، قال: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾.

ففي الأول بيان أن مجازاتهم وفق أعمالهم، ولا يظلم ربك أحدًا.

وفي الثاني بيان بأن هذا النعيم عطاء من اللَّه وتفضل عليهم به من الأصل، وهو المفاز المفسر في قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[3]»[4].

وقوله: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧﴾: قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن عظمته وجلاله، وأنه رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء.

وقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، أي: لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[5]، وكقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[6]»[7].

قال شيخ الإسلام: «وقد ذكروا في الآية قولين:

أحدهما: أنه الشفاعة أيضًا، كما قال ابن السائب: لا يملكون شفاعة إلا بإذنه.

والثاني: لا يقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلا بإذنه. قال مقاتل: كذلك قال مجاهد: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، قال: كلامًا. هذا من تفسيره الثابت عنه، وهو من أعلم -أو أعلم- التابعين بالتفسير.

قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد، فحسبك به. وقال: عرضت المصحف على ابن عباس؛ أقفه عند كل آية وأسأله عنها. وعليه اعتمد الشافعي وأحمد والبخاري في صحيحه. وهذا يتناول الشفاعة أيضًا.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٣٢).
(٢) النبأ: الآية (٢٦).
(٣) آل عمران: الآية (١٨٥).
(٤) تتمة أضواء البيان (٩/ ١٥).
(٥) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٦) هود: الآية (١٠٥).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٣٣).

وفي قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ لم يذكر استثناءً؛ فإن أحدًا لا يملك من اللَّه خطابًا مطلقًا؛ إذ المخلوق لا يملك شيئًا يشارك فيه الخالق، كما قد ذكرناه في قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾[١] أن هذا عام مطلق؛ فإن أحدًا -ممن يدعى من دونه- لا يملك الشفاعة بحال، ولكن اللَّه إذا أذن لهم شفعوا من غير أن يكون ذلك مملوكًا لهم. وكذلك قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ هذا قول السلف وجمهور المفسرين.

وقال بعضهم: هؤلاء هم الكفار، لا يملكون مخاطبة اللَّه في ذلك اليوم. قال ابن عطية: قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ الضمير للكفار، أي: لا يملكون -من إفضاله وإكماله- أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها. وهذا مبتدع، وهو خطأ محض.

والصحيح قول الجمهور والسلف: إن هذا عام، كما قال في آية أخرى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[٢] »[٣].

قال الرازي: «الضمير في قوله: ﴿يَمْلِكُونَ﴾ إلى من يرجع؟ فيه ثلاثة أقوال:

الأول: نقل عطاء عن ابن عباس: إنه راجع إلى المشركين، يريد: لا يخاطب المشركون. أما المؤمنون فيشفعون، يقبل اللَّه ذلك منهم.

والثاني: قال القاضي: إنه راجع إلى المؤمنين، والمعنى أن المؤمنين لا يملكون أن يخاطبوا اللَّه في أمر من الأمور؛ لأنه لما ثبت أنه عدل لا يجور، ثبت أن العقاب الذي أوصله إلى الكفار عدل، وأن الثواب الذي أوصله المؤمنين عدل، وأنه ما يخسر حقهم، فبأي سبب يخاطبونه؟ وهذا القول أقرب من الأول؛ لأن الذي جرى قبل هذه الآية ذكر المؤمنين، لا ذكر الكفار.

والثالث: أنه ضمير لأهل السموات والأرض؛ وهذا هو الصواب؛ فإن أحدًا من المخلوقين لا يملك مخاطبة اللَّه ومكالمته. وأما الشفاعات الواقعة بإذنه فغير واردة على هذا الكلام؛ لأنه نفى الملك، والذي يحصل بفضله وإحسانه فهو غير مملوك، فثبت أن هذا السؤال غير لازم»[٤].

---

(١) الزخرف: الآية (٨٦).

(٢) طه: الآية (١٠٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٩٦-٣٩٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٣١/٢٣-٢٤).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا ما هو على أقوال: أحدها: ما رواه العوفي عن ابن عباس: أنهم أرواح بني آدم، الثاني: هم بنو آدم، قاله الحسن وقتادة، وقال قتادة: هذا مما كان ابن عباس يكتمه، الثالث: أنهم خلق من خلق اللَّه على صور بني آدم وليسوا بملائكة ولا ببشر وهم يأكلون ويشربون، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو صالح والأعمش، الرابع: هو جبريل، قاله الشعبي وسعيد بن جبير والضحاك، ويستشهد لهذا القول بقوله ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[١]، وقال مقاتل بن حيان: الروح: أشرف الملائكة وأقرب إلى اللَّه ﷻ وصاحب الوحي، الخامس: أنه القرآن، قاله ابن زيد، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾[٢] الآية، والسادس: أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ قال: هو مَلَك عظيم من أعظم الملائكة خلقًا»[٣].

وتوقف ابن جرير فلم يقطع بواحد من هذه الأقوال كلها، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والصواب من القول أن يقال: إن اللَّه -تعالى ذكره- أخبر أن خلقه لا يملكون منه خطابًا، يوم يقوم الروح، والروح خلق من خلقه. وجائز أن يكون بعض هذه الأشياء التي ذكرت، واللَّه أعلم أي ذلك هو؟ ولا خبر بشيء من ذلك أنه المعني به دون غيره يجب التسليم به، ولا حجة تدل عليه، وغير ضائر الجهل به»[٤].

---

(١) الشعراء: الآيتان (١٩٣و١٩٤).
(٢) الشورى: الآية (٥٢).
(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٣٣-٣٣٤).
(٤) جامع البيان (٣٠/ ٢٣).

قال ابن كثير: «والأشبه -والله أعلم- أنهم بنو آدم»[١].

قلت: وقد رجح كثير من أهل العلم القول الرابع وهو أن المراد بالروح هو جبريل ﵇. قال القرطبي: «والروح هنا جبريل ﵇ كما قال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[٢] وخصه بالذكر وإن كان من الملائكة تشريفًا وتخصيصًا، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[٣] فخصهما بالذكر تشريفًا لهما»[٤].

قال الرازي: «وهذا القول هو المختار عند القاضي، قال: لأن القرآن دل على أن هذا الاسم اسم جبريل ﵇، وثبت أن القيام صحيح من جبريل والكلام صحيح منه، ويصح أن يؤذن له فكيف يصرف هذا الاسم عنه إلى خلق لا نعرفه»[٥].

وقوله: ﴿صَفًّا﴾: **يقول أبو السعود**: «و﴿صَفًّا﴾ حال، أي: مصطفّين، قيل: هما صفان: الروح صف واحد أو متعدد، والملائكة صف. وقيل: صفوف، وهو الأوفق لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[٦]»[٧].

وقال أيضًا: «وذكر قيامهم واصطفافهم لتحقيق عظمة سلطانه، وكبرياء ربوبيته، وتهويل يوم البعث الذي عليه مدار الكلام من مطلع السورة الكريمة»[٨].

قال الرازي: «الآية دلت على أن الروح والملائكة لا يتكلمون إلا عند حصول شرطين: أحدهما: حصول الإذن من الله تعالى، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[٩]، والمعنى أنهم لا يتكلمون إلا بإذن الله.

والشرط الثاني: أن يقول صوابًا.

فإن قيل: لما أذن له الرحمن في ذلك القول، علم أن ذلك القول صواب لا محالة، فما الفائدة في قوله: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾؟ والجواب من وجهين: الأول: أن الرحمن أذن له في مطلق القول، ثم إنهم عند حصول ذلك الإذن لا يتكلمون إلا بالصواب، فكأنه قيل: إنهم لا ينطلقون إلا بعد ورود الإذن في الكلام، ثم بعد

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٣٤).
(٢) الشعراء: الآيتان (١٩٣و١٩٤).
(٣) البقرة: الآية (٩٨).
(٤) المفهم (٢/ ٩١).
(٥) مفاتيح الغيب (٣١/ ٢٥).
(٦) الفجر: الآية (٢٢).
(٧) إرشاد العقل السليم (٩/ ٩٣).
(٨) المصدر السابق (٩/ ٩٣-٩٤).
(٩) البقرة: الآية (٢٥٥).

ورود ذلك الإذن يجتهدون، ولا يتكلمون إلا بالكلام الذي يعلمون أنه صدق وصواب، وهذا مبالغة في وصفهم بالطاعة والعبودية.

الوجه الثاني: أن تقديره: لا يتكلمون إلا في حق ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾، والمعنى: لا يشفعون إلا في حق شخص أذن له الرحمن في شفاعته، وذلك الشخص كان ممن قال صوابًا.

واحتج صاحب هذا التأويل بهذه الآية على أنهم يشفعون للمذنبين لأنهم قالوا صوابًا وهو شهادة أن لا إله إلا الله؛ لأن قوله: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ يكفي في صدقه أن يكون قد قال صوابًا واحدًا، فكيف بالشخص الذي قال القول الذي هو أصوب الأقوال وتكلم بالكلام الذي هو أشرف الكلمات»[1].

قال ابن جرير: «إن اللَّه -تعالى ذكره- أخبر عن خلقه أنهم لا يتكلمون يوم يقوم الروح والملائكة صفًّا، إلا من أذن له منهم في الكلام الرحمن، وقال صوابًا، فالواجب أن يقال كما أخبر إذ لم يخبرنا في كتابه ولا على لسان رسوله أنه عنى بذلك نوعًا من أنواع الصواب، والظاهر محتمل جميعه»[2].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾: **قال عطية سالم**: «هو يوم القيامة لاسم الإشارة، وقد أشير إليه بالاسم الخاص بالبعيد ذلك بدلًا من هذا، مع قرب التكلم عنه، ولكن إما لبعده زمانيًا عن زمن التحدث عنه، وإما لبعد منزلته وعظم شأنه، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾[3]، وفي هذا عود على بدء في أول السورة، وهو إذا كانوا يتساءلون مستغربين أو منكرين ليوم القيامة، فإنهم سيعلمون حقًّا، وهاهو اليوم الحق لا لبس فيه ولا شك ليرونه عين اليقين»[4].

قال ابن عاشور: «فوصف اليوم بالحق يجوز أن يراد به الثابت الواقع كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝﴾[5]، وقوله آنفًا: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝﴾[6]، فيكون (الحق) بمعنى الثابت، مثل ما في قوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾[7].

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٢٥).
(٢) جامع البيان (٣٠/ ٢٤).
(٣) البقرة: الآيتان (١و٢).
(٤) تتمة أضواء البيان (٩/ ١٧).
(٥) الذاريات: الآية (٦).
(٦) النبأ: الآية (١٧).
(٧) الأنبياء: الآية (٩٧).

ويجوز أن يراد بالحق ما قابل الباطل، أي: العدلُ وفصلُ القضاء. . قال تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾(١).

ويجوز أن يكون (الحق) بمعنى الحقيق بمسمى اليوم؛ لأنه شاع إطلاق اسم (اليوم) على اليوم الذي يكون فيه نصر قبيلة على أخرى، مثل: يوم حليمة، ويوم بُعَاث. والمعنى: ذلك اليوم الذي يحق له أن يقال: يوم، وليس كأيام انتصار الناس بعضهم على بعض في الدنيا فيكون كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾(٢)، فهو يوم انتقام اللّه من أعدائه الذين كفروا نعمته، وأشركوا به عبيده في الإلهية، ويكون وصف الحق بمثل المعنى الذي في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾(٣)، أي: التلاوة الحقيقة باسم (التلاوة)، وهي التلاوة بفهم معاني المتلوّ وأغراضه.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى اليوم المتقدم في قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾. ومفاد اسم الإشارة في مثل هذا المقام: التنبيه على أن المشار إليه حقيق بما سيوصف به؛ بسبب ما سبق من حكاية شؤونه، كما في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾(٤) بعد قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ إلى قوله: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾(٥)، فلأجل جميع ما وصف به (يوم الفصل) كان حقيقًا بأن يوصف بأنه (اليوم الحق) وما تفرع عن ذلك من قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾.

وتعريف (اليوم) باللام للدلالة على معنى الكمال، أي: هو الأعظم من بين ما يعده الناس من أيام النصر للمنتصرين؛ لأنه يوم يجمع فيه الناس كلهم، ويعطى كل واحد منهم ما هو أهله من خير أو شر، فكأنّ ما عداه من الأيام المشهورة في تاريخ البشر غير ثابت الوقوع.

وفرّع عليه ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ بفاء الفصيحة لإفصاحها عن شرط مقدر ناشئ عن الكلام السابق. والتقدير: فإذا علمتم ذلك كله، فمن شاء اتخاذ مآب عند ربه فليتخذه، أي: فقد بان لكم ما في ذلك اليوم من خير وشر، فليختر صاحب المشيئة ما يليق به للمصير في ذلك اليوم. والتقدير: مآبًا فيه، أي: في اليوم.

---

(١) الممتحنة: الآية (٣).
(٢) التغابن: الآية (٩).
(٣) البقرة: الآية (١٢١).
(٤) البقرة: الآية (٥).
(٥) البقرة: الآيات (٢-٤).

وهذا التفريع من أبدع الموعظة بالترغيب والترهيب عند ما تسنح الفرصة للواعظ من تهيّؤ النفوس لقبول الموعظة»[١].

قال عطية سالم: «ولكن المقام ليس مقام تخيير، وإنما هو بمثابة قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾[٢] الآية. فهو إلى التهديد أقرب، كما أن فيه اعتبار مشيئة العبد فيما يسلك، والله تعالى أعلم. ويدل على التهديد ما جاء بعده»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان المعنى الصحيح للروح

* عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبّوح قُدّوس رب الملائكة والروح**»[٤].

★ غريب الحديث:

سُبّوح قُدّوس: قال القاضي عياض: «بضم السين والقاف فيهما وفتحهما أيضًا، فـ(سُبّوح) من البراءة من النقائص والشريك وما لا يليق بالإلهية والتنزيه عن ذلك، و(قُدّوس) من التطهير عما لا يليق به، ومنه الأرض المقدسة، وهو بمعنى (سبوح»)[٥].

قال المناوي: «والفرق بين التسبيح والتقديس: أن التسبيح للأسماء، والتقديس للآلاء، وكلاهما يؤدي إلى العظمة»[٦].

★ فوائد الحديث:

قوله: «**رب الملائكة والروح**»: اختلف العلماء في الروح هنا من هو، نظير اختلافهم فيه في الآية، وقد مر الخلاف في ذلك في فوائد الآية، وبيان الراجح من الأقوال فيه وأنه جبريل، وعطفه على الملائكة من عطف الخاص على العام[٧].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٣-٥٤).
(٢) الكهف: الآية (٢٩).
(٣) تتمة أضواء البيان (٩/ ١٧).
(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٥)، ومسلم (١/ ٣٥٣/ ٤٨٧)، وأبو داود (١/ ٥٤٣/ ٨٧٢)، والنسائي (٢/ ٥٣٥/ ١٠٤٧)، وفي الكبرى (١/ ٢١٩/ ٦٣٦).
(٥) الإكمال (٢/ ٤٠٢).
(٦) الفيض (٤/ ٣٥٥).
(٧) أفاده المناوي في فيض القدير (٢/ ٨٢).

قال الطيبي: «قال التوربشتي: إنا إذا اعتبرنا النظائر من التنزيل كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾[1] فالمراد به جبريل عليه السلام، خص بالذكر تفضيلًا له على سائر الملائكة»[2].

* * *

(١) القدر: الآية (٤).

(٢) شرح الطيبي (٣/ ١٠١٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «يخاطب كفار قريش ومشركي العرب؛ لأنهم قالوا: لا نُبعَث. والعذاب عذاب الآخرة، وكل ما هو آت فهو قريب، وقد قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾[1]، قال معناه الكلبي وغيره. وقال قتادة: عقوبة الدنيا؛ لأنها أقرب العذابين. قال مقاتل: هي قتل قريش ببدر. والأظهر أنه عذاب الآخرة، وهو الموت والقيامة؛ لأن من مات فقد قامت قيامته، فإن كان من أهل الجنة رأى مقعده من الجنة، وإن كان من أهل النار رأى الخزي والهوان»[2].

وفي هذه الآية تحذير شديد وحث أكيد على السعي الحثيث لفعل الخير وطلب النجاة في اليوم الحق، نسأل الله السلامة والعافية.[3]

وقوله: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾: قال ابن كثير: «أي: يعرض عليه جميع أعماله خيرها وشرها، قديمها وحديثها؛ كقوله: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾[4]، وكقوله: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾[5]»[6].

قال الرازي: «وفي الآية ثلاثة أقوال: الأول -وهو الأظهر-: أن (المرء) عام في كل أحد؛ لأن المكلف إن كان قدم عمل المتقين، فليس له إلا الثواب العظيم، وإن كان قدم عمل الكافرين، فليس له إلا العقاب الذي وصفه الله تعالى، فلا رجاء لمن ورد القيامة من المكلفين في أمر سوى هذين، فهذا هو المراد بقوله: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾، فطوبى له إن قدم عمل الأبرار، وويل له إن قدم عمل الفجار.

والقول الثاني -وهو قول عطاء-: إن المرء ههنا هو الكافر؛ لأن المؤمن كما

---

(١) النازعات: الآية (٤٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٢٣).

(٣) تتمة أضواء البيان (٩/ ١٨).

(٤) الكهف: الآية (٤٩).

(٥) القيامة: الآية (١٣).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٣٤).

ينظر إلى ما قدمت يداه، فكذلك ينظر إلى عفو اللَّه ورحمته، وأما الكافر الذي لا يرى إلا العذاب، فهو لا يرى إلا ما قدمت يداه؛ لأن ما وصل إليه من العقاب ليس إلا من شؤم معاملته.

والقول الثالث -وهو قول الحسن وقتادة-: إن المرء ههنا هو المؤمن، واحتجوا عليه بوجهين: الأول: أنه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾، فلما كان هذا بيانًا لحال الكافر، وجب أن يكون الأول بيانًا لحال المؤمن. والثاني: وهو أن المؤمن لما قدم الخير والشر فهو من اللَّه تعالى على خوف ورجاء، فينتظر كيف يحدث الحال، أما الكافر فإنه قاطع بالعقاب، فلا يكون له انتظار أنه كيف يحدث الأمر، فإن مع القطع لا يحصل الانتظار»[١].

قال الألوسي: «والظاهر أن (المرء) عام للمؤمن والكافر»[٢].

وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾: **يقول ابن كثير**: «أي: يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا ترابًا، ولم يكن خلق، ولا خرج إلى الوجود. وذلك حين عاين عذاب اللَّه، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيدي الملائكة السفرة الكرام البررة، وقيل: إنما يود ذلك حين يحكم اللَّه بين الحيوانات التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور، حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء. فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كوني ترابًا، فتصير ترابًا. فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ أي: كنت حيوانًا فأرجع إلى التراب»[٣].

قلت: ويؤيد هذا القول ويرجّحه ما رواه الحاكم عن أبي هريرة قال: «**يحشر الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطير وكل شيء، فيبلغ من عدل اللَّه أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني ترابًا، فذلك يقول الكافر: يا ليتني كنتُ ترابًا**»[٤].

قال ابن عاشور: «وذكر وصف الكافر يفهم منه أن المؤمن ليس كذلك؛ لأن المؤمن وإن عمل بعض السيئات وتوقع العقاب على سيئاته، فهو يرجو أن تكون

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٢٦-٢٧). (٢) روح المعاني (٣٠/ ٢٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٣٤).

(٤) أخرجه: ابن جرير (١١/ ٣٤٧/ ١٣٢٢٢)، والحاكم (٢/ ٣١٦) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

عاقبته إلى النعيم، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾[١]، وقال: ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ۞ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۞﴾[٢]، فالمؤمنون يرون ثواب الإيمان وهو أعظم ثواب، وثواب حسناتهم على تفاوتهم فيها، ويرجون المصير إلى ذلك الثواب، وما يرونه من سيئاتهم لا يطغى على ثواب حسناتهم، فهم كلهم يرجون المصير إلى النعيم، وقد ضرب اللَّه لهم أو لمن يقاربهم مثلًا بقوله: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾[٣] على ما في تفسيرها من وجوه.

وهذه الآية جامعة لما جاء في السورة من أحوال الفريقين، وفي آخرها رد العجز على الصدر من ذكر أحوال الكافرين الذين عُرِّفوا بالطاغين، وبذلك كان ختام السورة بها براعة مقطع»[٤].

* * *

(١) آل عمران: الآية (٣٠).

(٢) الزلزلة: الآيات (٦-٨).

(٣) الأعراف: الآية (٤٦).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/٥٨).



سورة النازعات

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «اشتملت على إثبات البعث والجزاء، وإبطال إحالة المشركين وقوعه، وتهويل يومه وما يعتري الناس حينئذ من الوهل، وإبطال قول المشركين بتعذر الإحياء بعد انعدام الأجساد.

وعرّض بأن نكرانهم إياه منبعث عن طغيانهم، فكان الطغيان صادًّا لهم عن الإصغاء إلى الإنذار بالجزاء، فأصبحوا آمنين في أنفسهم، غير مترقبين حياة بعد هذه الحياة الدنيا بأن جعل مثل طغيانهم كطغيان فرعون وإعراضه عن دعوة موسى ﷺ، وأن لهم في ذلك عبرة وتسلية لرسول اللَّه ﷺ.

وانعطف الكلام إلى الاستدلال على إمكان البعث بأنّ خلق العوالم وتدبير نظامه أعظم من إعادة الخلق.

وأدمج في ذلك إلفات إلى ما في خلق السموات والأرض من دلائل على عظيم قدرة اللَّه تعالى.

وأدمج فيه امتنان في خلق هذا العالم من فوائد يجتنونها، وأنه إذا حل عالم الآخرة وانقرض عالم الدنيا جاء الجزاء على الأعمال بالعقاب والثواب.

وكشف عن شبهتهم في إحالة البعث باستبطائهم إياه وجعلهم ذلك أمارة على انتفائه، فلذلك يسألون الرسول ﷺ عن تعيين وقت الساعة سؤال تعنت، وأن شأن الرسول أن يذكرهم بها، وليس شأنه تعيين إبانها، وأنها يوشك أن تحل فيعلمونها عيانًا، وكأنهم مع طول الزمن لم يلبثوا إلا جزءًا من النهار»[1].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩-٦٠).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

النازعات: نَزَعَ الشيءَ: جذبه من مقرّه، كنزع القوس عن كبده. ويستعمَل ذلك في الأعراض، ومنه: نزع العداوة والمحبة من القلب. والنازعات هنا: قيل: الملائكة التي تنزع أرواح الكفار.

غرقًا: أي: نزعًا بالغًا الغاية في الشدة والعسر. وأصل الغرق: الرسوب في الماء وفي البلاء.

الناشطات: أي: الملائكة التي تنزع أرواح المؤمنين. وأصل النشط: هو العقد الذي يسهل حله؛ تنبيهًا على سهولة الأمر عليهم.

نشطًا: أي: نزعًا رفيقًا يسيرًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الحافظ ابن كثير: «قال ابن مسعود وابن عباس ومسروق وسعيد بن جبير وأبو صالح وأبو الضحى والسدي: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾﴾: الملائكة، يعنون حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعنف فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة، وكأنما حلته من نشاط، وهو قوله: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾﴾، قاله ابن عباس.

وعن ابن عباس: ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾: هي أنفس الكفار، تُنزع ثم تُنشط، ثم تغرق في النار. رواه ابن أبي حاتم. وقال مجاهد: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾﴾: الموت. وقال الحسن وقتادة: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾﴾: هي النجوم. وقال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾، ﴿وَالنَّاشِطَاتِ﴾: هي القسيّ في القتال. والصحيح الأول، وعليه الأكثرون»[1].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٣٥).

بينما ابن جرير في تفسيره ذهب إلى القول بعموم ما قيل في تفسير (النازعات) و(الناشطات). ففي (النازعات) قال: «والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن اللَّه -تعالى ذكره- أقسم بـ(النازعات غرقًا)، ولم يخصص نازعة دون نازعة، فكل نازعة غرقًا فداخلة في قسمه ملكًا كان أو موتًا أو نجمًا أو قوسًا أو غير ذلك»[١].

وفي (الناشطات) قال: «والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن اللَّه -جل ثناؤه- أقسم بـ(الناشطات نشطًا)، وهي التي تنشط من موضع إلى موضع فتذهب إليه، ولم يخصص اللَّه بذلك شيئًا دون شيء، بل عم القسم بجميع الناشطات، والملائكة تنشط من موضع إلى موضع، وكذلك الموت، وكذلك النجوم وبإجازة وبقر الوحش أيضًا تنشط».

ثم قال: «فكل ناشط فداخل فيما أقسم به إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها بأن المعنى بالقسم من ذلك بعض دون بعض»[٢].

قال ابن القيم: «فأقسم سبحانه بالملائكة الفاعلة لهذه الأفعال أن ذلك من أعظم آياته، وحذف مفعول النزع والنشط؛ لأنه لو ذكر ما تنزع وتنشط لأوهم التقييد به، وأن القسم على نفس الأفعال الصادرة من هؤلاء الفاعلين، فلم يتعلق الغرض بذكر المفعول، كقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝﴾[٣] ونظائره، فكان نفس النزع هو المقصود لا عين المنزوع، وأكثر المفسرين على أنها الملائكة التي تنزع أرواح بني آدم من أجسامهم وهم جماعة كقوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[٤] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾[٥]، وأما قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾[٦]، فإما أن يكون واحدًا وله أعوان، وإما أن يكون المراد الجنس لا الوحدة، كقوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾[٧]، وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[٨].

والنزع هو اجتذاب الشيء بقوة، والإغراق في النزع: هو أن يجتذبه إلى آخره، ومنه إغراق النزع في جذب القوة بأن يبلغ بها غاية المد فيقال: أغرق في النزع، ثم

(١) جامع البيان (٣٠/ ٢٨).
(٢) المصدر السابق (٣٠/ ٢٩).
(٣) الليل: الآية (٥).
(٤) الأنعام: الآية (٦١).
(٥) النساء: الآية (٩٧).
(٦) السجدة: الآية (١١).
(٧) التحريم: الآية (١٢).
(٨) إبراهيم: الآية (٣٤).

صار مثلًا لكل من بالغ في فعل حتى وصل إلى آخره، والغرق اسم مصدر أقيم مقامه كالعطاء والكلام أقيم مقامه الإعطاء والتكلم.

واختلف الناس هل (النازعات) متعدٍّ أو لازم، فعلى القول الذي حكيناه يكون متعديًا، وهذا قول علي ومسروق ومقاتل وأبي صالح وعطية عن ابن عباس، وقال ابن مسعود: «هي أنفس الكفار» وهو قول قتادة والسدي وعطاء عن ابن عباس، وعلى هذا فهو فعل لازم، و(غرقًا) على هذا معناه: نزعًا شديدًا أبلغ ما يكون وأشده، وفي هذا القول ضعف من وجوه: أحدها: أن عطف ما بعده عليه يدل على أنها الملائكة فهي السابحات والمدبرات والنازعات، الثاني: أن الإقسام بنفوس الكفار خاصة ليس بالبين ولا في اللفظ ما يدل عليه، الثالث: أن النزع مشترك بين نفوس بني آدم، والإغراق لا يختص بالكافر، وقال الحسن: النازعات هي النجوم تنزع من المشرق إلى المغرب، وغرقًا هو غروبها، قال: تنزع من ههنا وتغرق ههنا، واختاره الأخفش وأبو عبيد، وقال مجاهد: هي شدائد الموت وأهواله التي تنزع الأرواح نزعًا شديدًا، وقال عطاء وعكرمة: هي القسي، والنازعات على هذا القول بمعنى النسب أو ذوات النزع التي ينزع بها الرامي، فهو النازع، قلت: النازعات اسم فاعل من نزع، ويقال: نزع كذا: إذا اجتذبه بقوة، ونزع عنه: إذا خلاه وتركه بعد ملابسته له، ونزع إليه: إذا ذهب إليه ومال إليه، وهذا إنما توصف به النفوس التي لها حركة إرادية للميل إلى الشيء أو الميل عنه، وأحق ما صدق عليه هذا الوصف الملائكة؛ لأن هذه القوة فيها أكمل، وموضع الآية فيها أعظم؛ فهي التي تغرق في النزع إذا طلبت ما تنزعه أو تنزع إليه، والنفس الإنسانية أيضًا لها هذه القوة، والنجوم أيضًا تنزع من أفق إلى أفق، فالنزع حركة شديدة سواء كانت من ملك أو نفس إنسانية أو نجم، والنفوس تنزع إلى أوطانها وإلى مألفها، وعند الموت تنزع إلى ربها والمنايا تنزع النفوس، والقسي تنزع بالسهام، والملائكة تنزع من مكان إلى مكان، وتنزع ما وكلت بنزعه، والخيل تنزع في أعنتها نزعًا تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها، فالصفة واقعة على كل من له هذه الحركة التي هي آية من آيات الرب تعالى؛ فإنه هو الذي خلقها، وخلق محلها، وخلق القوة والنفس التي بها تتحرك، ومن ذكر صورة من هذه الصور فإنما أراد التمثيل، وإن كانت الملائكة أحق من تناوله هذا الوصف، فأقسم بطوائف الملائكة وأصنافهم، فهم النازعات

التي تنزع الأرواح من الأجساد، والناشطات التي تنشطها، أي: تخرجها بسرعة وخفة، من قولهم: نشط الدلو من البئر: إذا أخرجها، وأنا أنشط بكذا، أي: أخف له وأسرع.. وهذا أولى الأقوال.

وقد روي عن ابن عباس أن (النازعات): الملائكة تنزع نفوس الكفار بشدة وعنف، و(الناشطات): الملائكة التي تنشط أرواح المؤمنين بيسر وسهولة، واختار الفراء هذا القول فقال: هي الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها، وتنزع نفس الكافر، قال الواحدي: إنما أختار ذلك لما بين النشط والنزع من الفرق في الشدة واللين؛ فالنزع الجذب بشدة، والنشط الجذب برفق ولين، و(الناشطات) هي النفوس التي تنشط لما أمرت به، والملائكة أحق الخلق بذلك، ونفوس المؤمنين ناشطة لما أمرت به»[1].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ قال: «الموت»[2].

* * *

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٨٤-٨٦).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٥١٣) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «اختلف في ﴿وَالسَّٰبِحَٰتِ﴾ في الآية، فقال قتادة والحسن: هي النجوم؛ لأنها تسبح في فلك، وقال مجاهد وعلي ﵁: هي الملائكة؛ لأنها تتصرف في الآفاق بأمر اللَّه تجيء وتذهب، وقال أبو روق: ﴿وَالسَّٰبِحَٰتِ﴾: الشمس والقمر والليل والنهار، وقال بعض المتأولين: ﴿وَالسَّٰبِحَٰتِ﴾: السموات؛ لأنها كالعائمة في الهواء، وقال عطاء وجماعة: (السابحات): الخيل، ويقال للفرس: سابح، وقال آخرون: ﴿وَالسَّٰبِحَٰتِ﴾: الحيتان، دواب البحر فما دونها وذلك من عظيم المخلوقات. .

وقال عطاء أيضًا: ﴿وَالسَّٰبِحَٰتِ﴾: السفن، وقال مجاهد أيضًا: ﴿وَالسَّٰبِحَٰتِ﴾: المنايا تسبح في نفوس الحيوان»[١].

قال ابن جرير: «والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن اللَّه -جل ثناؤه- أقسم بالسابحات سبحًا من خلقه، ولم يخصص من ذلك بعضًا دون بعض، [فشمل][٢] ذلك كل سابح»[٣].

قال ابن القيم ﵀: «والصحيح أنها الملائكة، والسياق يدل عليه، وأما السفن والنجوم فإنما تسمى جارية وجواري كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾[٤] وقال: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾[٥] وقال: ﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾[٦]، ولم يسمها سابحات. وإن أطلق عليها فعل السباحة، كقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٧]، ويدل عليه ذكره السابقات بعدها والمدبرات بـ(الفاء)، وذكره الثلاثة

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٤٣١).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) جامع البيان (٣٠/ ٣٠).

(٤) الشورى: الآية (٣٢).

(٥) الحاقة: الآية (١١).

(٦) التكوير: الآية (١٦).

(٧) يس: الآية (٤٠).

الأول بـ(الواو)؛ لأن السبق والتدبير مسبب عن المذكور قبله؛ فإنها نزعت ونشطت وسبحت فسبقت إلى ما أمرت به فدبرته. ولو كانت السابحات هي السفن أو النجوم أو النفوس الآدمية لما عطف عليها فعل السبق والتدبير بـ(الفاء)، فتأمله»[1].

قوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾: **قال ابن القيم**: «قال مسروق ومقاتل والكلبي: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾ هي الملائكة، قال مجاهد وأبو روق: سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح والإيمان والتصديق. قال مقاتل: تسبق بأرواح المؤمنين الجنة. وقال الفراء والزجاج: هي الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء إذا كانت الشياطين تسترق السمع. وهذا القول خطأ لا يخفى فساده؛ إذ يقتضي الاشتراك بين الملائكة والشياطين في إلقائهم الوحي، وأن الملائكة تسبقهم به إلى الأنبياء. وهذا ليس بصحيح؛ فإن الوحي الذي تأتي به الملائكة إلى الأنبياء لا تسترقه الشياطين، وهم معزولون عن سماعه وإن استرقوا بعض ما يسمعونه من ملائكة السماء الدنيا من أمور الحوادث، فاللَّه سبحانه صان وحيه إلى الأنبياء أن تسترق الشياطين شيئًا منه، وعزلهم عن سمعه. ولو أن قائل هذا القول فسر (السابقات) بالملائكة التي تسبق الشياطين بالرجم بالشهب قبل إلقاء الكلمة التي استرقها لكان له وجه؛ فإن الشيطان يبدو مسرعًا بإلقائه إلى وليه، فتسبقه الملائكة في نزوله بالشهب الثواقب فتهلكه، وربما ألقى الكلمة قبل إدراك الشهاب له. وفسرت (السابقات سبقًا) بالأنفس السابقات إلى طاعة اللَّه ومرضاته»[2].

قال الرازي: «ويحتمل أن يكون المراد أنه تعالى وصفهم فقال: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾[3]، يعني: قبل الإذن لا يتحركون ولا ينطقون تعظيمًا لجلال اللَّه تعالى، وخوفًا من هيبته. وههنا وصفهم بالسبق، يعني: إذا جاءهم الأمر فإنهم يتسارعون إلى امتثاله، ويتبادرون إلى إظهار طاعته، فهذا هو المراد من قوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾»[4].

وقوله: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾: **قال ابن عطية**: «وأما (المدبرات) فلا أحفظ

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٨٦).

(٢) المصدر السابق (ص: ٨٦-٨٧).

(٣) الأنبياء: الآية (٢٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ٢٩).

خلافًا أنها الملائكة. ومعناها: أنها تدبر الأمور التي سخّرها اللَّه تعالى وصرّفها فيها، كالرياح والسحاب وسائر المخلوقات»[١].

قال ابن القيم: «فما في السموات والأرض وما بينهما من حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والمطر والنبات وحركات الأجنّة في بطون أمهاتها؛ فإنما هي بواسطة الملائكة المدبرات أمرًا والمقسِّمات أمرًا، كما دل عليه نصوص القرآن والسنة في غير موضع، والإيمان بذلك من تمام الإيمان بالملائكة؛ فإن اللَّه وكّل بالرحم ملائكة، وبالقَطْر ملائكة، وبالنبات ملائكة، وبالرياح ملائكة، وبالأفلاك والشمس والقمر والنجوم، ووكّل بكلّ عبد أربعة من الملائكة: كاتبَين عن يمينه وشماله، وحافِظَين من بين يديه ومن خلفه، ووكّل ملائكة بقبض روحه وتجهيزها إلى مستقرّها من الجنة والنار، ووكّل ملائكة بمساءلته وامتحانه في قبره وعذابه هناك أو نعيمه، وملائكة تسوقه إلى المحشر إذا قام من قبره، وملائكة بتعذيبه في النار أو نعيمه في الجنة، ووكّل بالجبال ملائكة، وبالسحاب ملائكة تسوقه إلى حيث أُمِرَت به، وبالقَطْر ملائكة تُنْزِله بأمر اللَّه بقدر معلوم كما شاء اللَّه، ووكّل ملائكة بغرس الجنة وعمل آلتها وفرشها وثيابها والقيام عليها، وملائكة بالنار كذلك، فأعظم جند اللَّه الملائكة، ولفظ (الملَك) يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهم يدبرون الأمر ويقسمونه بأمر اللَّه وإذنه»[٢].

وقال أيضًا: «ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتم الإيمان إلا به.

وأما من قال: إنها النجوم، فليس هذا من قول أهل الإسلام، ولم يجعل اللَّه النجوم تدبر شيئًا من الخلق، بل هي مدبرة ومسخرة. كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[٣]، فاللَّه سبحانه هو المدبر بملائكته لأمر العالم العلوي والسفلي.

قال الجرجاني: وذكر السابقات والمدبرات بـ(الفاء) وما قبلها بـ(الواو)؛ لأن ما

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٤٣١).

(٢) الداء والدواء (ص: ٣٣٩-٣٤٠)، وانظر إغاثة اللهفان (٢/ ١٧٠).

(٣) النحل: الآية (١٢).

قبلها أقسام مستأنفة، وهذان القسمان منشآن عن الذي قبلهما، كأنه قال: فاللاتي سبحن فسبقن. كما نقول: قام فذهب، أوجب (الفاء) أن القيام كان سببًا للذهاب، ولو قلت: قام وذهب، لم تجعل القيام سببًا للذهاب.

واعترض عليه الواحدي، فقال: هذا غير مطرد في هذه الآية؛ لأنه يبعد أن يجعل السبق سببًا للتدبير، مع أن السابقات ليست الملائكة في قول المفسرين.

قلت: الملائكة داخلون في (السابقات) قطعًا. وأما اختصاص السابقات بالملائكة فهذا محتمل. وأما قوله: يبعد أن يكون السبق سببًا للتدبير فليس كما زعم، بل السبق المبادرة إلى تنفيذ ما يؤمر به الملك، فهو سبب للفعل الذي أمر به، وهو التدبير، مع أن (الفاء) دالة على التعقيب، وأن التدبير يتعقب السبق بلا تراخ، بخلاف الأقسام الثلاثة، والله أعلم»[1].

وقال أيضًا: «فلم يقل أحد من الصحابة ولا التابعين ولا العلماء بالتفسير: إنها النجوم، وهذه الروايات عنهم: فقال ابن عباس: هي الملائكة، قال عطاء: وُكِّلت بأمور عرّفهم الله العمل بها..

وقال ابن قتيبة: فـ(المدبرات أمرًا): الملائكة تنزل بالحلال والحرام.

ولم يذكر المتوسّعون في نقل أقوال المفسرين كابن الجوزي والماوردي وابن عطية غير الملائكة، حتى قال ابن عطية: ولا أحفظ خلافًا أنها الملائكة. هذا مع توسعه في النقل، وزيادته فيه على أبي الفرج وغيره، حتى إنه لينفرد بأقوال لا يحكيها غيره. فتفسير (المدبّرات) بالنجوم كذب على الله وعلى المفسرين»[2].

قلت: لم يذكر الله ﷻ جوابًا لهذا القسم، ولذلك اختلف العلماء في توجيهه وتقديره. قال ابن القيم رحمه الله: «وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق، وهو البعث المستلزم لصدق الرسول وثبوت القرآن، أو أنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة والعبرة بالمقسم به دون أن يراد به مقسمًا عليه بعينه. وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه وإن لم يذكر لفظًا، ولعل هذا مراد من قال: إنه محذوف للعلم به، لكن هذا الوجه ألطف مسلكًا؛ فإن المقسم به إذا كان دالًّا على

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٨٧-٨٨).

(٢) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٨٣).

المقسم عليه مستلزمًا استغنى عن ذكره بذكره. وهذا غير كونه محذوفًا لدلالة ما بعده عليه فتأمله. ولعل هذا قول من قال: إنه إنما أقسم برب هذه الأشياء، وحذف المضاف، فإن معناه صحيح، لكن على غير الوجه الذي قدروه؛ فإن إقسامه سبحانه بهذه الأشياء لظهور دلالتها على ربوبيته، ووحدانيته، وعلمه، وقدرته، وحكمته، فالإقسام بها في الحقيقة إقسام بربوبيته وصفات كماله، فتأمله»[١].

* * *

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٨٨).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾

★ **غريب الآية:**

ترجف: أصل الرجف: الحركة والاضطراب الشديد.

الراجفة: الزلزلة العظيمة.

الرادفة: الرِّدْفُ: التابع، والترادف: التتابع، والرادف: المتأخّر، والمردِف: المتقدم الذي أردف غيره، ورَدِفَ وأردف بمعنى واحد. قال الشاعر:

إذا الجوزاءُ أردفَتِ الثريا ... ظننت بآلِ فاطمةَ الظنونا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «المشهور بين الجمهور: أن هذه الأحوال أحوال يوم القيامة، فهؤلاء ذكروا وجوهًا:

أحدها: أن الراجفة هي النفخة الأولى، وسميت به إما لأن الدنيا تتزلزل وتضطرب عندها، وإما لأن صوت تلك النفخة هي الراجفة، كما بيّنّا القول فيه، والرادفة رجفة أخرى تتبع الأولى، فتضطرب الأرض لإحياء الموتى كما اضطربت في الأولى لموت الأحياء على ما ذكره تعالى في سورة (الزمر).. وهذا مما لا حاجة إليه في الإعادة، ولله أن يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وثانيها: الراجفة هي النفخة الأولى، والرادفة هي قيام الساعة؛ من قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾[1]، أي القيامة التي يستعجلها الكفرة استبعادًا لها فهي رادفة لهم لاقترابها.

وثالثها: الراجفة الأرض والجبال من قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾[2]، والرادفة السماء والكواكب؛ لأنها تنشق وتنتثر كواكبها على أثر ذلك.

ورابعها: الراجفة هي الأرض تتحرك وتتزلزل، والرادفة: زلزلة ثانية تتبع

---

(١) النمل: الآية (٧٢). (٢) المزمل: الآية (١٤).

الأولى حتى تنقطع الأرض وتفنى.

القول الثاني: وهو قول أبي مسلم: إن هذه الأحوال ليست أحوال يوم القيامة؛ وذلك لأنا نقلنا عنه أنه فسر (النازعات) بنزع القوس، و(الناشطات) بخروج السهم، و(السابحات) بعدو الفرس، و(السابقات) بسبقها، و(المدبرات) بالأمور التي تحصل أدبار ذلك الرمي والعدو، ثم بنى على ذلك فقال: الراجفة: هي خيل المشركين، وكذلك الرادفة، ويراد بذلك طائفتان من المشركين غزوا رسول اللَّه ﷺ فسبقت إحداهما الأخرى، والقلوب الواجفة هي القلقة، والأبصار الخاشعة هي أبصار المنافقين، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾[(١)]، كأنه قيل: لما جاء خيل العدو يرجف، وردفتها أختها اضطرب قلوب المنافقين خوفًا، وخشعت أبصارهم جبنًا وضعفًا، ثم قالوا: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾[(٢)]، أي: نرجع إلى الدنيا حتى نتحمل هذا الخوف لأجلها، وقالوا أيضًا: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾[(٣)]، فأول هذا الكلام حكاية لحال من غزا رسول اللَّه ﷺ من المشركين، وأوسطه حكاية لحال المنافقين، وآخره حكاية لكلام المنافقين في إنكار الحشر، ثم إنه ﷻ أجاب عن كلامهم بقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾[(٤)]، وهذا كلام أبي مسلم، واللفظ محتمل له وإن كان على خلاف قول الجمهور»[(٥)].

قلت: وقد مرّ معنا الخلاف في تفسير الآيات السابقة، وأن الصحيح فيها أنها في الملائكة، فحمل هذه الآية على أحوال الآخرة أظهر وأشهر، وعليه أهل التأويل، ويدل عليه ويؤيده الحديث الآتي.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حث الناس على الاستعداد ليوم الفزع الأكبر

* عن أبي بن كعب قال: «كان رسول اللَّه ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: **يا أيها الناس! اذكروا اللَّه، اذكروا اللَّه، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت**

(١) محمد: الآية (٢٠).
(٢) النازعات: الآية (١٠).
(٣) النازعات: الآية (١٢).
(٤) النازعات: الآيتان (١٣و١٤).
(٥) مفاتيح الغيب (٣١/ ٣٥-٣٦).

بما فيه، جاء الموت بما فيه، قال أبي: قلت: يا رسول الله! إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: **ما شئت**، قال: قلت: الربع، قال: **ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**، قلت: النصف، قال: **ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**، قال: قلت: فالثلثين، قال: **ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**، قلت: أجعل لك صلاتي كلها، قال: **إذًا تُكفى همك، ويُغفر لك ذنبك**»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال القاري: «فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ وعبر بصيغة المضي لتحقق وقوعها، فكأنها جاءت، والمراد أنه قارب وقوعها فاستعدوا لتهويل أمرها، والراجفة هي الأجرام الساكنة التي تشتد حركتها حينئذ من الأرض والجبال، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾[2]، أو مجاز عن الواقعة التي ترجف الأجرام عندها، وهذا المعنى أنسب بالحديث في هذا المقام، وهي النفخة الأولى، ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ أي: التابعة، وهي السماء والكواكب تنشق وتنتثر، أو النفخة الثانية، وهي التي يحيى فيها الخلق، والجملة في موقع الحال أو استئناف بيان لما يقع بعد الرجفة»[3].

قال الطيبي: «وأراد بالراجفة النفخة الأولى التي يموت منها جميع الخلق، والراجفة صيحة عظيمة فيها تردد واضطراب كالرعد إذا تمخض. وأراد بالرادفة النفخة الثانية ردفت النفخة الأولى، أنذرهم ﷺ باقتراب الساعة لئلا يغفلوا عن استعدادها»[4].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٣٦)، والترمذي (٤/ ٥٤٩/ ٢٤٥٧) واللفظ له وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والحاكم (٢/ ٥١٣) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

(٢) المزمل: الآية (١٤).

(٣) المرقاة (٩/ ٢١١-٢١٢).

(٤) شرح الطيبي (١١/ ٣٣٨٦).

قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩﴾

★ **غريب الآية:**

واجفة: مضطربة قلقة خائفة؛ من وجف القلب وَجِيفًا: إذا اضطرب من شدة الفزع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قلوب خلق من خلقه يومئذ خائفة من عظيم الهول النازل»[1].

قال القرطبي: «قاله ابن عباس، وعليه عامة المفسرين. وقال السدي: زائلة عن أماكنها. نظيره: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾[2]. وقال المؤرّج: قلقة مستوفزة، مرتكضة غير ساكنة. وقال المبرد: مضطربة. والمعنى متقارب، والمراد قلوب الكفار»[3].

وذلك لأنهم «كانوا يجحدون البعث، فإنهم إذا قاموا فعلموا أن ما وعدهم الرسول ﷺ به حق، توقّعوا ما كان يحذرهم منه من عقاب إنكار البعث والشرك وغير ذلك من أحوالهم.

فأما قلوب المؤمنين فإن فيها اطمئنانًا متفاوتًا بحسب تفاوتهم في التقوى»[4].

وقوله: ﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩﴾: قال ابن جرير: «يقول: أبصار أصحابها ذليلة مما قد علاها من الكآبة والحزن من الخوف والرعب الذي قد نزل بهم من عظيم هول ذلك اليوم»[5].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾[6]. [7]

(١) جامع البيان (٣٠/ ٣٣).
(٢) غافر: الآية (١٨).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٢٨).
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٨).
(٥) جامع البيان (٣٠/ ٣٣).
(٦) القلم: الآية (٤٣).
(٧) أفاده القرطبي (١٩/ ١٢٨).

قال الرازي: «لأن المعلوم من حال المضطرب الخائف أن يكون نظره نظر خاشع ذليل خاضع يترقب ما ينزل به من الأمر العظيم»[١].

قال ابن القيم: «وهذا يدل على شدة الوصلة والارتباط بين القلب والبصر؛ ولهذا يقرأ الإنسان ما في قلب الآخر من عينه، وهذا كثير في كلام الناس نظمه ونثره، وهو أكثر من أن نذكره هنا»[٢].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٣٦).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٥٦).

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾

★ غريب الآية:

الحافرة: يقال: رجع فلان في حافرته وإليها. أي: رجع من حيث جاء، ثم عُبِّرَ به عن الرجوع إلى الحالة الأولى. والمعنى: أنحيا بعد أن نموت؟ قال الشاعر:

أَحَافِرَةٌ عَلَى صَلَعٍ وشَيْبٍ ... مَعَاذَ اللهِ من سَفَهٍ وَعَادِ

أي: أأرجع إلى حالة الصبا بعد أنْ شِبْتُ؟

نخرة: أي: بالية متفتّتة؛ يقال: نَخِرَ العظمُ، بالكسر، أي: بلِيَ وتفتّت؛ من قولهم: نخِرَتِ الشجرةُ: إذا بليت فهبّت بها نُخْرَةُ الريح، أي: هبوبها.

زجرة: الزَّجْرُ: طردٌ بصوتٍ؛ يقال: زجرتُهُ فانزجر، ثم يُستعمل في الطرد تارةً، وفي الصوت أخرى.

الساهرة: وجه الأرض. والعرب تسمي وجه الأرض من الفلاة: ساهرة، أي: ذات سهر؛ لأنه يسهر عليها خوفًا منها. قال الشاعر:

فإنما قصرك ترب الساهره ... ثم تعود بعدها في الحافره

وقيل: حقيقتها: التي يكثر الوطء بها، فكأنها سهرت بذلك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يعني مشركي قريش ومن قال بقولهم في إنكار المعاد، يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الحافرة وهي القبور، قاله مجاهد، وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها، ولهذا قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾﴾؟ وقرئ: (ناخرة). وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: أي: بالية. قال ابن عباس:

وهو العظم إذا بلي ودخلت الريح فيه، ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢﴾»[١].

قال القرطبي: «أي: رجعة خائبة، كاذبة باطلة، أي: ليست كائنة؛ قاله الحسن وغيره. الربيع بن أنس: «خاسرة» على من كذب بها. وقيل: أي هي كرة خسران. والمعنى: أهلها خاسرون؛ كما يقال: تجارة رابحة، أي: يربح صاحبها. ولا شيء أخسر من كرّة تقتضي المصير إلى النار»[٢].

قال ابن كثير: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾، أي: فإنما هو أمر من اللَّه لا مثنوية فيه ولا تأكيد، فإذا الناس قيام ينظرون، وهو أن يأمر تعالى إسرافيلَ[٣] فينفخ في الصور نفخة البعث، فإذا الأولون والآخرون قيامٌ بين يَدَي الربّ ﷻ ينظرون، كما قال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[٦]. قال مجاهد: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾: صيحة واحدة. وقال إبراهيم التيمي: أشدّ ما يكون الرب غضبًا على خلقه يوم يبعثهم. وقال الحسن البصري: زجرة من الغضب. وقال أبو مالك، والربيع بن أنس: ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾: هي النفخة الآخرة.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ قال ابن عباس: السّاهرة: الأرض كلها. وكذا قال سعيد بن جُبَير، وقتادة، وأبو صالح. وقال عكرمة، والحسن، والضحاك، وابن زيد: السّاهرة: وجه الأرض. وقال مجاهد: كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها. قال: والسّاهِرَة: المكان المستوي. وقال الثوري: السّاهرة: أرض الشام، وقال عثمان بن أبي العاتكة: السّاهرة: أرض بيت المقدس. وقال وهب بن مُنَبّه: السّاهرة: جبل إلى جانب بيت المقدس. وقال قتادة أيضًا: الساهرة: جهنم. وهذه أقوال كلها غريبة، والصحيح أنها الأرض وجهها الأعلى»[٧].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٣٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٢٩).

(٣) لم يصح في تسمية الملك الذي ينفخ في الصور حديث صحيح، فالأولى أن يتوقف الإنسان في تسميته بإسرافيل حتى يرد في ذلك ما تقوم به الحجة. والذي ورد في الآثار الصحاح تسميته بصاحب القرن.

(٤) الإسراء: الآية (٥٢).

(٥) القمر: الآية (٥٠). (٦) النحل: الآية (٧٧).

(٧) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٣٧).

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى رسوله محمدًا ﷺ عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه ابتعثه إلى فرعون، وأيّده بالمعجزات، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه، حتى أخذه اللّه أخذ عزيز مقتدر، وكذلك عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به، ولهذا قال في آخر القصة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾[١]»[٢].

فقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾﴾ **قال ابن جرير:** «يقول -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ: هل أتاك -يا محمد- حديث موسى بن عمران؟ وهل سمعت خبره حين ناجاه ربه بالواد المقدس المطهر المبارك؟.. وقد اختلف أهل التأويل في قوله: ﴿طُوًى﴾، فقال بعضهم: هو اسم الوادي.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: طَإِ الأرض حافيًا.. وقال آخرون: بل معنى ذلك أن الوادي قدس طوىً، أي: مرتين»[٣].

قلت: وقد رجح ابن كثير القول الأول فقال: «وهو اسم الوادي على الصحيح»[٤].

قوله: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾: قال الرازي: «إن سائر الآيات تدل على أنه تعالى في أول ما نادى موسى عليه السلام ذكر له أشياء كثيرة، كقوله في سورة (طه): ﴿نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ إلى قوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾[٥]، فدل ذلك على أن قوله ههنا: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ من

---

(١) النازعات: الآية (٢٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٣٨).
(٣) جامع البيان (٣٠/ ٣٨).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٣٨).
(٥) طه: الآيات (١١-٢٤).

جملة ما ناداه به ربه، لا أنه كل ما ناداه به، وأيضًا ليس الغرض أنه ﷺ كان مبعوثًا إلى فرعون فقط، بل إلى كل من كان في ذلك الطرف، إلا أنه خصه بالذكر؛ لأن دعوته جارية مجرى دعوة كل ذلك القوم.

الطغيان مجاوزة الحد، ثم إنه تعالى لم يبين أنه تعدى في أي شيء، فلهذا قال بعض المفسرين: معناه أنه تكبر على اللَّه وكفر به، وقال آخرون: إنه طغى على بني إسرائيل، والأولى عندي الجمع بين الأمرين، فالمعنى أنه طغى على الخالق بأن كفر به، وطغى على الخلق بأن تكبر عليهم واستعبدهم، وكما أن كمال العبودية ليس إلا صدق المعاملة مع الخالق ومع الخلق، فكذا كمال الطغيان ليس إلا الجمع بين سوء المعاملة مع الخالق ومع الخلق»[١].

وقوله: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾: **قال ابن جرير**: «يقول: فقل له: هل لك إلى أن تتطهر من دنس الكفر وتؤمن بربك؟»[٢].

قال الرازي: «والزكي: الطاهر من العيوب كلها؛ قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾[٣]»[٤].

قال ابن عطية: «والتزكّي: هو التطهّر من النقائص، والتلبّس بالفضائل. وفسّر بعضهم ﴿تَزَكَّىٰ﴾ بـ(تسلم)، وفسرها بقول: لا إله إلا اللَّه. وهذا تخصيص، وما ذكرناه يعمّ جميع هذا»[٥].

قال ابن القيم: «إن في قوله: ﴿هَل لَّكَ﴾ فائدة لطيفة: وهي أن المعنى: هل لك في ذلك حاجة أو أرب؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك؛ لأن الداعي إنما يدعو إلى حاجته ومصلحته، لا إلى حاجة الداعي، فكأنه يقول: الحاجة لك، وأنت المتزكي، وأنا الدليل لك والمرشد لك إلى أعظم مصالحك»[٦].

قال عطية محمد سالم: «وفي هذه السورة الكريمة بيان لمنهج الدعوة، وما ينبغي أن يكون عليه نبي اللَّه موسى مع عدو اللَّه فرعون.

وأسلوب العرض: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، ثم تقديم

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٤٠).
(٢) جامع البيان (٣٠/ ٣٩).
(٣) الكهف: الآية (٧٤).
(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ٤١).
(٥) المحرر الوجيز (٥/ ٤٣٣).
(٦) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٨٩).

الآية الكبرى، ودليل صحة دعواه مما يلزم كل داعية اليوم أن يقف هذا الموقف، حيث لا يوجد اليوم أكثر من فرعون، ولا أشد طغيانًا منه حيث ادعى الربوبية والألوهية معًا فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾(١)، وقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾(٢)، ولا يوجد اليوم أكرم على اللَّه من نبي اللَّه موسى وأخيه هارون.

ومع ذلك فيكون منهج الدعوة من أكرم خلق اللَّه إلى أكفر عباد اللَّه بهذا الأسلوب الهادئ اللين الحكيم منطلقًا من قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾(٣)، فكانا كما أمرهما اللَّه، وقالا كما علمهما اللَّه، ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴿١٩﴾﴾، وهذا المنهج هو تحقيق لقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾(٤).

وقد وضع القرآن منهجًا متكاملًا للدعوة إلى اللَّه، وفصله العلماء بما يشترط في الداعي والمدعو إليه، ومراعاة حال المدعو»(٥).

قلت: والدعوة إلى اللَّه منهج الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فهم أئمة الدعوة وساداتها وأقطابها، ومن أراد أن يكون داعية فعليه تتبع سيرهم -عليهم الصلاة والسلام-؛ فهم ولله الحمد عددهم كثير، وقد ذكر اللَّه أخبارهم مفصلة، وأثنى عليهم بما هم أهل له، وذكر مواقفهم مع أممهم، وهي مواقف عقدية محضة، باستثناء بعض المعاصي لبعض الأمم لبشاعتها وشذوذها كإتيان الذكران بعضهم لبعض كما ذكر اللَّه عن قوم لوط، وكالحيف والجور والظلم في المكيال والميزان لقوم شعيب، ورغم بشاعة هذه المعاصي وقلة حياء أصحابها؛ فإن نبي اللَّه لوطًا وشعيبًا كانت ركائز دعوتهما على المعتقد.

فدراسة شمائل نبينا محمد ﷺ وسيرته العطرة بالتفصيل لا تترك شاذة ولا فاذة للداعية إلا وقد علمها، فمواقفه ﷺ الكثيرة مع المشركين والمنافقين ومع اليهود والنصارى والمجوس وكل الأمم التي كان له ﷺ معها مواقف؛ كل ذلك يعطي للداعية النموذج والأسلوب العلمي والعملي في مواجهة المخالف، وبه يكتسب

(١) النازعات: الآية (٢٤). (٢) القصص: الآية (٣٨).
(٣) طه: الآية (٤٤). (٤) النحل: الآية (١٢٥).
(٥) تتمة أضواء البيان (٩/ ٢٨-٢٩). وانظر بدائع الفوائد (٣/ ١٣٢).

الحكمة والبصيرة التي حثّ اللَّه في القرآن أن يكون الداعية عليها، فإجمال آيات القرآن في الدعوة فصلها الرسل قبل نبينا محمد ﷺ، وكان تفصيله ﷺ هو الأكمل في ذلك، ولكن كثيرًا مما كتب في هذا الموضوع لا يُشار فيه إلى هذه الأصول المهمة في الدعوة إلى اللَّه، فنرجو اللَّه أن يوفقنا، وأن يجعلنا على منهج الأنبياء في الدعوة إليه -تبارك وتعالى-.

قال الرازي: «وهذا يدل على أنه لا بد في الدعوة إلى اللَّه من اللين والرفق وترك الغلظة؛ ولهذا قال لمحمد ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[1]، ويدل على أن الذين يخاشنون الناس ويبالغون في التعصب كأنهم على ضد ما أمر اللَّه به أنبياءه ورسله»[2].

وقوله: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾: **قال ابن كثير**: «أي: أدلّك إلى عبادة ربك فتخشى، أي: فيصير قلبك خاضعًا له مطيعًا خاشيًا بعدما كان قاسيًا خبيثًا بعيدًا من الخير»[3].

قال الرازي: «دلّت الآية على أن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[4] أي: العلماء به، ودلّت الآية على أن الخشية ملاك الخيرات؛ لأن من خشي اللَّه أتى منه كل خير، ومن أمن اجترأ على كل شر»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الخشية باعثة على العمل

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة اللَّه غالية، ألا إن سلعة اللَّه الجنة**»[6].

★ غريب الحديث:

أدلج: بسكون الدال مخففًا: سار من أول الليل.

---

(١) آل عمران: الآية (١٥٩).
(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ٤١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٣٨).
(٤) فاطر: الآية (٢٨).
(٥) مفاتيح الغيب (٣١/ ٤١).
(٦) أخرجه: الترمذي (٤/ ٥٤٦/ ٢٤٥٠) وقال: «حسن غريب»، وصححه الحاكم (٤/ ٣٠٧-٣٠٨) ووافقه الذهبي.

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «يعني: من خشي اللَّه أتى منه كل خير، ومن أمن اجترأ على كل شر، كذا في «الكشاف»، وقال في «الرياض»: المراد: التشمير في الطاعة. وفي «الترغيب»: معناه: من خاف ألزمه الخوف السلوك إلى الآخرة والمبادرة بالعمل الصالح خوف القواطع والعوائق. وقيل: هو حث على قيام الليل، جعل قيامه من علامات الخوف؛ لأن الخائف يدلج، أي: يمنعه الخوف من نوم كل الليل. والأظهر أنه ضرب مثلًا لكل من خاف الردى، أو فوت ما يتمنى أن يصل إلى السير بالسرى، ولا يركن إلى الراحة والهوى حتى يبلغ المنى»[1].

* * *

---

(١) فيض القدير (٦/ ١٢٣). وانظر الترغيب (٤/ ٢٦٢) والكشاف (٤/ ٢١٣).

قوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لَعبرةً: لَعظةً. والاعتبار والعِبرة: الحالة التي يُتوصّل بها من معرفة المشاهَد إلى ما ليس بمشاهَد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يعني: فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قوية، ودليلًا واضحًا على صحة ما جاءه به من عند الله»(١).

قال ابن جرير: «فكانت تلك الآية يد موسى إذ أخرجها بيضاء للناظرين، وعصاه إذ تحولت ثعبانًا مبينًا»(٢).

قال صديق حسن خان: «واختلف فيها ما هي؟ فقيل: العصا، وقيل: يده، وقيل: فلق البحر، وقيل: هي جميع ما جاء به من الآيات التسع، والأول أولى، ثم اليد، والأكثرون على أنه أراهما له، وأطلق عليهما الآية الكبرى لاتحادهما معنى، أو أراد بالكبرى العصا وحدها؛ لأنها كانت مقدمة على الأخرى.

ولا ينافي هذا قوله في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾(٣)، وكل آياته كبرى؛ لأن الإخبار هنا عما أراه له أول ملاقاته إياه وهو العصا واليد، ثم أردف ذلك برؤية الكل.

ولا مساغ لحمل الآية على مجموع معجزاته؛ فإن ما عدا هاتين الآيتين من الآيات التسع إنما ظهر على يده ﷺ بعدما غلب السحرة على مهل.. كما في سورة

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٣٨).
(٢) جامع البيان (٣٠/ ٣٩).
(٣) طه: الآية (٥٦).

(الأعراف)، ولا ريب في أن هذا مطلع القضية، وأمر السحرة مترقب بعده»[١].

قوله: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾: **قال ابن كثير**: «أي: فكذّب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة، وحاصله أنه كفر قلبه، فلم ينفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره، وعلمه بأن ما جاء به أنه حق لا يلزم منه أنه مؤمن به؛ لأن المعرفة علم القلب، والإيمان عمله، وهو الانقياد للحق والخضوع له»[٢].

قال الألوسي: «عصى اللَّه بالتمرد بعدما علم صحة الأمر ووجوب الطاعة أشد عصيان وأقبحه؛ حيث اجترأ على إنكار وجود رب العالمين رأسًا، وكان اللعين وقومه مأمورين بعبادته ﷻ، وترك العظمة التي يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية، لا بإرسال بني إسرائيل من الأسر والقسر فقط، وفي جعل متعلق التكذيب موسى ﵇ ومتعلق العصيان اللَّه ﷻ ما ليس في جعلهما موسى كما قيل فكذب موسى وعصاه من الذم كما لا يخفى»[٣].

قال ابن عاشور: «وأعقب فعل ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ﴾ الكفر بفعل (كذّب)؛ للدلالة على شدة عناده ومكابرته، حتى إنه لم يتردد ولم يتمهل حتى ينظر في الدلالة، بل بادر إلى التكذيب والعصيان»[٤].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾: **قال الألوسي**: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾: تولّى عن الطاعة ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي: ساعيًا مجتهدًا في إبطال أمره ﵇، ومعارضة الآية، ولأن إبطال ذلك ونقضه يقتضي زمانًا طويلًا، وجوز أن يكون الإدبار على حقيقته، أي: ثم انصرف عن المجلس ساعيًا في إبطال ذلك. وقيل: أدبر يسعى هاربًا من الثعبان»[٥].

وسعيه -عليه لعنة الله- في إبطال دعوة موسى ﵇؛ هو جمعه السحرة ليقابلوا ما جاء به موسى ﵇ من المعجزة الباهرة، كما نطقت بذلك الكثير من الآيات[٦].

وقوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾: قال الشوكاني: «أي: فجمع جنوده للقتال والمحاربة، أو جمع السحرة للمعارضة، أو جمع الناس للحضور ليشاهدوا ما يقع.. ﴿فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: قال لهم بصوت عالٍ، أو

---

(١) فتح البيان (١٥/ ٦٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٣٨).
(٣) روح المعاني (٣٠/ ٣٠).
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٧٨).
(٥) روح المعاني (٣٠/ ٣٠).
(٦) أفاده ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٣٨).

أمر من ينادي بهذا القول؛ ومعنى: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أنه لا ربّ فوقي. قال عطاء: كان صنع لهم أصنامًا صغارًا وأمرهم بعبادتها وقال: أنا رب أصنامكم، وقيل: أراد بكونه ربهم أنه قائدهم وسائدهم. والأول أولى لقوله في آية أخرى: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾[1] »[2].

قال الرازي: «واعلم أنّا بيّنّا في سورة (طه) أنه لا يجوز أن يعتقد الإنسان في نفسه كونه خالقًا للسموات والأرض والجبال والنبات والحيوان والإنسان؛ فإن العلم بفساد ذلك ضروري، فمن تشكك فيه كان مجنونًا، ولو كان مجنونًا لما جاز من اللَّه بعثة الأنبياء والرسل إليه، بل الرجل كان دهريًّا منكرًا للصانع والحشر والنشر، وكان يقول: ليس لأحد عليكم أمر ولا نهي إلا لي، فأنا ربكم، بمعنى مربيكم والمحسن إليكم، وليس للعالم إله حتى يكون له عليكم أمر ونهي، أو يبعث إليكم رسولًا، قال القاضي: وقد كان الأليق به بعد ظهور خزيه عند انقلاب العصا حية؛ أن لا يقول هذا القول؛ لأن عند ظهور الذلة والعجز، كيف يليق أن يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؟! فدلت هذه الآية على أنه في ذلك الوقت صار كالمعتوه الذي لا يدري ما يقول»[3].

قال البقاعي: «فقبحه اللَّه ولعنه ولعن من تمذهب بمذهبه كابن عربي وابن الفارض وأتباعهما حيث أنكروا الملك القهار، ورسوله المصطفى المختار، وتبعوا في وحدة الوجود بعض الفلاسفة ثم الحلاج بعد فرعون هذا الذي لم يصرح اللَّه بذم أحد ما صرح بذمه، ولم يصرح بشقاء أحد ما صرح بشقائه، كهذه الآية فإنها مصرحة بوقوع نكاله في الآخرة كما وقع في الدنيا، وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝٤١ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات البينات والدلائل الواضحات التي لا تحصى وهي كثيرة، وأعظمها القياس البديهي الإنتاج، ﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[5]، ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[6] »[7].

---

(١) القصص: الآية (٣٨).
(٢) فتح القدير (٥/ ٥٣٥-٥٣٦).
(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ٤٣).
(٤) القصص: الآيات (٤٠-٤٢).
(٥) يونس: الآية (٨٣).
(٦) غافر: الآية (٤٣).
(٧) نظم الدرر (٢١/ ٢٣٣-٢٣٤).

قال شيخ الإسلام: «إن جحود الصانع لم يكن دينًا غالبًا على أمة من الأمم قط، وإنما كان دين الكفار الخارجين عن الرسالة هو الإشراك، وإنما كان يجحد الصانع بعض الناس وأولئك كان علماؤهم من الفلاسفة الصابئة المشركين، الذين يعظمون الهياكل والكواكب والأصنام، والأخبار المروية من نقل أخبارهم وسيرهم كلها تدل على ذلك؛ ولكن فرعون موسى استخف قومه فأطاعوه، وهو الذي قال لهم دون الفراعنة المتقدمين: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[1]، ثم قال لهم بعد ذلك: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾: نكال الكلمة الأولى ونكال الكلمة الأخيرة، وكان فرعون في الباطن عارفًا بوجود الصانع، وإنما استكبر كإبليس وأنكر وجوده، ولهذا قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾[2]، فلما أنكر الصانع، وكانت له آلهة يعبدها بقي على عبادتها، ولم يصفه اللَّه تعالى بالشرك وإنما وصفه بجحود الصانع وعبادة آلهة أخرى، والمنكر للصانع منهم مستكبر كثيرًا ما يعبد آلهة؛ ولا يعبد اللَّه قط»[3].

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٢٦﴾:

قال ابن كثير: «أي: انتقم اللَّه منه انتقامًا جعله به عبرة ونكالًا لأمثاله من المتمرّدين في الدنيا، ويوم القيامة بئس الرفد المرفود، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝٤١﴾[4]»[5].

قال الرازي: «ذكر المفسرون في هذه الآية وجوهًا:

أحدها: أن الآخرة والأولى صفة لكلمتي فرعون، إحداهما: قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، والأخرى قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾، قالوا: وكان بينهما أربعون سنة، وهذا قول مجاهد والشعبي وسعيد بن جبير ومقاتل، ورواية عطاء والكلبي عن ابن عباس، والمقصود التنبيه على أنه ما أخذه بكلمته الأولى في الحال، بل أمهله أربعين سنة، فلما ذكر الثانية أخذ بهما، وهذا تنبيه على أنه تعالى يمهل ولا يهمل.

---

(١) القصص: الآية (٣٨).
(٢) الإسراء: الآية (١٠٢).
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣١).
(٤) القصص: الآية (٤١).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٣٨).

الثاني: وهو قول الحسن وقتادة: ﴿نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: عذبه في الآخرة، وأغرقه في الدنيا.

الثالث: الآخرة هي قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، والأولى هي تكذيبه موسى حين أراه الآية، قال القفال: وهذا كأنه هو الأظهر؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ فذكر المعصيتين، ثم قال: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ فظهر أن المراد أنه عاتبه على هذين الأمرين»[1].

قال ابن كثير: «الصحيح في معنى الآية أن المراد بقوله: ﴿نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: الدنيا والآخرة، وقيل: المراد بذلك كلمتاه الأولى والثانية، وقيل: كفره وعصيانه. والصحيح الذي لا شك فيه: الأول»[2].

قلت: هذه الآية دليل واضح، وبرهان لائح على أن فرعون قد أهلكه اللَّه وأخزاه؛ ففيه رد على من زعم خلاف ذلك؛ يقول البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأنا لا أشك أن الحلاج وابن عربي وابن الفارض وأتباعهم يكونون في النار.. فإنهم ادعوا أنه ناج، وصدقوه فيما ادعاه، وادعوا لأنفسهم وغيرهم مثل ما ادعاه تكذيبًا للقرآن وإغراقًا في العدوان، وزادوا عليه بابتذال الاسم الأعظم الذي حماه اللَّه من أن يدعيه أحد قبل إرسال النبي ﷺ فادعوا أنه يطلق عليهم وعلى كل أحد، بل كل شيء؛ وأمارة هذه الطائفة الخبيثة التي لا تتخلف أن تقول لأحدهم: العن فرعون الذي أجمع على لعنه جميع الطوائف، وهو مثل عندهم في الشرارة والخبث فلا يلعنه، وإن لعنه فبعد توقف»[3].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾: **قال الرازي**: «إن فيما اقتصصناه من أمر موسى وفرعون، وما أحله اللَّه بفرعون من الخزي، ورزق موسى من العلو والنصر؛ عبرة لمن يخشى؛ وذلك أن يدع التمرد على اللَّه تعالى، والتكذيب لأنبيائه خوفًا من أن ينزل به ما نزل بفرعون، وعلمًا بأن اللَّه تعالى ينصر أنبياءه ورسله، فاعتبروا معاشر المكذبين لمحمد بما ذكرناه، أي: اعلموا أنكم إن شاركتموهم في المعنى الجالب للعقاب، شاركتموهم في حلول العقاب بكم»[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٤٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٣٨).
(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٣٦).
(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ٤٤).

قوله تعالى : ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سمكها : السَّمْكُ : الارتفاع ؛ من سمكت البيت : إذا رفعته . قال الفرزدق :

إن الذي سمك السماءَ بَنَى لَنَا بيتًا دعائمه أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

أغطش ليلها : أي : أظلمه . وأصله : من الأغطش ، وهو الذي في عينه شبه عمش . ومنه قيل : فلاةٌ غطشى : لا يُهتدى فيها . والتغاطُش : التعامي عن الشيء .

دَحَاها : بسطها ؛ من الدحو ، وهو البسط . قال أمية بن أبي الصلت :

دار دحاها ثم أعمر بابها وأقام بالأخرى التي هي أمجد

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول -تعالى ذكره- للمكذبين بالبعث من قريش، القائلين : ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ : أأنتم أيها الناس أشدّ خلقًا ، أم السماء بناها ربكم؟ فإن من بنى السماء فرفعها سقفًا ، هيّن عليه خلقكم وخلق أمثالكم ، وإحياؤكم بعد مماتكم ، وليس خلقكم بعد مماتكم بأشدّ من خلق السماء . وعُني بقوله : ﴿بَنَىٰهَا﴾ : رفعها ، فجعلها للأرض سقفًا»(١) .

قال ابن عاشور : «والمقصود من التقرير إلجاؤهم إلى الإقرار بأنّ خلق السماء أعظم من خلقهم ، أي : مِن خلق نوعهم ، وهو نوع الإنسان ، وهم يعلمون أن اللَّه هو خالق السماء ، فلا جرم أن الذي قدر على خلق السماء قادر على خلق الإنسان مرة ثانية ، فينتج ذلك أن إعادة خلق الأجساد بعد فنائها مقدورة لله تعالى ؛ لأنه قدر

(١) جامع البيان (٣٠/ ٤٣).

على ما هو أعظم من ذلك قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾[١]، ذلك أن نظرهم العقلي غيّمت عليه العادة فجعلوا ما لم يألفوه مُحالًا، ولم يلتفتوا إلى إمكان ما هو أعظم مما أحالوه بالضرورة»[٢].

قال ابن عطية: «وفي الآية دليل على أن بعث الأجساد من القبور لا يتعذر على قدرة اللَّه تعالى»[٣].

وقوله: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨﴾: **قال الألوسي:** «وقوله سبحانه: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ بيان للبناء، أي: جعل مقدار ارتفاعها من الأرض وذهابها إلى سمت العلو مديدًا رفيعًا، وجوز أن يفسر السمك بالثخن، فالمعنى: جعل ثخنها مرتفعًا في جهة العلو، ويقال للثخن: سمك؛ لما فيه من ارتفاع السطح الأعلى عن السطح الأسفل، وإذا لوحظ هذا الامتداد من العلو للسفل قيل له: عمق، ونظير ذلك الدرج والدرك، وقد جاء في الأخبار الصحيحة أن ارتفاع السماء الدنيا عن الأرض خمسمائة عام، وارتفاع كل سماء عن سماء وثخن كل كذلك[٤]، والظاهر تقدير ذلك بالسير المتعارف، وأن المراد بالعدد المذكور التحديد دون التكثير، ونحن مع الظاهر إلا أن يمنع عنه مانع»[٥].

قال القرطبي: «أي: خلقها خلقًا مستويًا، لا تفاوت فيه ولا شقوق ولا فطور»[٦].

قوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩﴾: **قال السعدي:** ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: أظلمه، فعمّت الظلمة جميع أرجاء السماء، فأظلم وجه الأرض. ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي: أظهر فيه النور العظيم حين أتى بالشمس، فانتشر الناس في مصالح دينهم ودنياهم»[٧].

---

(١) غافر: الآية (٥٧).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٨٣).
(٣) المحرر الوجيز (٥/ ٤٣٤).
(٤) أخرجه: الطبراني (٩/ ٢٠٢/ ٨٩٨٧)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٨٥١)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٨٨٥)، والدارمي في الرد على الجهمية (ص: ٢٦-٢٧)، واللالكائي في شرح الاعتقاد (٣/ ٤٣٨-٤٣٩/ ٦٥٩)، وصححه الذهبي في «العلو» (انظر مختصر العلو، ص: ١٠٣)، عن ابن مسعود ﷺ.
(٥) روح المعاني (٣٠/ ٣١).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ١٣٢).
(٧) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٦٢).

قال الرازي: «إنما أضاف الليل والنهار إلى السماء؛ لأن الليل والنهار إنما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها، ثم غروبها وطلوعها إنما يحصلان بسبب حركة الفلك[(١)]، فلهذا السبب أضاف الليل والنهار إلى السماء»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾: **قال ابن جرير**: «اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، فقال بعضهم: دحيت الأرض بعد خلق السماء.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: والأرض مع ذلك دحاها، وقالوا: الأرض خُلقت ودُحيت قبل السماء، وذلك أن اللَّه قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾[(٣)] قالوا: فأخبر اللَّه أنه سوّى السموات بعد أن خلق ما في الأرض جميعًا، قالوا: فإذا كان ذلك كذلك، فلا وجه لقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾ إلا ما ذكرنا من أنه مع ذلك دحاها، قالوا: وذلك كقول اللَّه ﷻ: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾[(٤)] بمعنى: مع ذلك زنيم..

والقول الذي ذكرنا عن ابن عباس من أن اللَّه تعالى خلق الأرض، وقدّر فيها أقواتها، ولم يدحُها، ثم استوى إلى السماء، فسوّاهن سبع سموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك، فأخرج منها ماءها ومرعاها، وأرسى جبالها، أشبه بما دلّ عليه ظاهر التنزيل؛ لأنه -جل ثناؤه- قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾، والمعروف من معنى (بَعْدَ) أنه خلاف معنى (قَبْل)، وليس في دحوِّ اللَّه الأرض بعد تسويته السموات السبع، وإغطاشه ليلها، وإخراجه ضحاها، ما يوجب أن تكون الأرض خُلقت بعد خلق السموات؛ لأن الدحوّ إنما هو البسط في كلام العرب والمدّ»[(٥)].

قال السعدي: «فدحيُ الأرض بعد خلق السماء، كما هو نص هذه الآيات الكريمة.

---

(١) لعل الصواب أن يقال: يحصلان بسبب حركة الشمس في الفلك، لا أن الفلك هو المتحرك بالشمس؛ يقول محمود شكري الآلوسي: «واستنبط بعضهم من نسبة السباحة للكوكب [في قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يس: الآية (٤٠)]: أن ليس هناك حامل له يتحرك بحركته مطلقًا، بل هو متحرك بنفسه في الفلك تحرك السمكة في الماء؛ إذ لا يقال للجالس في صندوق، أو على جذع يجري في الماء: إنه يسبح». [ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة (ص: ١٠٢)].

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ٤٨).

(٣) البقرة: الآية (٢٩).

(٤) القلم: الآية (١٣).

(٥) جامع البيان (٣٠/ ٤٥-٤٦).

وأما خلق نفس الأرض، فمتقدم على خلق السماء كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾[١].

فالذي خلق السموات العظام وما فيها من الأنوار والأجرام، والأرض الغبراء الكثيفة، وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم؛ لا بد أن يبعث الخلق المكلفين، فيجازيهم على أعمالهم، فمن أحسن فله الحسنى، ومن أساء فلا يلومنّ إلا نفسه»[٢].

قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾﴾: **قال أبو السعود**: «بأن فجّر منها عيونًا، وأجرى أنهارًا، ﴿وَمَرْعَاهَا﴾ أي: رعيها، وهو في الأصل موضع الرعي»[٣].

قال الرازي: «أراد بمرعاها: ما يأكل الناس والأنعام، ونظيره قوله في (النحل): ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾[٤]، وقال في سورة أخرى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾[٥]، فكذا في هذه الآية، واستعير الرعي للإنسان كما استعير الرتع في قوله: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾[٦]، وقرئ: (نرتع)، من الرعي، ثم قال ابن قتيبة: قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[٧]، فانظر كيف دل بقوله: ﴿مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ على جميع ما أخرجه من الأرض قوتًا ومتاعًا للأنام من العشب والشجر، والحب والثمر والعصف والحطب، واللباس والدواء حتى النار والملح، أما النار فلا شك أنها من العيدان؛ قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾﴾[٨]، وأما الملح فلا شك أنه متولد من الماء، وأنت إذا تأملت علمت أن جميع ما يتنزه به الناس في الدنيا ويتلذذون به، فأصله الماء والنبات، ولهذا السبب تردد في وصف الجنة ذكرهما، فقال: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[٩]،

---

(١) فصلت: الآيات (٩-١١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٦٣).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٠٢).

(٤) الآية (١٠).

(٥) عبس: الآيات (٢٥-٣٢).

(٦) يوسف: الآية (١٢).

(٧) الأنبياء: الآية (٣٠).

(٨) الواقعة: الآيتان (٧١و٧٢).

(٩) البقرة: الآية (٢٥).

ثم الذي يدل على أنه تعالى أراد بالمرعى كل ما يأكله الناس والأنعام قوله في آخر هذه الآية: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾»[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾: **قال الشوكاني**: «أي: أثبتها في الأرض وجعلها كالأوتاد للأرض لتثبت وتستقرّ، وأن لا تميد بأهلها»[٢].

وفي إسناد رسو الجبال إلى اللَّه ﷻ -يقول أبو السعود- «تحقيق للحق، وتنبيه على أن الرسو المنسوب إليها في مواضع كثيرة من التنزيل بالتعبير عنها بالرواسي؛ ليس من مقتضيات ذواتها، بل هو بإرسائه ﷻ، ولولاه لما ثبتت في أنفسها، فضلًا عن إثباتها للأرض»[٣].

وقوله: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾: **قال ابن كثير**: «أي: دحا الأرض فأنبع عيونها، وأظهر مكنونها، وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها، وثبت جبالها لتستقر بأهلها ويقر قرارها، كل ذلك متاعًا لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار إلى أن ينتهي الأمد، وينقضي الأجل»[٤].

قال ابن عاشور: «وهذا إدماج الامتنان في الاستدلال لإثارة شكرهم حق النعمة بأن يعبدوا المنعِم وحده، ولا يشركوا بعبادته غيره»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* قال المنهال عن سعيد قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، قال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[٦] ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[٧] ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[٨] ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٩] فقد كتموا في هذه الآية. وقال: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ إلى قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾[١٠] فذكر خلق السماء قبل

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٥٠).
(٢) فتح القدير (٥/ ٥٤٠).
(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٠٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٤٠).
(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٨٨).
(٦) المؤمنون: الآية (١٠١).
(٧) الصافات: الآية (٢٧).
(٨) النساء: الآية (٤٢).
(٩) الأنعام: الآية (٢٣).
(١٠) النازعات: الآيات (٢٧-٣٠).

خلق الأرض، ثم قال: ﴿لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إلى: ﴿طَآئِعِينَ﴾[1] فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2] ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[3] ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[4] فكأنه كان ثم مضى، فقال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ في النفخة الأولى، ثم ينفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء اللَّه، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ﴾ فإن اللَّه يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم. وقال المشركون: تعالوا نقول: لم نكن مشركين، فخُتم على أفواههم فتنطق أيديهم. فعند ذلك عُرف أن اللَّه لا يُكتَم حديثًا، وعنده ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية. وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوُها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾[5] فجُعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخُلقت السموات في يومين. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ سمى نفسه ذلك، وذلك قوله، أي: لم يزل كذلك، فإن اللَّه لم يرد شيئًا إلا أصاب به الذي أراد. فلا يختلف عليك القرآن فإن كلًّا من عند الله»[6].

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «تقدم في سورة (حم السجدة) أن الأرض خلقت قبل السماء، ولكن إنما دحيت بعد خلق السماء، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل، وهذا معنى قول ابن عباس وغير واحد واختاره ابن جرير»[7].

والحديث سيق الكلام عنه هناك بما أغنى عن إعادته هنا.

* * *

---

(١) فصلت: الآيات (٩-١١).
(٢) النساء: الآية (٩٦).
(٣) النساء: الآية (٥٦).
(٤) النساء: الآية (٥٨).
(٥) فصلت: الآية (٩).
(٦) أخرجه البخاري تعليقًا (٨/ ٧١٣-٧١٤)، وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٧١٦): «وهذا التعليق قد وصله المصنف بعد فراغه من سياق الحديث».
(٧) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٣٩).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الطامة: الداهية العظمى التي تغلب كل شيء وتعلوه؛ من طَمَّ الشيءَ: إذا علاه وغَلَبَهُ. والمراد: يوم القيامة. قال الشاعر:

إن بعض الحبِّ يعمي ويُصِمُّ   وكذاكَ البغضُ أدهى وأطَمُّ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

الطامّة: الداهية التي لا تستطاع، وهي اسم لكل داهية عظيمة ينسى ما قبلها في جنبها[1]. فحينئذ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه، وكل محب عن حبيبه[2].

قال الرازي: «ظهر بما ذكرنا أن معنى الطامة الكبرى: الداهية الكبرى، ثم اختلفوا في أنها أي شيء هي؟ فقال قوم: إنها يوم القيامة؛ لأنه يشاهد فيه من النار، ومن الموقف الهائل، ومن الآيات الباهرة الخارجة عن العادة ما ينسى معه كل هائل، وقال الحسن: إنها هي النفخة الثانية التي عندها تحشر الخلائق إلى موقف القيامة، وقال آخرون: إنه تعالى فسر الطامة الكبرى بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾، فالطامة تكون اسمًا لذلك الوقت، فيحتمل أن يكون ذلك الوقت وقت قراءة الكتاب على ما قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾[3]، ويحتمل أن تكون تلك الساعة هي الساعة التي يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار»[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٥٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٦٤).

(٣) الإسراء: الآية (١٣).

(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ٥١).

قلت: الراجح القول الأول: إن الطامة هي يوم القيامة، وهو اختيار كثير من المفسرين؛ قال ابن كثير مفسّرًا (الطامة): «هو يوم القيامة؛ قاله ابن عباس؛ سميت بذلك لأنها تَطُمّ على كل أمر هائل مفظع، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[1]»[2].

وقوله: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾: «أي: يتذكر فيه كل أحد ما عمله من خير أو شر بأن يشاهده مدوّنًا في صحيفة أعماله، وقد كان نسيه من فرط الغفلة وطول الأمد، كقوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[3]»[4].

قال السعدي: «يتمنى زيادة مثقال ذرة في حسناته، ويغمه ويحزنه لزيادة مثقال ذرة من سيئاته، ويعلم إذ ذاك أن مادة ربحه وخسرانه ما سعاه في الدنيا، وينقطع كل سبب ووصلة كانت له في الدنيا سوى الأعمال»[5].

قوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾: **قال السعدي**: «أي: جعلت في البراز ظاهرة لكل أحد، قد هيئت لأهلها، واستعدت لأخذهم منتظرة لأمر ربها»[6].

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾.. فيه وجهان: أحدهما: أنه استعارة في كونه منكشفًا ظاهرًا كقولهم: تبين الصبح لذي عينين. وعلى هذا التأويل لا يجب أن يراه كل أحد.

والثاني: أن يكون المراد أنها برزت ليراها كل من له عين وبصر، وهذا يفيد أن كل الناس يرونها من المؤمنين والكفار، إلا أنها مكان الكفار ومأواهم والمؤمنون يمرون عليها، وهذا التأويل متأكد بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾[7].

فإن قيل: إنه تعالى قال في سورة (الشعراء): ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾[8]، فخصّ الغاوين بتبريزها لهم، قلنا: إنها برزت للغاوين،

---

(١) القمر: الآية (٤٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٤٠).
(٣) المجادلة: الآية (٦).
(٤) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٠٣-١٠٤).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٦٤).
(٦) المصدر السابق.
(٧) مريم: الآيتان (٧١و٧٢).
(٨) الشعراء: الآيتان (٩٠و٩١).

والمؤمنون يرونها أيضًا في الممر، ولا منافاة بين الأمرين»[1].

قلت: وهو ما رجحه الشوكاني بقوله: «والظاهر أنها تبرز لكل راءٍ؛ فأما المؤمن فيعرف برؤيتها قدر نعمة اللَّه عليه بالسلامة منها، وأما الكافر فيزداد غمًّا إلى غمّه، وحسرة إلى حسرته»[2].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٥١).

(٢) فتح القدير (٥/ ٥٤٠).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾

★ غريب الآية:

آثر: فَضَّلَ. قال الحطيئة:

ما قدَّموكَ لها إذ آثروكَ بها   لكن أنفسهم كانت بك الإِثَرُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فأما من عتا على ربه وعصاه، واستكبر عن عبادته.. وآثر متاع الحياة الدنيا على كرامة الآخرة وما أعدّ اللَّه فيها لأوليائه، فعمل للدنيا وسعى لها، وترك العمل للآخرة؛ ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ يقول: فإن نار اللَّه التي اسمها (الجحيم) هي منزله ومأواه ومصيره الذي يصير إليه يوم القيامة»[1].

قال ابن عاشور: «ويفهم من فعل الإيثار أن معه نبْذًا لنعيم الآخرة. ويرجع إيثار الحياة الدنيا إلى إرضاء هوى النفس، وإنما يعرف كلا الحظين بالتوقيف الإلهي كما عرف الشرك وتكذيب الرسل والاعتداء على الناس والبطر والصلف وما يستتبعه ذلك من الأحوال الذميمة.

وملاك هذا الإيثار هو الطغيان على أمر الله؛ فإن سادتهم ومسيريهم يعلمون أن ما يدعوهم إليه الرسول هو الحق، ولكنهم يكرهون متابعته استكبارًا عن أن يكونوا تبعًا للغير فتضيعَ سيادتهم.

وقد زاد هذا المفاد بيانًا قوله بعده: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ الآية. وبه يظهر أن

(١) جامع البيان (٣٠/ ٤٨).

مناط الذم في إيثار الحياة الدنيا هو إيثارها على الآخرة، فأما الأخذ بحظوظ الحياة الدنيا التي لا يفيت الأخذُ بها حظوظ الآخرة فذلك غير مذموم، وهو مقام كثير من عِباد اللَّه الصالحين حكاه اللَّه تعالى عن صالحي بني إسرائيل من قولهم لقارون: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾[1] »[2].

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾:

قال ابن جرير: «يقول: وأما من خاف مسألة اللَّه إياه عند وقوفه يوم القيامة بين يديه، فاتقاه، بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾، يقول: ونهى نفسه عن هواها فيما يكرهه اللَّه، ولا يرضاه منها، فزجرها عن ذلك، وخالف هواها إلى ما أمره به ربه؛ ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ يقول: فإن الجنة هي مأواه ومنزله يوم القيامة»[3].

قال الرازي: «واعلم أن هذين الوصفين مضادان للوصفين اللذين وصف اللَّه أهل النار بهما؛ فقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ ضد قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧﴾، وقوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ ضد قوله: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨﴾. واعلم أن الخوف من اللَّه لا بد وأن يكون مسبوقًا بالعلم باللَّه على ما قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[4]، ولما كان الخوف من اللَّه هو السبب المعين لدفع الهوى، لا جرم قدم العلة على المعلول، وكما دخل في ذينك الصفتين جميع القبائح دخل في هذين الوصفين جميع الطاعات والحسنات»[5].

قلت: وقد اختلف في إضافة المقام إلى الرب، هل هو من باب إضافة المصدر إلى فاعله أو إلى مفعوله؟ على قولين:

أحدهما: أنه خاف مقامه بين يدي ربه، فعلى هذا هو من إضافة المصدر إلى المفعول.

والثاني: أنه خاف قيام اللَّه ﷻ عليه، واطلاعه عليه، فهو من باب إضافة المصدر إلى فاعله[6].

---

(١) القصص: الآية (٧٧).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٩٢).
(٣) جامع البيان (٣٠/ ٤٨).
(٤) فاطر: الآية (٢٨).
(٥) مفاتيح الغيب (٣١/ ٥٢-٥٣).
(٦) أفاده ابن القيم في طريق الهجرتين (ص: ٤٢٥).

قال ابن القيم: «الراجح هو الأول، وأن المعنى: خاف مقامه بين يدي ربه؛ لوجوه:

أحدها: أن طريقة القرآن في التخويف أن يخوفهم بالله وباليوم الآخر؛ فإذا خوفهم به علق الخوف به لا بقيامه عليهم. كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾[(٤)]، ففي هذا كله لم يذكر خشية مقامه عليهم، وإنما مدحهم بخوفه وخشيته. وقد يذكر الخوف متعلقًا بعذابه كقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[(٥)]، وأما خوف مقامه عليهم فهو وإن كان كذلك فليس طريقة القرآن.

الثاني: أن هذا نظير قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[(٦)]، فخوفهم أن يحشروا إليه هو خوفهم من مقامهم بين يديه. والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

الثالث: أن خوف مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة لا يكون إلا ممن يؤمن بلقائه وباليوم الآخر وبالبعث بعد الموت.. فإنه لا يؤمن بذلك حق الإيمان إلا من آمن بالرسل، وهو من الإيمان بالغيب الذي جاءت به الرسل. وأما مقام الله على عبده في الدنيا واطلاعه عليه وقدرته عليه فهذا يقرّ به المؤمن والكافر والبر والفاجر، وأكثر الكفار يخافون جزاء الله لهم في الدنيا لما عاينوه من مجازاة الظالم بظلمه والمحسن بإحسانه، وأما مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة فلا يؤمن به إلا المؤمن بالرسل.

فإن قيل: إذا كان المعنى أنه خاف مقام ربه عليه في الآخرة بالجزاء فقد استوى التقديران، فمن أين رجحتم أحدهما؟ قيل: التخويف بمقام العبد بين يدي ربه أبلغ من التخويف بمقام الرب على العبد، ولهذا خوفنا تعالى في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾[(٧)]؛ ولأنه مقام مخصوص مضاف إلى الله وذلك في يوم القيامة،

---

(١) آل عمران: الآية (١٧٥).
(٢) البينة: الآية (٨).
(٣) النحل: الآية (٥٠).
(٤) الملك: الآية (١٢).
(٥) الإسراء: الآية (٥٧).
(٦) الأنعام: الآية (٥١).
(٧) المطففين: الآية (٦).

بخلاف مقام اللَّه على العبد فإنه كل وقت. وأيضًا فإنه لا يقال لقدرة اللَّه على العبد واطلاعه عليه وعلمه به: مقام اللَّه، ولا هذا من المألوف إطلاقه على الربض»[١].

قال ابن عطية: «وفي ذلك تفخيم للمقام، وتعظيم لهوله وموقعه من النفوس»[٢].

قوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾: قال الألوسي: «أي: زجرها وكفّها عن الهوى المردي، وهو الميل إلى الشهوات وضبطها بالصبر والتوطين على إيثار الخيرات، ولم يعتد بمتاع الدنيا وزهرتها، ولم يغتر بزخارفها وزينتها علمًا بوخامة عاقبتها، وعن ابن عباس ومقاتل أنه الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب بين يدي ربه سبحانه فيخاف فيتركها. وأصل الهوى: مطلق الميل، وشاع في الميل إلى الشهوة؛ وسمي بذلك -على ما قال الراغب- لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل واهية، وفي الآخرة إلى الهاوية؛ ولذلك مدح مخالفه. قال بعض الحكماء: إذا أردت الصواب، فانظر هواك فخالفه. وقال الفضيل: أفضل الأعمال مخالفة الهوى. وقال أبو عمران الميرتلي:

فخالف هواها واعصها أن من يطع ... هوى نفسه تنزع به شر منزع

ومن يطع النفس اللجوجة ترده ... وترم به في مصرع أي مصرع

إلى غير ذلك.

وقد قارب أن يكون قبح موافقة الهوى وحسن مخالفته ضروريين؛ إلا أن السالم من الموافقة قليل، قال سهل: لا يسلم من الهوى إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبعض الصديقين، فطوبى لمن سلم منه»[٣].

قال شيخ الإسلام بعد كلام له في نوازع النفس وأهوائها: «وإذا كانت النفس تطلب ما يبغضه اللَّه فينهاها خشية من اللَّه كان ممن دخل في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

فالنفس إذا أحبت شيئًا سعت في حصوله بما يمكن، حتى تسعى في أمور كثيرة

---

(١) طريق الهجرتين (ص: ٤٢٥-٤٢٦).

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٤٣٥).

(٣) روح المعاني (٣٠/ ٣٦).

تكون كلها مقامات لتلك الغاية، فمن أحب محبة مذمومة أو أبغض بغضًا مذمومًا وفعل ذلك كان آثمًا، مثل أن يبغض شخصًا لحسده له فيؤذي من له به تعلق، إما بمنع حقوقهم؛ أو بعدوان عليهم؛ أو لمحبة له لهواه معه فيفعل لأجله ما هو محرم، أو ما هو مأمور به لله فيفعله لأجل هواه لا لله، وهذه أمراض كثيرة في النفوس، والإنسان قد يبغض شيئًا فيبغض لأجله أمورًا كثيرة بمجرد الوهم والخيال.

وكذلك يحب شيئًا فيحب لأجله أمورًا كثيرة؛ لأجل الوهم والخيال، كما قال شاعرهم:

أحب لحبها السودان حتى ... أحب لحبها سود الكلاب

فقد أحب سوداء، فأحب جنس السواد حتى في الكلاب، وهذا كله مرض في القلب في تصوره وإرادته. فنسأل اللَّه تعالى أن يعافي قلوبنا من كل داء، ونعوذ باللَّه من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء»[1].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٣٣-١٣٤).

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: يسألك يا محمد هؤلاء المكذّبون بالبعث عن الساعة التي تبعث فيها الموتى من قبورهم أيّان مرساها، متى قيامها وظهورها. وكان الفرّاء يقول: إن قال قائل: إنما الإرساء للسفينة، والجبال الراسية، وما أشبههنّ، فكيف وصف الساعة بالإرساء؟ قلت: هي بمنزلة السفينة إذا كانت جارية فرست، ورسوّها: قيامها؛ قال: وليس قيامها كقيام القائم، إنما هي كقولك: قد قام العدل، وقام الحق، أي: ظهر وثبت»[١].

قال القاسمي: «قال الناصر: وفيه إشعار بثقل اليوم، كقوله: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾[٢]؛ ألا تراهم لا يستعملون الإرساء إلا فيما له ثقل، كمرسى السفينة وإرساء الجبال»[٣].

قوله: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾: أي: في أيّ شيء أنت من ذكر الساعة والبحث عن شأنها[٤]، وهو ردّ لسؤال المشركين عنها، أي: فيم أنت من ذلك حتى يسئلونك عنه، ولست تعلمه[٥].

قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ **قال القرطبي:** «أي: منتهى علمها فلا يوجد عند غيره علم الساعة، وهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[٧] »[٨].

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٤٨-٤٩).
(٢) الإنسان: الآية (٢٧).
(٣) محاسن التأويل (١٧/ ٥٠).
(٤) جامع البيان (٣٠/ ٤٩).
(٥) فتح القدير (٥/ ٥٤١).
(٦) الأعراف: الآية (١٨٧).
(٧) لقمان: الآية (٣٤).
(٨) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٣٦).

قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ۝٤٥﴾: **قال ابن جرير**: «إنما أنت رسول مبعوث بإنذار الساعة من يخاف عقاب اللَّه فيها على إجرامه، ولم تكلف علم وقت قيامها، يقول: فدع ما لم تكلف علمه واعمل بما أمرت به من إنذار من أمرت بإنذاره»(١).

قال السعدي: «إنما نذارتك نفعها لمن يخشى مجيء الساعة، ويخاف الوقوف بين يديه، فهم الذين لا يهمهم إلا الاستعداد لها والعمل لأجلها.

وأما من لم يؤمن بها، فلا يبالى به ولا بتعنته؛ لأنه تعنت مبني على العناد والتكذيب، وإذا وصل إلى هذه الحال، كان الإجابة عنه عبثًا، ينزه أحكم الحاكمين عنه»(٢).

قوله: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾: **قال ابن جرير**: «يقول -جل ثناؤه-: كأن هؤلاء المكذبين بالساعة يوم يرون أن الساعة قد قامت من عظيم هولها لم يلبثوا في الدنيا إلا عشية يوم أو ضحى تلك العشية»(٣).

قال الشوكاني: «والمراد تقليل مدة الدنيا كما قال: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾(٤)»(٥).

قال البقاعي: «إن الكفار يستقصرون مدة لبثهم، فكأنهم أصناف: بعضهم يقول: إن لبثتم إلا عشرًا، وبعضهم يقول: إن لبثتم إلا يومًا، وبعضهم يتحير فيقول: اسأل العادّين، أو أن تلك أقوالهم، والحق من ذلك هو ما أخبر اللَّه به غير مضاف إلى أقوالهم من أن ما مضى لهم في جنب ما يأتي كأنه ساعة من نهار بالنسبة إلى النهار الكامل، كما قال تعالى في سورة (يونس) -عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾(٦)، على أن منهم من يقول ذلك أيضًا كما قال تعالى في سورة (المؤمنين) حين قال تعالى: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ۝١١٣﴾(٧)، وذلك بالنسبة إلى ما كشف لهم عن أنهم يستقبلونه مما لا آخر له»(٨).

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٤٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٦٥-٥٦٦).
(٣) جامع البيان (٣٠/ ٤٩).
(٤) الأحقاف: الآية (٣٥).
(٥) فتح القدير (٥/ ٥٤١).
(٦) يونس: الآية (٤٥).
(٧) المؤمنون: الآيتان (١١٢و١١٣).
(٨) نظم الدرر (٢١/ ٢٤٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية وأن علم وقت الساعة غيب لا يعلمه إلا الله

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ يسأل عن الساعة حتى نزلت عليه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾»[1].

* عن طارق بن شهاب: «أن النبي ﷺ كان لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ الآية كلها»[2].

* عن عائشة قالت: كان رجال من الأعراب جفاة يأتون النبي ﷺ فيسألونه: متى الساعة؟ فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول: «**إن يعش هذا لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم**». قال هشام: يعني موتهم[3].

⋆ غريب الحديث:

جُفاة: بضم الجيم: جمع جافٍ، من الجفاء، وهو الغلظ في الطبع لقلة مخالطة الناس، ويروى بالحاء المهملة: جمع حافٍ، وهو الذي يمشي بلا شيء في رجليه. وكلا المعنيين غالب على أهل البادية.

* عن أنس بن مالك: «أن رجلًا سأل النبي ﷺ: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: **ما أعددت لها**؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب اللَّه ورسوله، قال: **أنت مع من أحببت**»[4].

---

(١) أخرجه: ابن جرير (٣٠/ ٤٩)، البزار (كشف الأستار ٣/ ٧٨/ ٢٢٧٩) وقال: «لا نعلم رواه هكذا إلا سفيان»، والحاكم (٢/ ٥١٣-٥١٤) واللفظ له، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه فإن ابن عيينة كان يرسله بآخره»، ووافقه الذهبي. وصححه أيضًا الحافظ ابن حجر في مختصر زوائد البزار (٢/ ١١٥/ ١٥٢٤). وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٣٣) وقال: «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح».

(٢) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٥٠٦/ ١١٦٤٥) واللفظ له، وابن جرير (٣٠/ ٤٩)، والطبراني (٨/ ٣٢٢/ ٨٢١٠) كلهم من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن طارق بن شهاب أن النبي ﷺ: فذكره. وذكره ابن كثير في التفسير (٣/ ٥٢٦) وقال: «وهذا إسناد جيد قوي».

(٣) أخرجه: البخاري (١١/ ٤٣٩-٤٤٠/ ٦٥١١) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٢٦٩/ ٢٩٥٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٢٨)، والبخاري (١٠/ ٦٨٢/ ٦١٧١)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٢-٢٠٣٣/ ٢٦٣٩)، والترمذي (٤/ ٥١٣/ ٢٣٨٥).

★ **فوائد الأحاديث:**

في هذه الأحاديث من الفوائد:

- أن علم النبي ﷺ كباقي الخلق في وقت الساعة سواء، وهذه إشارة إلى أن اللَّه تعالى استأثر بعلمها[(١)].

- وأنه لا يعلم وقت قيامها غيره تعالى[(٢)]. ولذلك أرشد اللَّه نبيه ﷺ إلى ترك السؤال والبحث عنها فقال: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣﴾.

قال القرطبي: «أي: منتهى علمها، فكأنه ﷺ لما أكثروا عليه سأل اللَّه أن يعرفه ذلك، فقيل له: لا تسأل؛ فلست في شيء من ذلك، ويجوز أن يكون إنكارًا على المشركين في مسألتهم له، أي: فيم أنت من ذلك حتى يسألونك بيانه، ولست ممن يعلمه»[(٣)].

- رفق النبي ﷺ بالسائل وتوجيه عنايته إلى ما يعود عليه بالفوائد العظيمة، وذلك من كمال نصحه ﷺ لأمته وشفقته عليها وإرشادهم إلى ما فيه فوزهم وسعادتهم[(٤)].

قال الكرماني في قوله ﷺ: «إن يعش هذا لا يدركه الهرم حتى تقوم ساعتكم» في جواب من سأله فقال: متى الساعة؟ قال: قال هشام بن عروة راوي الحديث: يريد بساعتهم موتهم وانقراض عهدهم، إذ من مات فقد قامت قيامته، وكيف والقيامة الكبرى لا يعلمها إلا اللَّه تعالى. فإن قلت: السؤال عن الكبرى والجواب عن الصغرى فلا مطابقة. قلت: هو من باب الأسلوب الحكيم»[(٥)].

- قال العيني: «معناه: دَعُوا السؤال عن وقت القيامة الكبرى؛ فإنها لا يعلمها إلا اللَّه ﷻ، واسألوه عن الوقت الذي يقع فيه انقراض عصركم فهو أولى لكم؛ لأن معرفتكم إياه تبعثكم على ملازمة العمل الصالح قبل فوته؛ لأن أحدكم لا يدري

---

(١) مستفاد من كلام ابن رجب في جامعه (١/ ١٣٥).
(٢) من كلام ابن جرير في تفسيره (٣٠/ ٤٩).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٣٦).
(٤) مستفاد من كلام عبد المحسن العباد في «شرح عشرين حديثًا من صحيح البخاري» (ص: ٩٣).
(٥) البخاري بشرح الكرماني (٢٣/ ٢٨).

من الذي يسبق الآخر. وقيل: هو تمثيل لتقريب الساعة، لا يراد بها حقيقة قيامها، أو الهرم لا حد له، أو علم ﷺ أن ذلك المشار إليه لا يعمر ولا يعيش»[1].

- أن الاستعداد للآخرة والعمل لما بعد الموت هو الشيء المهم الذي يجب أن تصرف إليه الهمم.

قلت: ولذلك قال النبي ﷺ لمن سأله عن وقت الساعة: «وما أعددت لها؟».

قال الطيبي: «سلك مع السائل طريق الأسلوب الحكيم؛ لأنه سأل عن وقت الساعة وإبان إرسائها، فقيل له: فيم أنت من ذكراها؟ وإنما يهمك أن تهتم بأهبتها، وتعتني بما ينفعك عند إرسائها من العقائد الحقة والأعمال الصالحة»[2].

* * *

---

(١) عمدة القاري (١٥/ ٥٨٦).

(٢) الكاشف (١٠/ ٣٢٠١).



سورة عبس

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ④ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ⑥ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ⑩﴾

⋆ غريب الآية:

عبس: العُبوس: قطوب الوجه من ضيق الصدر.

تصدى: التصدي للشيء: التعرض له والإصغاء إليه. وأصله: تتصدّد؛ من الصُّدّ، وهو ما استقبلك وصار قبالتك. والمصاداة: المعارضة.

تلهّى: يقال: لَهِيتُ عن الشيء، ألهى، أي: تشاغلتُ عنه. والتلهّي: التغافل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «أجمع المفسرون على أن الذي عبس وتولّى هو الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وأجمعوا على أن الأعمى هو ابن أم مكتوم»[1].

«والعُبوس، بضم العين: تقطيب الوجه وإظهار الغضب؛ يقال: رجل عَبوس، بفتح العين، أي: متقطب؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ⑩﴾[2]..

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٥٦).

(٢) الإنسان: الآية (١٠).

والتولّي أصله: تحول الذات عن مكانها، ويستعار لعدم اشتغال المرء بكلام يلقى إليه، أو جليس يحلّ عنده، وهو هنا مستعار لعدم الاشتغال بسؤال سائل ولعدم الإقبال على الزائر»[١].

قال ابن عطية: «وفي مخاطبته بلفظ ذكر الغائب مبالغة في العتب؛ لأن في ذلك بعض الإعراض»[٢].

قلت: ويزيد هذا المعنى ابن عاشور بيانًا وإيضاحًا فيقول: «وصيغة الخبر مستعملة في العتاب على الغفلة عن المقصود الذي تضمنه الخبر، وهو اقتصار النبي ﷺ على الاعتناء بالحرص على تبليغ الدعوة إلى من يرجو منه قبولَها مع الذهول عن التأمل فيما يقارن ذلك من تعليم من يرغب في علم الدين ممن آمن، ولما كان صدور ذلك من اللَّه لنبيه ﷺ لم يشإ اللَّه أن يفاتحه بما يتبادر منه أنه المقصود بالكلام، فوجهه إليه على أسلوب الغيبة ليكون أول ما يقرع سمعه باعثًا على أن يترقب المعنيَّ من ضمير الغائب فلا يفاجئه العتاب، وهذا تلطف من اللَّه برسوله ﷺ ليقع العتاب في نفسه مدرجًا، وذلك أهون وقعًا، ونظير هذا قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[٣].

قال عياض: قال عون بن عبد اللَّه والسمرقندي: أخبره اللَّه بالعفو قبل أن يخبره بالذنب حتى سكن قلبه، اهـ. فكذلك توجيه العتاب إليه مسندًا إلى ضمير الغائب ثم جيء بضمائر الغيبة فذكر الأعمى تظهر المراد من القصة واتضح المراد من ضمير الغيبة.

ثم جيء بضمائر الخطاب على طريقة الالتفات»[٤].

وقد استدل بالآية من ذهب إلى جواز صدور الذنب عن الأنبياء. قال الرازي: «القائلون بصدور الذنب عن الأنبياء ﷺ تمسكوا بهذه الآية وقالوا: لما عاتبه اللَّه في ذلك الفعل، دل على أن ذلك الفعل كان معصية؛ وهذا بعيد، فإنا قد بينا أن ذلك كان هو الواجب المتعين لا بحسب هذا الاعتبار الواحد، وهو أنه يوهم تقديم

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٠٤).
(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٤٣٦).
(٣) التوبة: الآية (٤٣).
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٠٤-١٠٥).

الأغنياء على الفقراء، وذلك غير لائق بصلابة الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وإذا كان كذلك، كان ذلك جاريًا مجرى ترك الاحتياط، وترك الأفضل، فلم يكن ذلك ذنبًا ألبتة»[1].

قال القاضي عياض: «ليس فيه إثبات ذنب له ﷺ؛ بل إعلام اللَّه أن ذلك المتصدّي له ممّن لا يتزكّى، وأن الصواب والأولى -لو كُشف لك حال الرجُلين- الإقبال على الأعمى.

وفعل النبي ﷺ لِما فعل، وتصدّيه لذاك الكافر، كان طاعة لله وتبليغًا عنه، واستئلافًا له، كما شرعه اللَّه له، لا معصية، ولا مخالفة له»[2].

قال ابن حزم: «فإنه كان ﷺ قد جلس إليه عظيم من عظماء قريش، ورجا إسلامه، وعلم ﷺ أنه لو أسلم لأسلم بإسلامه ناس كثير وأظهر الدين، وعلم أن هذا الأعمى الذي يسأله عن أشياء من أمور الدين لا يفوته وهو حاضر معه، فاشتغل عنه ﷺ بما خاف فوته من عظيم الخير عما لا يخاف فوته، وهذا غاية النظر للدين والاجتهاد في نصرة القرآن في ظاهر الأمر، ونهاية التقرب إلى اللَّه الذي لو فعله اليوم منا فاعل لأجر، فعاتبه اللَّه ﷻ على ذلك؛ إذ كان الأولى عند اللَّه تعالى أن يقبل على ذلك الأعمى الفاضل البر التقي، وهذا نفس ما قلناه»[3].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝﴾: عبّر اللَّه تعالى عن هذا الصحابي الجليل -الذي هو عبد اللَّه بن أم مكتوم- بلقب يكرهه الناس، مع أنه قال: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾[4].

والجواب: هو ما نبّه عليه بعض العلماء؛ من أن السر في التعبير عنه بلفظ (الأعمى)، للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول ﷺ؛ لأنه لو كان يرى ما هو مشتغل به مع صناديد الكفار، لما قطع كلامه»[5].

قال الرازي: «إنه وإن كان لفقد بصره لا يرى القوم، لكنه لصحة سمعه كان يسمع مخاطبة الرسول ﷺ أولئك الكفار، وكان يسمع أصواتهم أيضًا، وكان يعرف

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٥٦).

(٢) الشفا (٢/ ٨٢١-٨٢٢).

(٣) الفصل (٤/ ٢٢-٢٣).

(٤) الحجرات: الآية (١١).

(٥) دفع إيهام الاضطراب (ص: ٢٦٠).

بواسطة استماع تلك الكلمات شدة اهتمام النبي ﷺ بشأنهم، فكان إقدامه على قطع كلام النبي ﷺ وإلقاء غرض نفسه في البين قبل تمام غرض النبي إيذاء للنبي -عليه الصلاة والسلام-، وذلك معصية عظيمة»[(١)].

قال عطية سالم: «فكلامه هذا يشعر بأنه إن كان معذورًا لعدم الرؤية، فليس معذورًا لإمكان سماعه، ولكن ذكره بوصفه ليوجب العطف عليه والرفق به.

والظاهر والله تعالى أعلم: أن كلام الرازي ليس بعيدًا عمَّا ذكره الشيخ؛ لأن معناه أنه عاتبه لعدم رفقه به، ومراعاة حالة عماه.

فعليه، يكون ذكره بهذا الوصف من باب التعريض بغيره من أولئك الصناديد وسادة القوم، وكأنه يقول لهم: إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، فهذا كفيف البصر، ولكن وقاد البصيرة أبصر الحق وآمن، وجاء مع عماه يسعى طلبًا للمزيد، وأنتم تغلقت قلوبكم، وعميت بصائركم، فلم تدركوا الحقيقة، ولم تبصروا نور الإيمان، كما في الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[(٢)]، والعلم عند الله تعالى»[(٣)].

قال ابن عطية: «وفي ذلك دليل على أن ذكر هذه العاهات متى كانت المنفعة أو لأن شهرتها تعرف السامع صاحبها دون لبس جائز، ومنه قول المحدثين: سلمان الأعمش، وعبد الرحمن الأعرج، وسالم الأفطس، ونحو هذا. ومتى ذكرت هذه الأشياء على جهة التنقيص فتلك الغيبة»[(٤)].

قال عطية سالم: «وقد دلت هذه الآية وأمثالها، على صدق مقالة هرقل حينما سأل أبا سفيان عن أتباع محمد ﷺ: أهم سادة القوم أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم. فقال: هكذا هم أتباع الرسل.

وقال العلماء في ذلك: لأنهم أقرب إلى الفطرة، وأبعد عن السلطان والجاه، فليس لديهم حرص على منصب يضيع، ولا جاه يهدر، ويجدون في الدين عزًّا ورفعة، وهكذا كان بلال وصهيب وعمار، وهكذا هو ابن أم مكتوم رضي الله عنه»[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٥٥).
(٢) الحج: الآية (٤٦).
(٣) تتمة أضواء البيان (٩/ ٤٨).
(٤) المحرر الوجيز (٥/ ٤٣٧).
(٥) تتمة الأضواء (٩/ ٥٢).

قوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤﴾: **قال الشوكاني:** «التفت سبحانه إلى خطاب نبيه ﷺ؛ لأن المشافهة أدخل في العتاب، أي: أيّ شيء يجعلك داريًا بحاله حتى تعرض عنه، وجملة ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ مستأنفة لبيان أن له شأنًا ينافي الإعراض عنه، أي: لعله يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك، فالضمير في ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ راجع إلى الأعمى، وقيل: هو راجع إلى الكافر، أي: وما يدريك أن ما طمعت فيه ممن اشتغلت بالكلام معه عن الأعمى أنه يزكى أو يذكر، والأول أولى. وكلمة الترجي باعتبار من وجه إليه الخطاب للتنبيه على أن الإعراض عنه مع كونه مرجوّ التزكي مما لا يجوز»(١).

قال القرطبي: «ونظير هذه الآية في العتاب قوله تعالى في سورة (الأنعام): ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾(٢)، وكذلك قوله في سورة (الكهف): ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾(٣) وما كان مثله، والله أعلم»(٤).

قال أبو السعود: «وفيه إشارة إلى أن من تصدى لتزكيتهم من الكفرة لا يرجى منهم التزكي والتذكر أصلًا»(٥).

قال السعدي: ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤﴾ أي: يتذكر ما ينفعه، فيعمل بتلك الذكرى.

وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل، ووعظ الوعاظ، وتذكير المذكرين، فإقبالك على من جاء بنفسه مفتقرًا لذلك منك، هو الأليق الواجب، وأما تصديك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير، مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك؛ فإنه ليس عليك أن لا يزكى، فلو لم يتزكّ؛ فلست بمحاسب على ما عمله من الشر.

فدل هذا على القاعدة المشهورة، أنه (لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة)، وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم، المفتقر إليه، الحريص عليه أزيد من غيره»(٦).

---

(١) فتح القدير (٥/ ٥٤٥).
(٢) الأنعام: الآية (٥٢).
(٣) الكهف: الآية (٢٨).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٤٠).
(٥) تفسير أبي السعود (٩/ ١٠٧).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٦٨).

قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾: قال أبو السعود: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥﴾ أي: عن الإيمان وعما عندك من العلوم والمعارف التي ينطوي عليها القرآن، ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ أي: تتصدى وتتعرض بالإقبال عليه والاهتمام بإرشاده واستصلاحه، وفيه مزيد تنفير له -عليه الصلاة والسلام- عن مصاحبتهم؛ فإن الإقبال على المدبر ليس من شيم الكبار، وقرئ (تصّدّى) بإدغام التاء في الصاد، وقرئ (تُصدّى) بضم التاء، أي: تعرض، ومعناه: يدعوك إلى التصدي له داعٍ من الحرص والتهالك على إسلامه، ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام حتى تهتم بأمره وتعرض عمّن أسلم، والجملة حال من ضمير ﴿تَصَدَّىٰ﴾، وقيل: (ما) استفهامية للإنكار، أي: أيّ شيء عليك في أن لا يتزكى؟ ومآله النفي أيضًا»[1].

قال ابن عطية: «فهذا حض على الإعراض عن أمرهم، وترك الاكتراث بهم»[2].

قال البقاعي: «وفيه إشارة إلى أنه يجب الاجتهاد في تزكية التابع الذي عرف منه القبول»[3].

قلت: وكذلك كان صلوات اللَّه وسلامه عليه؛ فقد كان حريصًا على تزكية التابع، وحريصًا أيضًا على إسلام الكافر. وهذه الآية -يقول عطية سالم- «بيان لموقفه ﷺ من جميع الأمة، وحرصه على إسلام الجميع حتى من أعرض واستغنى؛ شفقة بهم ورحمة، كما بين تعالى حاله ﷺ بقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ﴾[4]، وكقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾[5].

وقوله: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ بيان أنه ﷺ ليس عليه ممن لا يتزكى، وقد صرح تعالى بذلك في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾[6]، وقوله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[7]، وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾[8]، ومثل ذلك.

---

(١) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٠٨).
(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٤٣٧).
(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٥٥).
(٤) التوبة: الآية (١٢٨).
(٥) الكهف: الآية (٦).
(٦) الرعد: الآية (٧).
(٧) الشورى: الآية (٤٨).
(٨) البقرة: الآية (٢٧٢).

وقد جمع الأمرين من الجانبين في قوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾[1] »[2].

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾:

قال أبو السعود: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾﴾ أي: حال كونه مسرعًا طالبًا لما عندك من أحكام الرشد وخصال الخير، ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾﴾ أي: اللَّه تعالى، وقيل: يخشى أذية الكفار في إتيانك، وقيل: يخشى الكبوة إذ لم يكن معه قائد، والجملة حال من فاعل ﴿جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ كما أنه حال من فاعل ﴿جَآءَكَ﴾، ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ تتشاغل، يقال: لهى عنه والتهى وتلهّى، وقرئ (تتلهى) و(تلهى) أي: يلهيك شأن الصناديد، وفي تقديم ضميره -عليه الصلاة والسلام- على الفعلين تنبيه على أن مناط الإنكار خصوصيته -عليه الصلاة والسلام-، أي: مثلك خصوصًا لا ينبغي أن يتصدى للمستغني ويتلهى عن الفقير الطالب للخير، وتقديم ﴿لَهُۥ﴾ و﴿عَنْهُ﴾ للتعريض باهتمامه -عليه الصلاة والسلام- بمضمونها»[3].

قال البقاعي: «والآية من الاحتباك[4]: ذكر الغنى أولًا يدل على الفقر ثانيًا، وذكر المجيء والخشية ثانيًا يدل على ضدهما أولًا، وسر ذلك التحذير مما يدعو إليه الطبع البشري من الميل إلى الأغنياء، ومن الاستهانة بحق الآتي إعظامًا لمطلق إتيانه»[5].

قلت: والآية وإن كان سببها قصة ابن أم مكتوم وذلك العظيم من عظماء قريش، إلا أن حكمها عام فيهما وفي غيرهما. قال ابن عطية: «ثم هي بعد تتناول من شركهم في هذه الأوصاف، فحملة الشرع والعلم مخاطبون في تقريب الضعيف من أهل الخير وتقديمه على الشريف العاري من الخير بمثل ما خوطب به النبي ﷺ في هذه السورة»[6].

---

(١) الشعراء: الآيتان (١١٤و١١٥).
(٢) تتمة أضواء البيان (٩/ ٥٢-٥٣).
(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٠٨).
(٤) قال الزركشي: هو أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه [البرهان (٣/ ١٢٩)]. قال السيوطي: وهو من ألطف الأنواع وأبدعها، وقلّ من تنبّه له أو نبّه عليه من أهل البلاغة..
قلت: ومن لطيفه قوله: ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ أي: فئة مؤمنة تقاتل في سبيل اللَّه، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت [الإتقان (٣/ ١٨٢-١٨٣)].
(٥) نظم الدرر (٢١/ ٢٥٦).
(٦) المحرر الوجيز (٥/ ٤٣٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآيات وفضيلة ابن أم مكتوم رضي الله عنه

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أنزل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ①﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول اللَّه ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله! أرشدني، وعند رسول اللَّه ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول اللَّه ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: **أترى بما تقول بأسًا؟**، فيقال: لا، ففي هذا أنزل»[1].

* عن أنس قال: «جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبي بن خلف، فأعرض عنه، فأنزل الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ①﴾، قال: فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه»[2].

⋆ فوائد الأحاديث:

قال ابن كثير: «ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول اللَّه ﷺ كان يومًا يخاطب بعض عظماء قريش وقد طمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم وكان ممن أسلم قديمًا فجعل يسأل رسول اللَّه ﷺ عن شيء ويلح عليه، وود النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعًا ورغبة في هدايته وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه وأقبل على الآخر، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③﴾.. ومن ههنا أمر اللَّه ﷻ رسوله ﷺ أن لا يخص بالإنذار أحدًا، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والضعيف، والرجال والنساء، والصغار والكبار، ثم اللَّه تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة»[3].

---

(١) أخرجه: مالك مرسلًا (١/ ٢٠٣)، ووصله عن عائشة: الترمذي (٥/ ٤٠٢-٤٠٣/ ٣٣٣١) واللفظ له، وقال: «هذا حديث غريب»، وأبو يعلى (٨/ ٢٦١/ ٤٨٤٨)، وابن حبان (الإحسان ٢/ ٢٩٣-٢٩٤/ ٥٣٥)، والحاكم (٢/ ٥١٤) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: عبد الرزاق في التفسير (٢/ ٣٤٨) عن معمر عن قتادة مرسلًا، وأبو يعلى (٥/ ٤٣١-٤٣٢/ ٣١٢٣) عن محمد بن مهدي عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن أنس.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٤٢).

قلت: هذه الآيات من أعظم آيات الدعوة إلى اللَّه، وفيها دروس كبيرة للدعاة، فالدعاة إلى اللَّه يجب أن تكون دعوتهم لعموم الناس، وأن لا يميلوا في دعوتهم إلى أرباب الثروات، وصناديد القوم ذوي المناصب، وبكل أسف، بعض الدعاة في دعوته يسكت عن زلات الأكابر ويتجاوزها، وربما إن حضروا في مجلسه حاول أن لا يذكر ما يسوؤهم، ولو كان ذلك مما يغضب اللَّه -تبارك وتعالى-.

فالدعوة إلى اللَّه يجب أن تتجرد من كل الأهواء والأغراض، فتخلص للَّه -تبارك وتعالى-، فلا يميز فيها بين فقير ولا غني، ولا رئيس ولا مرؤوس، فكلهم يحتاج إلى التذكير والوعظ، وإلى التحذير من الشرك والبدع والمعاصي، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالرسول -عليه الصلاة والسلام- كما في هذه الآية أخذ بالمفضول وترك الفاضل، ومع ذلك عاتبه اللَّه تعالى، وبين له أن الإقبال على من له حاجة ورغبة في العلم والتفقه هو الأولى والأفضل من الطمع في المعرضين والمتولين، فمن تيسر له من الدعاة طلبةً وتلامذةً يقبلون عليه وعلى دعوته الواجب عليه العناية بهم والإقبال عليهم، وإعطاؤهم النصيب الأوفر من الوقت والزمان، وكانت سيرته ﷺ هي الإقبال على الراغبين في علمه والاهتداء بهديه، فخرج من بين يديه ﷺ حفاظ للسنة والقرآن، ومتخصصون في كل علم يخدم الدعوة إلى اللَّه، فما منهم إلا جبل من الجبال الراسية في العلم والحفظ والدعوة إلى اللَّه، فاقوا غيرهم، وأصبحوا النموذج والمثل الأعلى. فرضي اللَّه عنهم وأرضاهم. وتاريخ الإسلام مليء بهذه السلسلة المباركة الذين تركوا ذخائر بشرية ومصنفات علمية تشهد لهم بالإمامة والعرفان، واللَّه المستعان.

* * *

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الصحف: واحدها: صحيفة، وهي كل مكتوب فيه.

سفرة: جمع سافر، نحو كتبة جمع كاتب، وهم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد في الأسفار، التي هي الكتب؛ يقال: سفرتُ، أي: كتبتُ، والكتاب هو السِّفْر. وقيل: جمع سفير، وهم الملائكة الذين جعلهم اللَّه سفراء بينه وبين رسله. والسفير: الرسول والمصلح بين القوم.

بررة: جمع بار، وهو الحريص على فعل البر وتجنب دنس المعاصي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: كلَّا: كلمة ردع وزجر، أي: ما الأمر كما تفعل مع الفريقين، أي: لا تفعل بعدها مثلها من إقبالك على الغني وإعراضك عن المؤمن الفقير. والذي جرى من النبي ﷺ كان ترك الأولى»[1].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهَا﴾ يحتمل أن يرجع الضمير فيها إلى المعاتبة: قال القاسمي: «أي: أن المعاتبة المذكورة موعظة يجب الاتعاظ بها، والعمل بموجبها»[2].

قال الشهاب: «وكون عتابه على ما ذكر عظة؛ لأنه مع عظمة شأنه ومنزلته عند اللَّه إذا عوتب على مثله، فما بالك بغيره؟»[3].

ويحتمل أن يرجع إلى القرآن أو هذه السورة أو الآيات منها: قال الشوكاني: «أي أن هذه الآيات أو السورة موعظة حقها أن تتعظ بها، وتقبلها، وتعمل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٤٠).
(٢) محاسن التأويل (١٧/ ٥٦).
(٣) حاشية الشهاب على البيضاوي (٨/ ٣٢٢).

بموجبها، ويعمل بها كل أمتك»[١].

ويحتمل أن يعود إلى القرآن؛ قال ابن كثير: «قال قتادة والسدي: يعني أنها القرآن»[٢].

قال الشيخ عطية سالم: «اللَّه تعالى يقول: إن منزلة القرآن والوحي والدين أعلى منزلة من أن تبذل لقوم هذه حالتهم، فهي على ما هي عليه من تكريم ورفعة وطهرة وصيانة، وما عليها من حفظة سفرة كرام بررة أحرى بأن يسعى إليها، والخير لمن أتاها يطلبها»[٣].

وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾: **قال الشوكاني**: «أي: فمن رغب فيها اتعظ بها وحفظها وعمل بموجبها، ومن رغب عنها كما فعله من استغنى فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره. قيل: الضميران في ﴿إِنَّهَا﴾، وفي ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ للقرآن، وتأنيث الأول لتأنيث خبره. وقيل: الأول للسورة أو للآيات السابقة، والثاني للتذكرة لأنها في معنى الذكر. وقيل: إن معنى ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾: فمن شاء اللَّه ألهمه وفهمه القرآن حتى يذكره ويتعظ به، والأول أولى»[٤].

وفي هذه الآية دليل على أن هذه التذكرة بينة ظاهرة بحيث لو أراد فهمها، والاتعاظ بها، والعمل بموجبها، لقدر عليها[٥].

وفيها أيضًا إثبات المشيئة للعبد خلافًا للجبرية؛ يقول شيخ الإسلام: «إن العباد لهم مشيئة وقدرة يفعلون بمشيئتهم وقدرتهم ما أقدرهم اللَّه عليه، مع قولهم: إن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء اللَّه، كما قال اللَّه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٦] الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[٧]، وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[٨]»[٩].

---

(١) فتح القدير (٥/ ٥٤٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٤٤).
(٣) تتمة أضواء البيان (٩/ ٥٣).
(٤) فتح القدير (٥/ ٥٤٦).
(٥) أفاده الرازي في تفسيره (٣١/ ٥٩).
(٦) المدثر: الآيات (٥٤-٥٦).
(٧) الإنسان: الآيتان (٢٩و٣٠).
(٨) التكوير: الآيات (٢٧-٢٩).
(٩) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٥٩).

وفيها أيضًا تهديد لمن تنكب عن التذكر بكتاب اللَّه تعالى بدليل ما بعده وقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾[(١)][(٢)].

وقوله: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤﴾: **قال الشوكاني**: «أي: إنها تذكرة كائنة في صحف، فالجار والمجرور صفة لتذكرة، وما بينهما اعتراض، والصحف جمع صحيفة، ومعنى ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾: أنها مكرمة عند اللَّه لما فيها من العلم والحكمة، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ، وقيل: المراد بالصحف: كتب الأنبياء، كما في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[(٣)]، ومعنى ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾: أنها رفيعة القدر عند اللَّه. وقيل: مرفوعة في السماء السابعة. قال الواحدي: قال المفسرون: ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ يعني: اللوح المحفوظ، ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ يعني: في السماء السابعة. قال ابن جرير: مرفوعة القدر والذكر، وقيل: مرفوعة عن الشبه والتناقض، ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: منزهة لا يمسها إلا المطهرون. قال الحسن: مطهرة من كل دنس. قال السديّ: مصانة عن الكفار لا ينالونها»[(٤)].

وفي هذه الآية تعظيم حال القرآن والتنويه بذكره[(٥)].

وقوله تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾: **قال ابن جرير**: «اختلف أهل التأويل فيهم ما هم؟ فقال بعضهم: هم كتبة.. وقال آخرون: هم القراء.. وقال آخرون: هم الملائكة..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هم الملائكة الذين يسفرون بين اللَّه ورسله بالوحي»[(٦)].

قال ابن العربي: «وقد قال وهب بن منبّه: إنه أراد بقوله: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ يعني أصحاب محمد ﷺ.

قال القاضي: لقد كان أصحاب محمد كرامًا بررة، ولكن ليسوا بمرادين بهذه

---

(١) عبس: الآية (١٧).
(٢) أفاده عطية سالم في تتمة أضواء البيان (٩/ ٥٣).
(٣) الأعلى: الآيتان (١٨و١٩).
(٤) فتح القدير (٥/ ٥٤٦). وانظر الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٤١).
(٥) مفاتيح الغيب (٣١/ ٥٩).
(٦) جامع البيان (٣٠/ ٥٣-٥٤).

الآية، ولا قاربوا المرادين بها؛ بل هي لفظة مخصوصة بالملائكة عند الإطلاق، ولا يشاركهم فيها سواهم، ولا يدخل معهم في متناولها غيرهم»[١].

وسمّوا سفرة لأنهم يسفرون بالوحي بين اللَّه وبين خلقه؛ قال ابن كثير: «ومنه السفير الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير، كما قال الشاعر:

وما أدع السفارة بين قومي ... وما أمشي بغشّ إن مشيت

وقال البخاري: سفرة: الملائكة سفرت: أصلحت بينهم؛ وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي اللَّه وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم»[٢].

وقال أيضًا: «وقوله: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ أي: خُلُقهم حسن كريم شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة»[٣].

قال الشوكاني: «أي: أتقياء مطيعون لربهم، صادقون في إيمانهم»[٤].

قال السعدي: «وذلك كله حفظ من اللَّه لكتابه أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام، الأقوياء، الأتقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلًا، وهذا مما يوجب الإيمان به، وتلقيه بالقبول»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل حملة القرآن وأنهم يكونون مع السفرة الكرام

* عن عائشة عن النبي ﷺ قال: **«مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة، ومثل الذي يقرأ القرآن وهو يتعاهده وهو عليه شديد فله أجران»**[٦].

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: «يحتمل واللَّه أعلم أن له في الآخرة منازل يكون فيها رفيقًا

---

(١) أحكام القرآن (٤/ ١٩٠٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٤٤).
(٣) المصدر السابق.
(٤) فتح القدير (٥/ ٥٤٧).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٦٩).
(٦) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٨)، والبخاري (٨/ ٨٩٥/ ٤٩٣٧)، ومسلم (١/ ٥٤٩-٥٥٠/ ٧٩٨)، وأبو داود (٢/ ١٤٨/ ١٤٥٤)، والترمذي (٥/ ١٥٧-١٥٨/ ٢٩٠٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٠٦/ ١١٦٤٦)، وابن ماجه (٢/ ١٢٤٢/ ٣٧٧٩).

للملائكة السفرة؛ لاتصافه بوصفهم بحمل كتاب اللَّه، ويحتمل أن يكون المراد أنه عامل بعمل السفرة وسالك مسلكهم كما يقال: فلان مع بني فلان: إذا كان يرى رأيهم ويذهب مذهبهم، كما قال لوط: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١] »[٢].

قال الحافظ: «قال ابن التين: معناه كأنه مع السفرة فيما يستحقه من الثواب. قلت: أراد بذلك تصحيح التركيب، وإلا فظاهره أنه لا ربط بين المبتدأ الذي هو مثل والخبر الذي هو مع السفرة، فكأنه قال: المثل بمعنى الشبيه، فيصير كأنه قال: شبيه الذي يحفظ كائن مع السفرة فكيف به»[٣].

قال الخطابي: «وأما قوله: «مثل الذي يقرأ» فمعناه صفة الذي يقرأ على الوجه الذي ذكره من سهولة القراءة أو تعذرها، وقد يوضع المثل موضع الصفة، كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[٤] يريد صفة الجنة، والمعنى كأنه قال: صفة الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له كأنه مع السفرة الكرام في قراءته القرآن، وفيما يستحقه من الثواب أو نحو ذلك مما يجمعه وإياهم من الفضيلة»[٥].

قال القرطبي: «ويستفيد من هذا حملة القرآن التجوز في التبليغ والتعليم والاجتهاد في تحصيل الصدق وإخلاص النية لله حتى تصح لهم المناسبة بينهم وبين الملائكة»[٦].

* * *

---

(١) الشعراء: الآية (١١٨).

(٢) الإكمال (٣/ ١٦٦).

(٣) فتح الباري (٨/ ٨٩٧).

(٤) الرعد: الآية (٣٥).

(٥) أعلام الحديث (٣/ ١٩٣٩).

(٦) المفهم (٢/ ٤٢٥).

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: «قال القاشاني: لما بين أن القرآن تذكرة للمتذكرين، تعجب من كفران الإنسان واحتجابه حتى يحتاج إلى التذكير. وعدد النعم الظاهرة التي يمكن بها الاستدلال على المنعم بالحس، من مبادئ خلقته، وأحواله في نفسه، وما هو خارج عنه مما لا يمكن حياته إلا به. وقرر أنه مع اجتماع الدليلين، أي: النظر في هذه الأحوال الموجب لمعرفة الموجد المنعم والقيام بشكره، وسماع الوعظ والتذكير بنزول القرآن، لما يقض في الزمان المتطاول ما أمره اللَّه به من شكر نعمته، باستعمالها في إخراج كماله إلى الفعل، والتوصل بها إلى المنعم؛ بل احتجب بها وبنفسه عنه، انتهى»[1].

قال القرطبي: ﴿قُتِلَ﴾ أي: لُعِن، وقيل: عُذّب، و﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾: الكافر. روى الأعمش عن مجاهد قال: ما كان في القرآن: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فإنما عُني به الكافر.. وروى أبو صالح عن ابن عباس: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾: أيُّ شيء أكفره؟ وقيل: (ما) تعجب؛ وعادة العرب إذا تعجبوا من شيء قالوا: قاتله اللَّه ما أحسنه! وأخزاه اللَّه ما أظلمه؛ والمعنى: اعجبوا من كفر الإنسان لجميع ما ذكرنا بعد هذا. وقيل: ما أكفره باللَّه ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليه، على التعجب أيضًا؛ قال ابن جريج: أي ما أشدّ كفره! وقيل: (ما) استفهام، أي: أيّ شيء دعاه إلى الكفر؛ فهو استفهام توبيخ. و(ما) تحتمل التعجب، وتحتمل معنى (أيّ)، فتكون استفهامًا»[2].

قال ابن عاشور: «وهذا تعجيب من شدة كفر هذا الإنسان.

ومعنى شدة الكفر أن كفره شديد كَمًّا وكيْفًا، ومتىً؛ لأنه كفر بوحدانية اللَّه،

---

(١) محاسن التأويل (١٧/ ٦٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٤٢).

وبقدرته على إعادة خلق الأجسام بعد الفناء، وبإرساله الرسول، وبالوحي إليه ﷺ، وأنه كفر قوي لأنه اعتقاد قوي لا يقبل التزحزح، وأنه مستمر لا يقلع عنه مع تكرر التذكير والإنذار والتهديد.

وهذه الجملة بلغت نهاية الإيجاز وأرفع الجزالة بأسلوب غليظ دال على السخط بالغ حدّ المذمة، جامع للملامة، ولم يسمع مثلها قبلها، فهي من جوامع الكلم القرآنية»[1].

قوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩﴾: **قال الرازي**: «اعلم أنه تعالى لما بدأ بذكر القصة المشتملة على ترفع صناديد قريش على فقراء المسلمين، عجب عباده المؤمنين من ذلك، فكأنه قيل: وأيّ سبب في هذا العجب والترفع مع أن أوله نطفة قذرة وآخره جيفة مذرة، وفيها بين الوقتين حمال عذرة، فلا جرم ذكر تعالى ما يصلح أن يكون علاجًا لعجبهم، وما يصلح أن يكون علاجًا لكفرهم، فإن خلقة الإنسان تصلح لأن يستدل بها على وجود الصانع، ولأن يستدل بها على القول بالبعث والحشر والنشر»[2].

قال القرطبي: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨﴾ أي: من أيّ شيء خلق اللّه هذا الكافر فيتكبر؟ أي: اعجبوا لخلقه. ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: من ماء يسير مهين جماد ﴿خَلَقَهُۥ﴾ فلم يغلط في نفسه؟! قال الحسن: كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين. ﴿خَلَقَهُۥ﴾ في بطن أمه. كذا روى الضحاك عن ابن عباس: أي: قدّر يديه ورجليه وعينيه وسائر آرابه، وحسنًا ودميمًا، وقصيرًا وطويلًا، وشقيًّا وسعيدًا. وقيل: ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: فسوّاه، كما قال: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[3]، وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾[4]. وقيل: ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أطوارًا، أي: من حال إلى حال؛ نطفة ثم علقة، إلى أن تمّ خلقه»[5].

قال الرازي: «واعلم أن لكل محدث ثلاث مراتب: أوله ووسطه وآخره، وأنه تعالى ذكر هذه المراتب الثلاث للإنسان»[6].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٢١).
(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ٦٠).
(٣) الكهف: الآية (٣٧).
(٤) الانفطار: الآية (٧).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٤٢).
(٦) مفاتيح الغيب (٣١/ ٦٠).

قال ابن القيم: «وهذا كثير في القرآن؛ يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره، إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسُهُ، وفيه من العجائب الدالة على عظمة اللَّه ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه؛ وهو غافل عنه، معرض عن التفكير فيه، ولو فكّر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره؛ قال اللَّه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾.

فلم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذِكْرَ هذا لنسمع ذكر النطفة والعلقة والمضغة والتراب، ولا لنتكلم بها فقط، ولا لمجرد تعريفنا بذلك، بل لأمر وراء ذلك كله هو المقصود بالخطاب، وإليه جرى ذلك الحديث.

فانظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة؛ وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر، لو مرّت بها ساعة من الزمان فسدت وأنتنت، كيف استخرجها ربّ الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته، مطيعة لمشيئته، مذللة القياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها، إلى أن ساقها إلى مستقرّها ومجمعها، وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى، وألقى المحبة بينهما، وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه، وكيف قدّر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما في موضع واحد جعل لهما قرارًا مكينًا لا يناله هواء يفسده، ولا برد يجمّده، ولا عارض يصل إليه، ولا آفة تتسلط عليه، ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشرقة علقة حمراء تضرب إلى السواد، ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها، ثم جعلها عظامًا مجردة لا كسوة عليها، مباينة للمضغة في شكلها وهيأتها وقدرها وملمسها ولونها»[1].

وفي التصريح بأن مبدأ خلق الإنسان من نطفة -وهي شيء مهين- تنبيه على أن من كان أصله هذا الشيء الحقير؛ لا يليق به التكبر والتجبر[2].

وفي الآية تنبيه على عظيم حكمة اللَّه تعالى؛ إذ كون أبدع مخلوق معروف من

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٦-٧).

(٢) أفاده الرازي في تفسيره (٣١/ ٦١).

أهون شيء وهو النطفة[١].

قال ابن عاشور: «إن المقام هنا ليس لإثبات أن اللَّه خلق الإنسان، بل المقام لإثبات إمكان إعادة الخلق بتنظيره بالخلق الأول على طريقة قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ﴾[٢] أي: كما كان خلق الإنسان أول مرة من نطفة يكون خلقه ثاني مرة من كائن ما، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾[٣] في سورة (الطارق)»[٤].

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾: قال ابن كثير: «قال العوفي عن ابن عباس: ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه. وكذا قال عكرمة والضحاك وأبو صالح وقتادة والسدي، واختاره ابن جرير. وقال مجاهد: هذه كقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾[٥] أي: بيّنّا له ووضّحناه وسهّلنا عليه علمه، وهكذا قال الحسن وابن زيد. وهذا هو الأرجح، واللَّه أعلم»[٦].

قال الشيخ عطية محمد سالم: «ولعل ما رجحه ابن كثير هو الأرجح؛ لأن تيسير الولادة أمر عام في كل حيوان، وهو مشاهد ملموس، فلا مزية للإنسان فيه على غيره، كما أن ما قبله دال عليه أو على مدلوله وهو القدرة في قوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩﴾.

وقد يكون تيسير الولادة داخلًا تحت قوله: فقدره، أي: قدر تخلقه وزمن وجوده وزمن خروجه، وتقديرات جسمه، وقدر حياته، وقدر مماته، كما هو معلوم.

أما تيسير سبيل الدين، فهو الخاص بالإنسان، وهو المطلوب التوجه إليه، وهو الذي يتعلق بغيره ما بين تخلقه من نطفة وتقديره، وبين إماتته وإقباره، أي: فترة حياته في الدنيا، أي: خلقه من نطفة وقدر مجيئه إلى الدنيا، ويسر له الدين في التكاليف، ثم أماته ليرى ماذا عمل، ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾.

ولذا جاء في النهاية بقوله: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾، وليس هنا ما يدل على الأمر، إلا السبيل يسره، واللَّه تعالى أعلم»[٧].

---

(١) أفاده ابن عاشور في التحرير والتنوير (٣٠/ ١٢٢). (٢) ق: الآية (١٥).
(٣) الطارق: الآيات (٥-٨). (٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٢٢).
(٥) الإنسان: الآية (٣). (٦) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٤٥).
(٧) تتمة أضواء البيان (٩/ ٥٥).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «أي: جعل له قبرًا يوارى فيه إكرامًا، ولم يجعله مما يلقى على وجه الأرض تأكله الطير والعوافي؛ قاله الفرّاء. وقال أبو عبيدة: ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾: جعل له قبرًا، وأمر أن يقبر. قال أبو عبيدة: ولما قتل عمر بن هبيرة صالح بن عبد الرحمن، قالت بنو تميم ودخلوا عليه: أقبِرنا صالحًا؛ فقال: دونكموه. وقال: (أقبره) ولم يقل: قَبَره؛ لأن القابر هو الدافن بيده، قال الأعشى:

لو أسندت ميتًا إلى نحرها ... عاش ولم يُنقَل إلى قابِرِ

يقال: قبرت الميت: إذا دفنته، وأقبره الله: أي: صيره بحيث يقبر، وجعل له قبرًا»(١).

قال ابن عاشور: «وهذه كلها دلائل على عظيم قدرة اللَّه تعالى وهم عَدوها قاصرة على الخلق الثاني، وهي تتضمن مننًا على الناس في خلقهم وتسويتهم وإكمال قواهم أحياء، وإكرامهم أمواتًا بالدفن لئلا يكون الإنسان كالشيء اللّقي يجتنب بنو جنسه القرب منه ويهينه التقام السباع وتمزيق مخالب الطير والكلاب، فمحل المنة في قوله: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ هو فيما فرع عليه بالفاء بقوله: ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ وليست الإماتة وحدها منة.

وفي الآية دليل على أن وجوب دفن أموات الناس بالإقبار دون الحرق بالنار كما يفعل مجوس الهند، ودون الإلقاء لسباع الطير في ساحات في الجبال محوطة بجدران دون سقف كما كان يفعله مجوس الفرس، وكما كان يفعله أهل الجاهلية بموتى الحروب والغارات في الفيافي؛ إذ لا يواورنهم بالتراب، وكانوا يفتخرون بذلك ويتمنونه؛ قال الشنفَرى:

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٤٣).

لا تـقـبـرونـي إن قـبـري مـحـرَّم عـلـيـكـم ولـكـن أبـشـري أمَّ عـامـر

يريد أن تأكله الضبع، وأبطل الإسلام ذلك؛ فإن النبي ﷺ دفن شهداء المسلمين يوم أُحُد في قبور مشتركة، ووارى قتلى المشركين ببدر في قليب»[١].

قال الألوسي: «وعد الإماتة من النعم؛ لأنها وصلة في الجملة إلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم، وخصت هذه النعم بالذكر لما فيها من ذكر أحوال الإنسان من ابتدائه إلى انتهائه، وما تتضمن من النعم التي هي محض فضل من اللَّه تعالى، فإذا تأمل ذلك العاقل علم قبح الكفر، وكفران نعم الرب ﷻ، فشكره -جل وعلا- بالإيمان والطاعة»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر ﭭ

* عن عائشة قالت: «إن كان رسول اللَّه ﷺ ليتعذر في مرضه: أين أنا اليوم، أين أنا غدًا؟ استبطاء ليوم عائشة. فلما كان يومي قبضه اللَّه بين سحري ونحري، ودفن في بيتي»[٣].

★ غريب الحديث:

ليتعذر: التعذر يجري مجرى التمنع والتعسر؛ ومن قول امرئ القيس:

ويومًا على ظهر الكثيب تعذرت علـي وآلـت حـلـفـة لـم تـحـلـل

سحري: السحر: الرئة.

نحري: النحر: الصدر.

★ فوائد الحديث:

قال العيني: «مطابقته للترجمة من حيث إنه ﷺ دفن في بيت عائشة وفيه قبره والترجمة في قبر النبي ﷺ»[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٢٥).

(٢) روح المعاني (٣٠/ ٤٤-٤٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٨)، والبخاري (٣/ ٣٢٦/ ١٣٨٩)، ومسلم (٤/ ١٨٩٣/ ٢٤٤٣).

(٤) عمدة القاري (٦/ ٣٠٦).

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قال رسول اللَّه ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: **لعن اللَّه اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي -أو خشي- أن يتخذ مسجدًا**»[1].

★ فوائد الحديث:

بوّب البخاري رحمه الله على هذه الأحاديث في كتاب الجنائز من صحيحه بقوله: باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

قال الحافظ: «قال ابن رشيد معلقًا على الترجمة: قال بعضهم: مراده بقوله: قبر النبي ﷺ: المصدر من قبرته قبرًا، والأظهر عندي أنه أراد الاسم، ومقصوده بيان صفته من كونه مسنمًا أو غير مسنم وغير ذلك مما يتعلق بعضه ببعض»[2].

ثم أورد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾﴾ **قال الحافظ**: يريد تفسير الآية ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾﴾ أي: جعله ممن يقبر لا ممن يلقى حتى تأكله الكلاب مثلًا، وقال أبو عبيدة في المجاز: أقبره: أمر بأن يقبر.[3]

ثم ساق خمسة أحاديث في الباب أولها حديث عائشة ومطابقته للترجمة يقول العيني: مطابقته للترجمة في قوله: «أبرز قبره».[4]

قال القرطبي: «ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر رسول اللَّه ﷺ، فأعلوا حيطان تربته، وسدوا المداخل إليها، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إن كان مستقبل المصلين فتتصور الصلاة إليه بصورة العبادة، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلث من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره. ولهذا الذي ذكرناه كله قالت عائشة: «ولولا ذلك لأبرز قبره»»[5].

وقال الشيخ ابن عثيمين في معنى قوله: «لولا ذلك لأبرز قبره»: «أي لولا التحذير وخوف أن يتخذ قبره مسجدًا؛ لأخرج ودفن في البقيع مثلًا، لكنه في

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٨٠)، والبخاري (٣/ ٣٢٦/ ١٣٩٠)، ومسلم (١/ ٣٧٦/ ٥٢٩).

(٢) فتح الباري (٣/ ٣٢٧). (٣) المصدر نفسه (٣/ ٣٢٧).

(٤) عمدة القاري (٦/ ٣٠٧).

(٥) المفهم (٢/ ١٢٨).

بيته أصون له، وأبعد عن اتخاذه مسجدًا؛ فلهذا لم يبرز قبره، وهذا أحد الأسباب التي أوجبت أن لا يبرز مكان قبره ﷺ.

ومن أسباب ذلك: إخباره ﷺ أنه ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض[(١)]، ولا مانع أن يكون للحكم الواحد سببان فأكثر، كما أن السبب الواحد قد يترتب عليه حكمان أو أكثر؛ كغروب الشمس يترتب عليه جواز إفطار الصائم وصلاة المغرب.. والحقيقة أن الأمر كله حاصل؛ فالرسول ﷺ أخبر بأنه ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض، ولعن اليهود والنصارى لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد خوفًا من اتخاذ قبره مسجدًا، والصحابة ﷺ اتفقوا على أن يدفن ﷺ في بيته بعد تشاورهم لأنهم خشوا ذلك.

ويجوز أن يكون بعضهم أشار بأن يدفن في بيته، وليس في ذهنه إلا هذه الخشية، وبعضهم أشار أن يدفن في بيته وعنده علم بأنه ﷺ قال: «ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض»، وخوفًا من اتخاذه مسجدًا»[(٢)].

* وعن سفيان التمار: «أنه رأى قبر النبي ﷺ مسنمًا»[(٣)].

★ **غريب الحديث:**

مسنم: تسنيم القبر: أن يجعل كهيئة السنام، وهو خلاف تسطيحه.

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «وأما تسنيمها فذلك صفة قبر رسول اللَّه ﷺ، وقبر أبي بكر وعمر ﷺ على ما ذكر في «الموطأ». وقد جاء عن عمر: أنه هدمها وقال: ينبغي أن تسوى تسوية تسنيم. وهذا معنى قول الشافعي: تسطح القبور ولا تبنى، ولا ترفع، وتكون على وجه الأرض وتسنيمها اختيار أكثر العلماء وجملة أصحابنا وأصحاب أبي حنيفة والشافعي.

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٧)، والترمذي (٣/ ٣٣٨/ ١٠١٨) وقال: «حديث غريب»، وأبو يعلى (١/ ٣٢/ ٢٣)، وصححه لشواهده وطرقه الشيخ الألباني في «أحكام الجنائز» (ص: ١٧٤)، و«صحيح الجامع» (رقم: ٣٦٧٠)، من حديث أبي بكر الصديق ﷺ.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين (٩/ ٣٩٢-٣٩٣).

(٣) أخرجه: البخاري (٣/ ٣٢٦/ ١٣٩٠).

قلت: والذي صار إليه عمر أولى، فإنه جمع بين التسوية والتسنيم»[١].

وقال ابن القيم: «وكانت قبور أصحابه لا مشرفة ولا لاطئة، وهكذا كان قبره الكريم وقبر صاحبيه، فقبره ﷺ مسنم مبطوح ببطحاء العرصة الحمراء، لا مبني ولا مطين، وهكذا كان قبر صاحبيه»[٢].

* عن عائشة رضي الله عنها أنها أوصت عبد اللَّه بن الزبير رضي الله عنهما: «لا تدفني معهم، وادفني مع صواحبي بالبقيع، لا أزكى به أبدًا»[٣].

★ غريب الحديث:

لا أزكى به أبدًا: أي: ما يثنى علي بسببه، و(أزكى) على صيغة المجهول، من التزكية.

★ فوائد الحديث:

قال القسطلاني: «قولها: «لا تدفني معهم»: مع النبي ﷺ وصاحبيه، «وادفني مع صواحبي»: أمهات المؤمنين بالبقيع. زاد الإسماعيلي من طريق عبدة عن هشام: «وكان في بيتها موضع قبرها»»[٤].

وقال الحافظ: «قوله: «لا أُزكى» بضم أوله وفتح الكاف على البناء للمجهول، أي: لا يثنى علي بسببه، ويجعل لي بذلك مزية، وفضل وأنا في نفس الأمر يحتمل أن لا أكون كذلك، وهذا منها على سبيل التواضع وهضم النفس، بخلاف قولها لعمر: كنت أريده لنفسي، فكأن اجتهادها في ذلك تغير أو لما قالت ذلك لعمر كان قبل أن يقع لها ما وقع في قصة الجمل فاستحيت بعد ذلك أن تدفن هناك، وقد قال عنها عمار بن ياسر وهو أحد من حاربها يومئذ: إنها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة.. وهو كما قال رضي اللَّه تعالى عنهم أجمعين»[٥].

* عن عمرو بن ميمون الأودي قال: «رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا عبد اللَّه بن عمر! اذهب إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقل: يقرأ عمر بن الخطاب عليك

---

(١) المفهم (٢/ ٦٢٦). (٢) زاد المعاد (١/ ٥٢٤).
(٣) البخاري (٣/ ٣٢٧/ ١٣٩١).
(٤) إرشاد الساري (٣/ ٥٦١).
(٥) فتح الباري (٣/ ٣٢٩).

السلام، ثم سلها أن أدفن مع صاحبي قالت: كنت أريده لنفسي، فلأوثرنه اليوم على نفسي، فلما أقبل قال له: ما لديك؟ قال: أذنت لك يا أمير المؤمنين. قال: ما كان شيء أهم إلي من ذلك المضجع، فإذا قبضت فاحملوني، ثم سلموا ثم قل: يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنت لي فادفنوني وإلا فردوني إلى مقابر المسلمين، إني لا أعلم أحدًا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول اللَّه ﷺ وهو عنهم راض، فمن استخلفوا بعدي فهو الخليفة فاسمعوا له وأطيعوا، فسمى عثمان وعليًا وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، وولج عليه شاب من الأنصار فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله: كان لك من القدم في الإسلام ما قد علمت، ثم استخلفت فعدلت، ثم الشهادة بعد هذا كله. فقال: ليتني يا بن أخي وذلك كفافًا لا علي ولا لي. أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين خيرًا، أن يعرف لهم حقهم، وأن يحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيرا، الذين تبوءوا الدار والإيمان أن يقبل من محسنهم ويعفى عن مسيئهم، وأوصيه بذمة اللَّه وذمة رسوله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم، وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم»(١).

★ غريب الحديث:

فلأوثرنه: من الإيثار يقال: آثرت فلانًا على نفسي إذا اختاره على نفسه وفضله عليه.

كفافًا: الكفاف في الأصل هو الذي لا يفضل عن الشيء ويكون بقدر الحاجة إليه.

★ فوائد الحديث:

قال العيني: «مطابقته للترجمة تؤخذ من قضية عمر بن الخطاب؛ لأن فيها السؤال بأن يدفن مع صاحبيه وهما النبي ﷺ وأبو بكر رضي اللَّه تعالى عنه، وما ذاك إلا في قبر النبي ﷺ والترجمة فيه»(٢).

---

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ٣٢٧/ ١٣٩٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٨٥/ ١١٥٨١) مختصرًا.

(٢) عمدة القاري (٦/ ٣١٤).

قال الحافظ: «قال ابن التين: قول عائشة في قصة عمر: «كنت أريده لنفسي» يدل على أنه لم يبق ما يسع إلا موضع قبر واحد، فهو يغاير قولها عند وفاتها: «لا تدفني عندهم» فإنه يشعر بأنه بقي من البيت موضع للدفن، والجمع بينهما أنها كانت أولًا تظن أنه لا يسع إلا قبرًا واحدًا، فلما دفن ظهر لها أن هناك وسعًا لقبر آخر»[1].

وقال العيني: «وإنما استأذنها عمر في ذلك ورغب لها فيه لأن الموضع كان بيتها ولها فيه حق ولها أن تؤثر بها نفسها لذلك، فآثرت به عمر رضي اللَّه تعالى عنه»[2].

* * *

(١) فتح الباري (٣/ ٣٣٠).

(٢) عمدة القاري (٦/ ٣٠٥).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: بعثه بعد موته؛ ومنه يقال: البعث والنشور، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾[1]، (وانظر إلى العظام كيف ننشرها ثم نكسوها لحمًا)[2] »[3].

قال الرازي: «وإنما قال: ﴿إِذَا شَآءَ﴾ إشعارًا بأن وقته غير معلوم لنا، فتقديمه وتأخيره موكول إلى مشيئة اللَّه تعالى»[4].

وقوله: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾: **قال ابن كثير**: «قال ابن جرير: يقول: ﴿كَلَّا﴾، ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر؛ من أنه قد أدى حق اللَّه عليه في نفسه وماله، ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ يقول: لم يُؤدّ ما فُرض عليه من الفرائض لربه ﷻ.

ثم روى -هو وابن أبي حاتم- من طريق ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد قوله: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ قال: لا يقضي أحد أبدًا كل ما افتُرض عليه. وحكاه البغوي، عن الحسن البصري، بنحو من هذا. ولم أجد للمتقدمين فيه كلامًا سوى هذا. والذي يقع لي في معنى ذلك -واللَّه أعلم- أن المعنى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ أي: بعثه، ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ أي: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة، ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب تعالى له أن سيُوجَدُ منهم، ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كونًا وقدرًا، فإذا تناهى ذلك عند اللَّه أنشر اللَّه الخلائق وأعادهم كما بدأهم»[5].

قال السعدي: «فاللَّه هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهذه التصاريف، لم يشاركه فيه مشارك، وهو مع هذا لا يقوم بما أمره اللَّه، ولم يقض ما فرضه عليه، بل لا يزال مقصرًا تحت الطلب»[6].

---

(١) الروم: الآية (٢٠).
(٢) البقرة: الآية (٢٥٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٤٦).
(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ٦١).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٤٦). وانظر جامع البيان (٣٠/ ٥٦).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٧٠).

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

★ غريب الآية:

قضبًا: القضب: كل ما يقطع من البقول، مثل الكرّاث، وسائر البقول التي تقطع فينبت أصلها.

غُلْبًا: أي: ذات أشجار غلاظ ملتفة الأغصان. من قولهم: رجل أَغْلَب، أي: غليظ الرقبة. قال الفرزدق:

عوى فأثار أغلب ضيغميًا ... فويل ابن المراغة ما استثارا

أبًّا: الأبُّ: المرعى مطلقًا. وكل ما تنبته الأرض مما تأكله البهائم كالكلأ والعشب. قال الأعشى:

جدنا قيس ونجد دارنا ... ولنا الأب بها والمكرعُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «لما ذكر -جل ثناؤه- ابتداء خلق الإنسان، ذكر ما يسّر من رزقه؛ أي: فلينظر كيف خلق اللَّه طعامه. وهذا النظر نظر القلب بالفكر؛ أي: ليتدبّر كيف خلق اللَّه طعامه الذي هو قِوام حياته، وكيف هيّأ له أسباب المعاش، ليستعدّ بها للمعاد»(١).

قال الرازي: «ولا شك أنه موضع الاعتبار؛ فإن الطعام الذي يتناول الإنسان له حالتان، إحداهما متقدمة: وهي الأمور التي لا بد من وجودها حتى يدخل ذلك الطعام في الوجود، والثانية متأخرة: وهي الأمور التي لا بد منها في بدن الإنسان

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٤٣).

حتى يحصل له الانتفاع بذلك الطعام المأكول، ولما كان النوع الأول أظهر للحسن وأبعد عن الشبهة، لا جرم اكتفى اللَّه تعالى بذكره؛ لأن دلائل القرآن لا بد وأن تكون بحيث ينتفع بها كل الخلق، فلا بد وأن تكون أبعد عن اللبس والشبهة، وهذا هو المراد من قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾»[1].

قال ابن عاشور: «وهذا استدلال آخر على تقريب كيفية البعث، انتقل إليه في معرض الإرشاد إلى تدارك الإنسان ما أهمله، وكان الانتقال من الاستدلال بما في خَلْق الإنسان من بديع الصنع من دلائل قائمة بنفسه في آية: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾﴾[2] إلى الاستدلال بأحوال موجودة في بعض الكائنات شديدة الملازمة لحياة الإنسان ترسيخًا للاستدلال، وتفننًا فيه، وتعريضًا بالمنة على الإنسان في هذه الدلائل، من نعمة النبات الذي به بقاء حياة الإنسان وحياة ما ينفعه من الأنعام.

وتعدية فعل النظر هنا بحرف (إلى) تدل على أنه من نظر العين إشارة إلى أن العبرة تحصل بمجرد النظر في أطواره. والمقصود التدبر فيما يشاهده الإنسان من أحوال طعامه بالاستدلال بها على إيجاد الموجودات من الأرض. وجُعل المنظور إليه ذاتَ الطعام مع أن المراد النظر إلى أسباب تكونه وأحوال تطوره إلى حالة انتفاع الإنسان به وانتفاع أنعام الناس به.

وذلك من أسلوب إناطة الأحكام بأسماء الذوات، والمراد أحوالها مثل قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾[3] أي: أكلها، فأمر اللَّه الإنسان بالتفكير في أطوار تكوّن الحبوب والثمار التي بها طعامه، وقد وُصف له تطور ذلك ليتأمّل ما أُودع إليه في ذلك من بديع التكوين، سواء رأى ذلك ببصره أم لم يره، ولا يخلو أحد عن علم إجمالي بذلك، فيزيده هذا الوصف علمًا تفصيليًا، وفي جميع تلك الأطوار تمثيل لإحياء الأجساد المستقرة في الأرض، فقد يكون هذا التمثيل في مجرد الهيئة الحاصلة بإحياء الأجساد، وقد يكون تمثيلًا في جميع تلك الأطوار بأن تُخرج الأجساد من الأرض كخروج النبات بأن يكون بذرها في الأرض ويرسل اللَّه لها قوىً لا نعلمها تُشابه قوة الماء الذي به تحيا بذور النبات، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٦٢).

(٢) عبس: الآية (١٨).

(٣) المائدة: الآية (٣).

﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾[1] »[2].

قال ابن كثير: «فيه امتنان، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعدما كانت عظامًا بالية وترابًا متمزقًا»[3].

قلت: وفي الآية قول آخر، وهو أن موضع الاعتبار النظر إلى مآل الطعام ومصيره، وانقلابه إلى عذرة مستقبحة. قال القرطبي: «وروي عن الحسن ومجاهد قالا: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤﴾ أي: إلى مدخله ومخرجه»[4].

قال الألوسي: «ما روي عن أبيّ وابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم أن المعنى: فلينظر إلى طعامه إذا صار رجيعًا؛ ليتأمل عاقبة الدنيا وما تهالك عليه أهلها؛ ولعمري إن هذا بعيد الإرادة عن السياق، ولا أظن أنه وقع على صحة روايته عن هؤلاء الأجلة الاتفاق»[5].

قلت: وهذا ما رجّحه الشوكاني، ويؤيده قوله بعده: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥﴾؛ فإنه دالّ للمعنى الأول، وهو قول أكثر المفسرين.

قوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥﴾: **قال الرازي**: «اعلم أن النبت إنما يحصل من القطر النازل من السماء الواقع في الأرض، فالسماء كالذكر، والأرض كالأنثى، فذكر في بيان نزل القطر . .

قوله: ﴿صَبَبْنَا﴾ المراد منه الغيث، ثم انظر في أنه كيف حدث الغيث المشتمل على هذه المياه العظيمة، وكيف بقي معلقًا في جو السماء مع غاية ثقله، وتأمل في أسبابه القريبة والبعيدة، حتى يلوح لك شيء من آثار نور اللّٰه وعدله وحكمته، وفي تدبير خلقه هذا العالم»[6].

قال عطية سالم: «وقد اتفقت الآيتان على خطوات ثلاث متطابقة فيهما؛ فصب الماء من السماء إلى الأرض يقابل دفق الماء في الرحم، وشق الأرض للنبات يقابل خروجه إلى الدنيا، وإنبات أنواع النباتات يقابل تقادير الخلق المختلفة»[7].

---

(١) نوح: الآيتان (١٧و١٨).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٢٩-١٣٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٤٧).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٤٣-١٤٤).
(٥) روح المعاني (٣٠/ ٤٦).
(٦) مفاتيح الغيب (٣١/ ٦٢-٦٣).
(٧) تتمة أضواء البيان (٩/ ٥٦).

قوله: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾: **قال ابن كثير**: «أي: أسكناه [أي: الماء] فيها، فدخل في تخومها، وتخلل في أجزاء الحب المودع فيها، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض»(١).

قلت: وإسناد الشق إلى اللَّه تعالى إسناد حقيقي. وخالف في هذا المعتزلة، فقد قال إمامهم الزمخشري: «وإسناد الشق إلى نفسه إسناد الفعل إلى السبب». قال ابن المنير رادًّا عليه: «ما رأيت كاليوم قط عبدًا ينازع ربه؛ اللَّه تعالى يقول: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا﴾، فيضيف فعله إلى ذاته حقيقة كما أضاف بقية أفعاله من عند قوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾(٢) وهلمّ جرًّا. والزمخشري يجعل الإضافة مجازية من باب إسناد الفعل إلى سببه، فيجعل إضافة الفعل إلى اللَّه تعالى من باب إضافة الشق إلى الحراث؛ لأنه السبب، قتل القدريّ ما أكفره على قول! وما أضله على آخر! وإذا جعل شق الأرض مضافًا إلى الحراث حقيقة وإلى اللَّه مجازًا فما يمنعه أن يجعل الحراث هو الذي صبب الماء وأنبت الحب والعنب والقضب حقيقة، وهل هما إلا واحد؟»(٣).

قوله: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾: **قال ابن جرير**: «يعني حب الزرع، وهو كل ما أخرجته الأرض من الحبوب، كالحنطة والشعير وغير ذلك»(٤).

قوله: ﴿وَعِنَبًا﴾: **قال ابن عاشور**: «ثمر الكرم، والخل، ويؤكل رطبًا، ويتخذ منه الزبيب»(٥).

قوله: ﴿وَقَضْبًا﴾: **قال الرازي**: «فيه قولان:

الأول: أنه الرطبة وهي التي إذا يبست سميت بالقت، وأهل مكة يسمونها بالقضب، وأصله من القطع؛ وذلك لأنه يقضب مرة بعد أخرى، وكذلك القضيب؛ لأنه يقضب، أي: يقطع. وهذا قول ابن عباس والضحاك ومقاتل، واختيار الفراء وأبي عبيدة والأصمعي.

والثاني: قال المبرد: القضب هو العلف بعينه، وأصله من أنه يقضب، أي: يقطع، وهو قول الحسن»(٦).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٤٧).
(٢) عبس: الآية (١٩).
(٣) الكشاف (٤/ ٢١٩).
(٤) جامع البيان (٣٠/ ٥٧).
(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٣١).
(٦) مفاتيح الغيب (٣١/ ٦٣).

قوله: ﴿وَزَيْتُونًا﴾: **قال ابن جرير**: «وهو الزيتون الذي منه الزيت»[١].

قوله: ﴿وَنَخْلًا﴾: «النخل: الشجر الذي ثمرته التمر وأطواره. .

وإنما ذكر النخل دون ثمرته، وهو التمر، خلافًا لما قُرن به من الثمار والفواكه والكلأ؛ لأن منافع شجر النخيل كثيرة لا تقتصر على ثمره، فهم يقتاتون ثمرته من تمر ورُطب وبُسر، ويأكلون جُمّاره، ويشربون ماء عود النخلة إذا شُق عنه، ويتخذون من نوى التمر علفًا لإبلهم، وكل ذلك من الطعام، فضلًا عن اتخاذهم البيوت والأواني من خشبه، والحُصُر من سعفه، والحبال من ليفه. فذِكرُ اسم الشجرة الجامعة لهذه المنافع أجمع في الاستدلال بمختلف الأحوال، وإدماج الامتنان بوفرة النعم»[٢].

قلت: وللإمام ابن القيم كلام ماتع في وصف النخلة، وبيان منافعها؛ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تأمل هذه النخلة التي هي إحدى آيات اللَّه، تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك؛ فإنه لما قدّر أن يكون فيه إناث تحتاج إلى اللقاح، جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة ذكور الحيوان وإناثه. .

فمنها: ثبات أصلها في الأرض واستقراره فيها. .

ومنها: طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها. .

ومنها: سهولة تناول ثمرتها وتيسره، أما قصيرها فلا يحتاج المتناول أن يرقاها، وأما باسقها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال وغيرها، فتراها كأنها قد هُيّئت منها المراقي والدرج إلى أعلاها. .

ومنها: أن ثمرها من أنفع ثمار العالم؛ فإنه يؤكل رُطَبه فاكهة وحلاوة، ويابسه يكون قوتًا وأُدمًا وفاكهة، ويُتخذ منه الخل والناطف والحلوى، ويدخل في الأدوية والأشربة، وعموم المنفعة به وبالعنب فوق كل الثمار.

وقد اختلف الناس في أيهما أنفع وأفضل؟ وصنّف الجاحظ في المحاكمة بينهما مجلدًا، فأطال فيها الحجاج والتفضيل من الجانبين.

وفصلُ النزاع في ذلك أنّ النخل في معدنه ومحلّ سلطانه أفضل من العنب وأعمّ نفعًا وأجدى على أهله كالمدينة والحجاز والعراق، والعنب في معدنه ومحلّ سلطانه

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٥٧). (٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٣٢).

أفضل وأعم نفعًا وأجدى على أهله كالشام والجبال والمواضع الباردة التي لا تقبل النخيل . .

ومنها : أن النخلة كلها منفعة لا يسقط منها شيء بغير منفعة، فتمرها منفعة، وجذعها فيه من المنافع ما لا يُجهل للأبنية والسقوف وغير ذلك، وسعفها تُسقف به البيوت مكان القصب، ويُستر به الفُرَج والخلل، وخوصها يُتخذ منه المكاتل والزنابيل وأنواع الآنية، والحُصُر وغيرها، وليفها وكَرَبها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس . .

ومنها : أن قلبها من أطيب القلوب وأحلاه، وهذا أمر خصت به دون سائر الأشجار . .

ومنها : أنها لا يتعطل نفعها بالكلية أبدًا، بل إن تعطلت منها منفعة ففيها منافع أُخَر حتى لو تعطلت ثمارها سنة لكان للناس في سعفها وخوصها وليفها وكربها منافع وآراب . .

فتأمل خلقة الجذع الذي لها كيف هو؟ تجده كالمنسوج من خيوط ممدودة كالسدى، وأخرى معترضة كاللُّحمة، كنحو المنسوج باليد، وذلك لتشتدّ وتصلب فلا تنقصف من حمل القنوان الثقيلة، وتصبر على هزّ الرياح العاصفة، ولبثها في السقوف والجسور والأواني وغير ذلك مما يُتّخذ منها، وهكذا سائر الخشب وغيرها إذا تأمّلته شبهَ النَّسج، ولا تراه مصمتًا كالحجر الصلد، بل ترى بعضه كأنه داخل بعضًا طولًا وعرضًا كتداخل أجزاء اللُّحَم بعضِها في بعض، فإنّ ذلك أمتن له وأهيأ لما يراد منه؛ فإنه لو كان مصمتًا كالحجارة لم يمكن أن يُستعمل في الآلات والأبواب والأواني والأمتعة والأسرّة والتوابيت وما يشبهها .

ومن بديع الحكمة في الخشب أن جُعل يطفو على الماء، وذلك للحكمة البالغة؛ إذ لولا ذلك لما كانت هذه السفن تحمل أمثال الجبال من الحمولات والأمتعة وتمخر البحر مقبلة ومدبرة، ولولا ذلك لما تهيّأ للناس هذه المرافق لحمل هذه التجارات العظيمة والأمتعة الكثيرة ونقلها من بلد إلى بلد من حيث لو نُقلت في البرّ لعظمت المؤنة في نقلها، وتعذّر على الناس كثير من مصالحهم»[1] .

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ١١٦-١٢٢) باختصار وتصرف .

قوله: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠﴾: قال ابن عاشور: «الحدائق: جمع حديقة، وهي الجنة من نخل وكرم وشجر فواكه وعطفها على النخل، من عطف الأعمّ على الأخصّ، ولأن في ذكر الحدائق إدماجًا للامتنان بها؛ لأنها مواضع تنزههم واخترافهم»[١].

قال عطية محمد سالم: «وفي التنصيص على أنواع النبات من حب وقضب وعنب ورمان وزيتون ونخيل وفواكه متعددة، وحدائق ملتفة، لظهور معنى المغايرة فيها، مع أنها من أصلين مشتركين: الماء من السماء، والتربة في الأرض، يسقى بماء واحد.

ومرة أخرى يقال للشيوعيين والدهريين: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨﴾[٢]، ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾[٣].

إنهم بلا شك لا يدعون لأنفسهم فعل شيء من ذلك، وإنهم ليعلمون أن لها خالقًا مدبّرًا، ولكنهم يكابرون، ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[٤]، صدق اللَّه العظيم، وكذب كل كفار أثيم»[٥].

قوله: ﴿وَفَٰكِهَةً﴾: الفاكهة: ما يتفكه به من الثمار[٦]. وهي ما يأكله الإنسان من ثمار الأشجار، كالعنب والتين والخوخ ونحوها[٧]. سميت بذلك لأنها تؤكل للتفكه لا للاقتيات[٨].

قال الرازي: «وقد استدل بعضهم بأن اللَّه تعالى لما ذكر الفاكهة معطوفة على العنب والزيتون والنخل؛ وجب أن لا تدخل هذه الأشياء في الفاكهة، وهذا قريب من جهة الظاهر؛ لأن المعطوف مغاير للمعطوف عليه»[٩].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٣٢).
(٢) عبس: الآيتان (١٧و١٨).
(٣) الواقعة: الآيات (٥٨-٦٥).
(٤) النمل: الآية (١٤).
(٥) تتمة أضواء البيان (٩/ ٥٦-٥٧).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٤٧).
(٧) فتح القدير (٥/ ٥٤٩).
(٨) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٣٢).
(٩) مفاتيح الغيب (٣١/ ٦٤).

والجواب عن هذا أنه: «عطف عام فيدخل رطب وعنب ورمان وأترج وتمر وزبيب وغير ذلك، وهذا بالنظر لعطفه على ﴿وَعِنَبًا﴾، وأما إذا عطف على حدائق كما هو المتبادر فهو عطف خاص على عام كما لا يخفى، ثم الفاكهة ما يأكله الناس من ثمار الأشجار كالعنب والتين والخوخ ونحوه»[1].

قال الألوسي: «وأيًّا ما كان فذكر ما يدخل فيها أولًا للاعتناء بشأنه»[2].

قوله: ﴿وَأَبًّا﴾: **قال ابن كثير**: «قال ابن عباس: الأبّ: ما أنبتت الأرض، مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس. وفي رواية عنه: هو الحشيش للبهائم. وقال مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو مالك: الأبّ: الكلأ. وعن مجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد: الأبّ للبهائم كالفاكهة لبني آدم. وعن عطاء: كل شيء نبت على وجه الأرض فهو أبّ. وقال الضحاك: كل شيء أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو أبّ.

وقال ابن إدريس، عن عاصم بن كليب، عن أبيه، عن ابن عباس: الأبّ: نبت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس. ورواه ابن جرير من ثلاث طرق، عن ابن إدريس، ثم قال: حدثنا أبو كريب وأبو السائب قالا: حدثنا ابن إدريس، حدثنا عبد الملك، عن سعيد بن جبير قال: عدّ ابن عباس وقال: الأبّ: ما أنبتت الأرض للأنعام. هذا لفظ أبي كريب. وقال أبو السائب: ما أنبتت الأرض مما يأكل الناس وتأكل الأنعام.

وقال العوفي، عن ابن عباس: الأبّ: الكلأ والمرعى. وكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد، وغير واحد»[3].

قوله: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾: **قال ابن جرير**: «يقول: أنبتنا هذه الأشياء التي يأكلها بنو آدم متاعًا لكم أيها الناس، ومنفعة تتمتعون بها، وتنتفعون، والتي يأكلها الأنعام لأنعامكم، وأصل الأنعام: الإبل، ثم تستعمل في كل راعية»[4].

قال القرطبي: «وهذا مثل ضربه اللَّه تعالى لبعث الموتى من قبورهم، كنبات الزرع بعد دُثوره. . ويتضمن امتنانًا عليهم بما أنعم به»[5].

---

(١) فتح البيان (١٥/ ٨٦).
(٢) روح المعاني (٣٠/ ٤٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٤٧-٣٤٨).
(٤) جامع البيان (٣٠/ ٦١).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٤٥).

قال ابن عاشور: «وهذه الحال واقعة موقع الإدماج، أدمجت الموعظة والمنة في خلال الاستدلال»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في خفاء معنى (الأبّ) على عمر وتحرجه عن التفسير بغير علم

* عن أنس أنه سمع عمر بن الخطاب ﷺ يقول: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾﴾ قال: فكل هذا قد عرفناه، فما الأبّ؟ ثم نقض عصًا كانت في يده، فقال: «هذا لعمر اللّٰه التكلف؛ اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب»(٢).

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «هذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض؛ لقوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾﴾»(٣).

قال الأصفهاني: «الأب: المرعى المتهيئ للرعي والجز؛ من قولهم: أب لكذا، أي: تهيأ»(٤).

قال ابن عطية: «وفي اللفظة غرابة، وقد توقف في تفسيرها أبو بكر وعمر ﷺ»(٥).

وقال ابن عاشور: «والذي يظهر لي في انتفاء علم الصديق والفاروق بمدلول (الأبّ) وهما من خلص العرب لأحد سببين:

إما لأن هذا اللفظ كان قد تنوسي من استعمالهم، فأحياه القرآن لرعاية

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٣٤).

(٢) أخرجه: ابن جرير (٣٠/ ٦٠-٦١)، والحاكم (٢/ ٥١٤) واللفظ له. وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٢٤/ ٢٢٨١) ونسبه ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٣٦٤) لعبد بن حميد، وصححه. صحح إسناده أيضًا ابن كثير في تفسيره (٨/ ٣٤٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٤٨).

(٤) مفردات ألفاظ القرآن (ص: ٥٩).

(٥) المحرر الوجيز (٥/ ٤٣٩).

الفاصلة؛ فإن الكلمة قد تشتهر في بعض القبائل، أو في بعض الأزمان، وتنسى في بعضها، مثل اسم (السكين) عند الأوس والخزرج، فقد قال أنس بن مالك: ما كنا نقول إلا (المدية) حتى سمعت قول رسول اللَّه ﷺ يذكر أن سليمان عليه السلام قال: «**ائتوني بالسكين أقسم الطفل بينهما نصفين**»[(١)].

وإما لأن كلمة (الأبّ) تطلق على أشياء كثيرة، منها: النبت الذي ترعاه الأنعام، ومنها: التبن، ومنها: يابس الفاكهة، فكان إمساك عمر عن بيان معناه لعدم الجزم بما أراد اللَّه منه على التعيين، وهل (الأبّ) مما يرجع إلى قوله: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ﴾ أو إلى قوله: ﴿وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ في جمع ما قسم قبله»[(٢)].

وذكر في «الكشاف» وجهًا آخر فقال: «إن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة على العمل، وكان التشاغل بشيء من العلم لا يعمل به تكلفًا عندهم، فأراد أن الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره، وقد علم من فحوى الآية أن الأب بعد ما أنبته اللَّه للإنسان متاعًا له ولأنعامه، فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر لله على ما تبين لك ولم يشكل مما عدد من نعمه، ولا تتشاغل عنه بطلب معنى (الأب) ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له، واكتف بالمعرفة الجميلة إلى أن يتبين لك في غير هذا الوقت، ثم وصى الناس بأن يجروا على هذا السنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن»[(٣)].

قال شيخ الإسلام بعد سوقه لأثر عمر وما في معناه: «فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا فلا حرج عليه؛ ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٢)، والبخاري (٦/ ٥٦٦/ ٣٤٢٧)، ومسلم (٣/ ١٣٤٤-١٣٤٥/ ١٧٢٠)، والنسائي (٨/ ٦٢٦-٦٢٧/ ٥٤٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تنبيه: ذكر المؤلف أن أنس بن مالك هو من قال ذلك، والذي في تخريج هذا الحديث أن هذا الكلام من قول أبي هريرة، وليس من قول أنس، فليتنبه لهذا.

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٣٣).

(٣) الكشاف (٤/ ٢٢٠).

به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[1]، ولما جاء في الحديث المروي من طرق: «**من سئل عن علم فكتمه، أُلجم يوم القيامة بلجام من نار**»[2] »[3].

* * *

(١) آل عمران: الآية (١٨٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٣)، وأبو داود (٤/ ٦٧-٦٨/ ٣٦٥٨)، والترمذي (٥/ ٢٩/ ٢٦٤٩) وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه (١/ ٩٦/ ٢٦١)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١/ ٢٩٧/ ٩٥)، والحاكم (١/ ١٠١) ووافقه الذهبي، والبغوي في شرح السنة (١/ ٣٠١/ ١٤٠) وقال: «هذا حديث حسن، من طرق عن أبي هريرة ﷺ».

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٧٤-٣٧٥).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾

★ **غريب الآية:**

الصاخة: الصيحة الشديدة التي تصخ الآذان، أي: تصمها. وقيل: هي التي تصيخ لها الأسماع؛ من قولك: أصاخ إلى كذا، أي: استمع إليه. والمراد: القيامة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الأشياء وكان المقصود منها أمورًا ثلاثة: أولها: الدلائل الدالة على التوحيد، وثانيها: الدلائل الدالة على القدرة على المعاد، وثالثها: أن هذا الإله الذي أحسن إلى عبيده بهذه الأنواع العظيمة من الإحسان، لا يليق بالعاقل أن يتمرد عن طاعته وأن يتكبر على عبيده أتبع هذه الجملة بما يكون مؤكدًا لهذه الأغراض وهو شرح أهوال القيامة، فإن الإنسان إذا سمعها خاف فيدعوه ذلك الخوف إلى التأمل في الدلائل والإيمان بها والإعراض عن الكفر، ويدعوه ذلك أيضًا إلى ترك التكبر على الناس، وإلى إظهار التواضع إلى كل أحد، فلا جرم ذكر القيامة فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣﴾. قال المفسرون: يعني صيحة القيامة، وهي النفخة الأخيرة»(١).

قال القرطبي: «والصاخة: الصيحة التي تكون عنها القيامة، وهي النفخة الثانية تصخّ الأسماع، أي: تصمّها فلا تسمع إلا ما يدعى به للأحياء، وذكر ناس من المفسرين قالوا: تصيخ لها الأسماع من قولك: أصاخ لكذا، أي: استمع إليه، ومنه الحديث: «وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة شفقًا من الساعة، إلا الجن والإنس»(٢)، وقال الشاعر:

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٦٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٨٦) و(٥/ ٤٥٠و٤٥١و٤٥٣)، ومسلم (٢/ ٥٨٥/ ٨٥٤[١٨])، وأبو داود (١/ ٦٣٤/ ١٠٤٦)، والترمذي (٢/ ٣٦٢-٣٦٣/ ٤٩١)، والنسائي (٣/ ١٢٧-١٢٨/ ١٤٢٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

يــصــيــخ لــلــنّــبــأة أســمــاعــه إصــاخــة الــمــنــشــد لــلــمــنــشــد

قال بعض العلماء: وهذا يؤخذ على جهة التسليم للقدماء. فأما اللغة فمقتضاها القول الأول»[(١)].

وقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾:

قال القرطبي: «أي: يهرب، أي: تجيء الصاخة في هذا اليوم الذي يهرب فيه من أخيه؛ أي: من موالاة أخيه ومكالمته؛ لأنه لا يتفرغ لذلك؛ لاشتغاله بنفسه؛ كما قال بعده: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ أي: يشغله عن غيره. وقيل: إنما يفر حذرًا من مطالبتهم إياه، لما بينهم من التَّبِعات. وقيل: لئلاّ يروا ما هو فيه من الشدة. وقيل: لعلمه أنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئًا؛ كما قال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾[(٢)]. وقال عبد اللَّه بن طاهر الأبهري: يفرّ منهم لما تبين له من عجزهم وقلة حيلتهم، إلى من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنه، ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما اعتمد شيئًا سوى ربه تعالى. ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ أي: زوجته، ﴿وَبَنِيهِ﴾ أي: أولاده»[(٣)].

قال الرازي: «المراد أن الذين كان المرء في دار الدنيا يفرّ إليهم ويستجير بهم، فإنه يفرّ منهم في دار الآخرة؛ ذكروا في فائدة الترتيب كأنه قيل: يوم يفرّ المرء من أخيه، بل من أبويه؛ فإنهما أقرب من الأخوين، بل من الصاحبة والولد؛ لأن تعلق القلب بهما أشد من تعلقه بالأبوين»[(٤)].

قال ابن عاشور: «وكون أقرب الناس للإنسان يفرّ منهم يقتضي هول ذلك اليوم، بحيث إذا رأى ما يحل من العذاب بأقرب الناس إليه توهم أن الفرار منه ينجيه من الوقوع في مثله، إذ قد علم أنه كان مماثلًا لهم فيما ارتكبوه من الأعمال، فذكرت هنا أصناف من القرابة؛ فإن القرابة آصرة تكون لها في النفس معزة وحرص على سلامة صاحبها وكرامته. والإلف يحدث في النفس حرصًا على الملازمة والمقارنة. وكلا هذين الوجدانين يصد صاحبه عن المفارقة، فما ظنك بهول يغشى على هذين الوجدانين فلا يترك لهما مجالًا في النفس.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٤٦).
(٢) الدخان: الآية (٤١).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٤٦).
(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ٦٥).

ورتبت أصناف القرابة في الآية حسب الصعود من الصنف إلى من هو أقوى منه تدرجًا في تهويل ذلك اليوم.

فابتدئ بالأخ لشدة اتصاله بأخيه من زمن الصبا، فينشأ بذلك إلف بينهما يستمر طول الحياة، ثم ارتُقي من الأخ إلى الأبوين وهما أشد قربًا لابنيهما، وقدمت الأم في الذكر لأن إلف ابنها بها أقوى منه بأبيه وللرعي على الفاصلة، وانتقل إلى الزوجة والبنين وهما مجتمع عائلة الإنسان وأشد الناس قربًا به وملازمة.

وأطنب بتعداد هؤلاء الأقرباء دون أن يقال: يوم يفر المرء من أقرب قرابته مثلًا لإحضار صورة الهول في نفس السامع.

وكل من هؤلاء القرابة إذا قدرته هو الفارّ كان من ذُكر معه مفرورًا منه إلا قوله: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ لظهور أن معناه: والمرأة من صاحبها، ففيه اكتفاء، وإنما ذُكرت بوصف الصاحبة الدال على القرب والملازمة دون وصف الزوج؛ لأن المرأة قد تكون غير حسنة العشرة لزوجها، فلا يكون فراره منها كناية عن شدة الهول، فذكر بوصف الصاحبة..

وقد اجتمع في قوله: ﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ إلى آخره أبلغ ما يفيد هول ذلك اليوم بحيث لا يترك هوله للمرء بقية من رشده؛ فإن نفس الفرار للخائف مسبة فيما تعارفوه؛ لدلالته على جبن صاحبه، وهم يتعيرون بالجبن، وكونه يترك أعزّ الأعزّة عليه مسبّة عظمى»[1].

وفي هذه الآية تحذير من الاغترار بكثرة الأولاد والعشائر والإخوان والعجب بهم. قال الغزالي: «كيف يعجب بهم وأنهم سيفترقون عنه إذا مات، فيدفن في قبره ذليلًا مهينًا وحده، لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم ولا عشير، فيسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب والديدان، ولا يغنون عنه شيئًا وفي أحوج أوقاته إليهم، وكذلك يهربون منه يوم القيامة ﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾ الآية. فأيّ خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك؟ وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلى الصراط إلا عملك وفضل اللّه تعالى؟

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٣٥-١٣٦).

فكيف تتكل على من لا ينفعك، وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك وموتك وحياتك»[١].

قوله: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾: **قال أبو السعود**: «هذا استئناف وارد لبيان سبب الفرار، أي: لكل واحد من المذكورين شغل شاغل، وخطب هائل يكفيه في الاهتمام به»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر أهوال يوم القيامة

* عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**تحشرون حفاة عراة غرلًا**»، فقالت امرأة: أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «**يا فلانة! ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾**»[٣].

* عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**يبعث الله عز وجل الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلًا**»، قال: فقالت عائشة: يا رسول الله! فكيف بالعورات؟ قال: **﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾**»[٤].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**تُحشرون حفاة عراة غرلًا**، قالت عائشة رضي الله عنها، فقلت: يا رسول الله! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: **الأمر أشد من أن يهمهم ذاك**»[٥].

★ **غريب الحديث:**

غُرلًا: غير مختونين.

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٧٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ١١٣).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ: الترمذي (٥/ ٤٠٣/ ٣٣٣٢) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (٦/ ٥٠٦-٥٠٧/ ١١٦٤٧)، والحاكم (٢/ ٢٥١-٢٥٢) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٨٩)، والنسائي (٤/ ٤٢١/ ٢٠٨٢)، والحاكم (٤/ ٥٦٤) وصححه على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي.

(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٣)، والبخاري (١١/ ٤٥٩-٤٦٠/ ٦٥٢٧) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٩٤/ ٢٨٥٩)، والنسائي (٤/ ٤٢١/ ٢٠٨٣)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٩/ ٤٢٧٦). وأخرجه من وجه آخر: النسائي (٤/ ٤٢١/ ٢٠٨٢) ولفظه: «يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلًا، فقالت عائشة: فكيف بالعورات؟ قال: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾».

★ **فوائد الأحاديث:**

قال عبد الحق الإشبيلي: «فيا لك من هول ما أعظمه! ومن كرب ما أشده! ومن خطب ما أبشعه!

وإياك أن تستبطئ هذا اليوم وأن تستبعده؛ فما سيرك إليه ببطيء، وما هو منك ببعيد وإن طال المدى وامتدت الغاية؛ فكل آتٍ قريب، وكل ما يكون سيكون، قال اللَّه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾(٢)»(٣).

قال الغزالي: «فأعظم بيوم تنكشف فيه العورات، ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات!.. فإياك أن تنكر شيئًا من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدنيا؛ فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشدّ إنكارًا لها! فأحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عاريًا مكشوفًا ذليلًا مدحورًا متحيّرًا مبهوتًا منتظرًا لما يجري عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة، وأعظم هذه الحال؛ فإنها عظيمة»(٤).

قال الشيخ ابن عثيمين: (غُرْلًا»: لم ينقص من خلقهم شيء، والغُرل: جمع أغرل وهو الذي لم يختن، أي: أن القلفة التي قطعت منه في الدنيا تعود يوم القيامة؛ لأن اللَّه يقول: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾(٥) فيعاد كاملًا لم ينقص منه شيء، يعودون على هذا الوصف مختلطين رجالًا ونساء.

ولما حدث النبي -عليه الصلاة والسلام- بذلك، قالت عائشة: يا رسول الله! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذلك». وفي رواية: «من أن ينظر بعضهم إلى بعض».

فكل إنسان له شأن يغنيه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝﴾، لا رجل ينظر إلى امرأة، ولا امرأة تنظر إلى رجل،

---

(١) يونس: الآية (٤٥).
(٢) المؤمنون: الآيتان (١١٢و١١٣).
(٣) العاقبة (ص: ١٩٥).
(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ٥١٤).
(٥) الأنبياء: الآية (١٠٤).

حتى إن ابنه أو أباه يفر منه، خوفًا من أن يطالبه بحقوق له، وإذا كان هذا هو الواقع فإنه لا يمكن أن تنظر المرأة إلى الرجل، ولا الرجل إلى المرأة، الأمر أشد وأعظم»[١].

*** عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش، فلا أدري أكذلك كان أم بعد النفخة»[٢].**

*** فوائد الحديث:**

الغرض من هذا الحديث ذكر النفخة الأولى والثانية، وأنها من أهوال يوم القيامة، وقد ذكر ابن جرير وبعض المفسرين -رحمهم الله- في تفسير (الصاخة) أنها النفخة الآخرة للبعث، يقول عبد الحق الإشبيلي: «اعلم -رحمك الله- أنه إن لم تشق سمعك النفخة الأولى في الصور لهلاك هذا المعمور، فلا بد أن تشق سمعك النفخة الثانية لبعثرة القبور، وقيام الخلائق ليوم النشور، وتحصيل ما في الصدور؛ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[٣]، ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾[٤]، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾[٥]، ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾[٦]، فناهيك من صيحة يقوم لها الأموات، ويحيا بها العظام الرفات، وحسبك من هدّة تنهدّ لها الجبال

(١) شرح الواسطية (٢/ ١٣٣-١٣٤).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٧٠٨/ ٤٨١٣) هكذا مختصرًا، وأخرجه بأطول من هذا: أحمد (٢/ ٢٦٤)، ومسلم (٤/ ١٨٤٣-١٨٤٤/ ٢٣٧٣)، وأبو داود (٥/ ٥٣/ ٤٦٧١)، والترمذي (٥/ ٣٤٨/ ٣٢٤٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٨/ ١١٤٥٧).

(٣) سورة الزلزلة.

(٤) الواقعة: الآيات (١-٦).

(٥) الحاقة: الآيات (١٣-١٨).

(٦) التكوير: الآيات (١-٥).

وتعود كالكثيب المهيل من الرمال، كما قال ﷻ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾[1]، ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾[2]، ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾[3].

هذا وأهوال لا بد لك من مكابدتها، وأحوال لا بد لك من مشاهدتها، يخرج سهمك فيها بما خرج، ويلج بك سعيك منها فيما يلج، فإما بنزول في درك، وإما بارتقاء في درج.

وقد صح هذا عندك، فماذا أعددت له؟ وثبت في نفسك، فبماذا تستقبله؟ وماذا تقوله أو ماذا تفعله؟ لطال ما دعاك الداعي فتصاممت، ونصحك النصيح فتعاميت، وذكّرك المذكّر فتناسيت، فقد وقفت على العيان مما كان عرضه عليك بالأمس البرهان وجاءك به الرسول وخاطبك به القرآن، فهل من رجعة أو سبيل اليوم إلى استعمالك تلك الدعوة؟ هيهات! طمعت في غير مطمع، وسمعت ما لا يسمع، إن كنت تريد أن تعود إلى الدنيا أو تركع فتفكر الآن في نفسك وكونك في قبرك إذا سمعت انشقاق الأرض من فوقك، ووقع ذلك الصوت الهائل في سمعك، صوت تنصدع له الأكباد لو أذن لها في الانصداع، وتنقطع له القلوب لو أذن لها في الانقطاع، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢﴾[4] »[5].

* عن أبي هريرة في حديث الشفاعة، وفيه أن كُلًّا من آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى يقولون: «**نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري**»[6].

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث شدة هول يوم القيامة، وأنه لا يملك أحد لأحد شيئًا، بل كل امرئ ينظر في أمر نفسه غير مبالٍ بغيره؛ لعظم الخطب وشدة الأمر. **يقول عبد الحق الإشبيلي** وهو يتحدث عن أهوال القيامة: «وينادي الأنبياء والصديقون والأولياء:

---

(١) المزمل: الآية (١٤).
(٢) القارعة: الآيتان (٤و٥).
(٣) الرحمن: الآية (٣٧).
(٤) ق: الآيتان (٤١و٤٢).
(٥) العاقبة (ص: ١٨٨).
(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٥)، والبخاري (٨/ ٥٠٤/ ٤٧١٢)، ومسلم (١/ ١٨٤-١٨٦/ ٣٢٧)، والترمذي (٤/ ٥٣٧-٥٣٨/ ٢٤٣٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٨-٣٧٩/ ١١٢٨٦).

نفسي نفسي! كل نفس قد أفردت لشأنها ، وتركت لما بها ، وظن كل إنسان أنه هو المأخوذ وأنه هو المقصود، وذهلت العقول، وطاشت الألباب، وتحيرت الأذهان، وفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، واشتغل بشأنه الذي يعنيه ، وسئل عن جميع أمره سره وجهره ، دقيقه وجليله ، كثيره وقليله ، وسئل عن أعضائه عضوًا عضوًا وجارحة جارحة ، وعن شكره عليها ، وهل أدّى حق اللّه فيها ، وظهرت القبائح ، وكثرت الفضائح ، وبدت المخازي ، واشتهرت المساوي ، وتركك الأهل والأقربون ، ولم ينفعك مال ولا بنون ، وأقبلت تجادل عن نفسك ، وتخاصم عنها ، وتطلب المعاذير لها ، إذ قد أسلمت وأفردت ، واشتغل عنك كل إنسان بنفسه ، وترك ما حل بك لما حل به»[1] .

* * *

(١) العاقبة (ص: ٢١٥-٢١٦).

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

★ غريب الآية:

مسفرة: مشرقة مضيئة.

غبرة: أي: غبار ودخان.

قترة: سواد وظلمة، وذلة وشدة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: يكون الناس هنالك فريقين، وجوه مسفرة، أي: مستنيرة ضاحكة مستبشرة، أي: مسرورة فرحة، من سرور قلوبهم قد ظهر البشر على وجوههم، وهؤلاء أهل الجنة»[١].

قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾: قال الرازي: «قال المبرد: الغبرة: ما يصيب الإنسان من الغبار، وقوله: ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي: تدركها عن قرب، كقولك: رهقت الجبل: إذا لحقته بسرعة، والرهق: عجلة الهلاك، والقترة: سواد كالدخان، ولا يرى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه، كما ترى وجوه الزنوج إذا اغبرّت، وكأن اللّٰه تعالى جمع في وجوههم بين السواد والغبرة، كما جمعوا بين الكفر والفجور، واللّٰه أعلم»[٢].

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾: قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هؤلاء الذين هذه صفتهم يوم القيامة هم الكفرة باللّٰه، كانوا في الدنيا الفجرة في دينهم، لا يبالون ما أتوا به من معاصي اللّٰه وركبوا من محارمه، فجزاهم اللّٰه بسوء أعمالهم ما أخبر به عباده»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٥٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ٦٦).

(٣) جامع البيان (٣٠/ ٦٣).

قال ابن عاشور: «وأتبع وصف الكفرة بوصف الفجرة مع أن وصف الكفر أعظم من وصف الفجور لما في معنى الفجور من خساسة العمل، فذكر وصفاهم الدالآن على مجموع فساد الاعتقاد وفساد العمل»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٣٨).

فهرس الموضوعات

سورة الجن

سورة المزمل

سورة المدثر

سورة القيامة

سورة الإنسان

سورة المرسلات

سورة النبأ

سورة النازعات

سورة عبس

* * *